
الطبعة الثالثة
الدكتور الشيخ
عدنان فرحان آل قاسم
«أبو أنس»
دروس في
السيرة النبوية
منهج تحليلي لدراسة أحداث السيرة النبوية
واستلهام المعطيات والدروس والعبر منها
العهد المكي
قدم له
العلامة الشيخ باقر شريف القرشي
دار السلام
السيرة
العهد المكي
١



دروس

في السيرة النبوية

دُرُوس
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

طّبعة جديدة
مصَحَّحةٌ وَمنقّحَةٌ وَمَزِيدة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

للتواصل مع المؤلف:
العراق 009647810957670
009647901849809
ايران 00989121536411
aboanasir@yahoo.com

دار السلام
بيروت - لبنان
لبنان : 009611472192 -009613461595
العراق : 009647802150376
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

دُرُوس
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

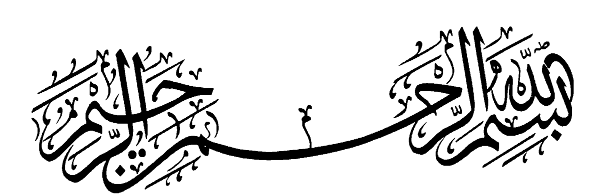
مَنْهج تحليليّ موضوعيّ لدراسة أحداث السِّيرة النَّبويَّة
وَاستلهام المعطيات وَالدُّروس وَالعبر منها

العَهْدُ المكيّ

الدّكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم
« أبو أنس »

قدّم له
العلّامة الشّيخ باقر شريف القرشيّ

دار السّلام
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم الكاتب الكبيرالعلامة الشيخ باقرشريف القرشي

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله تعالى منزل الكتاب هدى ورحمة.

ونفحات رحمة الله تعالى لعبده ورسوله محمدﷺ صانع الحضارات ومؤسس حقوق الإنسان.

وتحيات معطرة بالولاء الخالص نرفعها إلى أئمة الهدى ومصابيح الدجى ودعاة التوحيد والحجة في الأرض.

وبعد: فإن من أهم ما عنى به النبيﷺ في رسالته الخالدة نشر العلم وإشاعته بين الناس وقد جعل طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقال: «أطلب العلم ولو في الصين».

والعلم الذي فرض النبيﷺ طلبه على أمته شامل لجميع العلوم على سعتها؛ ومن بين هذه العلوم دراسة التاريخ، وتقديم ما فيه من العبر والعظات إلى الناس؛ والوقوف على ما منيت به الأمة من الأحداث الجسام التي مزقت وحدتها وأوقعتها في شرٍ عظيمٍ.

وفيما أحسب إن أهم دراسة معطاة هي دراسة حياة الرّسول المنقذ العظيم

وما رافقها من الأحداث؛ فقد أحيطت بهالة من الغموض والتعتيم! وعلى الطلائع الواعية في العالم الإسلامي دراستها بدقة ووعي وموضوعية .

وقد انبرى مشكوراً سماحة الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم (حفظه الله) إلى كتابة التاريخ من سيرة الرّسولﷺ بمنهج تحليلي رائع، وأمانة في نقل الأحداث. وفيما أُحسب أن هذا أول جهد أُلِفَ عن حياة الرسولﷺ وهو جهدٌ شاق يستحق التقدير، والتكريم، ويحتاج إليه كل باحث في الشؤون الإسلامية.

وقد راجعت بعض فصوله فوجدتها حافلة بالموضوعية والشمولية وإبطال بعض الموضوعات التي خلط بها التاريخ الإسلامي. كما إن سيادة الدكتور عدنان قد دل على وضعها.

وإني أبارك له هذا الجهد الممتع متمنياً له التطور والإبداع، وأن يُتحف المكتبة الإسلامية بمثل هذا التراث الرائع.

إنه تعالى ولي القصد التوفيق.

باقر شريف القرشي

١/ذي القعدة/ ١٤٣١هـ

النجف الأشرف

مقدمة المؤلف

الحمد لله ربّ العالمين و الصَّلاة والسَّلام على سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطَّاهرين.

وبعد:

فهذه باقة من الدروس دونّاها بشكل منهجي تحليلي لدراسَة السِّيرة النَّبويّة وأحداثها المتفق عليها بين المؤرخين والمحدثين وكتّاب السيرة والمغازي. وهي ثمرة عملية لبعض المدوَّنات التي سبق وأن دونّاها لتدريسها في بعض المعاهد والمدارس العلمية، وهو الأمر الذي جعلنا نعيش مع سيرته عملياً في تفاصيلها، الأمر الذي دعانا أيضاً إلى إعادة النظر في هذه المدوَّنات لتنظيمها منهجياً وضمن وحدات دراسية مركّزة ومتناسقة تستوعب - قدر الإمكان - أحداث السيرة النبويَّة في عهديها المكي والمدني.

وقبل الدخول في الأبحاث الأساسية لأحداث السيرة لابدّ لنا من أن نشير في هذه المقدّمة إلى بعض النقاط:

أولا: أهمية البحث:

تأتي أهمية دراسة السيرة النبوية من أهمية القدوة والأُسوة في حياتنا العملية والإيمانية، فلابدّ لنا من سبر أحداث هذه السيرة الغنية في تجاربها وأحداثها، والمعبّرة في دلالاتها ومعانيها، والحافلة بدروسها ومعطياتها، لنقتبس منها المقوِّمات الأساسية لبناء شخصيتنا الإسلامية في كافة أبعادها ومعالمها، مقتفين

بذلك أثر الرَّسولﷺ وهديه.

بالاضافة إلى ذلك فإنا نجد في الخطوط العامة لسيرته كلَّ المفاصل الحركية لبناء الدولة والمجتمع في الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية والفكرية. . . إلى جانب الأُمور الفقهية والتشريعية والعقائدية، حيث جاءت كلُّ هذه الأُمور ضمن سياق سيرته مؤطَّرة بإطار من القيم الأخلاقية والتربوية العالية.

فسيرتهﷺ سيرة شاملة تشمل كلَّ جوانب الحياة، ويجد فيها كلُّ إنسان وفي كل جيل من أجيال البشرية ما يبتغيه من سبل الهداية والرشاد والنور والاقتداء.

ولهذا كلّه، ينبغي أن تدرس سيرته دراسة منهجية علمية، فكانت هذه المحاولة لدراسة السيرة النبوية، التي وقفنا فيها عند أحداثها، وتحليل دلالاتها واستلهام معطياتها.

ثانياً: الهدف من البحث:

لم يكن غرضنا ونحن ندون دروس السيرة النبوية أن نستوعب كل الجزئيات والحوادث التي رافقت النبيﷺ وصحبه المنتجبين خلال سنيّ حياته المعطاء، وإنما استهدفنا الإحاطة بأهم الأحداث والوقائع المفصلية في حياة الدعوة الإسلامية متوخّين منها المعطيات والدروس والعبر والعظات، بعيداً عن الجنوح إلى ما دونه بعض أصحاب الخيال القصصي الأُسطوري الكاذب والذي عرف بين المؤرخين والمحدثين بالإسرائيليات.

ثالثاً: الدراسات السابقة:

لقد حظيت سيرة الرَّسول الأكرمﷺ بعناية المؤرخين والمحدثين فعكفوا على جمع أحداث السيرة من النصف الأول للقرن الأول للهجرة،

وقد وصلتنا بعض مدوّنات السيرة التي يعود تأريخها إلى القرن الأول والثاني من الهجرة، ولا زالت العناية قائمة بكتابة وجمع السيرة إلى يومنا هذا، حيث بذلت جهود كبيرة وشاقة وموفقة في هذا المجال، وقد أفردنا بعض الدروس للحديث عن بعض هذه المدونات والتي تشكل المصادر الأساسية للسيرة، وبَيَّنّا المناهج التي انتهجها وسار عليها أُولئك الكتّاب.

وهنالك أيضاً بعض الدراسات الحديثة للسيرة النبوية، والتي حاول أصحابها التقيد بالمنهج العلمي الحديث في تدوين السيرة، وبيان معالمها الأساسية.

ولكن رغم الجهود المُضنية التي بذلها المهتمّون بكتابة السِّيرة إلاّ أننا لا يمكننا أن نأخذ بكل ما كُتِب ودُوِّن في كتبهم على انها من المسلّمات القطعيّة التي لا نقاش فيها؛ لأننا نجد اعتماد بعض كتّاب السيرة القدماء على روايات الآحاد وعلى من لايوثق برواياتهم، وهكذا الكلام عند بعض الكتّاب المحدثين الذّين كتبوا في السِّيرة اعتماداً على ما دونه القدماء أو متأثرِّين بكتب وأبحاث المستشرقين؛ إذ حاول هذا البعض أن يقتفي أثرهم وينهج منهجهم فيما كتبوه من كتب وأبحاث معتمدين في ذلك طريقة الاستنتاج الشَّخصي وميزان الرِّضا النَّفسي الذي أدَّى بهم إلى استبعاد كلّ ما قد يخالف المألوف ممَّا يدخل في المعجزات والخوارق من سيرته ﷺ وراحوا يروّجون له صفة العبقريَّة كما فعل العقّاد في كتابه (عبقريَّة محمّد)، أو صفة العظمة والبطولة كما فعل «كاريل» في كتاب «الأبطال» في الفصل الّذي تحدّث فيه عن بطولة «محمّد».

ويُعدّ كتاب «حياة محمّد» لـ «محمد حسين هيكل» من أبرز النَّماذج لهذه الاتجاهات الغريبة في كتابة السِّيرة النَّبويّة حيث يقول بصراحة في مقدّمة كتابه: «إنّني لم آخذ بما سجّلته كتب السِّيرة والحديث. . . لأنني أجري في هذا البحث

على الطَّريقة العلميَّة الحديثة»[١]، فأخذ على طريقته العلميَّة في البحث يُؤوّل كل حادثة إعجازيَّة في القرآن، أو في السِّيرة النَّبويَّة، بما ينسجم مع الواقع المألوف.

فطَيْر الأبابيل يؤوّل بِدَاء الجُدري، والإسراء الّذي جاء به صريح القرآن يحمل على سياحة الرُّوح و عَالَم الرؤى، والملائكة الّذين أمدّ الله المسلمين بهم في غزوة بدر يؤوّلون بالدَّعم المعنوي الّذي أكرمهم الله به...، وغيرها من الأحداث، بالاضافة إلى الكثير من الملاحظات المنهجيَّة التي نبّه على بعضها الدكتور البوطي وغيره من الكتّاب وفاتهم الكثير منها[٢].

إلاّ أنّ هذه الملاحظات المنهجية لاتعني نفي كل الايجابيات التي تضمنتها هذه الكتب والدراسات، إذ اشتملت على بعض الدراسات النقدية المهمة، وعالجت بعض الشبهات بدقة، بالاضافة إلى الأُسلوب الأدبي الرفيع الذي اتصف به كتّابها.

كذلك لا يفوتنا أن نثني على الجهود التي قام بها علماؤنا الأعلام في عصرنا هذا ممّن كتبوا في السِّيرة النَّبويّة، إلاّ أنّ بعضها قد كثرت فيها الاستطرادات الواسعة والمخلَّة بمنهجية و وحدة الموضوع، و بحثت فيها كثير من الأمور الجانبيّة التي ليست لها أهميّة في سياق مفردات السيرة، كما قد نجد في بعض الموارد اعتماد بعضهم على الروِّايات من دون تمحيص لمداليلها العقائديَّة.

---

(١) هيكل - د. محمد حسين / حياة محمّد - مقدمة الطَّبعة الثَّانية: ٤٧، ط. مكتبة النَّهضة المصريَّة.

(٢) البوطي - د. محمد سعيد رمضان - فقه السِّيرة النَّبويَّة - الطَّبعة العاشرة: ٣٥، ط. دار الفكر - دمشق. وانظر كتاب: نقد كتاب حياة محمد، لـ «عبد الله القصيمي»، ومقدمة وتعليقات الكاتب «عبد الرحيم الموسوي الحصيني» من طبعة المجمع العالمي لأهل البيت لكتاب «حياة محمد».

الطَّريقة المنهجيَّة في إعداد هذه الدُّروس:

لكل عِلم من العلوم موضوعه الخاص، و لكل موضوع طريقته الخاصّة في كيفيّة الإعداد والتَّرتيب؛ وبناءً على هذا فقد اتّبعنا في هذه الدروس منهج التسلسل الزمني للأحداث، وهو المنهج الذي اعتمده معظمُ الباحثين القدماء والمعاصرين منهم، إلى جانب التزام بعضهم بمنهج التقسيم الموضوعي لأحداث السيرة ووقائعها.

كذلك اعتمدنا المنهجية التحليلية في سبر الأحداث والوقائع، مع الأخذ بنظر الاعتبار جانب الاختصار غير المخلّ، مع التَّوسع في بعض الحوادث والوقائع إن استدعى الأمر ذلك.

ويمكن إجمال الطريقة التي اتّبعناها في إعداد هذه الباقة من دروس السِّيرة النَّبويّة المطهّرة بالنقاط التالية:

• حاولنا ونحن نعد هذه الدُّروس الرجوع إلى ما يمكن أن نحصل عليه من المصادر الأساسيّة كسيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وتأريخي الطبري وابن الأثير والسيرة الحلبيّة وغيرها من مصادر السيرة، وكذلك رجعنا إلى المصادر الثّانوية في هذا المجال وهي كثيرة أيضاً، سواء منها ما كُتِبَ مِن قِبَل كُتّاب مسلمين أو ما كتبه بعض المستشرقين أيضاً.

• مراجعة المصادر الأوّلية والثانويّة الّتي تخصّ الموضوع واقتباس المعلومات المناسبة منها، وغالباً ما تكون هذه المعلومات متفرّقة في أكثر من مصدر ومرجع من مصادر ومراجع السِّيرة النَّبويّة القديمة منها والحديثة، وقد نستعين ببعض المراجع اللُّغوية وكتب التَّفسير والحديث والأدب والتَّراجم والعلوم الأُخرى إذا اقتضت الضرورة ذلك.

• الاستشهاد بالآيات القرآنية وبالأحاديث الشَّريفة وبالنُّصوص المختارة بما

يتناسب مع الموضوع المبحوث معتمدين في ذلك كتب الحديث والمصادر المعتبرة.

● بعد تجميع المعلومات المناسبة حاولنا تنظيمها و التَّوفيق بينها؛ وذلك بضمّ المتشابه إلى بعضه وترك الذي لا مجال له في تسلسل الموضوع، مراعين في ذلك انسياب الفكرة، وتسلسل أحداث الواقعة مع جمال الأُسلوب بما يضمن الإثارة الوجدانيَّة والتَّشويق ودقّة التَّصوير لأيّ جانب من جوانب شخصيّة الرسول الأعظمﷺ.

● تبدأ هذه الدُّروس بكتابة هيكل عام للموضوع؛ وذلك بإبراز عنوان للدَّرس مع المحاور التي تبحث فيه برؤوس نقاط متسلسلة، ثمّ بحث هذه المحاور الواحد تلو الأُخرى، مع التوقف في نهاية كلّ درس عند بعض الأحداث التي تضمنها، للتأمل في معطياتها واستخلاص الدروس والعبر منها.

وقد حاولنا جهد الإمكان الاعتناء بربط موضوع السِّيرة بالواقع؛ لحاجة البشريَّة إلى الاقتداء بسيرة رسول اللهﷺ لتنجو ممّا هي فيه من ضلال وزيغ وانحراف؛ ولتأخذ من سيرته الكريمة الغذاء الرُّوحي والفكري والعقائدي؛ لتنتقل بذلك من الظلمات إلى النُّور، ومن مهانة الإنسان وهدر قيمته وكرامته إلى عزّته ورفعته في الدنيا ونيل حسن ثواب الآخرة.

وأخيراً؛ لابد من الاشارة إلى أن القسم الأول من هذه الدروس - العهد المكي - وما تضمنتها من أبحاث هي في الأساس رسالة ماجستير في قسم العلوم والمعارف الإسلامية في المركز العالمي للعلوم الإسلامية «جامعة المصطفى العالمية» في الجمهورية الإسلامية الإيرانية - مدينة قم. وقد أشرف عليها الأُستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي، وساعده الأُستاذ السيّد منذر الحكيم، فيما ناقشها الأُستاذ الشيخ حسين عبد المحمدي، وذلك في عام (٢٠٠٤ م) الموافق لسنة (١٤٢٥ هـ) أجرينا بعض التعديلات عليها، وأضفنا لها القسم الثاني من سيرتهﷺ

في عهدها المدني، لتكتمل بذلك حلقات هذه السيرة العطرة المعطاءة في تسلسلها الزماني والمكاني، وليعم انتفاع طلاب العلم والمعرفة منها.

ونشير أيضاً إلى أن الجزء الأول من هذا الكتاب (العهد المكي) قد طبع أولا في صيف سنة (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م) في بيروت من قبل مؤسسة العارف للمطبوعات، وكانت عدد صفحاته (٤١٦ صفحة). إلاّ أنّ نسخ الكتاب قد احترقت بكاملها أثناء العدوان الاسرائيلي الغاشم على جنوب لبنان والضاحية الجنوبية من بيروت صيف عام (٢٠٠٦ م). فلم نحصل إلاّ على بعض النسخ القليلة من بين انقاض مكتبة مؤسسة العارف التي دفنت بكل محتوياتها تحت ركام من أنقاض البنايات.

وقد طبع الكتاب مرّة ثانية في سنة (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م) في مدينة قم من قبل المكتبة الحيدرية، بعد إجراء بعض التعديلات الفنية التي لم تطل موضوعات الكتاب فكانت عدد صفحاته (٤٨٢ صفحة).

وتعتبر هذه الطبعة الثالثة للكتاب بعد تصحيحه وتنقيحه وإضافة التوضيحات اللازمة لبعض موضوعاته. بالاضافة إلى توثيق مصادره ومراجعه السابقة، وإضافة بعض المصادر والمراجع الأُخرى إليها.

ولابدّ لي وأنا اختتم هذه المقدمة أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل، إلى كلّ من قدم لنّا يد العون والمساعدة لانجاز هذا الكتاب، وأخص بالذكر منهم فضيلة الأُستاذ فارس العامر (أبو مصعب) الذي راجع الكتاب وقوّم نصوصه وفقراته، وأبدى ملاحظات قيمة حول فصوله وأبوابه، فله مني ألف شكر وتقدير، ومن الله تعالى الأجر والثواب الجزيل.

كما أشكر الأخ العزيز المهذب السيّد حسن علي أشرف الذي بذل جهده في صفّ حروف الكتاب واخراجه الفني. وقبل ذلك كلّه أشكر أعضاء اللجنة

المشرفة على الأُطروحة، الدكتور عبد الجبار الرفاعي، والسيّد منذر الحكيم والشيخ حسين عبد المحمدي لما بذلوه من جهود من خلال مراجعة الأُطروحة ومناقشة فصولها، فلهم مني كل الشكر والتقدير والامتنان.

والله ولي التوفيق والتسديد

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ . . .﴾ [التوبة: ١٠٥]

﴿. . . وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

الدكتور الشيخ
عدنان فرحان آل قاسم
«أبو أنس»

الدرس الأول

المدخل إلى دراسة السِّيرة النَّبويّة

«القسم الأول»

أهمية دراسة السِّيرة النَّبويَّة

محاور البحث:

١ - تعريف السِّيرة و السُّنة لغةً و اصطلاحاً

٢ - بين السِّيرة و السُّنة

٣ - صلة الماضي بالحاضر

٤ - لماذا ندرس السِّيرة النّبويّة ؟

٥ - خصائص السيرة النبوية

• الأسئلة

أهمية دراسة السيرة النبوية

١ - تعريف السِّيرة

السِّيرة لغة:

في لسان العرب: السَّيْرُ: الذهاب، سارَ يَسيرُ سيراً وَمسيراً وتسياراً ومسيرةً وسَيرورة، وسايرهُ: أي جاراه فتسايرا.. والسَّيرة: الضربُ من السَّير، والسَّيرة: الكثير السَّير. والسِّيرة: السُّنّة. والسِّيرة: الطريقة، يقال: سارَ بهم سيرةً حسنة. والسِّيرة: الهيئة...

وفي المصباح المنير: السِّيرة: الطريقة، وسار في الناس سيرة حَسَنَةً أو قبيحةً، والجَمعُ: سير، مثل سدرة وسِدر. وغَلب اسم السِّير في ألسِّنَة الفقهاء على المغازي. والسِّيرة: الهيئة والحالة.

وجاء في المعجم الوسيط: «السِّيَرةُ: السُّنَّةُ والطريقة والحالة التي يكون عليها الإنسان و غيره.

والسِّيرة النَّبويّة، و كتبُ السّير: مأْخوذ من السِّيرة بمعنى الطريقة، وأدخِلَ فيها الغزوات و غير ذلك، ويقال قرأت سيرة فلان، أي: تأريخ حياته»[١].

السِّيرة اصطلاحاً:

وفي كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي:

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، والمصباح المنير للفيومي، والمعجم الوسيط: مادة «سير».

«السِّيَر - بكسر الأوّل وفتح الثّاني - جمعُ سِيْرة، والسِّيرة هي اسم من السّير ثم نقلت إلى الطريقة، ثم غلبت في الشّرع على طريقة المسلمين في المعامَلة مع الكافرين وغيرهما من المستأمنين والمرتدِّين وأهل الذِّمة...

وفي الشَّرع: يختص بسير النّبيﷺ في المغازي ... وسُمِّيت المغازي سيراً لأنَّ أوّل أمورها السَّير إلى الغزو، وأنَّ المقصود بها في قولنا (كتاب السّير) سير الإمام ومعاملاته مع الغزاة والأنصار والكفار»[١].

ومهما يكن من أمر فإنَّ السِّيرة في الاصطلاح تعني ذلك الفرع الخاص من فروع التأريخ الّذي عني بحياة النّبي الأكرمﷺ الخاصَّة والعامَّة.

وفي دائرة المعارف الإسلاميّة: «السِّيرة: هي التَّرجمة المأثورة لحياة النَّبي محمّدﷺ، ويظهر أنَّ الكلمة قد استُعمِلَت أوّل ما استعملت للدَّلالة على باب قائم بذاته في عنوان مؤلّف ابن هشام: «هذا كتاب سيرة رسول الله»، وثمّة شواهد أُخرى على استعمالها بمعنى الترجمة لحياة النّبي عليه الصلاة والسلام...»[٢].

ومعنى «السِّيرة» متسلسل من «السلك» أو «طريقة الحياة» اللّذَيْن تدلّ عليهما هذه الكلمة، واللّذَيْن يعدّان تطوراً طبيعياً للأصل - سَيَرَ - أي «سلك» أو «ذهب في الأرض».

وقد وردت كلمة «السِّيره» في القرآن الكريم بمعنى: «الحالة التي يكونُ عليها الإنسان وغيرهُ، غريزيّاً كان أو مكتسباً، يقالُ فلانٌ له سيرةٌ حَسَنَةٌ وسيرةٌ قبيحة، وقوله تعالى: ﴿... سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[٣] أي الحالةُ التي كانت

---

(١) التهانوي - محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ط. مكتبة لبنان - ناشرون، ط. الأُولى، (١٩٩٦ م).

(٢) الشنتاوي - أحمد وآخرون، دائرة المعارف الإسلاميَّة: ١٢ / ٤٤٠، دار الفكر - بيروت.

(٣) طه: ٢١ .

عليها من كونها عوُداً»[١].

وبتعبير واضح أنَّ الّذي نستخلصه من هذه التعاريف أنَّ السِّيرة النَّبويّة هي: طريقتهُ في الحياة، أو تأريخ حياتهﷺ.

وقد حاول الشهيد مرتضى المطهري المقارنة بين المعنى اللّغوي للسِّيرة وبين معناها الاصطلاحي ومعرفة مدى التطابق بينهما، وابتداءً يمهِّد بالمقارنة بين لفظي (السَّيْر) و (السِّيْرَة) في اللُّغة العربية حيث يقول:

«إنَّ السَّير يعني المشي، والسِّيرةُ تعني المِشْية التي هي على وزن فِعْلَة وهذه تدلّ في العربية على النوع، كقولك «جِلْسَة» التي تعني نوع الجلوس وجَلْسَة تعني المرّة عن الجلوس. فهناك اختلاف دقيق، فالسَّير يعني المشي والسِّيرة تعني طريقة المشي أو السُّلوك.

ثم يعقب بقوله فيقول: «والمهم هو معرفة سلوك النبّي وسيرته، إلاّ أنَّ ما كُتب في ذلك حتى الآن لا يدور حول السِّيرة. إنَّ ما بين أيدينا من كُتب السِّيرة إن هي إلاَّ كُتب السَّيْر لا السِّيرة، إنَّها عن مَسِيرَة النَّبيﷺ وسلوكه وطريقته الحياتيَّة».

وهذه الملاحظة جديرة بالأهتمام فما كُتب ويُكتب عن السِّيرة هو في حقيقته ترجمة لحياة النبّي محمدﷺ وتقديمها إلى المسلمين، وهذه الكتابة هي الخطوة الأولى على طريق كتابة السِّيرة بمعنى الطريقة والَّنمط، وفيما لم يتم الإحاطة بجوانب حياة النّبيﷺ لا يمكن اكتشاف الطريقة والَّنمط النَّبويّ.

والّذي يلفت الانتباه تعريف المعجم الوسيط للسِّيرة بـ «السُّنَّة» والَّتي بدورها لها من التَّحديدات المختلفة باختلاف المُصطلِحين؛ فهي عند أهل اللُّغة:

(١) الراغب الاصفهاني - الحسين بن الفضل، مفردات ألفاظ القرآن تحقيق صفوان عدنان الداودي، ط. دار التعلم دمشق.

«الطَّريقة المسلوكة، أو الطَّريقة المحمودة، أو الطَّريقة المعتادة»[١]. وتُطلق هذه الكلمة «السُّنَّة» في عُرف الفقهاء على ما يقابل البدعة، ويراد بها كلّ حكم يستند إلى أُصول الشَّريعة في مقابل البِدعَة فإنّها تطلق على ما خالف أُصول الشَّريعة ولم يوافق السُّنَّة»[٢].

أمّا السُّنة عند الأُصوليين فقد اختلفوا في مدلولها من حيث السَّعة والضِّيق مع اتفاقهم على صدقها على ما صدر عن النَّبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فكلّ ما يصدر عن النَّبيﷺ - بعد ثبوت عصمته - لابدّ أن يكون صادراً عن تشريع حكم وله دلالته في مقام التَّشريع العام إلاَّ ما اختصّ بهﷺ[٣].

وموضع الاختلاف في التَّحديد توسعة مصطلح السنة (عند علماء السنة) إلى ما تشمل سُنَّة الصحابة حيث اعتبر ما يصدر عنهم سُنَّة ويجري عليها أحكامها الخاصّة من حيث الحُجِّيّة. . . ، بينما وسَّعها الشيعة إلى ما يصدر عن أئمّتهمعليهم السلام، فهي عندهم كلّ ما يصدر عن المعصوم قولاً وفعلاً وتقريراً.

وقد استدل على حجّيّة السُّنَّة بأدلّة جَلِيَّة من الكتاب والسُّنَّة القطعيَّة والإجماع والعقل، والمناقشة في حُجّيّة السُّنَّة، أو إنكارها، مناقشة في الضَّروريات الدينيَّة وإنكار لها.

وتعتبر السُّنَّة أهمّ مصدر من مصادر الأحكام الشَّرعيَّة، ووجه الأهميَّة ناشيء من كثرة الابتلاء بها بالنسبة إلى الفقيه عند إرادة استنباط الأحكام الشَّرعيَّة وهي أكثر ابتلاءً بالنسبة إلى الأدلَّة الثَّلاثة الأُخرى الكتاب والإجماع والعقل.

---

(١) الشوكاني - محمد علي، ارشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأُصول: ١ / ٩٥، تحقيق: أحمد عزّو عناية، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م).

(٢) الجزري - ابن الأثير، النِّهاية في اللّغة مادة «بدع».

(٣) الحكيم - محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن: ١٢٢، ط. دار الأندلس - بيروت.

ولولا السُّنَّة لما اتّضحت معالم الإسلام، ولتعطّل العمل بالقرآن، ولَمَا أمكن أن يُستنبط منه حكم واحد بكلّ ما له من شرائط وموانع؛ لأنَّ أحكام القرآن لم يرد أكثرها لبيان جميع خصوصيَّات ما يتّصل بالحكم وإنَّما هي واردة في بيان أصل التَّشريع، وربّما لانجد فيه حكماً واحداً قد استكمل جميع خصوصيَّاته قيوداً وشرائط وموانعَ(١).

٢ - بين السِّيرة والسُّنَّة

بعد المقارنة بين السِّيرة والسُّنّة تتّضح لنا بعض الملامح لكلٍّ منهما نوجزها بما يلي:

أوّلاً: إنَّ السِّيرة تُحيط بجميع حيثيَّات حياتهﷺ، بدءاً من ولادته ونَسَبه وانتهاءً بوفاتهﷺ. بينما كانت عناية السُّنَّة تنصرف إلى خصوص أقواله وأفعاله وتقريراتهﷺ من حيث إنّها مصدر للتَّشريع.

ثانياً: اهتمّت السِّيرة في ضبط الأحداث التأريخية، ورُوعي فيها التَّتابع الزَّمني للأحداث، ودُوِّنت على أساس ذلك في كُتب السِّير المختلفة من قَبيل سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد، وكما هو عند الطبري وابن الأثير، ومَن كَتَب من بعدهم حذا حذوهم في هذا المجال. بينما رُتِّبت الرِّوايات الحاكية عن السُّنَّة في كتب الحديث عند الفريقين على الأبواب الفقهيّة كما هو واضح في تلك الكتب الَّتي كتبها أئمّة الحديث كالكتب الأربعة - الكافي والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب - عند أتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام؛ وكالكتب الستَّة عند أبناء السنَّة؛ والتي تعرف بكتب الصحاح والسنن والمسانيد، ورُتِّب بعضها على أسماء الرُّواة الّذين رَوَوْا

(١) المصدر نفسه: ١٢٤.

هذه الأحاديث، ولم يراع فيها التّتابع الزَّمنيّ للأحداث.

ثالثاً: هنالك شرائط وقواعد محكمة ودقيقة اشترطها العلماء للعمل بالحديث الّذي ينقله المحدِّث والّتي يستنبط منها الحكم الشَّرعي؛ فلا يُؤخذ بالروِّاية ما لم تستوفِ شرطين أساسيين هما:

١ – صحّتها من حيث السَّند.

٢ – صحّتها من حيث المتن.

ويريدون بالسَّند سلسلة الرُّواة التي تربط الحديث بمصدره الأساسي.

أمّا المتن فيريدون به النصّ الحرفيّ للحديث، وعلى هذا الأساس فهم لا يعتمدون على حديث مهما كان موضوعه ما لم يكن رجال السَّند فيه معروفين بالوثاقة أو الصِّدق.

وهكذا نشأ إلى جانب الدِّراسات الفقهيَّة عِلْم الرِّجال وعِلْم الدِّراية، وكان بإمكان هذا المنهج العلميّ في دراسة الحديث أن يعطي ثماره الطَّيبة في جميع المجالات لولا أنَّ الأقدمين اقتصروا في ممارسته على مجال الحديث والرِّواية في الفقه والشَّريعة بشكل عامّ، أمّا التاريخ فلم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث فيه وتحقيقه ليصل إلى أيدينا بشكل أدقّ وأنصع من الشَّكل الّذي هو عليه الآن؛ ولذا قلَّت العناية في بعض الكتب التأريخية بذكر الأسانيد بشكل متَّصل على العكس من كتب الحديث.

رابعاً: على الرَّغم من اهتمام المسلمين المنقطع النَّظير بتدوين السِّيرة النَّبويَّة بشكل خاص والتأريخ بشكل عام، بنحو قد لا تجد له نظيراً لدى الأُمم الأُخرى؛ فإنَّ تدوين السِّيرة قد تأثّر – إلى حدٍّ ما – عند بعض كتّاب السيرة بالأهواء السِّياسيَّة والعصبيّات المذهبية المختلفة...، مما قد توقع الباحث في سيرته ﷺ في بعض الاخطاء المنهجية نتيجة لوجود بعض

الأحداث المنسوبة للنَّبيﷺ والَّتي لا تتميَّز فيها الحقيقة من الزَّيف والحقّ من الباطل، فلابدّ من الدقة والحذر والتأني والتأمل في بعض أحداث السيرة وعدم الجزم بمضامينها إلاَّ بعد تقييم النُّصوص واتّخاذ المبادئ الإسلاميّة والقرآنية واتّخاذ شخصيَّة وروحيَّة وأخلاق النَّبي أساساً لذلك[١].

وقد ابتليت السُّنَّة بهذا الدَّاء أيضاً فقد تأخر تدوين الحديث النَّبويّ لأسباب سياسيَّة بحتة إلى ما بعد المائة الأُولى من الهجرة وصدر كبير من المائة الثَّانية!! وكان من آثار هذا التَّأخير أن اتّسعت أبواب الرِّواية وفاضت أنهار الوضع بغير ما ضابط ولا قيد، حتى لقد بلغ ما رُوي من الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف، لا يزال أكثرها منبثّاً بين تضاعيف الكتب المنتشرة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[٢].

وكان لوضع الحديث والكذب على رسول اللهﷺ أسباب كثيرة لسنا في مجال البحث عنها واستقصائها[٣].

٣ - صلة الماضي بالحاضر

في خِضمِّ الصِّراع الحضاريّ الّذي يخوضه الإنسان والّذي بدوره له أشكال وأساليب متعدِّدة، تحتاج البشرية إلى دراسة التأريخ دراسة موضوعيّة مستفيضة؛ إذ من البديهيّ أنَّ حياة المجتمعات البشريَّة مترابطة بعضها ببعض، وتتّصل كل فترة منها بالأُخرى بنحو من الارتباط، فكثيراً ما نجد للحدث

---

(١) للتوسع انظر: العاملي - جعفر مرتضى، الصّحيح من سيرة النّبي: ١ / ٢٧٩ وما بعدها، طبعة دار الحديث.

(٢) أبورية - محمود، أضواء على السُّنة المحمّديّة: ١١٨، أُفست الطبعة الخامسة (د. ت) نشر البطحاء - قم.

(٣) للتوسّع انظر المصدر نفسه: ١٢١ - ١٢٦ .

التأريخي الّذي كان قبل ألف سنة مثلاً آثارا بارزة حتى في واقع حياتنا اليوميّة الحاضرة، ويكون له الأثر الكبير في وضع الأُمّة وفي حياتها وفي تصرفاتها، بل وفي مفاهيمها وعواطفها فضلاً عمّا يحدث من تأثير على المستوى الدِّيني والأدبيّ والعِلميّ والسِّياسيّ والعلاقات الاجتماعية، وإن كان تأثير الأحداث يختلف شمولاً من أُمّة إلى أُخرىٰ ومن شعب إلى آخر. هذه هي صلة الماضي بالحاضر والغاية من تدوين التأريخ.

ومهمَّة التأريخ هي أن يعكس لنا بأمانة ودقّة حياة الأُمّة في الماضي وما مرَّت به من أحوال وأوضاع وما تعرَّضت له من أزمات فكريَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة؛ ولهذا عنيت الأُمم على اختلافها بالتأريخ تدويناً ودرساً وبحثاً وتمحيصاً وتعليلاً، فهي تريد أن تتعرَّف من خلال ذلك على واقعها الّذي تعيشه لتستفيد منه في مستقبلها الّذي تقدم عليه ولتكشف عن عوامل رقيّها وانحطاطها، ولتنطلق من ثَمّ لبناء نفسها والإعداد لمستقبلها على أُسس متينة وسليمة[١].

أمّا الهدف من دراسة التأريخ فيمكن إجماله بمايلي:

أوّلاً: أخذ العبرة والموعظة:

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾[٢].

حيث نجد في القرآن الكريم، ومن خلال ما فصّل الله تعالى لنبيّه ﷺ من قصص الأُمم الماضية، وما بلغ بهم شركهم وفسقهم وجحودهم لآيات الله واستكبارهم عن قبول الحقّ الذي كان يدعوهم إليه أنبياؤهم وساقهم إلى الهلاك وعذاب الاستئصال، ثمّ إلى عذاب جهنّم في يوم مجموع فيه الناس. نجد في

---

(١) الصَّحيح من سيرة النّبي: ١ / ١٠، بتصرّف.

(٢) يوسف: ١١١ .

ذلك عبرة لنا حيث نستيقن أنَّ الشِّرك بالله والفساد في الأرض لا يهدي الإنسان إلاّ إلى الهلاك والبوار فعلينا أن نلتزم طريق العبوديَّة والانقياد لله تعالى.

ثانياً: التَّعرُّف على السُّنن الإلهيَّة في الأُمم الماضية:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

والسُّنن جَمْع سُنَّة، وهي الطريقة المسلوكة في المجتمع والأمر بالسَّير في الأرض لمكان الاعتبار بآثار الماضين، من الأُمم الغابرة والملوك والفراعنة والطُّغاة، حيث لم تنفعهم شواهق قصورهم ولا ذخائر كنوزهم ولا عروشهم ولا جموعهم، وقد جعلهم الله أحاديث يعتبر بها المُعتبِرون ويتفكّه بها المغفَّلون.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى يبيّن لنا في القرآن الكريم طرُق حياة السَّابقين من الأنبياء والأُمم الصَّالحة، والجارين في الحياة الدنيا على مرضاة الله الحائزين به سعادة الدنيا والآخرة، كذلك يبيّن لنا السُّنن السَّابقة من حقّ أو باطل لنكون على بصيرة بالحقّ منها وندع الباطل.

وفي وصية الإمام عليّ عليه السلام الّتي كتبها لولده الحسن عليه السلام إشارة إلى هذين الهدفين وغيرهما من دراسة التأريخ، فهو عليه السلام يأمر ولده بالاطّلاع على مجريات الأحداث في التأريخ والتأمّل في أوضاع الأُمم السَّابقة ورجالاتها وتأريخ وأسباب نجاحها وفشلها فيقول:

---

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) النساء: ٢٦.

(أَحْي قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ باليَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بَالْفناءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيا، وَحَذِّرهُ صَوْلَةَ الدّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ الليَالِي وَالأيَام، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأوّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيما فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأيْنَ حَلُّوا وَنزَلُوا، فَإنّكَ تَجِدُهُمْ قَد انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبّةِ، وحَلُّوا دَارَ الغُرْبَةِ، وكأنّكَ عَنْ قَلَيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَصْلِحْ مَثْواكَ وَلاَ تَبعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ)[1].

وهذا النصّ يدلّ بوضوح على مدى عناية الإمام عليّ عليه السلام الفائقة بالتأريخ واهتمامه البالغ بشأنه، وأيضاً هذا النصّ يحملنا على الإعتقاد بأنَّ الإمام عليه السلام تحدَّث كثيراً عن المسألة التأريخيَّة في توجيهاته السياسيَّة وتربيته الفكريَّة لمجتمعه ولرجال إدارته ولِخواص أصحابه.

٤ – لماذا ندرس السِّيرة النَّبويَّة؟

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2].

ومن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها الَّرسول الأكرم محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم:

(فَهُو إمَامُ مَن اتقَى وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى. سِراجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ. وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ. سِيرَتُهُ الْقَصْدُ. وَسُنّتُهُ الرُّشْدُ. وَكَلامُهُ الْفَصْلُ. وَحُكْمُهُ العَدْلُ. أَرْسَلَهُ عَلى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ وَهَفْوَة عَنِ الْعَمَلِ، وَغَباوَة مِنَ الأُمَمِ)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٣٩٢ ترتيب صبحي الصالح.

(٢) الاحزاب: ٢١ .

(٣) نهج البلاغه: خطبة ٩٤، ترتيب صبحي الصالح.

وعنه عليه السلام : (فتأسّ بنبيِّك الأطيب الأطهر فإنّ فيه أسوة لمن تأسَّى وعزاءً لمن تعزّى وأحب العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتصُّ لأثره. . .)(١).

هذه النُّصوص وغيرها ترشدنا إلى الغرض من دراسة سيرة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فليس الغرض من دراسة السِّيرة النَّبويَّة مجرّد الوقوف على الوقائع والأحداث التأريخيَّة وإنّما الغرض منها أن يرى المسلم المفاهيم الإسلاميّة في مجموعها متجسِّدة في حياته صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن فهمها كمبادئ وقواعد وأحكام مجرَّدة في الذِّهن.

أي أنَّ دراسة السِّيرة النَّبويَّة ليست سوى عمل تطبيقي يُراد منه الاطلاع على تجسيد المفاهيم والقِيَم والأخلاق الإسلاميّة كاملة في مَثَلِها الأعلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم للتأسّي به والسير على نهجه.

وإن كان ثمَّة فلسفة وتعليل لمبدأ القُدوة والأُسوة في حياة الإنسان فهذه هي فلسفته وهذا هو تعليله.

وفي سيرة النبي الأعظم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلّ خطوة من خطوات حياته، في مولده ومبعثه، في هجرته ووفاته، في كلّ كلمة قالها لينير الدَّرب لنا نحو مستقبل قوي زاهر، وفي كلّ خطوة خطاها ليعبِّد لنا طريق العزَّة والكرامة، وفي كلّ جهاد خاضه في سبيل تركيز قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله، في كلّ ذلك وفي غيرها ممَّا يتَّصل بحياته وسيرته العطرة، مجالات واسعة للدروس والعِبر لو أحسنَّا دراستها والاعتبار بها.

وإذا أردنا أن نُجزِّئ هذا الغرض من دراسة سيرة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ونصنِّف أجزاءه فإنَّ من الممكن بيانها في الأهداف التفصيليّة التالية:

١ - فَهمُ شخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم النّبويَّة من خلال حياته و ظروفه الّتي عاش فيها،

---

(١) المصدر نفسه: خطبة ١٦٠ .

فنتعرَّف بذلك على أنَّ محمّداًﷺ لم يكن مجرّد عبقريّ سَمَت به عبقريته بين قومه ولكنَّه قبل ذلك رسول أيَّده الله بوحي من عنده وتوفيق من لَدُنه.

٢ – أن يجد الإنسان المسلم بين يديه صورة للمَثَل الأعلى في كلّ شأن من شؤون الحياة الفاضلة كي يجعل منها دستوراً يتمسَّك به ويسير عليه، ولا ريب أنَّ الإنسان مهما بحث عن مَثَل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنّه واجد كل ذلك في حياة رسول اللهﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال؛ ولذا جعله الله قدوة للإنسانيَّة كلّها؛ إذ قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . .﴾[١].

٣ – أن نعيش مع سيرتهﷺ التَّجربة الإسلاميّة الأولى للدَّعوة إلى الله ونلتمس بوضوح الأُسس التي ارتكزت عليها، والأساليب التي جرت فيها، وكيف كان صمود المسلمين الأولين وقوَّتهم الرَّوحيَّة وتضحياتهم في سبيل الله واستهانتهم بالقُوى الباغية الظالمة الَّتي كانت تضطهدهم وتضطهد عقيدتهم.

٤ – أن نتعلَّم من سيرتهﷺ أساليب وطُرق الدَّعوة إلى الإسلام وكيفيّة تبليغها وإيصالها إلى الناس جميعاً انطلاقاً من هَدْي القرآن الكريم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ . . .﴾[٢].

ولكي نكون على بيّنة وبصيرة من أمرنا ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[٣].

٥ – أن نتعلَّم من سيرته عامّة، ومن هجرته إلى الطَّائف ثمّ إلى المدينة خاصّة، درساً عظيماً يتلخَّص في اننا إن خسرنا موضعاً أو خندقاً من خنادق العمل فلا ينبغي أن يصيبنا اليأس وتشلّ حركتنا، وإنَّما ننطلق برسالة الله وتعاليم السَّماء

---

(١) الاحزاب: ٢١ . وانظر: البوطي – فقه السيرة: ١٧ .

(٢) النحل: ١٢٥ .

(٣) يوسف: ١٠٨ .

في أرض الله العريضة لنجد لنا موضعاً جديداً وخندقاً بديلاً مُستَلهِمينَ ذلك من المفهوم الإسلاميّ للهجرة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً . . .﴾(١)، ومن التَّجسيد الحيّ لهذا المفهوم من خلال هجرته ﷺ.

٦ - أن نأخذ من سيرته المباركة أحكامنا الشرعيّة الفرعيّة؛ فالسُّنَّة النَّبويَّة - وكما أسلفنا - أهمّ مصدر من مصادر الأحكام الإسلاميّة ومنها يستنبط الفقهاء الأحكام والقوانين المتعلّقة بجوانب الحياة المختلفة العباديَّة والتِّجاريَّة والاقتصاديَّة والأحوال المدنيَّة وغيرها من النُّظم الإسلاميَّة عملاً بقوله تعالى: ﴿. . . وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ . . .﴾(٢).

٧ - إنَّ الإطّلاع على السِّيرة النَّبويَّة يُمكِّن الإنسان المسلم من السَّير نحو التَّكامل التَّربويّ والأخلاقيّ؛ إذ يعيش مع سيرة النَّبي ﷺ الّذي جسَّد الأخلاق والقيم الإنسانيَّة في كلّ مفردة من مفردات حياته الكريمة؛ إذ كان «خُلُقُهُ القرآن» وكيف لا يكون كذلك وقد رُوي عنه قوله: «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي».

٨ - أن نعرف ومن خلال سيرته أُسس ومنهجيَّة ومُرتكزات الدَّولة الإسلاميَّة وبناء المجتمع الإسلامي لنبني مجتمعنا ونظامنا السِّياسي على أُسس الإسلام وبالاقتداء بدولة الإسلام الأولى الّتي شيَّد بنيانها النَّبي الأكرم ﷺ(٣).

وهنالك أهداف تربوية وأخلاقية وعقائدية كثيرة يمكن أن نستوحيها من خلال دراسة السيرة النبوية والتأمل في أحداثها ووقائعها، ولهذا يجب أن نحرص على دراسة واستيعاب هذه السيرة والأخذ من عطائها الذي لا ينضب،

---

(١) النساء: ١٠٠ .

(٢) الحشر: ٧ .

(٣) الموسوي - هاشم، سيرة محمّد رسول الله ﷺ: ٧ - ٨، طبعة منظمة الاعلام الإسلامي - طهران، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

واستخلاص المعطيات والدروس والعبر منها.

كما يجب أن نعمّم دروس السيرة في جميع مفرداتها في مناهجنا الدراسية، وضمن منهجية حديثة في عرض الأحداث وتبويبها، لينتفع منها طلاب المعرفة بعد اطلاعهم عليها.

ولعل في الرواية الواردة عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ما يرشد إلى هذه التوصية، وهي قوله عليه السلام : «كُنّا نعلّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله كما نعلّم السورة من القرآن»[١].

٥ - خصائص السِّيرة النَّبويَّة

إنَّ سيرة الرَّسول صلى الله عليه وآله هي أغنى ثروة في تأريخنا الإسلاميّ وفي تأريخ البشريَّة وإنَّ من أهمّ ما يجعل سيرته وافية بتحقيق هذه الأهداف كلّها هي تلك الخصائص الّتي تميّزت بها سيرته صلى الله عليه وآله.

فمن خصائص السِّيرة النَّبويَّة:

أوّلاً: اكتمال هذه السِّيرة: فهي سيرة كاملة تبدأ من ولادته صلى الله عليه وآله وتنتهي بوفاته، وما رافق ذلك من أحداث ووقائع، وهذا بخلاف سيرة مَنْ سبقه من الأنبياء والمرسلين حيث لانجد هذه الخصوصيَّة بصورة جليَّة فيها.

ثانياً: إنَّها سيرة علميَّة تأريخيَّة: فهي مرويَّة بأسانيد مُعتبرة[٢]، ودوَّنتها الكُتب الرِّوائية والتأريخيَّة بدقَّة متناهية، واهتمّ بها العلماء تدويناً وتحليلاً. بخلاف غيرها من السِّير سواء منها سير الأنبياء والمرسلين الّتي اختلط فيها كثير

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٢٩٧، طبعة مؤسسة التاريخ العربي - بيروت (د. ت)، والصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد: ٤ / ١٠ .

(٢) بحسب اختلاف مقاييس الاعتبار لهذه الاسانيد عند العلماء.

من الإسرائيليات والأكاذيب. أو سير بعض الشَّخصيات الّتي اهتمّ العرب بنقل سيرتهم من أمثال سيرة سيف بن ذي يزن، أو سيرة عنترة بن شدَّاد، حيث تجد فيها للخيال القصصيّ الميدان الواسع.

ثالثاً: إنَّها سيرة جامعة شاملة: وحيث إنَّ دعوة الرَّسول ﷺ ورسالته جاءت شاملة للدِّين والدَّنيا، وللدَّعوة والدَّولة، فجاءت سيرته أيضاً مكافئة لهذا الشُّمول، ولهذا نجد أنَّ حياته ﷺ شاملة لكلّ النَّواحي الإنسانيَّة والاجتماعيَّة الّتي ينبغي أن يتَّصف بها الإنسان من حيث إنَّه فرد مستقلّ بذاته أو من حيث إنَّه عضو فعَّال في المجتمع(١).

وبالاقتداء بسيرته ﷺ، وبالسَّير على نهجه؛ نستطيع أن نكوِّن شخصيَّتنا الإسلاميَّة والإيمانيَّة الصَّالحة، ولنكون على بصيرة ووعي في كل ما يمرّ بنا من أحداث، وما نستقبل من أوضاع ولنفهم واقعنا ونسير به في طريق الله.

---

(١) البوطي، فقه السِّيرة: ١٨ . وللتوسع انظر: الندوي، سليمان: الرسالة المحمدية، طبعة مكتبة دار الفتح - دمشق.

الأسئلة:

١ - ما هو التعريف اللغوي للسيرة ؟

٢ - ما هو التعريف الاصطلاحي للسيرة ؟

٣ - بيّن المقصود بالسنَّة :

أ - لدى الفقهاء.

ب - لدى الأُصوليين.

٤ - قارن بين السيرة والسنة بنقاط موجزة ؟

٥ - ما صلة الماضي بالحاضر «الغاية من تدوين التاريخ» ؟

٦ - ما الهدف من دراسة التاريخ ؟

٧ - لماذا ندرس السيرة النبوية ؟

٨ - اذكر الأهداف التفصيلية من دراسة سيرة النبيﷺ بايجاز ؟

٩ - ما هي أهمّ خصائص السيرة النبوية التي تميّزت بها عن باقي السِّير ؟ اذكرها بايجاز.

الدرس الثاني

المدخل

الى دراسة السِّيرة النَّبويَّة

«القسم الثاني»

تدوين السِّيرة النَّبويَّة

محاور البحث:

١ - أوائل من كتب في السِّيرة النَّبويَّة

٢ - كتب الشيعة في السِّيرة النَّبويَّة

٣ - مناهج دراسة السِّيرة النَّبويَّة

٤ - كشاف موضوعات السَّيرة النَّبويَّة

تدوين السيرة النبوية

١ - أَوائل من كتب في السِّيرة النَّبويَّة

قبل الحديث عن تدوين السِّيرة ينبغي الاشارة إلى مسألتين:

الأُولى: ثَمَّةَ فَرْق بين الكتابة والتَّدوين: إذ يعني الثَّاني تصنيف وتبويب وتهذيب ما تمَّت كتابته وحفظه في مؤلَّفات ومصنَّفات تأخذ طريقها للتَّداول والدَّرس والتَّعليم والتّعلُّم[١].

الثانية: في خصوص تحديد أوائل مَنْ كتبوا في السِّيرة النَّبويَّة.

يقول السيد الحسني: «إنَّ التَّأليف في السِّيرة النَّبويَّة قد تأخَّر إلى أواخر القرن الأول الهجري، وفي السِّنين الأخيرة منه ألفّ فيها (عروة بن الزبير) المتوفى سنة ٩٢ هـ (وأبان بن عثمان) المتوفى في مَطلَعَ القرن الثَّاني، وبعدهما ألفّ فيها (شرحبيل بن سعد)، و(ابن شهاب الزهري) و(عاصم بن عمرو بن قتادة) و(موسى بن عقبة)، و(ابن إسحاق) والّذي ألّف سيرته بناءً على طلب المنصور العبَّاسي كما جاء في بعض الرِّوايات»[٢].

إلاّ أنَّ هذا القول غير دقيق إذ إنَّ بدء التَّدوين التَّأريخيّ كان مبكّراً منذ أواسط القرن الأوّل الهجري كما يظهر ذلك جليّاً من خلال استعراض حياة بعض الصحابة ممَّن عاصر النَّبيّ ﷺ أو مِنْ التَّابعين الّذين صنَّفوا في سيرة النَّبيّ ﷺ في

---

(١) الحسيني - محمد، مدخل إلى السِّيرة: ٤ .

(٢) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى، طبعة أُفست الشريف الرضي - قم.

النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل الهجري فقد روتْ الصَّحابيَّة «سلمى» زوج (أبي رافع) مولى الرَّسولﷺ أنَّ (عبدالله بن عباس) قد كتب عن زوجها «أبي رافع» بعض أعمال الرَّسول على ألواح[١]، و(عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب) وُلِدَ قبل وفاة النّبيّ بـ (١٣) سنة، وتوفي سنة (٦٨) بالطَّائف[٢].

كذلك نجد أنَّ (عبيدالله بن أبي رافع الّذي كان كاتب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والمنقطع إليه كتب في سيرة رسول اللهﷺ على عهد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومن المؤكّد أنّه كان يأخذ عن عليٍّ عليه السلام سيرة الرّسولﷺ وعن أبيه (أبي رافع) الّذي كان ابن عباس يأخذ عنه من أفعال رسول اللهﷺ في ألواحه.

قال آقا بزرك الطهراني: «وهو أوّل من صنَّف في المغازي والسِّير والرِّجال في الإسلام لم نعرف مَنْ سَبَقَه فيه لأنَّه كَتَبَهَ في عصر أمير المؤمنين عليه السلام الّذي استشهد سنة أربعين من الهجرة»[٣].

أما أوائل من كتب في سيرة رسول اللهﷺ، فقد ذكرت في كتب التراجم بعض الصحابة والتابعين ممّن كانت لهم بعض المدونات في سيرة النبيﷺ، منهم:

- **سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي:**

(وُلِدَ في حياة النَّبيّﷺ ولا تُعلم وفاته).

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٣٧، طبعة دار احياء التراث العربي – بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م).

(٢) انظر ترجمته عند ابن حجر في الإصابة: ٢ / ٣٣٠ وما بعدها، طبعة دار احياء التراث العربي – بيروت، أُفست الطبعة الأُولى، (١٣٢٨ هـ).

(٣) الطهراني – آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٤ / ١٨١، ط. دار الأضواء – بيروت، وانظر حسن الصدر، الشيعة وفنون الإسلام.

يعتبر سعيد من أوائل مَنْ دوَّن أشياء عن حياة الرَّسولﷺ، وقد بَقِيتْ من كتاب سعيد نصوص محدودة في مسند (أحمد بن حنبل) ولَدى الطبري. وكانت النُّسخة الأصليَّة من تصنيفه موجودة عند حفيده (سعيد بن عمرو بن سعيد) في أوائل العصر العباسي. ويظنُّ الدكتور شاكر مصطفى أنَّ عمل سعيد وتدوينه طرفاً من حياة النّبيّﷺ إنَّما هو إتمام لعمل أبيه سعد بن عبادة وتعديل له[١]. وبذلك يكون سعد بن عبادة من أوائل من كَتَب في سيرة الرَّسولﷺ.

● سهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري:

(وُلِدَ سنة (٣ هـ) وتوفي بين سنة (٤١ هـ) وسنة (٦٠ هـ).

كتب شيئاً عن حياة الرَّسولﷺ ومغازيه، وبقي ممَّا كَتَب في حوزة حفيده (محمد بن يحيى بن سهل) الّذي روى عنه الواقدي. وقد بَقِيتْ شذرات عديدة من هذا الكتاب لَدَى البلاذري في (أنساب الأشراف) وابن سعد في (الطبقات) والطبري[٢].

● سعيد بن المسيب المخزومي:

ولد سنة (١٣ هـ) وتوفي بالمدينة سنة (٩٤ هـ).

وهو نسابة مؤرخ وكان الزهري من تلامذته، وقد كتب شيئاً عن حياة الرسولﷺ وعن الفتوح استخدمه الطبري[٣].

(١) د. شاكر مصطفى، التأريخ العربي والمؤرخون: ١ / ١٥٠، طبعة دار العلم للملايين. ط. ٣، (١٩٨٣ م).

(٢) المرجع نفسه: ١ / ١٥١ .

(٣) المرجع نفسه: ١ / ١٥٢ .

● **أبان بن عثمان:**

ولد حوالي سنة (٢٠ هـ) وتوفي بين سنتي (٩٥ - ١٠٥ هـ).

وهو محدث لا مؤرخ.. وقد اهتم برواية المغازي التي رواها عنه مالك بن أنس وابن سعد والطبري... وروت عنه كتب الحديث كثيراً بينما لم يستخدم مروياته من المؤرخين سوى اليعقوبي[١].

● **عروة بن الزبير بن العوام:**

(ولد حوالي سنة (٢٣ هـ) وتوفي سنة (٩٤ هـ).

يقال إنّه أوّل من ألَّف (المغازي) أي كَتَب كتاباً حول حياة الرَّسول ﷺ. وأخذ عنه ابن إسحاق والواقدي والطَّبري.

وقد بَقيتْ كتاباته لَدَى الطبري وقد درسها (هورو فيتش) وهي في عدَّة مواضيع منها: قطعة عن الهجرة الأولى إلى الحبشة، وأخرى عن الهجرة إلى يثرب، والثَّالثة عن أبي سفيان ومخرجه وموقعة بدر، ورابعة عن خالد بن الوليد، وخامسة عن وفاة خديجة.

وقد بيَّن(هورو فيتش) أنَّها من خلال اسنادها عبارة عن أجوبة كُتُب بعثها عبدالملك بن مروان إلى عروة فأجابه عليها بقوله: ... كتبتَ إليَّ تسألني في ... كذا) واستنتج من ذلك أنَّها (أقدم ملاحظات مدوَّنة بقيت لنا عن حوادث معيَّنة في حياة الرَّسول وهي في الوقت نفسه أقدم آثار النَّثر التَّأريخيّ العربي)[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ١٥٢ ولعل الصحيح ان الذي أخذ عنه اليعقوبي هو أبان بن عثمان الأحمر المتوفى سنة (١٧٠ هـ) وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ويروي عنه الروايات التي رواها اليعقوبي في تاريخه.

(٢) هوروفيتش، المغازي الأولى (ترجمة حسين نصار): ٢٠ - ٢١ . نقلاً عن شاكر مصطفى، المرجع السابق: ١ / ١٥٣ .

وذكر الدكتور عبدالعزيز الدوري: أنَّ مغازي عروة بن الزبير تضمَّنت بدء الوحي وبداية الدَّعوة والهجرة ثم تناولت فعاليات فترة المدينة حتى غزوة الطَّائف، كما تضمَّنت بعض مراسلات الرَّسول وأواخر أيَّامه وقد جاءت بعض رواياته أجوبة على أسئلة البلاط الأموي وبعضها حدَّث بها طلبته[(١)].

ويُعلِّق السيد حسن الصَّدر على الرأي القائل بتقدُّم عروة بن الزبير وأسبقيَّته في تأليف السِّيرة بقوله: (لا يعرف ذلك أهل العِلْم بالتَّأريخ، وإنَّما عدل السيوطي في كتاب الأوليات عن ابن إسحاق إلى ابن الزبير مع شذوذه، لأنَّ ابن إسحاق من الشيعة كما في تقريب ابن حجر، وقد نصّ أصحابنا على تشيُّعه في كُتب الرِّجال)[(٢)].

وبدورنا نستنتج من دراسة كلّ مِنْ (هورو فيتش) والدكتور الدوري أنَّ عروة بن الزبير لم يكن سابقاً على إِبن إسحاق على كلّ حال لأنَّ عمل ابن إسحاق كان يتضمَّن كتابة في السِّيرة ذات منهج، فيما تمثِّل كتابات عروة أجوبة على أسئلة البلاط الأموي وأحاديث كان يحدِّث بها طُلاّبه.

● أبو فضالة عبدالله بن كعب بن مالك الأنصاري:

لَم تُعرف ولادته - توفي سنة (٩٧ هـ).

روى عن أبيه وكَتَب كتاباً في المغازي، روى عنه ابن إسحاق ونقل عنه الطَّبري وقد وصفه ابن إسحاق بأنَّه أحد كبار علماء الأنصار[(٣)].

---

(١) الدوري - د. عبدالعزيز، بحثٌ في نشأة علم التأريخ عند العرب: ٦٣ - ٧٤، طبعة دار الشرق - بيروت، (١٩٨٣ م).

(٢) الصدر، حسن الشيعة وفنون الإسلام : ٣٥٦، بتحقيق السيّد مرتضى المير سجادي، طبعة مؤسسة السبطين - قم، ط. الأولى، (١٤٢٧ هـ).

(٣) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ١٥٤.

● القاسم بن محمد بن أبي بكر:

ولد حوالي سنة (٣٧ هـ) وتوفي سنة (١٠٧ هـ).

وكان من كبار العلماء في عصره، ويبدو أنه كتب بدوره في المغازي وأخبار الخلفاء كتاباً أو أكثر من كتاب، وقد حفظ لنا الطبري مقتبسات عديدة منه، ونجد بعض المقتبسات أيضاً لدى البلاذري والواقدي[١].

وقد عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام[٢].

● وهب بن منبه:

توفِّي على الأغلب سنة (١١٤ هـ).

وقد عُرف بالإسرائيليات وكان يروي خاصَّة عن كعب الأحبار المتوفَّى سنة (٣٢ هـ) وعبد الله بن سلام المتوفى سنة (٤٠ هـ)، وأضاف ما عرفه من أهل الكتاب. . . ولذلك قابل العلماء معلوماته بالرّيبة والشَّك. وخاصَّة ما كتبه في المغازي. وقد أخذ عنه ابن إسحاق كما أخذ عنه ابن قتيبة والمسعودي والمقدسي والطبري. . وقد وجد المستشرق (بيكر) قطعة من مغازيه في مخطوط تاريخُ نسخه سنة (٢٢٨ هـ). وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني قطعتان منه في ج ٤، ص ٧٣، ٧٩[٣].

● أبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني:

وهو من موالي أُسرة الزبير، عاصر التَّابعين وتوفِّي سنة (١٣٠ هـ). كان

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ١٥٤.

(٢) الطوسي – محمد بن الحسن، كتاب الرجال: ١١٩، تحقيق جواد القيومي، طبعة جامعة المدرسين – قم، ط. الثانية، (١٤٢٠ هـ).

(٣) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١٥٤ – ١٥٥، والدوري – عبد العزيز، مرجع سابق: ١١٢.

يروي عن عروة كما روى عن معاصره الزهري وتلمَّذ عليه ابن إسحاق والإمام مالك. ألَّف في المغازي كتاباً وصل إلى الواقدي فاقتبس عنه كما نجد منه مقتطفات لدى ابن سعد والطبري[١].

● **أبو الأسود محمد بن عبدالرحمن بن نوفل الأسدي:**

(تُوفيِّ سنة ١٣١ أو ١٣٧ هـ).

وهو ربيب الزبيريين، تتلمذ على عروة كما كان من تلاميذ الزهري، كتب في المغازي، ونقل عنه ابن حجر في «الإصابة» كثيراً، كما نجد بعض القطع من كتابه لَدَى ابن سعد في «الطبقات» ولدى البلاذري في «أنساب الأشراف» ولدى الطبري أيضاً[٢].

● **محمد بن مسلم بن شهاب الزهري:**

(٥٠ - ١٢٤ هـ).

وهو سليل قبيلة زهرة المكِّية، وَفَدَ على مروان بن الحكم في دمشق ثُمَّ تقرَّب إلى عبدالملك بن مروان.

كتب في المغازي وأعطى السِّيرة النَّبويَّة إطارها الَّذي نعرف إلى اليوم وتناول عهد الرّاشدين ومطلع الأيام الأمويَّة.

وقد تابع تلامذته مسيرته وأبرزهم الثلاثة: موسى بن عقبة الأسدي، ومعمر بن راشد البصري، وابن إسحاق.

● **موسى بن عُقْبَة:**

(ولد بين ٥٥ وسنة ٦٠ وتُوفِّي ١٤١ هـ).

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ١٥٧ .

(٢) المرجع نفسه: ١ / ١٥٧ .

روى عن الزهري وقرأ في صحف ابن عباس، ونقل عنه ابن سعد وابن اسحاق كما نقل عنه الواقدي والطبري. وثَمَّة جزء من مغازيه الَّتي كتبها مخطوط في برلين ترجم بعضها المستشرق سخاو ودرسها شاخت وإن لم تنشر بعد[١].

وقد لقي كتاب المغازي لابن عُقبْة الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه، واستخدمه الكثيرون ومنهم أبو نعيم الأصفهاني الذي كتبه بخطِّه وهي النُّسخة ذاتها الّتي اعتمدها بعد قرنين ياقوت الحَمَوُي. وقد احتفظ ابن حجر في كتابه الإصابة بقطع من هذه المغازي تزيد في العدد على ٢٢٥ قطعة تُمثِّل القِسْم الأكبر منها. وقد اختصرها قبل ذلك ابن عبد البرّ في كتاب (الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير) واقتبس منها الكثير ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر)[٢].

● **معمر بن راشد البصري**:

(ولد في البصرة سنة ٩٦ - توفي سنة ١٥٤ هـ) في صنعاء.

وهو الآخر من تلامذة الزهري كتب كتاباً في المغازي نقل فيه عن الزهري وعن أهل الكتاب، ونقل عنه الواقدي والبلاذري وابن سعد والطبري... ويبدو أنّه لم يقتصر على سيرة الرَّسولﷺ في الكتاب بل أضاف إليها سير الأنبياء الآخرين.

وثَمَّة قطعة من كتاب معمر محفوظة في المعهد الشَّرقي بشيكاغو وله قطع أخرى من الكتاب ما تزال محفوظة في استامبول والرّباط ودمشق[٣].

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ١٥٨ .

(٢) المرجع نفسه: ١ / ١٥٩، وقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان «المغازي النبوية» لابن عُقبة، جمع وتحقيق ودراسة: حسين مرادي.

(٣) المرجع نفسه: ١ / ١٦٠ .

● **محمد بن إِسحاق المطلبي**:

(ولد حوالي ٧٥ - توفِّي ١٥١ هـ).

عدَّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قال: (محمد بن إسحاق ابن يسار المدني مولى فاطمة بنت عتبة، يُكنَّى أبابكر، صاحب المغازي من سبي عين التمر، وهو أوّل سبي دخل المدينة، وقيل كنيته أبو عبدالله، روى عنهما عليهما السلام (يعني الباقر والصادق) مات سنة إحدى وخمسين ومائة).

وعُدَّ[1] إسحاق (الوالد) من أصحاب الباقر عليه السلام ومن أصحاب علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام وقد عدَّه ابن حجر في «تهذيب التهذيب» من الثّقاة وقال عنه أنَّه روى عن الحسن بن علي عليه السلام وعروة بن الزبير وغيرهم[2].

قال آغا بزرك الطهراني: (المغازي - في خصوص مغازي النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر أو أبي عبدالله محمد بن إسحاق بن يسار المدني المولد، وكان والده مولى فاطمة بنت عتبة المتوفى هو في ١٥١ هـ، وهو أوّل من جمع مغازي النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واختصّهُ بالتّصنيف وهو من أصحاب الصّادق عليه السلام، ووالده إسحاق كان من أصحاب السّجاد والباقر عليهما السلام . . .)[3].

ويرى شاكر مصطفى أنَّه قد بدأ الكتابة التَّأريخيَّة، وقد كتب أقدم سيرة نبويَّة محفوظة الآن برمَّتها. ومصادر معلوماته كثيرة التنَّوع وتبلغ ١١٤ شيخاً. وقد روى عن أبيه إسحاق، فورد اسمه (١٥) مرَّة في السِّيرة[4]. ممَّا يجعل مصادره قريبة من أهل البيت فقد عُدَّ أبوه من أصحاب السَّجاد والباقر عليهما السلام وعدّ هو نفسه

---

(١) رجال الطوسي، مصدر سابق: ٢٧٧ . وانظر حاشية محقق الكتاب في الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٩، وابن حجر - تهذيب التهذيب: ١ / ٢٥٧، ط. حيدر آباد الدكن.

(٣) الذريعة - مرجع سابق: ٢١ / ٢٩٠ .

(٤) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ١٦٠ .

من أصحاب الصادق عليه السلام.

وقد كان معروفاً أنَّ سيرة ابن إسحاق محفوظة في جملتها في سيرة ابن هشام الَّتي لا تعدو أن تكون تشذيباً وتنقيحاً لسيرة ابن إسحاق، ثم تبيَّن أنَّ في المغرب نسخة مخطوطة من سيرة ابن إسحاق وقد تنشر[١]، وقد نُشرتْ أخيراً سيرة ابن إسحاق بتحقيق الدكتور سهيل زكار وأخرى بتحقيق محمد حميد الله.

وفي «الذريعة» أنَّ كتاب سيرة ابن إسحاق والمعروفة بالمغازي أيضا موجودة في مكتبة محمد باشا، كما في فهرسته[٢].

ويبدو أنَّ ابن إسحاق قد فاز بالسَّبق على أقرانه بالتَّصنيف إلاّ أنَّه ليس أوّل من كتب في السِّيرة كما سبق، وإنَّما ترجع الكتابة إلى القرن الأوّل للهجرة. وسنحاول دراسة بعض مَعالِم سيرة ابن إسحاق في فصل آت.

● **محمد بن عمر الواقدي:**

(ولد سنة ١٣٠ - توفي ٢٠٧ هـ).

وهو من الموالي، وأخذ العِلْم في المدينة عن شيوخها ثم انتقل إلى بغداد وتقرَّب من الرَّشيد وابنه المأمون واتَّصل بالبَرامِكَة. وله كتب عديدة في التَّأريخ، ولم يبق منها سوى كتابه (المغازي). وطبع جزء منه في «كلكتّا» طبعة (فون كريمر ١٨٥٦) وهناك نسخة كاملة مخطوطة مع جزء آخر من مخطوط ثان في المتحف البريطاني. وقد نشر (فيشر) النَّص العربي الكامل بعد أن كان (فلهاوزن) قد نشر موجزه مع ترجمة إنكليزية، وهو موجود بشكل مخطوط في فينّا (رقم ٨٨١ في ١٩٦ صفحة) وفي المتحف البريطاني (Or ٤١٦) و (٥٠٢ ،

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ١٦٠ (الهامش).

(٢) الطهراني، مرجع سابق: ٢١ / ٢٩١ .

Sup ١٦١٧) وقد حقّق بعضه (فون كريمر) ثم حقَّقه غيره، ثم نشر النَّص العربي في القاهرة من قِبَل عباس الشر بيني عام ١٩٤٨. وله ترجمة فارسيَّة وأخرى تركيَّة كما اختصره ابن حجر(١).

وينقل الواقدي عن ابن إسحاق دون أن يسمِّيه وقد يمتدحه دون أن يصرِّح به. وكان ذا ميول علويَّة وقد عدَّه ابن النَّديم في رجال الشيعة ووصفه بأنَّه يلتزم التَّقيَّة(٢) وقد لاحظ شاكر مصطفى أنَّ الشيعة لايعدُّونه في رجالهم إلاّ أنَّ السَّيِّد الأمين ذكره في الأعيان، في من ألفَّ من الشيعة في السِّيرة والتَّأريخ وكذلك الطهراني في ذريعته(٣).

• **محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي:**

(ولد سنة ١٦٨ في البصرة - وتوفي سنة ٢٣٠ هـ في بغداد).

وهو من أبناء الموالي يلتحق ولاءً بآل العباس كان من تلامذة الواقدي وشديد الاتِّصال به حتى لُقِّب بكاتبه. وله كتاب (أخبار النَّبيّ) وهو كما يعتقد الباحثون أنَّه هو نفسه القسم الأوّل من كتابه الكبير - (الطبقات) والّذي خصَّصه لسيرة النَّبيّ ﷺ.

وكتابه في السِّيرة هو الكتاب الثَّاني بعد سيرة ابن إسحاق الّذي وصل إلينا كاملاً ممَّا هو متَّصل بالمصادر الأولى وكلّ مَنْ جاء بعدهما كان عيالاً عليهما(٤).

---

(١) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ١٦٥ - ١٦٦ وانظر: الذريعة: ٢١ / ٢٩٠ .

(٢) ابن النديم - محمد بن أبي يعقوب، الفهرست: ١١١، تحقيق: رضا تجدد، طبعة مكتبة الأسدي - طهران، (١٩٧١ م).

(٣) العاملي - السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة: ١ / ١٥٤، طبعة دار التعارف - بيروت، وانظر الذريعة، مرجع سابق: ١ / ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٤) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ١٦٦ وما بعدها.

٢ – كُتب الشيعة في السِّيرة

وفي هذا المجال نَذكرُ أهمَّ ما كُتبَ في السِّيرة[١] النَّبويَّة ممَّا كتبه رجال الشيعة وعلماؤهم.

فمنهم:

● (المغازي) لآبان بن عثمان الأحمر البصري الكوفي من خواصّ الصَّادق عليه السلام توفِّي بعد سنة ١٤٠ هـ، وكتابه يجمع المبتدأ والمغازي والوفيات والرِّدَّة كما ذكره النَّجاشيُّ، وهو أوَّل من صنَّف في هذه الأبواب.

وقد عدَّه السيِّد حسن الصَّدر[٢] مِنْ أوائل مَنْ كتب في التَّأريخ الإسلاميِّ.

● (المغازي) في خصوص مغازي النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر أو أبي عبدالله محمد بن اسحاق المدني المولد . . . . المتوفَّى في ١٥١ هـ، وهو أوَّل من جمع مغازي النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واختصَّه بالتَّصنيف، وهو مِنْ أصحاب الصادق عليه السلام . . . وقد مرَّ ذِكْرُه.

● (المغازي) لأبي عبدالله محمد بن عمر بن واقد (الواقدي) المولود سنة ١٣٠ هـ والمتوفَّى ببغداد سنة ٢٠٧ هـ وقد مرّ ذكره سابقاً.

● (المغازي) لأبي البختري وهب بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب ابن أسد بن عبدالعزى الراوي عن الصادق عليه السلام وربيبه وقد ذكره النَّجاشيُّ وابن شهر آشوب، وله كتاب آخر بعنوان (الألوية والرَّايات) يعتقد أنَّه هو ذاته[٣].

---

(١) انظر: الطهراني، مرجع سابق: ٢٢ / ٢٨٩ – ٢٩١.

(٢) الصدر، حسن الشيعة وفنون الإسلام: ٣٥٩. وقد طبع كتاب (أبان) مؤخراً بتحقيق وتقديم: الشيخ رسول جعفريان، وذكر محقق الكتاب أن وفاة أبان في حوالي سنة (١٧٠ هـ)، وعنون كتابه بـ (المبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والرِّدة).

(٣) الطهراني، مرجع سابق: ١ / ٣٠١.

• (المغازي) لأبي أحمد بن محمد بن أبي عمير زياد بن عيسى البغدادي الّذي لا يروي إلاّ عن ثقة ومراسيله كمسانيده المتوفَّى سنة ٢١٧ هـ .

• (المغازي) لأبي القاسم هارون بن مسلم بن سعدان الكاتب الأنباري، لقي أبا محمد وأبا الحسن العسكري عليه السلام .

• (المغازي) لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي (المتوفَّى سنة ٢٨٣) صاحب كتاب (الغارات).

• (المغازي) لأبي أحمد بن محمد بن خالد البرقي القُمِّي المتوفَّى سنة ٢٧٤ هـ.

• (المغازي) لأبي أحمد عبدالعزيز بن يحيى الجلودي شيخ جعفر بن قولويه.

• (المغازي) لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القُمِّي المحدِّث المفسِّر.

• (المغازي) لأبي مخنف لوط بن يحيى بن مخنف الأزدي الرَّاوي عن الصَّادق عليه السلام .

وللشيعة قصب السَّبق والرِّيادة في هذا الميدان فقد عُدَّ الكثير منهم من أوائل من اهتمَّ بالسِّيرة النَّبويَّة فقد تقدَّم كتابة عبدالله بن عباس عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك ما كتبه عبيدالله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن استقرَّ عِلْم السِّيرة إلى محمد بن إسحاق الّذي عُدَّ إمام السِّيرة وتلميذه الواقدي الَّذي عَدَّه ابن النَّديم في رجال الشيعة.

لكن لا يصحُّ عَدُّ محمد بن إسحاق أوّل من كتب في السِّيرة فقد كانت السِّيرة محلّ عناية المسلمين خاصَّة الصحابة والكتابة عندهم معروفة وإن حاول البعض أنْ يرجع التَّدوين إلى عصر العبَّاسيين.

ويستنكر الدكتور «جواد علي» الرأي القائل بتأخُّر الكتابة لدى المسلمين إلى منتصف القرن الثَّاني للهجرة فيقول: (هل يُعقل عدم تدوين الصحابة شيئاً، وقد

ابتدأ الوحي بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (1) وقوم يبتدئ الوحي عندهم بهذا الابتداء، لا يُعقل أبداً أن يتركوا القلم ويناموا، ثُمَّ لا ينشط واحد من بينهم فيكتب أو يدوّن شيئاً كيف ذلك «وبين الصحابة والتَّابعين جماعة كانت تشتري الكُتب من بلاد الشَّام ومن أماكن أخرى، وجماعة كانت على حظٍّ عظيم من الحِكمَة والعِلْم. . .»(2).

ويعتقد الدكتور «جواد علي» أنَّ ذلك العصر لم يكن ليخلو من كُتب ومؤلِّفين ومدوِّنين وإن لَم نجد منه الآن شيئاً فذلك لأنَّنا لم نجهد أنفسنا في التَّنقيب عنه والتَّفتيش في مظانِّ ومواطن هذه الكتب.

فالكتابة في السِّيرة النَّبويَّة ترجع إلى القرن الأوّل الهجري، وقد مرَّ أنَّ عبدالله بن عباس كان يكتب الألواح عن أبي رافع مولى الرَّسولﷺ.

وكانت عند الصحابة صحف وكتب يتداولونها وكان بعض الصحابة يقول في روايته للأخبار «وجدتُ في كتاب فلان أو كتاب آبائي، كما كان لدى بعض أحفاد الصحابة مدوَّنات عن حياة الرَّسولﷺ: فلدى حفيد سعيد بن سعد بن عبادة نسخة جدّه في المغازي ومثل ذلك لدى حفيد سهل بن أبي خثعمة الصحابي الَّذي كان كتابه بخطِّه أحد مصادر الواقدي فيما بعد»(3) كما كانت كتب المغازي منتشرة في أواسط العصر الأموي، ويروي البلاذري أنَّ عبدالملك بن مروان أمر بحرق كتاب في المغازي وجده بيد بعض أبنائه لأنَّه يشغله عن القرآن

(1) العلق: ١ – ٥ .

(2) د. جواد علي، تأريخ العرب في الإسلام: ١ / ١٧ – ١٨، طبعة أُفست الشريف الرضي – قم، (١٤١٤ هـ).

(3) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ٧٩ .

والسُّنَّة!!)[١].

ولابُدَّ أنَّ سبباً كبيراً دعا عبد الملك بن مروان إلى أنْ يحرق كتاباً في سيرة الرَّسول ﷺ غير ما ادّعاه! فما الّذي كان يحذره بنو أميه من سيرة رسول الله ﷺ ؟!!

روى الزبير بن بكّار أنَّ (سليمان بن عبدالملك) في زمان ولايته للعهد مرَّ بالمدينة حاجًّا، وأمر (أبان بن عثمان) أن يكتب له سِيَر النَّبيّ ﷺ ومغازيه، فقال أبان: هي عندي، قد أخذتها مصحَّحة ممَّن أثق به، فأمر بنسخها وألقى إلى عشرةٍ من الكُتَّاب فكتبوها في رقٍّ، فلمَّا الأمور إليه نظر فإذا فيها ذِكْرُ الأنصار في العقبتين، وذكر الأنصار في بدر، فقال: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل؛ فأمَّا أن يكون أهل بيتي، غمصوا عليهم وأمَّا أن يكونوا ليس هكذا!!

فقال أبان بن عثمان: أيُّها الأمير! لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، أن نقول الحقَّ. هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا.

قال (سليمان): «ما حاجتي إلى أن أنسخ ذاك حتى أذكره لأمير المؤمنين، لعلَّه يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فَحُرق» ولمَّا رجع أخبر أباه بما كان فقال عبدالملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تُعرِّف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها، قال سليمان فلذلك أمرت بتحريق ما كنت نسخته حتى أستطلع رأي أمير المؤمنين فصوَّب رأيه»[٢].

والملاحظ ومن خلال ما ورد في الموفقيات أنَّ عبدالملك بن مروان كان يثقل عليه سيرة أنصار رسول الله ﷺ ومغازيه، وكان يقول لمن يحدثه عنهم: «دعونا من ذكرهم»[٣].

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ٨٢.

(٢) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات: ٣٣٢ - ٣٣٣، تحقيق: سامي العاني، أُفست الشريف الرضي - قم.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٤.

وفي حالة الجمع بين هذه الرِّواية وما نقلناه سابقاً مِنْ أمر عبدالملك بن مروان بحرق سيرة وجدها لدى ولده، يمكننا أن نستنتج أو نؤيِّد استنتاجنا المتقدِّم؛ والَّذي ذهبنا فيه إلى أنَّ السِّيرة الَّتي حرَّقها كانت بالتَّأكيد في غير صالح الأمويين؛ ولابدَّ أنَّها في صالح أهل المدينة من الأنصار.

إذاً فالنِّصف الثَّاني من القرن الثَّاني للهجرة لم يكن عام التَّدوين فحسب؛ وإنَّما كان عام تطوُّر كبير في التَّدوين ساعدت عليه عدَّة عوامل منها سقوط الدَّولة الأمويَّة وانتشار الورق وعوامل ثقافيَّة أخرى، وتكامل عِلْم السِّيرة بحيث أخذت السِّيرة من حيث الجمع غايتها إلى درجة أخذ المبدعون اتجاهاً آخر في التَّدوين.

ويرى عدد من الباحثين أنَّ تأخُّر التَّدوين كان سببه خشية الأمويين من التَّعريف بأهل البيت ضمن سيرة الرَّسولﷺ. يقول المستشرق الإنجليزي «مرجلويث» في هذا الصدد: (وحين نقرأ، كيف لم يكن الناس في العهد الأمويِّ يجرأون على تسمية أبنائهم بعليٍّ أو حسن أو حسين لا يدهشنا أن تتأخَّر أقدم ترجمة للنَّبيِّ إلى مابعد قيام العباسيين، اذ لم يكن من الممكن أن تُروى ترجمة النَّبيِّ في أيَّام الأمويين دون زَعْزَعَة إخلاص المسلمين لحُكمهم زعزعة خطيرة...)[(١)].

فيما أرجَعَ مصطفى السقَّا هذا التَّأخُّر إلى عدَّة أسباب حيث يقول: «وقد وجد العلماء أنَّ من بين أسباب هذا التَّأخير:

١ - انتشار استخدام الورق وصناعته، فكان المسلمون قد حصلوا على هذه المادَّة الضَّروريَّة من بلدان الشَّرق الأوسط فأخذوا يستعملونها منذ القرن الأول الهجري ولم يلبثوا أن أسَّسوا لها المصانع في أمَّهات مدنهم.

٢ - حرص الخلفاء الأمويون الَّذين استمرَّ حكمهم قُرابة قرن من الزمن (٤٠ - ١٣٢هـ) على اضطهاد آل بيت الرَّسول وطَمْسِ مَعالِم أخبارهم، لأنَّ كتاباً في سيرة

---

(١) مرجليوت، دراسات المؤرخين العرب: ١٧، ترجمة حسين نصار.

الرَّسولﷺ سيؤدي إلى ازدياد تعلُّق المسلمين بآل البيتعليهم السلام وتأييدهم لحفدته من ابنتهعليها السلام الَّذين ماانقطعوا طيلة العهد الأمويّ عن المُطالبة بالخلافة لأنفسهم، وهذا ما لا يوافق عليه الأمويون لا سيما وكانوا منذ تأسيس خلافتهم يلعنون عليّ ابن أبي طالب على منابرهم»[١].

إلاَّ أنَّ هذه العوامل وغيرها لم تمنع بعض الصَّحابه والتَّابعين من جَمْعِ سيرة الرَّسولﷺ وكتابتها وتعليمها فلقد كانت (السِّيرة والمغازي) استجابة ثقافيَّة اجتماعيَّة في المجتمع المُسْلِم الَّذي أراد أفراده الوقوف على تفاصيل حياة الرَّسولﷺ وأفعاله التَّأريخيَّة. وبذلك تنقلنا المغازي للمرَّة الأولى إلى الكتابة التَّأريخيَّة بالمفهوم الحديث.

(لقد كانت الحاجة إلى معرفة أحوال الرَّسولﷺ واحدة من أهم العوامل التي ساعدت على نشوء علم التَّأريخ عند المسلمين وبذلك تُعدُّ السِّيرة أقدم فرع من فروع التَّأريخ الإسلاميِّ)[٢].

إذ كانت شخصية النَّبيِّﷺ منذ البدء محور اهتمام المؤرخين الأوائل وحافزهم للكتابة التَّاريخيَّة الَّتي انطلقت من السِّيرة وتطوَّرت أغراضها في عهد الخلفاء...[٣].

٣ - مناهج دراسة السِّيرة النَّبويَّة

في دراسة السِّيرة عدَّة مناهج وعدَّة اتِّجاهات منها:

١ - الاتِّجاه الغيبي.

---

(١)المغازي الأُولى ومؤلفوها للمستشرق الألماني هورفيتش، من مقدمة مصطفى السقا، ص: (هـ،و)

(٢) حاطوم - نور الدين، ومجموعة من الباحثين، المدخل الى التاريخ، ط. دمشق، (١٩٨١ م).

(٣) بيضون - إبراهيم، مسائل المنهج في الكتابة التَّأريخيَّة حتى نهاية القرن الثَّالث الهجري، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٨، ص ٨ لعام (١٩٨٩ م).

٢ – الاتجاه المادِّي (العلميّ).

٣ – الاتِّجاه المتكامل.

ويتميَّز الاتِّجاه الأوّل بطُغيان الهَاجِس الغيبيِّ في دراسة السِّيرة حيث ينصرف الباحث إلى المعاجز والكرامات فتكاد تأخذ عليه دراسته إلى درجة تورُّطه في تصديق كل خبر والإيمان بكلِّ رواية. بينما يتميَّز الاتِّجاه الثَّاني بالعزوف عن كلِّ ما هو معجز والانصراف في تفسير الأحداث تفسيراً مادِّياً صرفاً بحجَّة اتِّباع قواعد العِلْم.

أمَّا الاتِّجاه الثَّالث (المتكامل) فنعني به الاتجاه الَّذي يدرس سيرة النَّبِّي ﷺ منطلقاً من إيمانه العميق بالنُّبوَّة وما يرتبط بها من مُعْجز مع ضرورة تحقيق الأخبار وتمحيصها، ومن إيمانه بما تحمله هذه السِّيرة من المعاني الإنسانيَّة بوصفها تجربة إنسانيَّة معصومة وليست غيباً محضاً.

٤ – كشاف موضوعات السِّيرة النَّبويَّة

موضوعات السِّيرة ليست واحدة، بل هي متعدِّدة ومتنوِّعة، ولأجل ذلك تنوَّعتْ الكتابة في السِّيرة، وصُنِّفت عِدَّة مصنَّفات في هذه الأبواب المتنوِّعة وسنحاول إلقاء الضوء على هذه الموضوعات وهي:

١ – السِّيرة العامَّة:

وهذا هو المجال الَّذي ظهرت فيه السِّيرة منذ انطلاقها حيث اتَّخذت طابعاً عامّاً، يعتني المؤرِّخ معه بمُجْمَل سيرة النَّبيِّ ﷺ ومفردات حياته.

وفي هذا الميدان ظهرت السِّير المعروفة الّتي تُمثِّل المصادر الأولى والأساسيَّة في السِّيرة. وقد مرَّ الحديث عن هذه السِّير، مِثْل سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام، وسيرة ابن سعد، والسِّير الَّتي ظهرت فيما بعد مِثْل سيرة ابن سيِّد الناس والسِّيرة الحلبيَّة.

كما صدَّر المؤرخون كتبهم بالسِّيرة النَّبويَّة، مطوَّلة ومختصرة فكتب ابن عساكر في تأريخه الكبير الموسوم بـ (تأريخ مدينة دمشق) سيرة مطوَّلة، ومثله أبو عبد الله الذَّهبي في تأريخه، والعماد بن كثير في (البداية والنَّهاية) وأبو الحسن الخزرجي في مقدمة كتابه (تأريخ اليمن)، والتقي الفاسي في (تاريخ مكة).

وفي كتب التَّاريخ الحولية سيرة مطوَّلة للنَّبيِّ ﷺ كما في تأريخ الطبري والكامل في التَّأريخ لابن الأثير.

وفي «أعيان الشيعة» للسيِّد محسن الأمين سيرة مطوَّلة للنَّبيِّ ﷺ في المجلَّد الأول من كتابه[١].

٢ - المغازي:

وهو ميدان خاصٌّ من السِّيرة يُعنَى بالمعارك والحروب الَّتي خاضها النَّبيُّ ﷺ ككلّ، وفي هذا الميدان اعتنى عدَّة من المؤرخين والمشتغلين بالسِّيرة بهذا الموضوع، وقد تصدَّر الواقدي قائمة المؤرخين، ومغازيه مطبوعة في مجلدين أو ثلاثة مجلَّدات، بحسب طبعات الكتاب، وهنالك كتاب المغازي النبوية لابن شهاب الزهري (٥١ - ١٢٤ هـ) الذي حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار، بعد أن استخرجه من كتاب المصنف لعبد الرزاق الصنعاني والذي بدوره نقل كتاب الزهري مع زيادات طفيفة رواها عن معمر بن راشد تلميذ الزهري وراوية علمه[٢].

٣ - نظم السِّيرة:

وقد نظم عدَّة من المتقدِّمين سيرة النَّبيِّ ﷺ كعادتهم في نظم العلوم، بغية

---

(١) انظر: أعيان الشيعة - المجلد الأول، ط. دار التعارف.

(٢) انظر مقدمة الدكتور سهيل زكار لكتاب المغازي لابن شهاب الزهري، طبعة دار الفكر، دمشق، (١٤١٠ هـ - ١٩٨١ م).

حفظها شعراً، نذكر من هؤلاء:

الفتح بن مسار الفتح بن موسى المتوفَّى ٦٣٦ هـ ، والشهاب بن العماد الأقفهسي، وأحمد بن عماد المتوفَّى سنة ٨٠٨ هـ ، والبقاعي إبراهيم بن عمر المتوفَّى ٨٨٥ هـ ، وشرح نظمه. وعبد العزيز بن أحمد الديريني المتوفى حوالي سنة ٦٩٧ هـ ، وعبدالرحيم بن حسين المعروف بالزين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ، وإبراهيم بن أحمد الدمشقي سمَّاه (منحة اللَّبيب في سيرة الحبيب).

٤ – مولد النَّبيِّ ﷺ:

وقد صنف بعض المؤرخين في مولد النبي ﷺ مستقلا نذكر منهم:

– أبو القاسم السبيتي في (الدُّرر النظم في مولد المعظم).

– عمر بن أيوب بن عمر بن طغريل في (الدُّر النظيم في مولد النَّبيِّ الكريم).

– الفخر عثمان بن محمد بن عثمان التوزيري في (المولد).

– القطب القسطلاني في (إتحاف الرُّواة بذكر المولد والوفاة) وغيرهم كثير....

٥ – نَسَب النَّبيِّ ﷺ:

حيث أفرد كلٌّ من الطَّبراني وأبي عبدالله بن منده (نَسَب النَّبيِّ) ويكاد لا يخلو كتاب من كُتب السِّيرة أو كُتب التَّأريخ الإسلاميِّ إلاّ ولِلنَّسب النَّبويِّ فيه ذِكْر.

٦ – المَبْعَث:

كتب في هذا الموضوع مستقلاً هشام بن عمار المتوفى سنة ٢٤٤ هـ أو ٢٤٥ هـ.

ويكاد لا يخلو كتاب من كُتب السِّيرة أو كُتب التَّأريخ الإسلاميِّ إلاّ وللمبعث فيها ذِكْرٌ.

٧ - **المِعْرَاج:**

كَتَبَ فيه مستقلاً أبو الخطاب بن دحية وغيره.

٨ - **دلائل النُّبوَّة:**

جمعها كثير من المؤرخين، ذكر السخاوي أربعة عشر حافظاً منهم.

٩ - **أعلام النُّبوَّة:**

اهتمَّ بجمعها عدد كبير من المؤرخين والأخباريين ذكر السخاوي خمسة منهم.

١٠ - **الشَّمائِل النَّبويَّة:**

وهي الموضوع الّذي اعتنى به عدد كبير من المؤرخين وأصحاب السِّير وقد أفرد له بعضهم مصنَّفات مستقلَّة بعناوين كـ (الشَّمائل النَّبويَّة) أو (الأخلاق النَّبويَّة) أو (الصِّفة النَّبويَّة).

١١ - **الطِبُّ النَّبويُّ:**

منذ وقت مبكِّر جمع بعض المؤرخين ما نُقِل من أحاديث النَّبيِّ ﷺ في مجال التَّطبيب ضمن كتبهم أو مستقلاً، وممَّن جمعها مستقلاً الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م.

١٢ - **حقوق المصطفى:**

جمعها القاضي عياض بن موسى اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ بعنوان (الشفا بتعريف حقوق المصطفى).

١٣ - المعجزات:

جمعها جعفر الغريابي بعنوان المعجزات، وجعفر الغريابي توفي سنة ٣٠١ هـ - ٩١٣ م.

١٤ - خُطَبُ النَّبيِّ ﷺ:

عُني بها بعض نفر من الأخباريين، وأفرد بعضهم خطبة الوداع، وبعضهم أفرد كلماته المفردة.

١٥ - مكاتباته ﷺ:

جمعها عمارة بن زيد وتشمل مكاتباته ﷺ للأشراف والملوك وجمع مؤخراً الأحمدي مكاتباته ﷺ بعنوان (مَكَاتِيب الرَّسول) في جزئين، ويعدّ كتاب مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي للدكتور محمد حميد الله من أفضل ما كتب في هذا الموضوع.

١٦ - الصلاة على النَّبيِّ ﷺ:

اذ أفرد لها كتباً مستقلة كلٌّ من إسماعيل القاضي وأبي بكر بن أبي عاصم، والسخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة على الحبيب الشَّفيع). وقد سَرَدَ أسماء عدد ممَّن عُني بهذا الميدان.

١٧ - الوفاة:

وهو حدث عُني المؤرخون به في كتبهم التَّأريخيَّة، كما هو شأن أصحاب السِّير، وقد أفرد له بعض المؤرخين كتباً خاصَّة به.

الملاحظ في أغلب هذه العناوين وغيرها والتي كتب فيها كتّاب السيرة القدماء واشبعوها بحثاً وتفصيلا.

إنّ هذه العناوين والموضوعات تتناول - في أغلبها - الجوانب الشخصية في حياة الرسول، وهي بلا شك جوانب مهمة ولها دورها في بناء الشخصية الإسلامية التي تلتزم بهدي رسول الله ﷺ كقدوة وأُسوة.

إلاّ أنّ هنالك جوانب مهمة من حياته وسيرته العملية أهمل القدماء الخوض فيها، وبيان معالمها الأساسية، وقد نجدها منبثة في ثنايا تلك العناوين التي تناولوها في مؤلفاتهم إلاّ أنهم لم يفردوا لها حيزاً كبيراً من البحث، أو تأليفاً مستقلا، وإنما مروا بها مرور الكرام !! ولم يولوها الأهمية اللازمة.

ومن أهم هذه الموضوعات - وعلى رأسها - موضوع المنهج السياسي والحركي وأُسلوب الدعوة الذي اتبعه الرَّسول الأكرم في بناء دولة الإسلام الأُولى، وكذلك موضوع المنهج التغييري والتربوي، الذي وضع أُسس منهجه وسار عليه ﷺ في عملية تغيير وتربية ذلك المجتمع الجاهلي الذي أشرق نور الإسلام في ربوعه، بالاضافة إلى موضوعات أُخرى لها أهميتها في حياتنا السياسية والاجتماعية، ولهذا نجد الدراسات الحديثة لموضوع السيرة النبوية قد أولت بعض الأهمية لمثل هذه البحوث؛ فصدرت دراسات قيمة في مثل هذه الموضوعات وغيرها سوف يأتينا الاشارة إليها في ثنايا وهوامش هذا الكتاب. ولا زالت الحاجة قائمة للمزيد من الدراسات والبحوث حول هذه الموضوعات الحيوية.

الأسئلة:

١ - كيف نناقش دعوى تأخّر تدوين السيرة النبوية إلى نهاية القرن الأول الهجري؟

٢ - من هو أوّل من صنّف في المغازي والسّير والرجال كما نصّ على ذلك صاحب الذريعة؟

٣ - ما هي أهم الكتب في السّيرة النبوية مما كتبه رجال الشيعة وعلماؤهم؟

٤ - ما هي الأسباب التي دعت (عبد الملك بن مروان) إلى إحراق كتاب في المغازي وجده في يد أحد أبنائه؟

٥ - ما هي أهمّ المناهج والاتجاهات في دراسة السيرة النبوية؟

٦ - ما هي أهمّ موضوعات السيرة النبوية التي تنوّعت الكتابة فيها؟

الدرس الثالث
المدخل إلى دراسة السِّيرة النَّبويَّة
«القسم الثالث»

كُتّاب السِّيرة النَّبويَّة

محاور البحث:

١ - دراسة موجزة في بعض كتب السِّيرة النَّبويَّة:
أ - سيرة ابن إسحاق
ب - سيرة ابن هشام
ج - مغازي الواقدي
د - طبقات ابن سعد
هـ - عيون الأثر
و - السِّيرة النَّبويَّة (لابن كثير)
ز - السِّيرة الحلبيَّة
٢ - كتاب السِّيرة في العصر الحديث
٣ - الشروط العامَّة لدراسة السِّيرة
٤ - المستشرقون والسِّيرة النَّبويَّة:
أ - مراحل الاستشراق
ب - الأخطاء المنهجيَّة لدى المستشرقين
• الأسئلة

كُتّاب السِّيرة النبوية

١ - دراسة موجزة في بعض كتب السِّيرة الشَّهيرة

فيما يلي دراسة موجزة في بعض كتب السِّيرة النَّبويَّة الشَّهيرة، والَّتي تُشكِّل المصادر الأوَّليَّة لمادَّة السِّيرة النَّبويَّة:

أ - سيرة ابن إسحاق:

مؤلِّف السِّيرة هو (محمد بن إسحاق بن يسار) وقد أُسِرَ جدّه يسار في مدينة عين التمر بالعراق عام (١٢ هـ / ٦٢٣ م) عندما دخلها خالد بن الوليد، فأخذ جَدّه مع السَّبي إلى المدينة فكان أوّل سَبْي من العراق يدخل المدينة، ثم أُعتق يسار بعد اعتناقه الإسلام فغدا من طبقة الموالي. وكان يسار قد رُزق ثلاثة أولاد، أحدهم إسحاق الذي ولد في المدينة حوالي عام (٨٥ هـ)، وبها نشأ وترعرع.

ثقافته:

سهر إسحاق على تعليم ولده محمَّد وتزويده بالثَّقافة السَّائدة في ذلك العهد كالحديث والفقه، وكان إسحاق نفسه من المهتمِّين بأحاديث رسول الله ﷺ وقد تقدَّم أنَّه كان من أصحاب الباقر عليه السلام، ولم يسمع محمَّد من أبيه فقط بل أخذ العِلْم من أكابر التَّابعين أيضاً ممَّن كان في المدينة، ثم سافر إلى مصر سنة (١١٥ هـ) حيث وفد على الإسكندرية ليروي عن شيخ محدِّثيها (يزيد بن أبي حبيب) ويبدو أنَّه ظلَّ في مصر حتى عام (١١٩ هـ - ٧٣٨ م) فكان في هذه السَّنة في الإسكندرية

كما يرى الدكتور «زكار»[١] ثم عاد منها إلى المدينة وأخذ ينتشر صِيْته، وفي سنة (١٢٣ هـ) أخذ الزهري يبرزه إلى تلاميذه، وفي عام (١٣٢ هـ) اتَّصل بأحد أعلام المدينة وهو سفيان بن عيينة. وقد شهد كلٌّ منهما بكفاءة محمد بن إسحاق.

كتاب سيرة ابن إسحاق:

حالة الضِّيق والعنت الَّتي لاقاها ابن إسحاق في المدينة دفعته إلى مغادرة المدينة، والهجرة إلى العراق، وهجرته إلى العراق والكوفة بالتّأكيد تعني انتهاء مرحلة التقيَّة وانتهاء مرحلة المضايقات الّتي كان يُواجه بها من قِبَل المدنيين، ويرى الدكتور «سهيل زكار» أنَّ هجرة ابن اسحاق لابدَّ أن تكون قبل بناء بغداد، لكن بعد ولاية المنصور للخلافة ويرجح أنَّها كانت بين عام (١٣٦ و ١٤٤ هـ)، وفي عام (١٤٦ هـ) قصد ابن إسحاق الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور عندما كان هذا الأخير في الحِيْرَة قبل تحوُّله إلى مدينة بغداد[٢].

ورُويَ أن تصنيف ابن اسحاق لسيرته كان قد تمَّ بناءً على رغبة المنصور في تعليم ولده المهدي، وفي رواية أخرى أنَّها تمَّت على رغبة المهدي نفسه لتعليم ابنه هو، ولكنَّ الخطيب البغدادي في كتابه الكبير «تأريخ بغداد» يرجِّح الرِّواية الأولى . . . الَّتي تُفيد أنَّ التَّصنيف كان قد تمَّ بناءً على رغبة المنصور[٣]، ولكنَّ أمر تصنيف ابن إسحاق سيرته في بغداد فيه شيء من التعسُّف، فيرجِّح الباحثون أنَّه كان قد صنَّف السِّيرة أو جزءاً منها قبل مغادرته المدينة وعندما نزل بالكوفة

---

(١) زكار – د. سهيل، سيرة ابن إسحاق: المقدمة: ١٠ .

(٢) المرجع نفسه: ١٣ .

(٣) الخطيب البغدادي – الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد: ١ / ٢٣٧، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأُولى (١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م).

حدَّث عنه كوفيُّون كثيرون، وإحدى روايات السِّيرة تنتمي إلى الكوفة برواية زياد بن عبدالله البكائي والَّتي هذَّبها ابن هشام في سيرته المعروفة، وسيأتي الحديث عن ذلك في المآخذ على سيرة ابن إسحاق.

وينقل الخطيب البغدادي أنَّ المنصور عندما اطَّلع على سيرة ابن إسحاق بعدما فرغ منها طلب منه اختصاره، فاختصره[(١)].

وقد تكوَّنت ثلاث نسخ من سيرة ابن إسحاق إحداها تعود إلى العهد المدنيِّ والثَّانية إلى العهد الكوفيِّ والأخيرة إلى العهد البغداديِّ وقد رواها ترتيباً (زياد بن عبدالله البكائي (١٨٣ هـ - ٧٩٩ م) و (يونس بن بكير ١٩٩ / ٨١٤ هـ) ومحمد بن سلمة الحراني، (١٩١ هـ - ٨٠٧ م) ويلاحظ أنَّ سيرة ابن إسحاق برواية الحراني قد تضمَّن ميولاً عبَّاسية للمؤلِّف لم تكن في النُّسخة الأُولى[(٢)]، والَّتي منها تفسير قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)] أنَّها نزلت في العباس.

مضامين سيرة ابن إسحاق:

قَسَّم ابن إسحاق سيرته إلى ثلاثة أقسام سُمِّيت: المبتدأ والمبعث والمغازي.

القسم الأول: المبتدأ، وقسَّمه إلى أربعة فصول عُني أولها بدراسة الوحي قبل النَّبيِّ ﷺ منذ خلق آدم حتى رسالة عيسى عليه السلام.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٣٧.

(٢) زكار - المرجع السابق: ١٤.

(٣) الأنفال: ٧٠.

وقد اقتبس ابن إسحاق مادَّة هذا الفصل من روايات وهب بن منبه، وروايات ابن عباس، وأخبار علماء أهل الكتاب ومن نصوص التوراة والإنجيل. فيما اختصَّ الفصل الثَّاني من القِسم الأول بتأريخ اليمن في الجاهليَّة، بينما اقتصرت الدِّراسة في الفصل الثَّالث على تأريخ القبائل العربيَّة وانتشار عبادة الأصنام فيما بينها. أما الفصل الرابع فتناول فيه ابن إسحاق أجداد النّبيِّ ﷺ المباشِرين والدِّيانات الَّتي كانت سائدة. ويُلاحَظ في هذا القسم نُدرة الأسانيد[1].

والقسم الثاني: المبعث، ويشمل حياة النَّبيِّ ﷺ في مكة والهجرة، وربَّما شمل العام الأول من نشاطه في المدينة. ويزداد في هذا الجزء عدد الأسانيد، ويعتمد ابن إسحاق – في هذا القسم خاصةً – روايات شيوخه في المدينة.

وفي هذا القسم دوَّن ابن إسحاق وثيقة لم يدوِّنها أحد من جامعي المغازي الأوائل تلك هي الوثيقة التي كتبها النَّبيُّ ﷺ والَّتي اعتبرت نظام مجتمع المدينة، كذلك دوَّن مجموعات كاملة من القوائم، قائمة بالمؤمنين الأولين، وقائمة بالمسلمين الَّذين هاجروا إلى الحبشة، وقائمة بأوّل من أسلم من الأنصار، وقائمة بالمشركين في بيعتي العقبة، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الَّذين تلقَّوهم في المدينة وقائمة بالمهاجرين والأنصار الَّذين آخى بينهم النَّبيُّ ﷺ.

والقسم الثالث: المغازي: وهو تأريخ النَّبيّ ﷺ منذ أوّل صيحة للحرب مع المشركين إلى أن تُوفِّي النَّبيّ ﷺ، والقاعدة هنا وجود الأسناد، ورواته في هذا القسم شيوخه في المدينة وأهمّهم الزهري، وعاصم بن عمر، وعبدالله بن أبي بكر وغيرهم من الرُّواة. وفي هذا القسم دوَّن ابن إسحاق معلومات أخذها من أقارب من اشترك في المغازي. واتَّبع ابن إسحاق منهجاً محدَّداً لعرض الغزوات،

---

(١) وقد صدر مؤخراً عن مؤسسة الانتشار العربي في بيروت (٢٠٠٦ م) القسم الأول من سيرة ابن إسحاق تحت عنوان: «المبتدأ في قصص الأنبياء» جمعه ووثق نصوصه محمد كريم الكوّاز.

حيث يقدِّم ملخَّصاً حاوياً للمحتويات في المقدِّمة، ويتبعه خبراً جماعيّاً مؤلَّفاً من أقوال أوثق أسانيده، ثم يكمل هذا الخبر الرئيس بالأخبار الفرديَّة الَّتي جمعها من المراجع الأخرى. والقوائم هنا أيضاً كثيرة فهو قد دَوّن قائمة بأولئك الّذين حاربوا في بدر، وأخرى بالقتلى والأسرى، وثالثة بقتلى أحد، وكذلك قتلى الخندق، وخيبر ومؤتة، والطَّائف، والمهاجرين الَّذين رجعوا من الحبشة.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ سيرة ابن إسحاق لم تصل إلينا كاملة كما هي، حيث وصلت إلينا عن سيرة ابن هشام الَّذي عمد إلى تهذيب هذه السِّيرة، وحذف الكثير من المعلومات الواردة فيها لأسباب سياسية أشار إليها ابن هشام في مقدمة كتابه بقوله: «. . وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب. . وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوءُ بعض الناس ذكره. . »[1]. ولكن وجدت مؤخراً عدَّة قطع أُخرى من السِّيرة نفسها[2].

سيرة ابن إسحاق والنُّقَّاد:

اختلف النقَّاد في أهمِّية سيرة ابن إسحاق، فثَمَّة من وثَّقه، وثَمَّةَ من حَاوَلُوا التَّشكيك في وثاقته وقيمة سيرته أيضاً.

وفي صدر الحديث عن وثاقته ننقل نصَّ (ابن خلِّكان) والَّذي نقل فيه توثيق بعض الأعلام لابن إسحاق، يقول: «وكان محمد المذكور ثَبْتاً في الحديث عند أكثر العلماء، وأمَّا في المغازي والسِّير فلا تجهل إمامته قال ابن شهاب الزهري:

(١) ابن هشام - أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية: ١ / ٤ بتحقيق: شلبي والسقا والابياري.

(٢) للتوسع انظر: سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق المطلبي، تحقيق د. سهيل زكار، ط. الأُولى، (١٩٧٨ م)، مقدمة التحقيق: ١٦ . وقارن بما كتبه عبد العزيز الدوري عن ابن إسحاق في نشأة علم التاريخ عند العرب: ١٦٦ وما بعدها. كذلك ما كتبه شاكر مصطفى في التاريخ العربي والمؤرخون: ١ / ١٦٠ وما بعدها.

من أراد أن يتبحَّر في المغازي فعليه بابن إسحاق، وذكره البخاري في تأريخه، ورُوي عن الشافعي أنّه قال: من أراد أن يتبحَّر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق، وقال سفيان بن عيينة ما أدركت أحداً يتهم ابن إسحاق في حديثه، وقال شعبة بن الحجَّاج: محمد ابن إسحاق أمير المؤمنين، يعني في الحديث، ويحكى عن الزهري أنّه خرج إلى القرية فاتَّبعه طُلاَّب الحديث فقال لهم: أين أنتم من الغلام الأحول.. يعني ابن إسحاق، وذكر الساجي أنَّ أصحاب الزهري كانوا يلجأون إلى محمد بن إسحاق، فيما شكوا به من حديث الزهري، ثقة منهم بحفظه، وحكي عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان أنَّهم وثَّقوا محمد بن إسحاق واحتجُّوا بحديثه، وإنَّما لم يُخرِج البخاري عنه وقد وثَّقه وكذلك مسلم بن الحجَّاج لم يخرج عنه إلاّ حديثاً واحداً في الرَّجم من أجل طعن مالك بن أنس فيه...»[١].

وفي هذا الصَّدد يقول ابن عدي في كتابه (الكامل): «ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلاَّ أنَّه صَرَف الملوك عن كتب لا يحصل منها علم، وصَرَف اشغالهم حتى اشتغلوا بمغازي رسول اللهﷺ، ومبتدأ الخلق ومبعث النَّبيِّﷺ، فهذه فضيلة لابن إسحاق سَبَقَ بها، ثم بعده صنَّف قوم آخرون، ولم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق ولا عِلْمه، وقد فتَّشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد في أحاديثه ما يتهيَّأ أن يقطع عليه بالضَّعف، وربَّما أخطأ، أو وهم في الشيء بعد الشيء، كما يخطىء غيره، ولم يُتخلف عنه في الرِّواية عند الثِّقات والأئمة، وهو لا بأس به»[٢].

وفي الوقت الَّذي نال فيه ابن إسحاق ثقة هؤلاء الأعلام ممَّن ذكرنا فقد قَدَح فيه آخرون وسجَّلوا عليه مآخذ، وقد بلغ القدح فيه ما بلغ عند مالك بن أنس

---

(١) ابن خلّكان – شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان: ٤ / ٢٧٦ – ٢٧٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة دار الفكر – بيروت، أُفست طبعة دار صادر (د – ت).

(٢) زكار، مرجع سابق: ١٠ عن كتاب (الكامل) لابن عدي.

وهشام بن عروة بن الزبير.

ويمكن تلخيص المطاعن الَّتي وُجِّهت إلى سيرة ابن إسحاق بعدَّة نقاط:

أولاً: اتهام ابن إسحاق بمحاباة العبَّاسيين وتزلُّفه إليهم ومحاولته تبرئة جدّهم العبَّاس بن عبدالمطلب، وإظهاره بأنَّه من المسلمين السَّابقين، وقد تقدَّم أنْ ذكرنا سبب تصنيف ابن إسحاق لسيرته وأنَّه - حسبما رُوي - تمَّ بناءً على رغبة أبي جعفر المنصور لتعليم ابنه المهدي، وقد تقدَّم أن رفضنا قَبول هذه الرِّواية جملة وتفصيلاً، حيث تدلُّ المصادر التَّأريخيَّة على أنَّ تأليف ابن إسحاق لسيرته قد تمَّ في المدينة أو على الأقل لقسم منها، وقد ذكرنا أنَّ لسيرة ابن إسحاق ثلاث روايات وثَمَّة اختلاف في ما بينها، يدلُّ على أنَّ بعض التَّعديلات وقعت على النُّسخة الَّتي عُرضتْ على أبي جعفر المنصور كما ظنَّ الدكتور «زكار»، ولكنَّنا رغم ذلك لا يمكننا الموافقة على هذا الرأي، وهو قابل للنِّقاش كما اعترف بذلك الدكتور «زكار» نفسه لأنَّه رأي يستند إلى الحدس؛ إذ لم تصل السِّيرة برواياتها الثلاث إلينا كاملة للتَّأكُّد من هذه الملاحظة ومعرفة مدى التَّغاير بينها.

ومسألة محاباة ابن إسحاق للعبَّاسيين هي نفسها محلّ نظر، فقد لا يكون ابن إسحاق قد أدخل هذه الأقوال الملفَّقة للمرَّة الأُولى بتأثير العبَّاسيين، لأنَّ تلميذه المدني إبراهيم بن سعد، روى عن ابن إسحاق القول بأنَّ العبَّاس اعترف بنبوَّة ابن أخيه بعد أسْرِه[1]. كما أنَّ ابن إسحاق لم يكن ليخفي دور العبَّاس إلى جانب المشركين في بَدْر.

ثانياً: كما أُخذ على ابن إسحاق نقله عن الصُّحف المدوَّنة في وقت كان يؤثر المحدِّثون النَّقل بالسَّماع على النَّقل عن القراطيس والصُّحف المدوَّنة. ومِن

(١) ابن سعد، الطبقات: ٤ / ٣٢٥ والرواية عن إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق.

الوثائق الَّتي اعتمدها ابن إسحاق وثيقتان إحداهما عن أستاذه المصري يزيد بن أبي حبيب، وتعود هذه الوثيقة إلى حياة النَّبيِّ ﷺ، كما نقل الوثيقة الأخرى عن عبد الله بن أبي بكر، وهي نسخة من رسالة النَّبيِّ ﷺ إلى جدِّه الأكبر.

«وأظنُّ أنَّ هذا المطعن هو الآخر ليس تامّاً؛ فليس ثَمَّة ما يقلِّل من قيمة هذه الوثائق في الوقت الَّذي يبذل فيه ابن إسحاق عنايته وجهده في تحقيق هذه الوثائق، ويُروى أنَّ ابن إسحاق كان قد بعث وهو في مصر إلى أستاذه الزهري بوثيقة قدَّمها له يزيد بن أبي حبيب عن سفارات النَّبيِّ ﷺ إلى الأمراء كي يتحقَّق من صحَّتها. نعم قد تكون ثَمَّة قوائم لم يسندها ابن إسحاق»[١].

ثالثاً: ومن المطاعن على سيرة ابن إسحاق أنَّه كان في حالة اختلاف الأسانيد والمُتون في الأحاديث يكتفي بإيراد الأسانيد مع ذكر متن واحد.

رابعاً: وممَّا أُخذ عليه أنَّه كان كثير الاستشهاد بالشِّعر أثناء عرضه لتأريخ العرب في الجاهليَّة ولتأريخ النَّبيِّ محمَّد ﷺ منذ ولادته حتى وفاته، مع أنهَّا - كما يُدعى - مشكوك بصحَّتها، وقد ادّعي عليه في هذا المجال أنها كانت تعمل له فيدخلها في سيرته.

خامساً: كثرة نقله عن أهل الكتاب خاصَّة في القسم الأول والمعروف بالمبتدأ والَّذي تناول فيه ما قَبْل عصر النَّبيِّ محمَّد ﷺ، واعتماده في الحقيقة على أهل الكتاب يُشكِّل مأزقاً لدى ابن إسحاق بل لدى جميع المُشتغِلين في الشَّأن التَّأريخيّ حيث كان يشعر هؤلاء بمدى افتقارهم للمعلومات الخاصَّة بهذا العهد وليس ثَمَّة ما يسدُّ هذا الفراغ سوى الرجوع إلى أهل الكتاب.

ومهما يكن مِن أمر فإنَّ هذه المَطَاعِن - على فرض واقعية بعضها - لا

---

(١) الحسيني - محمد، مذكرة السيرة النبوية - مخطوط: ٢٣ .

تُذهب بقيمة سيرة ابن إسحاق، فقد كان ابن إسحاق مُبدِعاً وعبقريّاً «وقد تتجلّى عبقرّية ابن إسحاق وتفوُّقه على الَّذين سبقوه في ترتيبه لكتابه بشكل فيه منطق ونظام، وترتيبه هذا وان جاء غير مثاليّ تماماً، فإنَّهُ يكفي صاحبه فخر الإبداع والدُّنوّ من درجة الكمال، وفضلاً عن ذلك فإنَّ مادَّة ابن إسحاق غنيَّة للغاية تكاد تكون حاوية لجميع ما تجمَّع لدى العرب المسلمين من أخبار، وهذه فضيلة لابن إسحاق سَبَق بها وقد صنَّف من بعده قوم آخرون في نفس الموضوع فلم يبلغوا مَبلَغه، ومادَّة ابن إسحاق، رغم المآخِذ، كبيرة الفائدة اعتمدها غالبيَّة الَّذين كتبوا أو اهتموا بسيرة النَّبيِّ ﷺ بعده وكانت دائماً موضوع دراسة وعناية»[(١)].

ب - سيرة ابن هشام:

سيرة ابن هشام وهي المعروفة بالسَّيرة النَّبويَّة، ومؤلِّفها هو كما في الأعلام[(٢)]: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ المعارفيّ، أبو محمد جمال الدِّين: مؤرِّخ، كان عالماً بالأنساب واللُّغة وأخبار العرب، وُلِد ونشأ في البصرة وتوفِّي بمصر. أشهر كُتبه (السِّيرة النَّبويَّة) المعروفة بسيرة ابن هشام، رواهُ عن ابن إسحاق. وله (القصائد الحميريَّة) في أخبار اليمن وملوكها في الجاهليَّة، و(التِّيجان في ملوك حِمْيَر) رواه عن أسد بن موسى، عن ابن سنان، عن وهب بن منبه، و(شرح ما وقع في أشعار السِّير من الغريب) وغير ذلك.

وفي الأعلام أنَّه توفِّي عام (٢١٣ هـ - ٨٢٨ م) وعن السهيلي في كتابه (الروض الأُنف)، وعن ابن يونس صاحب كتاب (تأريخ مصر) نقل عن ابن خلِّكان أنَّه توفِّي عام (٢١٨ هـ).

---

(١) زكار - مرجع سابق: ١٧ - ١٨ . وللتوسع فيما رمي به ابن إسحاق من المطاعن كالتدليس وغيرها، انظر ما كتبه الخطيب البغدادي في تاريخه: ١ / ٢٣٠ وما بعدها، وابن سيد الناس في سيرته عيون الأثر: ١ / ١٥ وما بعدها، حيث أحصى هذه المطاعن وأجاب عنها باسهاب.

(٢) الزركلي - خير الله، الأعلام: ٤ / ١٦٦، طبعة دار العلم للملايين: ط. ٤، عام (١٩٧٩ م).

وليست سيرة ابن هشام سوى سيرة ابن إسحاق بعد تهذيبها، وقد أوضح عبدالملك بن هشام أنَّه اعتمد رواية البكائي، ولا يعرف طريقة روايته لها وفيما إذا كانت مشافهة أم كانت بالإجازة ؟! وقد أوضح كذلك طريقته في التَّهذيب حيث عَمَد إلى حذف الكثير من سيرة ابن إسحاق خاصَّة القِسم الأول المعروف بالمبتدأ، كما حذف الأشعار أيضاً، فضلاً عن كثير من الأخبار الَّتي لاتنال رضا بعض الناس. ولا يخفى أنَّ أسباب الحذف والتَّهذيب لا تنحصر في السَّبب العِلميِّ فثَمَّة أسباب سياسيَّة لا بدَّ أنَّها دَعتْ ابن هشام إلى أن يعمد إلى حذف بعض الأخبار(١).

وخلاصة الأمر في سيرة ابن هشام الذائعة الصيت أنها تهذيب وتشذيب وتعديل لسيرة ابن إسحاق التي – وللأسف – لم تصل إلينا بشكلها الأول والذي وصلنا منها قطع متناثرة هنا وهناك عكف بعض المحققين على تحقيقها بعد اذعانهم بأهميتها، على أمل الحصول على قطع أُخر لعلّها تلتحم مع غيرها لتكمل لنا كتاب ابن إسحاق بشكله الأول.

يبقى أن نقول إن ابن هشام لم يكن أميناً في تهذيبه وتعديله لسيرة ابن إسحاق، فقد عمد إلى حذف أسانيد ابن إسحاق التي يتصل بعضها بأهل البيت عليهم السلام، كذلك عمد إلى تغيير متن سيرة ابن إسحاق من خلال الحذف والاضافة وتعديل العبارات أو تغييرها، بالإضافة إلى حذف القسم الأول من الكتاب الذي سمّاه ابن إسحاق بالمبتدأ، وحذف الأبيات الشعرية بحجة أنها غير معروفة.. وهكذا تلاعب في متن الكتاب ولم يحسب للأمانة العلمية في النقل حسابه !!

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ١ / ٤، حيث يصرِّح بمنهجه في كتابه بأنَّه: تارك بعض ما ذكره ابن إسحاق – ومنها – «وأشياء بعضها يَشنعُ الحديثُ به، وبعضٌ يسوء بعض الناسِ ذكرهُ» وقارن ما كتب الدكتور سهيل «زكار» في مقدمة سيرة ابن إسحاق.

ج - مغازي الواقدي:

الواقدي هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد، وقد عُرف بالواقديّ المدنيِّ، ولُقِّب بالأُسلمي لانتمائه بالولاء لعبد بن بُريدة من بني أسلم المدنيين، كما عُرِف أنَّه ينتمي بالولاء إلى الهاشميين.

وكانت ولادته في عام (١٣٠ هـ) في عهد آخر خلفاء بني أُمية مروان بن محمد، وقد عاش ثمانية وسبعين عاماً إذ تُوفِّي سنة (٢٠٧ هـ) في بغداد، وكان قَدِمها في عهد الرَّشيد، ودفن فيها بمقبرة الخيزران.

وقد قضى الواقدي خمسين سنة من عمره في مدينة رسول الله ﷺ، منكبّاً فيها على الدراسة لدى شيوخ المدينة، حتى بَلَغ ما بلغ من شُهرة وصِيْت في الأوساط العِلميَّة، إلى درجة أصبحت تؤهِّله أن يُدرِّس كتابه المغازي في مسجد رسول الله ﷺ، وغَدَا مرجعاً لا يحجم أقطاب العِلْم في المدينة عن سؤاله والأخذ برأيه. وفي هذا الصَّدد نقل الخطيب البغدادي رواية تفيد أنَّ مالك بن أنس سُئل عن قتل السَّاحرة، فقال: انظروا هل عند الواقدي من هذا شيء. . .) وروايات أخرى في هذا الصَّدد ذات علاقة[1].

ثقافته:

لقد كانت ثقافته واسعة، وقد حرص الواقدي على الوقوف على أكثر من ميدان من ميادين العِلْم، فَدَرَس الفقه والحديث والتَّفسير وعلوم القرآن والأدب والتَّأريخ وهو الميدان الَّذي قصر اهتمامه في التَّأليف عليه في أواخر حياته، وقد بَلَغ ما ألفه في التَّأريخ ثمان وعشرين كتاباً بحسب ما ذكره ابن النديم في الفهرست[2].

---

(١) انظر ترجمته في تأريخ بغداد: ٣ / ٢١٢ وما بعدها، وهي ترجمة وافية.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ١١١ وانظر مقدمة الجزء الأول من المغازي.

وموضوعات مؤلفاته التاريخية متنوعة جمع فيها مادة ضخمة دونها التدوين الحسن، وعلى رأس هذه المؤلفات كتاب المغازي وهو الكتاب الوحيد الباقي من مؤلفات الواقدي، وهنالك كتب أُخرى تنسب إليه موجودة في مخطوطات بعض المكتبات ونشر بعض منها، إلاّ أنها مشكوكة النسبة إلى الواقدي(١).

ومن الطَّريف ما يُروى أنَّ المأمون رَغب في تحفيظ الواقدي بعض سُوَر القرآن الكريم ليُصلِّي الجمعة بالمصلِّين عندما أُسند إليه القضاء فلم يُفلِح وذهبت جهوده عبثاً حتى قال: (هذا رجل يحفظ التَّأويل ولا يحفظ التَّنزيل)(٢).

طريقة الواقدي:

اتَّبع الواقدي خطَّة ثابتة في عرضه المغازي: فيبدأ بذكر عام خروج الغزوة ورجوعها، ويتبعه بأخبار الغزوة ويتألَّف العَرْض في الفصول الطَّويلة من خبر رئيس واحد مكوَّن من كثير من الرِّوايات الفرديَّة الَّتي يُضيف إليها أخباره الخاصَّة، ويذكر في النِّهاية - أغلب الأحيان - نائب النَّبيِّ ﷺ على المدينة في غيابه، وبعض الأشعار والآيات الَّتي تحتوي على اشارات للحادِث الَّذي يعالجه، وقوائم، ويبدو أيضاً على طريقة الواقدي أنَّها لا تقتصر على تكرار الحقائق التَّأريخيَّة المعروفة بل طبعت مغازيه بنظرة مستقلَّة ظهرت فيها شخصيَّته(٣).

المؤاخذات على مغازي الواقدي:

وُجِّهت عدَّة مؤاخذات على مغازي الواقدي منها:

أولاً: محاباته العبَّاسيين وحرصه على إرضائهم، وهذا السَّبب هو الَّذي

---

(١) شاكر مصطفى، مرجع سابق: ١ / ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) الخطيب، تاريخ بغداد: ٣ / ٢١٧ .

(٣) عثمان - محمد فتحي، المدخل إلى التاريخ الإسلامي: ١٤٥ - ١٤٦، طبعة دار النفائس - بيروت، ط. الثانية، (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).

دعا الواقدي إلى حذف اسم العبَّاس بن عبدالمطلب من قائمة الأسرى في معركة بدر ووضع (فلان) بدلاً من اسم العبَّاس في قائمة الَّذين أمدُّوا جيش قريش بالمؤنِ وكذلك ذِكْره الرِّواية القائلة بأنَّ العبَّاس كان في صدر قائمة العطاء الَّتي كتبها عمر، وذلك إرضاء للبيت الحاكم، ويبدو هنا أنَّ هذا المطعن أمضى على الواقدي منه على ابن إسحاق[١].

نذكر أنَّ الواقدي قدم على الرشيد عام (١٨٠ هـ) وقد قلَّده هارون الرشيد القضاء في الجانب الشَّرقي ثُمَّ الجانب الغربي منها، كما اهتمَّ به المأمون وعنى به أشدَّ العناية، وقلَّده القضاء أيضاً.

ولعلَّ اتِّصاله وقُربه من العبَّاسيين هو الَّذي وَلَّد بينه وبين ابن حنبل نفرة شديدة، ويقال إنَّ الأخير كان يُنكِر عليه جمعه الأسانيد في متن واحد.

ثانياً: ومن المآخذ على الواقدي نقله عن سيرة ابن إسحاق بسبب المَطَاعِن الَّتي نالت سيرة الأخير والَّتي هي في مُجمِلها تعود فيما أظنُّ إلى ولائه لعليٍّ عليه السلام، وهو ما اتهُّم به الواقدي أيضاً كما عن ابن النَّديم، وهو ما ذكرناه سابقاً.

وليس طعن الواقدي لجهة نقله عن سيرة ابن إسحاق فحسب، بل طعن لجهة نقله عنه دون أن يُعرِّف بذلك، أي أنَّه كان يُدلِّس ويحاول الإخلال بالأمانة. ولم يذكر ابن إسحاق على الإطلاق، وهو ما يُثير الشَّك بالتَّأكيد إذ لا يُعقل أبداً - مهما بلغت المطاعن على ابن إسحاق وأحكمت - أن لا يعتمد الواقدي على ابن إسحاق، وسيرته هي أوّل ما صُنِّف في هذا العِلم بما لم يعهده من قَبْل.

---

(١) المرجع نفسه: ١٤٦ .

ثالثاً: استشهاده بالقصائد الشِّعرية وإن لم يبلغ ما استشهد به ابن إسحاق في سيرته.

رابعاً: اعتماده على الصُّحف المدوَّنة وهو ما لم يستسغْهُ المحدِّثون؛ نظراً لتعرضها للتَّزوير، و هو ما انتقد به ابن إسحاق.

خامساً: كما أُخذ عليه أنَّه يعتمد على عدَّة أسانيد ومتون ويمزج بينها، ذاكراً بعضها دون الآخر، وهو ما أخذه عليه أحمد بن حنبل(١).

د – سيرة محمد بن سعد:

وهو محمد بن سعد بن منيع البصري المولود في البصرة سنة (١٦٨ هـ) والمتوفَّى سنة (٢٣٠ هـ) ببغداد. ويُروى أنَّه كان من موالي بني هاشم وبني العبَّاس بالتَّحديد، ومنهم من نسب ولاءه إلى بني زهرة القرشيين، والأول هو المشهور(٢).

وقد اعتبر محمد بن سعد آخر المهتمِّين بجمع أخبار مغازي الرَّسولﷺ، وهو ممَّن اختصَّ بالواقدي صاحب المغازي المعروف، ولاختصاصه بالواقدي وملازمته له لُقِّب بـ (كاتب الواقدي).

ثقافتهُ:

وبالنِّسبة لثقافة ابن سعد، فإنَّها كانت واسعة ومتعدِّدة النَّواحي؛ فلم تقتصر على التَّأريخ والسِّير والحديث، بل تعدَّت إلى نواحي الفقه واللُّغة والنَّحو والقراءة؛ وقد أخذ علومه هذه وفي النَّواحي المتعدِّدة منها من علماء مبرزين.

---

(١) انظر مقدمة كتاب المغازي: ١ / ٢٩ .

(٢) انظر : شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون : ١ / ١٦٦ (مرجع سابق).

ولم تأت ثقافة ابن سعد الواسعة إلاّ من شدَّة اهتمامه وشغفه في طلب العِلْم، ولأجل ذلك رحل من موطنه البصرة إلى المدينة والكوفة وبغداد، وكان قد بدأ رحلاته العلميَّة ببغداد حيث التقى هناك أستاذه الواقدي، ثم رحل إلى المدينة المنورة ومكة[١]. وتَذْكُر المصادر أنَّه كان فيها سنة (١٨٩ هـ)، أي أنَّه كان في أوائل العقد الثَّالث من عمره، وبما يزيد على العشرين قليلاً، ومنها رحل إلى الكوفة، إلاّ أنَّه لم يلبث أن عاد أدراجه إلى بغداد، وفيها أخذت شهرته تنتشر، حتى عُدَّ من فقهائها ومحدثيها المشهورين.

توثيق ابن سعد:

يكاد يتَّفق علماء والجرح والتّعديل أنَّ ابن سعد كان ثقة صدوقاً[٢]. وفي الوقت الَّذي لم يُوثِّق فيه البعض أستاذه الواقدي؛ وَثَّقوه هو ووصفوه بالصدق.

وعلى الرَّغم من ذلك فقد نقل الخطيب البغدادي[٣] رأياً ليحيى بن معين وصف فيه ابن سعد بالكاذب، فقد روى بسنده عن الحسين بن فهم أنَّه كان عند مصعب الزبيري، فمرَّ بهم يحيى بن معين، فقال له مصعب: يا أبا زكريا حدَّثنا محمد بن سعد الكاتب (بكذا وكذا) - وذكر حديثاً - فقال له يحيى: كذب!

كتاب طبقات ابن سعد (الطَّبقات الكُبرى):

ويقع كتاب الطبقات الكبرى الَّذي عُرف اختصاراً بطبقات ابن سعد، في قسمين: أوّلهما في حياة الرَّسولﷺ، فيما اختصَّ الثَّاني في حياة الصحابة، والَّذي يعنينا هو القِسم الأول منه لأنَّه الأقرب إلى موضوعنا.

---

(١) تاريخ بغداد، مصدر سابق: ٢ / ٣٦٩ ومقدمة كتاب الطبقات: ١ / ١١ .

(٢) ابن خلكان، مصدر سابق: ٤ / ٣٥١ .

(٣) تأريخ بغداد: ٢ / ٣٧٠ .

وفي هذا القِسم - أعني القسم الَّذي عُني بحياة الرَّسولﷺ - اعتمد ابن سعد على المادَّة الكبيرة الَّتي تركها له أسلافه، كابن إسحاق، وأبي معشر، وموسى بن عقبة، والواقدي أستاذه، ولكنَّه كما يبدو كان أكثر اعتماداً على الواقدي، حَتىّ حمل ذلك ابن النَّديم على الادِّعاء بأنَّ ابن سعد ألفَّ كتبه من تصنيفات الواقدي(١). ولكنَّه لم يعمد إلى إلغاء فضل الواقدي عليه، ولاتجاهله كما فعل أستاذه الواقدي إزاء ابن إسحاق، وهو ما يمنح ابن سعد طابعاً خاصَّاً من النزَّاهة والأمانة.

ويعتبر كتاب ابن سعد، والقِسم الأول منه على الأخصِّ، كتاباً مُهمّاً جدّاً، ويكتسب أهمِّية من أنَّه أوّل مؤلَّف يصلنا كاملاً بعد كتاب ابن إسحاق، بصدد حياة النَّبيِّﷺ، خلا كتاب مغازي الواقدي الَّذي وصل كاملاً.

مميِّزات كتاب الطبقات:

وقد تفرَّد كتاب الطبقات لابن سعد في عدَّة أُمور منها:

أوّلاً: اتَّصفت طبقات ابن سعد بالتَّفصيل في مواضع لم يكن ابن إسحاق يعطيها حقَّها من التَّفصيل، كما في الفصول الخاصَّة بأخلاق النَّبيِّﷺ وعاداته والفصول الخاصَّة برسائله وسفاراتهﷺ، وكذلك الفصول الخاصَّة بمرضه ووفاته، وفي الوقت الَّذي يهمل هذا المنهج، أعني التَّفصيل، في المسائل الّتي عني ابن إسحاق في تفصيل الحديث عنها، كما في ماضي بلاد العرب الجاهليِّ الَّذي لا يتصلُّ بأجداد النَّبيِّﷺ المباشرين.

ثانياً: لقد كان ابن سعد، كما يبدو، من أوائل مَنْ توسع في الحديث عن (علامات النُّبوَّة) ذلك العمل الَّذي مهَّد لظهور الكُتب المتأخِّرة في (دلائل النُّبوة) كما كان له فضل السَّبق في الحديث المفصَّل عن أخلاق النَّبيِّﷺ الَّذي مهَّد

(١) ابن النديم؛ الفهرست ١١١ - مصدر سابق.

لظهور أدب ما عُرِف بـ (الشَّمائل)[١].

ثالثاً: كما عني ابن سعد في الحديث عن جوانب هامّة من السيرة النبوية من قَبِيل النِّيابة عن النَّبيِّ ﷺ وحَمْل اللِّواء، ومَنْ قام بالإفتاء في حياته، وهي أمور خطيرة وجليلة، تمدُّ المؤرِّخ بمادَّة تأريخيَّة غنيَّة، وتُسعفه على إعطاء وصف كامل للحياة السِّياسيَّة والثقافيَّة والعسكريَّة في زمن النَّبيِّ ﷺ.

قيمة الطبقات لدى النُّقاد:

سبق أن ألمحنا إلى النقاط الأساسيَّة الَّتي شكَّلت أساس النَّقد لابن إسحاق وغيره، وكان من جملتها الاكتفاء بمتن واحد وسند واحد في الوقت الَّذي تتعدَّد فيه الأسانيد والمُتُون، كما أخذ أيضاً عليهم النَّقل عن الصُّحف المدوَّنة وهي عند المحدِّثين غير ذات قيمة إذا ما قِيْسَت بأسلوب الرِّواية نقلاً عن الأشخاص.

ولأجل ذلك عمد ابن سعد إلى تجنُّب هذا النَّقد ووفَّر على نفسه مشقَّة مواجهة المحدِّثين فَعَمَد إلى ذِكْرِ الأسانيد والمتون كاملة، كما لم يعتمد على الصُّحف المدوَّنة، ففاز برضا المحدِّثين عنه. إلاَّ أنَّ التزام ابن سعد بهذا المنهج أضفى على طبقاته أسلوب المحدِّثين، ونأى به عن أُسلوب المؤرِّخين، فكان بذلك كتابه أشبه ما يكون بكتاب حديث منه إلى أن يكون كتاباً في التَّأريخ.

والتزامه بهذا المنهج جرَّده من شخصيَّته وجعله مجرَّد جامع للأخبار وناقل لها. ولكنَّه على الرَّغم من ذلك لاحظ الباحثون في كتابه مقدرة كبيرة على النَّقد في مواضع عديدة لم تسمح الظُّروف أن تُطلق له العنان في استثمارها والإفادة منها[٢].

---

(١) الحسيني: ٢٩ (مرجع سابق) وانظر: المدخل إلى التأريخ الإسلامي: ١٤٧ (مرجع سابق).

(٢) الحسيني، ملزمة السيرة النبوية: ٣٠.

هـ - عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائِل والسِّير:

لمؤلِّفها ابن سيِّد الناس، وهو فتح الدِّين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى الشافعي اليعمري الأندلسي المولود في القاهرة سنة (٦٧١ هـ) أو (٦٦١ هـ)، والمتوفى سنة (٧٣٤ هـ) وقد عُرِف بـ «ابن سيد الناس» لحفظه القرآن، وكان قد درس العلوم الدينيَّة في القاهرة ودمشق، حتى غَدَا مدرِّساً للحديث في المدرسة الظاهريَّة بالقاهرة. وقد اهتَّم «ابن سيد الناس» بالسِّيرة وتوفَّر على الاطِّلاع الكامل على مصنَّفات من تقدَّم عليه من مؤرِّخي السِّيرة والمغازي فألَّف كتابه (عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائِل والسِّير) وهو كتاب مختصر، إلاَّ أنَّه، كما يبدو للباحثين، من الدِّقة بمكان، فقد استطاع «ابن سيد الناس» الإفادة من جهود المتقدِّمين عليه فاستصفى الموثوق من سيرة ابن إسحاق وموسى بن عقبة، والواقدي، وطبقات ابن سعد وغيرهم[١].

و - السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير:

وهو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي، نشأ بدمشق وتوفِّي فيها سنة (٧٧٤ هـ) عن أربع وسبعين سنة.

وثقافة ابن كثير واسعة، كتب في التَّفسير والحديث والتَّأريخ، وكتاب، (البداية والنِّهاية) موسوعة تأريخيَّة تُعدُّ من المراجع المهمَّة في حقل التَّأريخ.

أمَّا كتابه (السِّيرة النبَّويَّة) المطبوع مستقلاً عن كتابه التَّأريخيِّ (البداية والنهاية) فهو جزء من كتابه الأخير المُشار إليه حقَّقه مصطفى عبد الواحد.

وتمتاز سيرته بكثرة اهتمامه بالأسانيد باعتباره محدِّثاً، كما أنَّه نقل عن كتب تُعدُّ اليوم مفقودة كسيرة موسى بن عقبة، وكتاب الأموي في المغازي.

---

(١) انظر ترجمته في المجلد الأول من كتابه عيون الأثر: ١ / ٥ .

ومن جهة أخرى يلاحظ على ابن كثير أنَّه عندما ينقل عن مصادره لا يلتزم بالنُّصوص الواردة فيها إلى درجة تكاد لا تجد خبراً مطابقاً بحروفه لِمَا في الكتب المتداولة. وهو نهج قد يكون قد تأثَّر به من احتكاكه بأستاذه ابن تيمية المتوفَّى (٧٢٨ هـ)[(١)].

ز - السِّيرة الحلبيَّة:

وهي السِّيرة المسمَّاة بـ (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) لنور الدين ابن برهان الدين علي بن إبراهيم بن أحمد القاهري الشافعي الَّذي وُلِدَ في القاهرة عام (٩٧٥ هـ) والمتوفَّى في (١٠٤٤ هـ).

كان أحد المدرِّسين في المدرسة الصَّلاحيَّة بالقاهرة، وقد عاصر القرن الأول من الفتح العثماني لكل من بلاد الشام ومصر. وقد اعتمد في كتابته للسِّيرة على كتاب السِّيرة الشَّاميَّة لشمس الدِّين الصَّالحي الشَّامي المتوفَّى (٩٤٢ هـ).

٢ - كُتّاب السِّيرة في العصر الحديث

عُنِيَ عدد كبير من الباحثين بالسِّيرة النَّبويَّة تدقيقاً وتحقيقاً، فيما عَمَد آخرون إلى دراسة المفاصل الرئيسيَّة من حركة النُّبوة واستخلاص العِبَر منها وهو ما عُرِف بفقه السِّيرة، كما عَمَد آخرون إلى الحديث عن جوانب معيَّنة من حياة النَّبيِّ ﷺ كالمجال العسكريِّ مثلاً.

ومن أشهر هذه المؤلَّفات:

«حياة محمَّد» لمؤلفه محمَّد حسين هيكل، ودراسة في السِّيرة للدكتور عماد الدين خليل، وفقه السِّيرة للدكتور محمد سعيد البوطي، وفقه السِّيرة أيضاً

---

(١) للتوسع انظر مقدمة كتاب السيرة النبوية لابن كثير بقلم محقق الكتاب: مصطفى عبد الواحد.

للشيخ محمد الغزالي، والسِّيرة النبَّويَّة للدكتور جواد علي، وسيرة المصطفى لهاشم معروف الحسني، والصَّحيح من سيرة الرَّسول الأعظم للسيِّد جعفر مرتضى في عدَّة مجلَّدات. وسيرة سيِّد المرسلين للشيخ جعفر السبحاني وموسوعة تاريخ الإسلام للشيخ اليوسفي الغروي في عدّة مجلدات، وغيرها.

وكَتَب عَدد من المستشرقين في سيرة النبيِّ ﷺ سنأتي على ذكرها في الفصل الَّذي نعقده للاستشراق في السِّيرة.

وينبغي الإشارة إلى أن ما ذكرناه من أسماء لبعض الكتّاب ومؤلفاتهم في السيرة النبوية ما هو إلاّ إيجاز واختصار من قائمة طويلة لمؤلفات كثيرة تشكل بعضها موسوعات قيمة: ككتاب دلائل النبوة للبيهقي (ت ٤٥٨ هـ) في سبعة مجلدات، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) في خمسة مجلدات، وامتاع الأسماع للمقريزي (ت ٨٤٥ هـ) في خمسة عشر مجلداً، والمواهب اللدنية للقسطلاني (٩٢٣ هـ) وشرحها للعلاّمة الزرقاني (ت ١١١٢ هـ) في عدّة مجلدات، وسبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي (ت ٩٤٢ هـ) في ثلاثة عشر مجلداً، وتاريخ الخميس للديار بكري (ت ٩٦٦ هـ) في مجلدين كبيرين. بالاضافة إلى ما تضمنته كتب التاريخ العام من سيرته كتاريخ الطبري، وابن الأثير، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ الإسلام للذهبي.. وغيرها.

أمّا كتّاب السيرة في العصر الحديث فما ذكرناه من كتبهم هو النزر اليسير والقائمة طويلة جداً في ذكر ما كتب في السيرة من دراسات وبحوث لا تخلو الكثير منها من أصالة وعمق وعرض شيق لأحداث السيرة.

٣ - الشُّروط العامَّة لدراسة السِّيرة

ابتداءً يمكن القول أنَّ ثَمَّة فَرْقاً ملحوظاً بين كتابة سيرة نبيّ من أنبياء الله تعالى، وسيرة شخصيَّة تأريخيَّة لا تتمتَّع بهذه المزية - أعني النبوَّة - ولا تتوفَّر على خصائصها الفريدة. ولمكان هذه الخصائص يمكن القول أنَّ سيرة نبيٍّ من الأنبياء يجب أن يُنظر إليها كمزيج وخليط من النَّشاط الإنسانيِّ والفاعليَّة البشريَّة من جهة، والإمداد الإلهي والعناية الربَّانيَّة من جهة أخرى.

وانطلاقاً من هذه النَّظرة تبدو سيرة النبيِّ محمَّدﷺ عبارة عن التَّشكيل التَّأريخيِّ والواقعيِّ لعقيدة الإسلام، قرآناً وسُنَّة، ورصيداً تشريعيّاً فضلاً عن ما تمثِّله من بيئة زمانيَّة ومكانيَّة لفاعليَّة النبيِّ محمدﷺ[١].

فالسيرة إذاً، ليست مسألة تأريخيَّة محضة، تفصلها عن العقيدة والرِّسالة الإسلاميَّة حدود وفواصل، بل هي نسيج مُتلاحِم من عدَّة عناصر مترابطة تشكِّل بمجموعها السِّيرة النَّبويَّة المطهَّرة.

ولأجل ذلك لا يمكن أن تخضع - إطلاقاً - لأساليب النَّقد والتَّحليل المعهودة مع مراحل التأريخ المختلفة، استناداً إلى مناهج بشريَّة نسبيَّة.

ويتوقَّف نجاح دراسة السِّيرة النَّبويَّة على عدَّة شروط يجب التوفُّر عليها هي[٢]:

١ - **الإيمان بالنبوَّة:** وإن لم يكن التوفُّر على هذا الشَّرط، فلا أقلَّ من احترام المصدر الغيبيِّ لرسالة النبيِّ محمدﷺ، وحقيقة الوحي الَّذي تقوم عليه

---

(١) انظر: منهاج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلاميَّة: ١ / ١٢٠، الصَّادر عن المنظَّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط. تونس، (١٩٨٥ م) بحث المستشرقون والسِّيرة النبويَّة بقلم د. عماد الدين خليل.

(٢) انظر المرجع السابق: ١ / ١١٨ .

هذه الرِّسالة، وافتقار أيَّة دراسة لهذا الشَّرط يعني تغييراً هائلاً على صعيد اكتشاف الحقيقة.

٢ – **التزام الموضوعيَّة**: وتجنُّب الأحكام المسبقة، لأنَّ مِنْ شأن هذه الأحكام عرقلة كلّ فهم ممكن في هذا الصَّدد، ولن يؤدِّي إلى فهم الحقيقة كما هي بقدر ما يؤدِّي إلى مماحكة مقصودة، يُراد بها التَّضليل واستباق النتائج على أساس رؤى ومواقف محدَّدة سلفاً.

٣ – **توافر قدر كبير من الإحاطة بأدوات البحث التأريخيّ**: بدءاً باللُّغة وجمع المادَّة الأوليَّة، وانتهاء بطرق المقارنة والموازنة والنَّقد والتَّركيب.

وهذه الشُّروط تساعد على إنجاح مهمَّة الباحث وتعبيد الطريق له، وإن تنكَّب أو لَوَى عنقه عنها، فلن يقصد سوى مجافاة الحقيقة، وابتعاده عنها، وفي ذلك يستوي الباحث المسلم، والمستشرق، إلاّ أنَّها في المستشرق أوضح وأجلى.

٤ – المستشرقون والسِّيرة النَّبويَّة

منذ وقت مبكِّر جداً، اهتمَّ الغربيُّون بالإسلام عقيدة وتأريخاً، وكان هذا الاهتمام يعود إلى أسباب عديدة في مقدِّمتها السَّبب الدينيُّ، ولاجل ذلك كانت عناية رجال الدين الغربيين بالإسلام أسبق من غيرهم.

ويمكن إرجاع اهتمام المستشرقين بالإسلام عموماً، وبالسِّيرة النَّبويَّة على وجه التَّحديد إلى أسباب نُجملها بالآتي:

١ – **العامل السِّياسيُّ**: إذ إنَّ الفتوحات الإسلاميَّة، وانتشار الإسلام، قد أثارا الخوف في نفوس الرُّوم، وجعلا حُكَّامهم يأمرون بتأليف الكُتب في الردِّ على الإسلام، ويشجِّعون من يؤلِّف في ذلك، فأمر القيصر المدعو «باسليوس

Basileios» المتوفى سنة (٨٨٦ م) أحد الكتاب المدعو «نيكتاس Niketas» بتأليف كتاب في الرد على المسلمين[١].

وكان هذا الردُّ شاملاً يطال القرآن الكريم وحياة النَّبي، بل حياة المسلمين عموماً، وتصويرهم في أبشع صورة، في جوٍّ من التَّعبئة العامَّة ضدَّ الإسلام والمسلمين.

وفي هذا السِّياق يقول الباحث الدكتور جواد علي: «لم يكن من الممكن في ذلك العهد وفي بيئة كتلك البيئة قيام رجل بتأليف علميٍّ صحيح عن الإسلام، وتصحيح أغلاط الكُتَّاب النَّصارى ومفترياتهم عنه إذ كان مثل هذا العمل بمثابة دفاع عن الإسلام وتحدٍّ للكنيسة، ومعارضة صريحة لسياسة الحكومات، وهو عمل يُعاقب عليه الإنسان عقاباً صارماً؛ عقاب من يُتَّهم بمحاولة تحدِّي الحكومات أو إحداث إنقلاب ثوريّ في نظام حُكْم دكتاتوريّ»[٢].

٢ - **العامل الدِّينيُّ**: ومن خلال هذا العامل نلاحظ أنَّ جذور العداوة اليهوديَّة والنصرانيَّة للإسلام مبكِّرة، فما كان أسرع أهل الكِتَاب لتكذيب النَّبيّ محمدﷺ وتحدِّيه والتَّآمر عليه، وقد ساعد على إذكاء ذلك التوسُّع الإسلامي ممَّا أغاظ علماء أهل الكتاب على الإسلام، وعلى نبيِّه الكريم محمَّدﷺ، وهو مايفسِّر كثرة المستشرقين من رجال الدين، إذ كان انتماؤهم الديني وانخراطهم في الكنيسة يُحتِّم عليهم الدُّخول في معركة سافرة مع الإسلام وإن كان على حساب الأمانة والحقيقة العلميَّة (فكانوا يرَوْن في تفنيد الإسلام والافتراء عليه وأخذ كلّ ما يقال عنه من سوء ثواباً يُثاب الإنسان عليه، وأجراً يتقرَّبون به إلى الله، يرفعهم إلى السماء، وتقديراً عظيماً ينالهم من الكنيسة والمجتمع، يضعهم في مصافِّ

(١) انظر: د. جواد علي: ٣٤ مرجع سابق.

(٢) المرجع نفسه: ٣٥ .

الممتازين الموهوبين وعباقرة الكُتَّاب والعلماء)[١].

٣ - **العامل الثَّقافيّ والإعلاميّ**: إذ إنَّ الضَّعف السِّياسيّ الَّذي انتاب الغرب يومذاك، وبروز القوة العسكريَّة والسِّياسيَّة للمسلمين، وضع المسيحيَّة في مأزق كبير لم تجد مَخرجاً منه سوى اللُّجوء إلى الخَيار الإعلامي، وتلفيق الاتهامات في إطار ما يسمَّى بالردِّ على الإسلام.

وقد نقل في هذا الصَّدد عن (يوحنا الأشقوبي) اللاَّهوتي الأسباني الَّذي ترجم القرآن الكريم إلى اللاَّتينيَّة المتوفَّى سنة (١٤٥٦ م)، نقل عنه أنَّه فكَّر في الدِّفاع عن المسيحيَّة ضد الإسلام الظَّافر الّذي بدأ يغزو أوربا، خصوصاً بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينيَّة في عام (١٤٥٣ م) وتبيَّن له أنَّه لا جدوى من مقاومة الإسلام بالسِّلاح، لأنَّ الدولة العثمانيَّة كانت في أوج قوَّتها وتهدِّد أوربا بأسرها لهذا لم يجد أمامه غير مقاومة الإسلام بالكتابة ضدَّ الإسلام.

فأخذ في كتابة رد على الإسلام بعنوان: «طعن المسلمين بسيف الروح»[٢].

● مراحل الاستشراق:

يمكن تقسيم الاستشراق بلحاظ تطوُّره إلى مرحلتين:

أولهما: المرحلة الدينيَّة (الكهنوتيَّة).

وثانيهما: المرحلة المدنيَّة (العِلمانيَّة).

المرحلة الدينيَّة (الكهنوتيَّة):

نشأ الاستشراق - تأريخيّاً - في إطار ديني صرف مُترع بالتعصُّب والتشنُّج

---

(١) المرجع نفسه: ٣٥.

(٢) بدوي - عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين: ٤١، ط. الثالثة، دار العلم للملايين - بيروت، عام (١٩٩٣ م).

والانفعال، ومليىء بالحقد والغضب والكراهية، مع جاهليَّة عمياء واضحة، يصحُّ معها تسمية هذه المرحلة بالعدوانيَّة.

وقد تجلت هذه العدوانيَّة في عدَّة أمور أوضحها شيوع الكذب على النَّبيِّ ﷺ والمسلمين، والشَّتم والتشفِّي دونما أدنى خجل أو مراعاة للأدب، بالإضافة إلى التجرُّد عن الرُّوح العِلميَّة الَّتي تقتضي تقصِّي الحقيقة وِفقاً للمنهج العِلميِّ الموضوعيِّ.

وتمثِّل هذه المرحلة عدَّة أسماء اشتهرت باللاَّموضوعيَّة ومجافاة الحقيقة. ومن هؤلاء المستشرق الألماني اليهودي (فايل) المولود في (١٨٠٨ م) - والمتوفى في (١٨٨٩ م) وتُعدُّ كتب «فايل» أول سلسلة من الكُتب التي كتبها المستشرقون عن حياة النَّبيِّ ﷺ ورسالته، وتُعدُّ أيضاً من أشدّها تحاملاً وبعداً عن الموضوعيَّة العلميَّة والدِّقة التأريخيَّة.

وقد كتب (فايل) كتابه (النَّبيُّ محمّد: حياته ومذهبه) ويقع في ٤٥٠ صفحة، كما ترجم سيرة ابن هشام إلى الألمانيَّة في مجلَّدين[(١)].

ومن هؤلاء، المستشرق البريطاني (موير) المولود في (١٨١٩ م) والمتوفَّى في (١٩٠٥ م)، كتب (حياة محمد وتأريخ الإسلام) في أربعة مجلَّدات كانت بدايتها عِدَّة مقالات كتبها في مجلة(كلكتَّا) بناء على طلب (دفاندر) والذي كتب بدوره كتاباً سمّاه «ميزان الحق» هاجم فيه الإسلام بمنتهى العُنف ودافع عن المسيحية على نحو يُعينُ البعثة التَّبشيريَّة على عملها؛ وكلّها كتبها بروح مُتعصِّبة خالية من الموضوعيَّة ومن أجل هدف تبشيريٍّ خبيث.

ثمّ جمع هذه المقالات، وأضاف إليها مقدمة طويلة.. وأصدرها في كتاب

---

(١) المرجع نفسه: ٣٩٠ - ٣٩١.

ضخم بعنوان: «حياة محمد وتاريخ الإسلام» في أربعة مجلدات صدرت في لندن سنة (١٨٥٦ - ١٨٦١ م) ثمّ أصدر بعد ذلك كتباً أُخرى تشكل في مجموعها تاريخاً شاملا للإسلام منذ قيامه حتى سنة (١٥٥٧ م) وتسودها كلها نزعة مسيحية تبشيرية شديدة التعصب.

ثمّ عاد إلى تحامله الشديد على الإسلام فأصدر كتابين آخرين: الأول هو: «القرآن: تأليفه وتعاليمه» والثاني هو: «الجدال مع الإسلام» وذلك في الأعوام (١٨٧٧ م و ١٨٩٧ م)[(١)].

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين، المستشرق البلجيكي الراهب اليسوعي (لامنس) المولود في (١٨٦٢ م - والمتوفَّى ١٩٣٧ م) وقد عُرف بتعصُّبه الشَّديد ضدَّ الإسلام وهو يفتقر افتقاراً تامًّا إلى النَّزاهة في البحث والأمانة في نقل النُّصوص وفهمها، ويعدّ نموذجاً سيئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين[(٢)]. وكتب عدة كتب في تأريخ الإسلام، أو ما يخصُّ السيِّرة كالآتي:

١ - القرآن والسُّنة، كيف أُلِّفت حياة محمد.

٢ - هل كان محمَّد أميناً ؟!

٣ - عصر محمَّد وتأريخ السِّيرة.

٤ - فاطمة وبنات محمَّد.

٥ - تعليقات نقديَّة لدراسة السِّيرة.

وكتب الدكتور عبدالرحمن بدوي في تقييمها: «وفي هذه الكتب الخمسة

---

(١) المرجع نفسه: ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٢) المرجع نفسه: ٥٠٣ .

تَحَامَل (لامنس) على السيرة النبوية تحاملاً شديداً، زاعماً أنَّ القرآن وحده هو المصدر الَّذي يعتمد عليه في بيان السِّيرة للنَّبيِّ، وأنَّ كُتب الأحاديث كلَّها موضوعة من أجل تحقيق غايات معيَّنة و هي تمجيد حياة النَّبيِّ، فلم يُقِم لكُتب الحديث وكُتب السِّيرة أي وزن. . .

ويضيف الدكتور بدوي: وهو في هذا لا يسوق أيَّ دليل نقليٍّ أو عقليٍّ، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السِّيرة، بل هو يلقي الكلام جُزافاً، ويعتمد على تحكُّمات ذهنيَّة، استقرَّت حسب معان ذهنيَّة سابقة، ولم يكن لديه اطِّلاع باحث مثل (جولد تسيهر)، ويحاول أن يستمدَّ دعاواه من مصادر أخرى تلموديَّة أو هيلينيَّة. وإنما راح يخبط دون أدنى سندأو برهان عقليّ.

وأبشع ما فعله، خصوصاً في كتابه (فاطمة وبنات محمَّد) هو إنَّه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها. وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب الَّتي أحال إليها، فوجدت أنَّه إمّا أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب أو يفهم النَّص فهماً مقلوباً خبيثاً، أو يستخرج إلزامات بتعسُّف شديد يدلُّ عليه فساد الذِّهن وخُبث النِّية!!

ولهذا ينبغي ألاَّ يعتمد القارىء على إشاراته إلى المراجع؛ فإنَّ معظمها تمويه وكذب وتعسُّف في فهم النُّصوص، ولا أعرف باحثاً من المستشرقين المحدَثين قدبلغ هذه المرتبة من التَّضليل وفساد النِّية»[١].

ومن هؤلاء أيضاً، المستشرق المشهور (صموئيل مرجوليوث) المولود (١٨٥٨ م) والمتوفَّى (١٩٤٠ م) كتب (محمَّد ونشأة الإسلام) وقفّى عليه بكتاب «الإسلام» ثمّ ألقى محاضرات عن (تطوُّر الإسلام في بدايته) يقول بدوي:

(لكن هذه الدِّراسات كانت تسري فيها روح غير عِلميَّة ومتعصِّبة، ممَّا

(١) المرجع نفسه: ٥٠٤ .

جعلها تُثير السَّخط عليه ليس فقط عند المسلمين، بل عند كثير من المستشرقين، وبنفس الرُّوح كتب محاضراته بعنوان (العلاقات بين العرب واليهود) الَّذي ظهر في سنة (١٩٢٤ م)، ومع ذلك اختاره الَمجْمَع العِلميُّ العربيُّ في دمشق عضواً مراسلاً عند نشأته في (١٩٢٠ م)[١] !!

المرحلة المدنيّة: (العِلمَانِيَّة)

وقد بدأت مع عصر ما يسمَّى بـ (الإصلاح الدينيِّ والتَّنوير) وما شاع فيه من مفاهيم حول انفصال الدين عن الدَّولة، والتَّقليل من دور الدين في الحياة العِلميَّة خاصَّة، فضلاً عن الحياة السِّياسيَّة.

وفي هذه المرحلة ظهرت فرقتان من المستشرقين:

الفرقة الأُولى: تنتمي إلى السِّلك الكهنوتي وعلى صلة وثيقة بالعِلم الدينيِّ مع انفصالها الرسميِّ عن الكنيسة، وفي هذه الفرقة لا يبدو ثَمَّة تغيُّر في الموقف تجاه الإسلام عموماً وسيرة النبيِّ محمَّدﷺ خاصَّة.

أمَّا الفِرْقَة الأخرى: فظهرت مع بروز شخصيَّات عِلمَانِيَّة سَلَكتْ طريق الاستشراق يحدوها حبّ الاطِّلاع على الشَّرق أو أسباب سياسيَّة أو غير ذلك.

ومع بروز هذه الطَّائفة من المستشرقين وابتعادها عن التَّأثيرات الدينيَّة المسيحيَّة إلى حدٍّ ما، ظهر تحوُّل في الدِّراسات الاستشراقيَّة يمكن وصف بعضها بالإنصاف والموضوعيَّة وإن لم تَنَلْ رضا المسلمين لسبب أو آخر، ولكنَّ المهمَّ في الأمر أنَّها وفَّرت أرضيَّة مناسبة للحديث عن السِّيرة والإسلام بطريقة أقرب إلى العِلميَّة والإنصاف.

ومع بروز هذا الاتِّجاه غابت عبارات التهكُّم والشَّتم والكذب المتعمَّد،

---

(١) المرجع نفسه: ٥٤٦ .

ولكن هذا الغياب لم يكن كاملاً، فالموقف المسيحيّ لا يمكن أن يتغيرَّ تجاه الإسلام، خاصَّة في ظِلِّ التَّزاوج بين العامل الدينيّ والسِّياسيّ وتبادل المصلحة بين هذين العاملين.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الدِّراسات الاستشراقيَّة قد تغيَّرت على نحو من الأنحاء، قياساً بالمرحلة الَّتي سبقت ظهور تلك الطَّائفة من المستشرقين، وبروز بعض الشَّخصيَّات المرموقة على المستوى العِلميِّ، ومحاولتها الانعتاق من التَّأثيرات الدينيَّة المسيحيَّة، وان لم تكن محاولات موفَّقة على درجة كبيرة.

ويمكن أن نخصَّ بالذِّكر في هذا المجال المستشرق الهولندي (ريلند) المتوفَّى عام (١٧١٨ م) إذ يُعدُّ - تأريخيّاً - أول مستشرق يكتب حول الآراء المنسوبة كذباً إلى المسلمين وحاول تصحيحها استناداً إلى القرآن والسُّنة ومؤلَّفات المسلمين؛ وهو بهذا أول أوربي حاول تبرئة الإسلام من التُّهم الباطلة الَّتي اخترصها الكُتَّاب الأوربيون - من رجال دين ومبشرين خصوصاً - وتشوّهوا بها حقيقة الإسلام غالباً عن قصد وضغينة..[1].

كما يمكن الإشارة إلى المستشرق الألماني (ريسكه) المتوفى (عام ١٧٧٤ م) ويظهر من خلال مقدِّمته لكتاب (تقويم التأريخ) لحاجي خليفة أنَّه يرى أنَّ ظهور النبيِّ (محمَّد) وانتصار دينه هما من أحداث التأريخ الَّتي لا يستطيع العقل الإنسانيُّ إدراك مداها، ويرى في ذلك برهاناً على تدبير قوَّة إلآهية قديرة، كذلك يرى في تولِّي الأمويين للخلافة، وفي المِحَن الَّتي توالت على أنصار (عليٍّ) تدبيراً إلهياً، وهو يعتنق التشيُّع الوارد في المصادر المتأخِّرة الَّتي استند إليها، إذ يرى أنَّ علياً هو الأحقُّ بالخلافة بعد النَّبيِّ مباشرة، وأنَّه حُرِمَ مِنْ حقِّه في الوراثة للخلافة طوال ما يقرب من (٢٤) سنة بسبب من المؤامرات ضدَّه. ويرى أنَّ علياً

(١) المرجع نفسه: ٣٠٧ .

هو أحسن أمير عرفه العالم الإسلامي، وأنَّه كان شجاعاً وعادلاً، لكنَّه أخفق لسوء حظِّه ولكراهيَّة السيِّدة (عائشة) له، وهي السيِّدة الطَّموح للسُّلطة والمجد. وفي صراع عليٍّ مع معاوية يرى «ريسكه» نموذجاً لانتصار المكر عل القوَّة والشَّر على الحقِّ.

وموقفه هذا من النبيِّ جعله موضوع استهانة من اللاَّهوتيين وكانوا يبغضونه أشد البغض لأنَّه مجَّد الإسلام ولم يوافقهم على أكاذيبهم واتهاماتهم الدينية للنبي محمد وللإسلام...»[1].

• الأخطاءُ المنهجيَّة لدى المستشرقين:

ومهما يكن من أمر، فإنَّ المستشرقين سواءً في المرحلة الدينيَّة الكهنوتيَّة أو المرحلة العِلمانيَّة الَّتي أعقبتها، وعلى ضوء معايير مغلوطة ومواقف مسبقة، ما كان لهم أن يتجاوزوا، أو يجنحوا في تفادي الوقوع بأخطاء منهجيَّة قاتلة، تُصادر جهودهم، وتقلِّل من قيمتها العِلميَّة، ومصداقيَّتها الموضوعيَّة.

ويمكن تحديد الأخطاء المنهجيَّة للمستشرقين عموماً في عدَّة نقاط:

أوَّلاً: اعتماد الضَّعيف من الأخبار:

وتسرُّعهم في إصدار الأحكام على التَّأريخ الإسلاميِّ وحياة النَّبيِّ محمَّد ﷺ خاصَّة، استناداً إلى هذه الأخبار الضَّعيفة دونما فحص أو تدقيق أو تحقيق، يدفعهم إلى ذلك موقفهم العدائي تجاه الإسلام ونبيِّه محمَّد ﷺ.

ويظهر هذا بوضوح في مثال المستشرق الألماني (إشدرنجر) في كتابه (محمَّد، سيرته وتعاليمه) الواقع في ثلاثة مجلَّدات وهو أهم إنتاج علمي له استوعب فيها معظم الرِّوايات وتحقيقها ونقدها، لكنَّه «جرى مع عاطفته وذهب

---

(١) المرجع نفسه: ٣٠٠.

مذهباً شاذّاً، جعله يأخذ بالخبر الضَّعيف لمجرد أنَّه غريب غير مألوف، ثم يقدِّمه على الأخبار المشهورة أو المتواترة، ويبني عليه أحكاماً. كما أخذ بالخبر الغريب المتأخِّر الشَّاذ، وبالرِّوايات الإسرائيليَّة، والأخبار المدسوسة، فأقام لها وزناً وجعل لها اعتباراً ثمَّ بنى عليه أحكامه وكان عليه التَّفريق والَّتمييز بين المتأخِّر والمتقدِّم من الأخبار، ودراسة سند كلّ خبر ورواية، والتعرُّف على آراء العُلماء في أولئك الرُّواة وحَمَلة الخبر من حيث صدقهم وكذبهم، ودراسة كلّ نصّ دراسة عميقة من النَّاحيتين: انطباق مضمون الرِّواية والخبر مع روح الإسلام والقرآن والحديث وروح عصر الرَّسول، ودراسة النَّص من النَّاحية اللفظيَّة، لينظر إذا كان صحيحاً ينطبق على أسلوب الزَّمن الَّذي ترجع الرِّواية إليه»[١].

ومنهج (إشدرنجر) ومن تبعه محلّ إدانة ليس من المسلمين وحسب، بل ومن المستشرقين أيضاً، كما في مثال المستشرق الهولندي (دي خويه) في بحثه (رسالة محمَّد) والَّتي دافع فيه عن رسالة النَّبيِّ محمَّدﷺ ضدَّ ما كتبه (إشدرنجر)[٢] ومن تَبِعَه من المستشرقين.

ثانياً: المبالغة في الشَّك، والافتراض والنَّفي الكيفيّ:

إذ غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السِّيرة النَّبويَّة، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشُّكوك في السِّيرة، وقد أثاروا الشَّك حتى في اسم الرَّسول، ولو تمكَّنوا لأثاروا الشَّك حتَّى في وجود النبيِّ، وطريقة مِثْل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشَّاذ والغريب، فقدَّموه على المعروف المشهور، استعانوا بالشَّاذ ولو كان متأخِّراً أو كان من النَّوع الَّذي استغربه النَّقدة وأشاروا إلى شذوذه. تعمَّدوا ذلك لأنَّ هذا الشَّاذَّ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشَّك[٣].

---

(١) د. جواد علي: ١١ - ١٢ مرجع سابق. وانظر موسوعة المستشرقين لبدوي: ٢٨ وما بعدها.

(٢) انظر: بدوي: ٢٣٤ .

(٣) انظر: د. جواد علي: ١٠ - ١١ مرجع سابق.

ثالثاً: إسقاط الرؤية الوضعيَّة والعِلمَانِيَّة، والتَّأثيرات البيئيَّة المعاصرة على الوقائع التَّأريخيَّة:

وفي هذه المسألة بالذَّات يأخذ المستشرق (العِلْمَانِي المعاصر) طبيعة السِّيرة بنظر الاعتبار ويتعامل معها بشكل اعتياديٍّ، لا مكان فيه للجانب الرَّبانيّ والخصوصيَّة النَّبويَّة، وكونها تجسيداً لهذه الخصوصيَّة، ولذلك نلاحظ أنَّ ثَمَّة مواقفَ مُسبقة تفرضها طبيعة التَّفكير المعاصر، ومحاولة اسقاطها على الوقائع التَّأريخيَّة الَّتي تُشكِّل بمجموعها سيرة النَّبي محمَّدﷺ وهو ما يظهر حتَّى في جهود المستشرقين المُنصِفين مِنْ أمثال المستشرق الإيطالي (رمبو لدى) صاحب أكبر كتاب في الشَّأن الإسلامي إذ كتب (حوليَّات إسلاميَّة) في اثني عشر مجلَّداً، خصَّ حياة النَّبي بالتَّفصيل في (حياة مشرِّع العرب) وهو وإن كان متحرِّراً من الأحكام السَّابقة المُغرِضَة عن الإسلام، إلاَّ أنَّه بنزعته العقليَّة استبعد كلّ الخوارق والمعجزات[(١)].

رابعاً: ردُّ معطيات السِّيرة إلى أصول نصرانيَّة أو يهوديَّة:

بُغية الطَّعن بها، وتكذيب النَّبي محمَّدﷺ، وهو مايظهر في عدد كبير من كِتابات المستشرقين، إذ إنَّ معظم المستشرقين النَّصارى هم من طبقة رجال الدِّين أو من المتخرِّجين من كلِّيات اللاَّهوت، وأنَّهم إن تطرَّقوا إلى الموضوعات الحسَّاسة من الإسلام، حاولوا جهد إمكانهم ردَّها إلى أصل نصرانيٍّ، وطائفة من المستشرقين اليهود - وخاصَّة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكُّم الصهيونيَّة - في غالبيَّتهم، يُجهِدُون أنفسهم لردِّ كلِّ ما هو إسلاميّ وعربيّ إلى أصل يهوديّ[(٢)].

وفي ختام هذا البحث ينبغي أن نشير - ونحن نختتم هذا الدرس عن المستشرقين والسيرة النبوية - إلى أن للإستشراق وجهود المستشرقين في دراسة الحضارة الشرقية عامة، والإسلامية منها خاصة، آثاراً كبيرة وقيّمة في كثير من

(١) انظر: بدوي: ٢٨٢ مرجع سابق.

(٢) د. جواد علي: ١ / ١٠ مرجع سابق.

جوانبها، ولا يقلِّل من أهميتها والجوانب المشرقة فيها بعض المواقف المتعصبة واللاموضوعية من قبل بعضهم والتي نقلنا بعضها في ما يخص سيرة الرسول الأكرمﷺ، فقد أسهم هؤلاء المستشرقون في نشر الكثير من تراثنا التاريخي والأدبي وكانت لهم انجازات كبيرة في تحقيق ونشر وترجمة هذا التراث والتعريف به لشعوبهم، وفق مناهج علمية منضبطة في تحقيق التراث ونشره، بالاضافة إلى وضعهم المعاجم المفهرسة لآيات القرآن الكريم والحديث.

ولهذا لا ينبغي أن ننظر إلى الاستشراق وجهود المستشرقين على أنه شر مطلق ينبغي أن نتجنبه أو نتنكر له، وفي نفس الوقت أيضاً لابد من تجنب الافراط في المبالغة الشديدة وتصويب كل ما قدمه أُولئك المستشرقون من نتاج علمي، وما توصلوا إليه من نتائج في مؤلفاتهم وأبحاثهم على أنها حقيقة مطلقة لا ينبغي النقاش فيها !

ومن هنا لابد من دراسة النتاج العلمي والفكري والآراء التي طرحها هؤلاء وتقويمها موضوعياً وانصاف من يستحق الإنصاف منهم، ووضعه في مكانته اللائقة به، ونقد من يستحق منهم النقد لبعض أفكاره أو آرائه، أو هفواته التحقيقية، وتصويب الأخطاء التي وقع فيها.

والأهم من ذلك كلّه هو أن ندرس الاستشراق من جميع جوانبه بوصفه مؤسسة سياسية لها مناهجها وأهدافها السياسية والاجتماعية والعسكرية والعقائدية. . كما درسها الدكتور أدوار سعيد في دراسته القيمة «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء»[1].

(١) للتوسع، انظر: مقدمة الدكتور جواد علي لكتابه «تاريخ العرب في الإسلام، السيرة النبوية»، ومقدمة الدكتور محمد حسين هيكل لكتابه «حياة محمد»، وكتاب «الاستشراق في السيرة النبوية» لعبد الله محمّد الأمين النعيم، والصادر من المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة الرسائل الجامعية، كذلك كتاب «السيرة النبوية» دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في ليدن، تأليف د. أحمد أبو زيد، والصادر عن دار التقريب بين المذاهب =

الأسئلة:

١ – من هو محمد بن إسحاق ؟ وما هي أهمّ مضامين سيرته ؟ وما هي أهمّ المطاعن التي وجّهت إلى سيرته ؟

٢ – ما هي الرواية التي اعتمدها ابن هشام في نقل سيرة ابن إسحاق ؟ وما هي الطريقة المنهجيّة التي اعتمدها في سيرته ؟ وما وجه الخلل في المنهج الذي اتّبعه ؟

٣ – ما هي أهم المؤاخذات التي يمكن توجيهها إلى مغازي الواقدي ؟

٤ – تفرّد كتاب محمد بن سعد – الطبقات الكبرى – في عدّة أُمور، ما هي ؟ وما هي قيمة كتاب «الطبقات» لدى النُّقاد ؟

٥ – ما هي الشُّروط العامّة لدراسة السيرة النبوية ؟

٦ – ما هي أهم الأسباب التي دعت إلى اهتمام المستشرقين بالإسلام عموماً وبالسيرة النبوية تحديداً ؟

٧ – ما هي المراحل التاريخية التي مرّ بها الاستشراق ؟ وما هي أهم الأخطاء المنهجيّة لدى المستشرقين ؟

= الإسلامية، بالاضافة إلى كتاب «الاستشراق» لادوارد سعيد. وكتاب «نقد الخطاب الاستشراقي» للدكتور ساسي سالم الحاج. وكتاب المستشرقون لنجيب عقيقي، وموسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، وكتاب: جهود المستشرقين في التراث العربي، للدكتور محمد عوفي عبد الرؤوف، وكتاب: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، للدكتور حمدي زقزوق من سلسلة كتاب الأُمة، وكتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية لمجموعة من المؤلفين والصادر في الرياض من مكتب التربية العربي. . وغيرها من الكتب التي تناولت موضوع الاستشراق والمستشرقين.

الدرس الرابع

ما قَبْل البعثة النَّبويَّة

«القسم الأول»

نظرة سريعة عن أحوال الأمم التي كانت تعيش حول الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام

محاور البحث:

المدخل

١ - أحوال الإمبراطوريَّة الفارسيَّة قَبْل الإسلام:

أولا - الحالة السِّياسيَّة

ثانياً - الحالة الدينيَّة

ثالثاً - الحالة الاجتماعيَّة

٢ - أحوال الإمبراطورية الرومانيَّة قَبْل الإسلام:

أ - الحالة السياسيَّة

ب - الحالة الدينيَّة

ج - الحالة الاجتماعيَّة

٣ - الحروب بين الإمبراطوريتين

● الأسئلة

نظرة سريعة عن أحوال الأُمم
التي كانت تعيش حول الجزيرة العربية قبل الإسلام

المدخل

قبل أن نستعرض أحوال الجزيرة العربيَّة وسكانها من النَّواحي الدينيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، والبقعة الجغرافيَّة الَّتي كانوا يعيشون فيها، وموقعها ممَّا حولها، ينبغي لنا أن نستعرض - بشكل مُوجز - ما كانت عليه الأمم الأخرى المجاورة لها في تلك الحِقبة الزمنيَّة الَّتي سبقت ظهور الإسلام من النَّواحي الدينيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة.

لقد كان يتصدَّر العَالَم قبل ظهور الإسلام دولتان اثنتان، تتقاسمان العَالَم المتمدِّن، آنذاك وهما: فارس والرُّوم، ويأتي من ورائهما اليونان والهند، اللتان لم يكن لهما تأثير مباشر على أوضاع الجزيرة العربية آنذاك وإنما كان التأثير المباشر يأتي من قبل دولتي فارس والروم لمجاورتهما ونفوذهما إلى هذه المنطقة.

وفيما يلي استعراض موجز لكل منهما:

١ - أحوال الإمبراطورية الفارسيَّة

يمكن أن نوجز أهمَّ ملامح وأوضاع الإمبراطوريَّة الفارسيَّة قبل ظهور الإسلام من النَّواحي المختلفة، بما يلي:

أ - الحالة السياسيَّة لبلاد فارس قبل الإسلام:

لقد تعاقب على حكم بلاد فارس مجموعة من الأُسر الحاكمة و طبقات من الملوك منها: الفيشداذّية أو (البيشداذية) والكيانيَّة، والأشغانيَّة، وكان آخرها العائلة السَّاسانيَّة[١] المالكة، ومؤسِّسها «أردشير بن بابك» وهي الطَّبقة الرابعة من ملوك الفرس الَّتي حكمت بلاد فارس قبل الاسلام، واستمرَّت فى الحُكم من سنة (٢٦٦ م) إلى السنة (٦٥١ م) حيث فتحها المسلمون.

وقد صادف ظهور الإسلام وبعثة النَّبي الأكرمﷺ في حدود سنة (٦١١ ميلاديَّة) وفي عهد السُّلطان السَّاساني «خسرو برويز» (٥٩٠ - ٦٢٨ م)[٢].

وعندما نستعرض الحِقبة الزمنيَّة الَّتي حكمت فيها الدَّولة السَّاسانية نجد أَنَّ الحالة السِّياسيَّة في بلاد فارس في عهدهم لم تكن مستقرَّة، وإنَّما كانت تعيش حالة من النِّزاع والصِّراع الدَّائم على مناطق النُّفوذ في العَالَم مع منافستها القويَّة الدَّولة الرُّومانيَّة، هذا من جانب.

ومن جانب آخر نجد حالة التَّرف والبذخ واتِّخاذ الزِّينة الَّتي اتَّصف بها

---

(١) من أفضل ما كُتب حول السَّاسانيين، ما كتبه البروفيسور «آرثر كرتسن سين» أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة «كوبنهاجن» بالدانمارك، المتخصّص في تأريخ إيران، في كتابه: «إيران في عهد السَّاسانيين» ترجمة: يحيى الخشاب، ط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت.

كذلك كتاب: سقوط المدائن، ونهاية الدولة السَّاسانية، للدكتور أحمد كمال عادل، ط. دار النفائس - بيروت، ط. الخامسة، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

ويعتبر كتاب الدكتور محمد جواد مشكور «تاريخ سياسى ساسانيان» بالفارسية، والذي يقع في مجلدين كبيرين من الكتب القيمة والمهمة في موضوعه، إلاّ أنّ الكتاب لم يترجم إلى العربية.

(٢) سبحاني - الشيخ جعفر، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ١٠١ . وللتوسُّع في معرفة أسماء الملوك السَّاسانيين وطبقاتهم انظر: تجارب الأمم لابن مسكويه: ١ / ٥٥ - ١٤٥ . والبيروني، الآثار الباقية: ١٠٦ وما بعدها.

الملوك السَّاسانيون، والَّتي بلغت حدَّاً يفوق مدى التَّصور.

بالإضافة إلى حالة الصِّراعات الداخليَّة على السُّلطة داخل الأسرة الحاكمة نفسها.

ففي الجبهة الخارجيَّة كانت إيران السَّاسانية تبحث عن مناطق النُّفوذ في العَالَم لتوسعة مملكتها وبسط سيطرتها على الأمم الأخرى، وسَلْب خيراتها، ممَّا يعني بالنَّتيجة احتكاكها واصطلامها مع قوَّة أخرى تحمل نفس التوجُّهات والأهداف وهي الدَّولة الرُّومانيَّة القويَّة، ويُحدِّثنا تأريخ الصِّراع بين الدَّولتين أنَّ الحروب الدَّامية بينهما بدأت في عهد السُّلطان السَّاساني «أنوشيروان» (٥٣١ - ٥٨٩ م) واستمرَّت إلى عهد الملك «خسرو برويز»، حيث استغرقت هذه الحروب قُرابة أربعة وعشرين عاماً من الزَّمن[١] واستمرَّ هذا الصِّراع حتَّى بعد ظهور الإسلام. ممَّا أدَّى في النَّتيجة إلى إضعاف ووهن وانحسار الدَّولة السَّاسانية[٢].

أمَّا حالة التَّرف والبذخ واتِّخاد الزينة من قِبَل الملوك السَّاسانيين: فقد نقل كُتَّاب السِّيرة والأثر وممَّن فصَّل الكلام في أحوال ملوك هذه الدَّولة، من العجائب ممَّا يبلغ حدَّ الخُرافة، يقول الطبري: «كان برويز كسرى قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحد من الملوك، وبلغت خيلُه القسطنطينيَّة وإفريقيَّة، وكان يشتو بالمدائن، ويتصيَّف ما بينهما وبين همدان، وكان يقال: إنَّه كانت له عشرة آلاف امرأة وجارية.. وكان أرغب النَّاس في الجواهر والأواني وغير ذلك...»[٣].

---

(١) سيِّد المرسلين: ١ / ١٠٢ نقلاً عن «إيران در زمان ساسانيان»: ٢٦٧ (بالفارسيَّة»).

(٢) انظر: الطبري: ١ / ٥٨٠ - ٦٠٥ و ٢ / ٣٧ - ٢٣٤. والكامل في التأريخ: ١ / ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) الطبري: ٢ / ٢١٥.

وقد وصف لنا الطبري، مظاهر الزِّينة والتَّرف في عهد الملوك السَّاسانيين بشكل مفصَّل ودقيق حيث وصف لواءهم الَّذي كان يُرفع أيَّام حروبهم والمعروف، بـ «درفش كاوياني» أي العَلَم الكاوياني نسبة الى (كاوه) وهو بطل قومي إيرانيّ أسطوريّ، وما يحمله هذا العَلَم من الجواهر والأحجار الكريمة، كذلك وصف لنا ما كانت تحويه قصورهم من المجوهرات والتَّصاوير والرُّسوم المحيِّرة للعقول، والَّتي منها السَّجادة البيضاء الكبيرة والتي كانت تُدعى بالفارسيَّة بـ «بهارستان كسرى»، وهو بساط كانوا يُعدُّونه للشتاء إذا ذهبت الرَّياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه، وشربوا عليه فكأنَّهم في رياض، يروي الطبري: «كانت هذه السَّجادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدَّير، وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبَّات في الرَّبيع من الحرير على قضبان الذَّهب، ونواره بالذَّهب والفضَّة[١].

أمَّا حالة الصِّراعات الدَّاخلية على السُّلطة؛ فقد عاشت الدَّولة السَّاسانيَّة في أواخر عهدها حالة من الفوضى وصراع دموي بين أفراد الأسرة الحاكمة، ونشب تنافس حادٌّ بين الأمراء والأعيان وقادة الجيش وذهب كلُّ فريق منهم يختارُ أميراً من بين أبناء العائلة المَالِكة، ويقوم بتصفية الطَّائفة الأخرى الَّتي اختارت أميراً آخر[٢].

فبعد مقتل «كسرى برويز» الَّذي كان مُلكه ثمانياً وثلاثين سنة، تعاقب على سدة الحكم والسُّلطان خلال مدَّة أربعة أعوام ما يقرب من أربعة عشر ملكاً، بعضهم لم يتجاوز زمان حكمه الأشهر والأيام[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) انظر: ابن الأثير - الكامل في التأريخ: ١ / ٣١٥ - ٣٢٠ .

ولـم يـتـورَّع هـؤلاء الـمـلـوك ومـن أجـل الـوصـول إلـى مـآربـهـم فـي الـمُـلـك والسُّلطان من ارتكاب القتل والاغتيال لكلٍّ من يطمع في العرش حتى ولو كان من أقرب أقربائه وخاصَّته، فكان الأب يقتل ابنه، والابن يقتلُ أباه، والأخ يقتل أخاه، والزوجة تقتل زوجها !! يروي ابن الأثير في الكامل:

«لمَّا ملك «شيرويه بن أبرويز»، دخل عليه العظماء والأشراف فقالوا: لا يستقيم أن يكون لنا ملكان، فإمَّا أن تقتل كسرى ونحن عبيدك، وإمَّا أن نخلعك ونطيعه، فانكسر شيرويه ونقل أباه من دار الملك إلى موضع آخر حبسه فيه، ثمَّ إنَّ عظماء الفرس عادوا إلى شيرويه فقالوا: إمَّا أن تأمر بقتل أبيك وإمَّا أن نطيعه ونخلعك، فأمر بقتله على كُره منه، ثمَّ إنَّ شيرويه قتل إخوته، فهلك منهم سبعة عشر أخاً ذوو شجاعة وأدب، بمشورة وزيره «فيروز»، . . . وجزع بعد قتل إخوته جزعاً شديداً، ويقال: إنَّه لمَّا كان اليوم الثَّاني من قتل إخوته دخلت عليه (بوران) و (ازرميدخت) أختاه فأغلظتا له وقالتا: حملك الحرص على المُلك الَّذي لا يتمُّ لك على قتل أبيك وإخوتك!! فلمَّا سمع ذلك بكى بكاءً شديداً ورمى التَّاج من رأسه. . . ويُقال: إنَّه أباد من قدر عليه من أهل بيته، وفشا الطَّاعون في أيَّامه فهلك من الفرس أكثرهم، ثمَّ هلك هو، وكان ملكه ثمانية أشهر»[١].

وهكذا استمرَّت حالة الفوضى السَّياسيَّة في أواخر العهد السَّاساني، إلى آخر ملوكها «يزدجر بن شهريار» الَّذي «كان الوزراء والعظماء يُدبِّرون مُلكه لحَدَاثة سِنِّه وضَعف أمر مملكة فارس، واجترأ عليهم الأعداء وتطرَّقوا بلادهم، وغزت العرب بلاده بعد أن أمضى من ملكه سنتان، وكان عمره كلُّه إلى أن قُتل ثمانياً وعشرين سنة[٢]».

هذه كانت أهمَّ ملامح الحالة السِّياسيَّة لبلاد فارس قبل ظهور الإسلام.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣١٦ - ٣١٨ بتلخيص.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٢٠ .

ب - الحالة الدِّينيَّة:

لم تكن الحالة الدينيَّة في الدَّولة السَّاسانية الفارسيَّة بأقلَّ سوءاً من الحالة السياسيَّة، بل إنَّ الفوضى السياسيَّة ترجع في واقعها إلى الاختلاف في المعتقدات الدينيَّة الَّتي كانت سائدة آنذاك.

والدِّيانة الزَّرادشتيَّة كانت هي الدِّيانة السَّائدة في فارس وما حولها في عهد الكيانيين، وانتعشت هذه الدِّيانة في عهد الأسرة السَّاسانية على يد مؤسِّسها «أردشير بن بابك» الَّذي كان ابن مؤبِّد (وهو رجل دين زردشتي) فانتصر لدين آبائِهِ، وأصبح الدين الرَّسمي للدَّولة والشَّعب هو الدِّين الزَّرادشتيّ.

وقد حظي رجال الدين الزرادشتي، وهم المؤابدة والقيِّمون على بيوت النار، بمكانة كبرى لدى البلاط السَّاساني، وكان لهم نفوذ سياسيّ مؤثِّر في الحياة السِّياسيَّة.

والَّذي يبدو أنَّ العلاقة بين رجال الحُكم السَّاساني، ورجال الدِّين (المؤابدة) علاقة تحكمها المصالح المتبادلة، فمن جهة نجد أنَّ هؤلاء الحُكَّام لا يَصِلون إلى دفَّة الحُكم إلاَّ من خلال تزكية رجال الدين وتأييدهم ودعمهم، ولهذا كانوا يجتهدون في كسب رضاهم من خلال العناية بهم أكثر من غيرهم من الطَّبقات الاجتماعيَّة، ومن جهة ثانية نجد أنَّ هؤلاء المؤابدة يشكِّلون طبقة أرستقراطيَّة واسعة تحظى بامتيازات كبيرة.

يروي المؤرِّخون: «أنَّ «خسرو درويز» شيَّد بيتاً للنار عظيماً ووكل به اثني عشر ألف هيربد (وهو منصب خاصٌ ورتبة خاصَّة في نظام القيادة الدينيَّة المجوسيَّة) لينشدوا فيه الأناشيد الدينيَّة، ويؤدُّوا الطُّقوس والشَّعائر المجوسيَّة»[١].

---

(١) سبحاني، سيد المرسلين: ١ / ١١٣ نقلاً عن: تاريخ تمدن ساسانى: ١ / ١ (بالفارسية).

وتُنسب الديانة الزرادشتيَّة إلى «زَرْدُشْت» الَّذي يُشكِّل أصل وجوده موضع شكّ عند كثيرين، وموضع جدل طويل بين النَّافين والمثبتين، واختلف المثبتون في تأريخ وجوده على أقوال تتردَّد ما بين سنة (٦٠٠٠) قبل الميلاد و (٦٠٠) قبل الميلاد! وقد ألّف بعضهم كتاباً في حياته[١] كان له الأثر الكبير في ترجيح كفَّة المثبتين لوجودهِ، وقد وصل في بحثه إلى أنَّ زردشت شخص تأريخي لاخرافي، وأنَّه كان من قبيلة ميديا، وأنَّه ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ومات نحو سنة (٥٨٣ ق. م) بعد أن عَمَّر (٧٧) سنة وأنَّ موطنه كان آذربايجان، ولكن أول نجاح ناله كان في بَلخ، وعلى إثر دخول المَلِك «بشتاسب» في دينه، وأنَّ دينه انتشر من بلخ الى فارس كلّها»[٢].

والمشهور من تعاليمه أنَّه كان يقول: إنَّ للعَالَم أصلين أو إلهين: أصل الخير وهو «أهور» أو «أهور مزْدا»[٣] وأصل الشَّر وهو «أهرِمَنْ» وهما في نزاع دائم، ولكلّ من هذين الأصلين قدرة الخلق، فأصل الخير هو النُّور وقد خَلَق كل ما هو حسن وخير، ونافع، فخلق النِّظام، وخلق الحقَّ، وخلق النُّور، وكلب الحراسة، والدِّيك، ونحو ذلك من المخلوقات النَّافعة، والواجب على المؤمن العناية بها، وأصل الشَّر هو الظُّلمة، وقد خلق كل ما هو شرٌّ في العَالَم، فخلق الحيوانات المفترسة والحيَّات والأفاعي والحشرات والهوام، وعلى المؤمن قتلها. والحرب بين هذين الرُّوحين سِجَال، ولكنَّ الفوز النِّهائي لروح الخير،

---

(١) وهو المستشرق «جا كُسن» وكتابه (ifeofzoroaster).

(٢) أمين – أحمد، فجر الإسلام: ٩٩ وما بعدها، ط. مكتبة النهضة العربية – مصر، ط. الخامسة عشرة.

(٣) يسمى أيضاً إله الخير (يزدان) وفي ذلك يقول أبو العلاء المعري في اللزوميات: ٢ / ٥٨٩.

قالَ أُناسٌ: باطلٌ زَعْمُهُمْ ... فَراقِبُوا اللهَ ولا تَزْعُمَنْ
فَكَرَ يَزدَانُ، عَلى غِرّة ... فَصِيغَ مِنْ تَفكيرِهِ أهرُمُنْ

والناس في الحرب ينحازون إلى الرُّوحين، فمنهم من ينصر «أهورا» ومنهم من ينصر «أهرمن» ولا يباشر الروحان الحرب بأنفسهما بل بمخلوقاتهما.

وكان الإنسان موضع نزاع بين الروحين، لأنَّه مخلوق «مَزْدا»، ولكنَّه خلقه حرّ الإرادة، فكان بالإمكان أن يخضع للقوى الشِّريرة، والإنسان في حياته تتجاذبه القوَّتان، فإن هو اعتنق ديناً حقّاً، وعمل عملاً صالحاً، وطهَّر بدنه ونفسه، فقد أخزى روح الشَّر، ونصر روح الخير واستحقَّ الثَّواب من «مزدا» وإلاّ قوّى روح الشَّر وأسخط عليه «مزدا»[١].

ولزردشت كتاب مقدَّس يسمَّى «أتِبْستَا» وعليه شرح يسمَّى «زندافست» وعدوا سوره إحدى وعشرين سورة تقع كل سورة في مائتي ورقة...!! وأنَّه كتب بالفارسيَّة الأولى وأنَّ أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللُّغة، وإنَّما نقل لهم إلى هذه الفارسيَّة شيء من السُّور في أيديهم يقرأونها في صلواتهم، وفي بعضها الخبر عن مبتدأ العَالَم ومنتهاهُ، وفي بعضها مواعظ[٢].

وظلَّت الزرادشتيَّة هي الدِّيانة الرَّسميَّة للفرس إلى الفتح الإسلامي، فاعتنق كثير منهم الإسلام وفرَّ بعضهم إلى بعض البلدان المجاورة، وبقيت طائفة في فارس تتمسَّك بدينها بعد الفتح، وقد عاملهم المسلمون في الفتح معاملة أهل الكتاب، وعدَّوا كتابهم كأنَّه كتاب منزَّل، وقد بقي بعض الزردشتيين في بعض المدن الإيرانية إلى اليوم، ويعاملون كأقلَّية دينيَّة لها حقّ المواطنة ويتمتَّعون بحقوق سياسيَّة واجتماعيَّة.

هذه هي أهمُّ معَالِم الدِّيانة الزردشتيَّة الَّتي مُنيت في أواخر العهد السَّاساني بحالة من الانحسار والضَّعف نتيجة سيطرة الخُرافات والأساطير الواهية عليها،

---

(١) فجر الاسلام: ٩٩ مرجع سابق. وللتوسع انظر: الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ٢٣٦ وما بعدها، وابن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ١ / ١٦٤ - ١٧٤ .

(٢) المسعودي - أبو الحسين علي بن الحسين، التنبيهُ والإشراف: ٨٠ - باختصار.

ولحالة الفساد الَّذي انتشر في أوساط رجال الدَّين الزَّردشت، ممَّا مهَّد إلى ظهور ديانات أخرى كالمانويَّة والمزدكيَّة.

المانويَّة: وهي من أشهر المذاهب الدينيَّة بعد الزردشتيَّة في بلاد فارس قبل الإسلام ومؤسِّسها هو (ماني - بن فاتك) الَّذي وُلِدَ سنة (٢١٥ م) أو (٢١٦م)[١] وكان له أتباع كثيرون، وله أثر كبير في الآراء الدينيَّة، وكانت تعاليمه مزيجاً من الدِّيانة النصرانيَّة والزردشتيَّة، و(ماني) في تعاليمه لا يخرج كثيراً في نظرته الفلسفيَّة الدينيَّة للعَالَم عن تعاليم زردشت، إلاّ أنَّه ينزع منزعاً آخر هو أشبه بالرهبنة، حيث كان ماني كما يقولون، راهباً بحران وأقر بنبوة عيسى عليه السلام وزرادشت وقال إنِّي (ماني) النَّبي الَّذي بشَّر به عيسى.

وقد ذُكر أنَّ «هُرْمز» ملك الفرس اعتنق مذهبه وأيَّده، وأنَّه دخل في دينه كثير من الناس، فلمَّا مات «هرمز» وخَلَفه بهرام الأول لم يرتح الى تعاليمه وقتله وشرَّد أصحابه، ولكن لم تمت تعاليمه[٢].

المزدكيَّة: حوالي سنة (٤٨٧ م) ظهر في فارس «مَزْدك»، حيث دعى إلى مذهب ثَنوي جديد، فكان يقول أيضاً بالنور والظلمة، ولكن أكبر ما امتاز به «تعاليمهُ الاشتراكيَّة» فكان يرى أنَّ الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء، وأهمّ ما تجب فيه المساواة المال والنساء[٣].

قال الشهرستاني: «وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة

---

(١) انظر البيروني أبو ريحان محمد بن أحمد، الآثار الباقية عن الأُمم الخالية: ١٠٤ و ١٧٣ - ١٧٨، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).

(٢) فجر الإسلام: ١٠٥ مرجع سابق. وللتوسُّع في معرفة (ماني) ودعوته وفلسفته، انظر الباب الرابع من كتاب «ايران في عهد السَّاسانيين» فصل: (النَّبي ماني وديانته): ٢٣٣ - ٢٦٩، والملل والنحل: ١ / ٢٤٤ ومابعدها.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٩

والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنَّما يقع بسبب النِّساء والأموال، أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ»[١].

ويقول الطبري: «قال مَزْدك لأصحابه: «إنَّ الله إنَّما جعل الأرزاق في الأرض ليقسِّمها العباد بينهم بالتآسي، ولكن الناسَ تظلموا فيها، وزعموا أنَّهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردُّون من المُكثرينَ على المُقلِّين، وأنَّه من كان عنده فضلٌ من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره. . ، فافترض السَّفلةُ ذلك واغتنموهُ، وكانَفُوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلي الناس بهم، وقويِ أمرُهم حتَّى كانوا يدخلون على الرَّجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائهِ وأمواله، لا يستطيع الامتناع مِنهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعَّدوه بخلعِه، فَلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى صاروا لا يَعْرِف الرَّجل منهم ولدَهُ ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئاً ما يتسعُ به. . .

وقال في موضع آخر: «وشمل الناسَ بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثلهِ. . . »[٢].

وقد لقي - مزدك - نفس المصير الَّذي لقيه من قبل (ماني) حيث قتله انوشروان.

هذه هي أهمُّ الملامح الدينيَّة في بلاد فارس قبل ظهور الإسلام وقد حمل أتباع هذه الأديان تعاليمهم الدينيَّة إلى المناطق الَّتي كانت تحت نفوذهم حيث كان في الجزيرة العربيَّة بعض أتباع المجوسيَّة، وكذلك في بعض أجزاء اليمن وامارة الحيرة، وبلخ، وبعض بلاد الديلم وطبرستان وغيرها من المدن الَّتي كانت تحت النُّفوذ والسيطرة الفارسيَّة.

---

(١) الملل والنحل: ١ / ٢٤٩ مصدر سابق.

(٢) تاريخ الطبري: ٢ / ٩٢ - ٩٣ وانظر: ٢ / ٩٩ وما بعدها.

ج - الحالة الاجتماعيَّة:

لقد ألقت حالة الاضطهاد السِّياسيّ والدينيّ بظلالها على مفاصل الحياة الاجتماعيَّة في عهد المملكة السَّاسانيَّة، وعاشت الأمة الفارسيَّة آنذاك أَسوءَ حالات التَّفاوت والاختلاف الطَّبقي والاجتماعي، حيث رُتِّبت طبقات المجتمع وامتازت كلّ طبقة بامتيازاتها، وكان الملك السَّاساني (اردشير بن بابك) هو أوّل من رتَّب الرَّعية على طبقات، وجعل الناس على أقسام أربعة وحَصَرَ كلّ طبقة على قسمتها:

فالأول: الأساورة من أبناء الملوك.

والقسم الثاني: النُسَّاك وسَدَنَةُ بيوتِ النِّيران.

والقسم الثالث: الأطبَّاء والكُتَّاب والمنجِّمون.

والقسم الرابع: الزُرَّاع والمِهان (أصحاب المهن) وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: ما شيء أسرعَ في انتقال الدُّول وخراب المملكة من انتقال هذه الطَّبقات عن مراتبها حتى يُرفَعَ الوضيع إلى مرتبة الشَّريف، ويُحَطَّ الشَّريفُ إلى مرتبة الوضيع(١).

وقد سار ملوك بني ساسان على هذا التَّقسيم الطَّبقي «ولم يكن من شأنهم أن ينقلوا أحداً من طبقة وضيعة إلى طبقة رفيعة، فلم يزل على ذلك ملوك الأعاجم حتى مَلَك (بهرام جور بن يزدْجرد)، فأقرَّ مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسَدَنَةَ بيوت النِّيران على ما كانَتْ وسوّى بين الطَّبقتين، فلم يزل الأمر كذلك حتى مَلَك «كسرى أنوشيروان»، فردَّ الطَّبقات إلى مراتبها الأولى»(٢).

---

(١) الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب التاج في أخلاق الملوك: ٢٣، ط. مصر، تحقيق أحمد زكي باشا.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤ وما بعدها، بتلخيص.

وهكذا رزحت الأمَّة الفارسيَّة في ظلِّ سياسة القهر والتَّمايز الطَّبقي، ففي الوقت الَّذي كانت طبقة النُّبلاء وأبناء الملوك ورجال الدين والكهنة يستحوذون على جميع المناصب الاجتماعيَّة والسَّياسيَّة الحسَّاسة، ويتمتَّعون بكافَّة الامتيازات، ويُستَثنْون من دفع الضَّرائب والخدمة العسكريَّة !! نجد طبقة الكسبة والعُمَّال والمزارعين وبقيَّة أفراد المجتمع تُحرم من كافَّة حقوقها الاجتماعيَّة، ويثقل كاهلها الضَّرائب الماليَّة الباهضة وعليها المشاركة في الحروب الطَّويلة.

فحقّ المِلكيَّة كانت محصورة في الطَّبقات الأرستقراطيَّة الأقطاعيَّة العليا، وحق التَّعلُّم خاصّ بأبناء الأغنياء والبيوتات الرَّفعية، والعظماء والأشراف.

وقد جاء في تأريخ أبي الفداء[١] «أنَّ ملوك إيران لا يعهدون إلى ذوي الأصل الوضيع بأيِّ عمل من أعمال الدِّيوان».

ويروي الفردوسي[٢] في الشاهنامه[٣] قصَّة تُبيِّن إقصاء العامَّة عن هذا المجال: «كان كسرى الأول بحاجة إلى المال للمضي في إحدى حروبه مع الروم، وكان أحد الإسكافيين مستعدّاً لإقراض الملك مبلغاً كبيراً من النُّقود، وكان الاسكاف في أساطير الفرس أيام السَّاسانيين يمثل أحطّ رجال الطَّبقة الدنيا، ومع هذا تمَّ الاتفاق على القرض وبعث الرَّجل الجِمال محمَّلة بالمال، وقد سُرَّ الملك باريحيته وأمر حين يردّ المال إليه أن يزاد مبلغ كبير عليه، ولكنَّ - ذلك الإسكافي - كان طموحاً وكان يودُّ أن يرى وَلَدَه بين الكُتَّاب، كتاب المَلِك، فلما سمع كسرى بهذه الرَّغبة أمر بإعادة الجمال وما تَحمِل رافضاً أن يأخذ القرض

(١) أبو الفداء - عماد الدين إسماعيل، تأريخ أبي الفداء المختصر في أخبار البشر: ١ / ٩٣ .

(٢) انظر ترجمة الفردوسي في الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٨٦ .

(٣) الشاهنامه: ملحمة شعرية ضخمة للفردوسي يذكر فيها أمجاد ملوك إيران في قرابة ستين ألف بيت، وعليها شروح متعددة.

بهذا الَّثمن، قال: حينما يرقى ولدي إلى العرش يحتاج إلى كاتب سعيد الحظّ فإذا كان لإبن الإسكاف هذا مقدرة، فإنَّ الملك لن يرى إلاّبعينيه ولن يسمع إلاّ بأذنيه، ولا يبقى لأهل الذّكاء من الأشراف غير الحسرة والأسف، وانَّه مهما اعتلت درجته استهان بذوي الألباب واستعظم لهم في الثّواب ردّ الجواب»[١].

وقد كان الانتقال من طبقة إلى أخرى أعلى منها محظوراً بوجه عام ولا يقعُ إلاَّ استثناءً، «وأمَّا الفلاَّحون فكانوا من أسوء طبقات المجتمع حالاً، كانوا تابعين للأرض، ومجبرين على السخرة، وعلى الخدمة العسكريَّة رَجَّالة، فكانت كثرتهم العظمى تسير وراء الجيش كأنَّها ذاهبة إلى إذلال أبدي، وبغير أجر يحفِّزها ولا مكافآت أخرى، وبالجُملة لم تقرِّر القوانين كثيراً من القواعد لحماية الفلاَّحين»[٢] كما أنَّها لم تقرِّر ذلك لبقيَّة طبقات الشَّعب.

أمَّا نظام الأسرة، فقد قامت الأسرة على أساس تعدُّد الزَّوجات، وقد كان عدد الزَّوجات، اللاَّتي يتَّخذهن الرجل من النَّاحية العمليَّة، على قدر يسارهِ، وكان المُضيَّق عليهم في الرِّزق يتَّخذون - بوجه عام - زوجاً واحداً، وكان لربِّ البيت رياسة الأسرة وكانوا يميِّزون الزَّوج الرئيسيَّة، وهي الزوج بالمعنى الكامل «او الزَّوج الممتازة» عن الزَّوج في الرُّتبة الثَّانية أو الزوج الخادمة. وكانت الأحكام القانونيَّة لهاتين الطَّبقتين من الزوجات مختلفة، والظَّاهر أن الطَّبقة الثَّانية كان منها الرَّقيق المُشترى والسَّبايا، وكانت كل زوجة ممتازة ربَّة لبيت، ولذا كان لكلٍّ واحدة بيت خاصّ بها، وكان للمرأة الممتازة الحقّ في الطَّعام على زوجها طيلة حياتها، وللابن هذا الحقّ حتَّى يبلغ وللبنت حتَّى تتزوّج، وأمَّا الزوج الخادمة فأولادها الذُّكور وحدهم يتبنون في أسرة الاب والذي يبدو أنَّ القانون السَّاساني لم يعرف غير النَّوعين اللَّذين ذكرناهما من الزواج.

---

(١) إيران في عهد السَّاسانيين: ٣٠٥، وانظر: شاهنامه البغدادي - تحقيق (العزام): ٢ / ١٦٤

(٢) المرجع نفسه : ٣٠٦

وقد اقتضت العناية بنقاوة دم الأسرة – التي كانت من الصِّفات البارزة في عادات الجماعة الإيرانيَّة – جواز الزواج بين المحارم: بين الأب والبنت، والأم والابن، والأخ والأخت.

وعادة زواج المحارم قديمة عند الفرس، ويمدنا تأريخ الأكمينين بأمثلة كثيرة منه، بل إنَّ تأريخ العصر السَّاساني نفسه يمدّنا بكثير من أمثلة هذا النوع من الزواج فقد اتَّخذ (بهرام) عوبين أخته زوجاً له، كذلك فعل (مهران) وغيره من ملوك ساسان.

ويروي الزردشتيّون أمثلة من القصص الخرافية يثبتون بها قداسة هذا العمل، ولا يعتبرونه سفاحاً، بل عملاً صالحاً يُثاب عليه صاحبه من النَّاحية الدينيَّة! ومنورٌ بمجد إلهي وله فضيلة طرد الشيطان[1] !

هذا ملخَّص ما كانت عليه الإمبراطورية الفارسيَّة قبل ظهور الإسلام من النَّاحية السياسيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة.

٢ – أحوال الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة قبل الإسلام

لم تكن الإمبراطورية الرومانيَّة أحسن حالاً من دولة فارس، حيث كان يسودها التبذل والانحطاط والظلم الاجتماعي.

لقد كانت هذه الإمبراطوريَّة تسيطر عليها الروح الاستعماريَّة التوسُّعيَّة، معتمدة بذلك على قوَّتها العسكريَّة، ممَّا جعلها تخوض مغامرات عجيبة ومواجهات مسلَّحة دمويَّة مع جارتها الدولة الفارسيَّة الَّتي كانت تحمل نفس الطُّموحات والتوجُّهات.

---

(١) إيران في عهد السَّاسانين: ٣٠٩ وما بعدها، باختصار وتقديم وتأخير، وللتوسع انظر المصادر التي إعتمدها المؤلف في هامش الصفحة نفسها.

ومن جهة ثانية «كانت هذه الإمبراطورية منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشَّام ومصر من جهة أخرى، وكانت تسعى لتكيّف الدِّيانة المسيحيَّة والتَّلاعب بها حَسبما توحي به مطامعها وأهواؤُها المستشرية»[١].

ولا يمكن لنا بهذه العجالة أن نستوعب وبنظرة شمولية كلّ الجوانب الحضاريَّة للمجتمع الرُّوماني من حيث الحالة السِّياسيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة، وإنَّما سوف نكتفي بالقاء نظرة سريعة على بعض هذه النواحي ومدى تفاعلها، مقتصرين على الحقبة الزَّمنية الَّتي سبقت أو زامنت ظهور الإسلام في الجزيرة العربيَّة.

أ - الحالة السِّياسيَّة للإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة:

الامبراطورية الرومانيَّة الشرقيَّة هي المعروفة بالإمبراطورية البيزنطينيَّة ويعرفها العرب بالرُّوم، وكانت تَحْكُم في العصر الَّذي نتحدَّث عنه وهو عصر ظهور الإسلام، دول اليونان والبلقان، وآسيا الصغرى، وسوريه وفلسطين، وحوض البحر الأبيض المتوسط بأسره ومصر. وكل إفريقية الشَّماليَّة، وكانت عاصمتها القسطنطينيَّة، وكان ابتداء الإمبراطورية المذكورة سنة (٣٩٥م). وانتهاؤها بغلبة العثمانيين على القسطنطينيَّة سنة (١٤٥٣م)[٢].

وتعاقب على دفَّة الحُكم في المملكة الرومانيَّة سلسلة من الملوك، وكلّ ملك منهم كان يُعرف باسم «قيصر»، وقد ذكر لنا الطبري مَن مَلَك مِن الرُّوم أرض الشَّام بعد رفع المسيح عليه السَّلام إلى عهد النَّبيِّ ﷺ حيث كان حاكمهم آنذاك «هِرَقْل» الَّذي كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام[٣].

---

(١) البوطي، فقة السِّيرة: ٤٥ مرجع سابق.

(٢) الندوي - أبو الحسن، السِّيرة النَّبويَّة: هامش ص ٣١، ط. دار ابن كثير، الطبعة الثانية عشرة. وللتوسع انظر: المسعودي، التَّنبية والإشراف: ١٠٦ وما بعدها.

(٣) الطبري: ١ / ٦٠٦ وما بعدها. وانظر: المصدر نفسه: ٢ / ٦٤٦ وما بعدها.

ولم يُفصِّل لنا الطبري شيئاً عن الحوادث الَّتي كانت في أيَّامهم، وفصَّل لنا ذلك ابن الأثير في الكامل، والمسعودي في التَّنبيه[1] وذكرا أنَّهم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: الصَّابئة، وأول ملوكهم يدعى (غاليوس) وآخرهم (قسطينس).

الطبقة الثَّانية: المتنصِّرة، وأوَّل ملوكهم الَّذي تنصَّر هو (قسطنطين) وهو ابن (قسطينس) آخر ملوك طبقة الصَّابئة، وآخر ملوكهم (فوقاس).

الطبقة الثَّالثة: ملوك الرُّوم بعد الهجرة: وأوَّلهم (هِرَقْل) وفي أَيَّامه كان النَّبيُّ ﷺ. ومنه مَلكَ المسلونَ الشَّام.

وسارت أحوال المملكة الرومانيَّة على هذه الحالة كلَّما مات منهم قيصر ورثه ابنه على العرش، حتَّى آلت إلى الضَّعف والاضمحلال ممَّا أدَّى إلى سقوطها على أيدي الأتراك الَّذين «ساروا إلى القسطنطينيَّة وحاصروها أربعين يوماً وأغاروا على بلاد الروم واتَّصلت غاراتهم إلى بلاد الافرنج»[2].

والملاحظ من النُّصوص التأريخيَّة الَّتي تتحدَّث عن الحقبة الزمنيَّة الطَّويلة للدَّولة الرومانيَّة، أنَّ هذه الدولة لا تختلف عن الدولة الفارسيَّة في ملامحها السَّياسيَّة العامَّة، «فالدولة الرومانيَّة الشرقيَّة، ازدادت فيها الأتاوات، وتضاعفت فيها الضَّرائب، حتَّى أصبح أهل البلاد يفضِّلون على حكومتهم كلّ حكومة أجنبيَّة، وحدثت اضطرابات إثر اضطرابات وثورات إثر ثورات، وقد هلك عام (٥٣٢م) في عهد «جيستين الأول» (Justin-1) ثلاثون ألف شخص في القسطنطينيَّة - عاصمة المملكة - وأصبح الهمُّ الوحيد اكتساب المال من أيِّ

---

(١) انظر: الكامل في التأريخ: ١ / ٢١٠ وما بعدها، والمسعودي، التَّنبيه والإشراف: ١٠٦ وما بعدها.

(٢) المسعودي: ١٠٦ وما بعدها.

وجه، ثمَّ إنفاقه في الترف، وقد أمعنوا في طرق التَّسلية، حتَّى وصلوا فيها إلى الوحشيَّة»(١).

ب - الحالة الدِّينيَّة:

لم تكن الحالة الدينيَّة في المملكة الرومانيَّة مُستقرَّة، وإنَّما تقلَّبت ما بين الصَّابئة والنصرانيَّة، ورفضت قبول الإسلام، يقول ابن الأثير متحدِّثاً عن دين الدولة وملوكها: «وكانوا يدينون قبل النَّصرانيَّة بمذهب الصَّابئين، ولهم أصنام يعبدونها على عادة الصَّابئين»(٢) وقد ظهرت النصرانيَّة في ايام مُلْكِ (قومودوس)، واتَّخذت النصرانيَّة كدين رسميٍّ للدولة في مملكة (قسطنطين) «وكان مُلكه ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وهو الَّذي تنَّصر مِنْ ملوك الرُّوم وقَاتَل عليها حتى قبلها الناس ودانوا بها إلى هذا الوقت»(٣).

إلاَّ أنَّ هذا لم يدم طويلاً إذ بعد فترة زمنيَّة قصيرة وصل إلى دفَّة الحُكم مَلِك يُدعى «يوليانوس» وكان يدين بمذهب الصَّابئين ويُخفي ذلك، فلمَّا ملك أظهرها وخرب البيع وقتل النَّصارى(٤).

والاضطهاد الدِّيني كان على أشُدِّه إبان ملوك الدَّولة الرومانيَّة، فعندما يصل إلى دفَّة الحُكم مَلِك يدين بمذهب الصَّابئة يُنْزِل السَّيف باليهود ويهدم معابدهم، ويشملهم القتل والتَّشريد، وبعدها يحكم مَلكِ آخر يدين بالنَّصرانيَّة نجده يحمل الناس عليها قسراً ويقاتلهم حتى يقبلوها ويدينوا بها، ثمَّ يأتي مَلِكٌ آخر يدين بمذهب الصَّابئين

---

(١) الندوي، السيرة النَّبويَّة: ٣١ مرجع سابق، وللتوسع انظر: «سقوط دولة روما وانحطاطها» لأدوارد جيبتون: ٣ - ٥ .

(٢) الكامل في التأريخ: ١ / ٢١٢ مصدر سابق.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢١٦ .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢١٧ .

ويخفي ذلك حتَّى ما استتبَّ له الأمر؛ نجدهُ يخرب البِيْع ويقتل النَّصارى[١].

ثمَّ إنَّ الاختلاف كان على أشدِّه بين أساقفة النَّصارى أنفسهم، ممَّا دعاهم إلى عقد اجتماع كبير لهم في مدينة (نيقة) من بلاد الروم. وعُرف باجتماع (النهودس) إذ اجتمع فيه ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً فاختاروا منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً متَّفقين غير مختلفين، فحرموا (آريوس) الإسكندراني - الَّذي يضاف إليه الآريوسيَّة - من النَّصارى، ووضع شرائع النصرانيَّة بعد أن لم تكن، وكان رئيس هذا المجمع بطرق الإسكندرية[٢].

والآريوسيَّة - الَّتي حرمها هؤلاء الأساقفة في اجتماعهم - نسبة إلى آريوس وكان يقول: «القديم هو الله، والمسيح هو مخلوق» وقد ردَّ عليه النَّصارى باجتماع (نيقية) واتَّفقوا على: «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كلّ شيء، وصانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلّها، الَّذي ولد من أبيه قَبْل العَوالِم كلّها، وليس بمصنوع، إله حقّ من إله حقٍّ... نزل من السَّماء وتجسَّد في روح القُدُس وصار إنساناً...!»[٣].

وفي عهد الفتوحات الإسلاميَّة كانت غالبيَّة هذه البلدان تدين بالنصرانيَّة إلاَّ أنَّها منقسمة إلى جملة من الطَّوائف، أشهرها في الشَّرق ثلاثة:

اليعاقبة: وكانت منتشرة في مصر والنَّوبة والحبشة.

والنساطرة: وكانت منتشرة في الموصل والعراق وفارس.

والملكانيَّة: وكانت منتشرة في بلاد المغرب وصقليَّة والأندلس والشَّام.

---

(١) انظر تفاصيل ذلك عند ابن الأثير في الكامل: ١ / ٢١٤ - ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الكامل في التأريخ: ١ / ٢١٦، وانظر: المسعودي، التَّنبيهُ والإشراف: ١٢٢ - ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢١٦ الهامش.

وكان بين هذه المذاهب جدال في العقائد الدينيَّة فاليعاقبة كانوا يرون أنَّ المسيح هو الله، وأنَّ الله والإنسان اتَّحدا في طبيعة واحدة هي المسيح!! والملكانيَّة والنساطرة قالوا: إنَّ للمسيح طبيعتين متميِّزتين، الطَّبيعة اللاَّهوتيَّة والطبيعة النَّاسوتيَّة، وإن اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك في التفاصيل. وقد استمرَّ الخلاف بين هذه الفِرَق في: هل ما للاَّهوتيَّة وما للناسوتيَّة من إِرادة وفعل متَّحدتان في المسيح، أو مختلفتان؟ قالت اليعاقبة بالأول وقالت النساطرة، أنَّ للمسيح ناسوتيَّة لها إِرادة، ولها فصل يختلف كلَّ الاختلاف عن العنصر اللاَّهوتي، واختلفوا في تصوير اتِّحاد اللاَّهوت بالنَّاسوت...»[١].

وخلاصة القول أنَّ الفِرَق النصرانيَّة الَّتي كانت منتشرة في البلاد الَّتي فتحها المسلمون كانت مختلفة، وكانت تتجادل في العقيدة في الله جدالاً شديداً، ولم يقتصر النِّزاع على ذلك، وإنَّما اشتدَّ ليشمل مسائل كثيرة أخرى.

وقد لجأت النصرانيَّة إلى الفلسفة اليونانيَّة لتستعين بها على الجدل، ولتؤيِّد تعاليمها وعقائدها، فكان كثير من رجال الدِّين النَّصارى فَلاسفة كالأب (أوغسطينيوس) (٣٥٤ - ٤٣٠ م)، وكانت الإسكندريَّة هي المركز الجغرافي لمزج الدين بالفلسفة، وبتعبير آخر امتاز هذا العصر بميل الفلسفة إلى الدين وميل الدين إلى الفلسفة»[٢].

وهكذا عاشت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة جدلاً عقيماً حول عقيدتها في الله، والمسيح.

وقد حكى لنا القرآن الكريم شيئاً عن بعض أقوالهم و ردَّ عليها:

---

(١) فجر الإسلام: ١٢٥ وانظر: ابن حزم في الملل والنِّحل: ١ / ٥٣ .

(٢) فجر الإسلام: ١٢٦ - ١٢٧، وانظر: كتاب «مبادىء الفلسفة» تعريب أحمد أمين.

قال سبحانه و تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ .... إلى قوله تعالى: - ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ...﴾[١].

وقال سبحانه تعالى يخاطب المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[٢].

ج - الحالة الاجتماعيَّة:

لقد ألقت الحالة الدينيَّة المضطربة بضلالها على مفاصل الحياة الاجتماعيَّة، وعاش أفراد المجتمع الرُّوماني أوضاعاً اجتماعيَّة متناقضة، ففي الوقت الّذي ينساق فيه الفرد العادي إلى الرهبنة و ترسيخ النَّزعة الدينيَّة فى نفسه، والدُّخول في جدل بزنطي حول الأبحاث الدينيَّه العميقة، نجده في جانب آخر حريصاً أشدَّ الحرص على كلِّ أنواع اللَّعب واللَّهو، والطَّرب والتَّرف!!

«فقد كانت هناك ميادين رياضيَّة واسعة تسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرَّجون فيها على مصارعات بين الرِّجال والرِّجال أحياناً، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسِّمون الجماهير إلى لونين: لون أزرق، ولون أخضر، و كانوا يحبُّون الجَمَال، ويعشقون العنف والهمجيَّة، وكانت ألعابهم دمويَّة ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعرُّ منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والتَّرف، والمؤامرات والمجاملات الزَّائفة والقبائح والعادات السَّيئة»[٣].

---

(١) المائدة: ٧٢ -٧٤- ٧٥ .

(٢) المائدة: ١١٦ .

(٣) النَّدوي، السِّيرة النَّبويَّة: ٣٢ مرجع سابق.

هكذا كانت تسير دفَّة الحياة داخل الكيان الاجتماعي للإمبراطورية الرومانيَّة أمَّا الولايات والدُّول الأخرى الَّتي امتدَّ إليها نفوذ الدولة البيزنطينيَّة، فكانت أسوءَ حالاً، وأشدَّ تفكُّكاً واضطراباً.

فهذه مصر - إحدى ولايات الدولة البيزنطينيَّة الغنيَّة - كانت عُرضة لاضطهاد ديني فظيع، واستبداد سياسي شنيع، وكان البؤس والشَّقاء ممَّا كانت تعانيه مصر الَّتي كانت مصدراً كبيراً لرخاء الدولة وغناها، وقد اتَّخذها الروم شاة حلوباً يحسنون حلبها، ويسيئون علفها(١).

أمَّا سوريَّة - ولاية الإمبراطورية البيزنطينيَّة الأُخرى - فكانت مطية للمطامع الرومانيَّة، وكان الحُكم حُكم الغرباء الَّذي لا يعتمد إلاَّ على القوَّة، ولا يشعر بشيء من العطف على الشَّعب المحكوم، وكثيراً ما كان السوريُّون يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كانت عليهم من ديون، وقد كثرت المظالم والسخرات والرَّقيق(٢).

د - الحياة العقليَّة:

لقد ورثت الدولة الرومانيَّة من الدولة اليونانيَّة، - بعد أن ذابت الثَّانية في كيان هذه الدولة وأصبحت دُويلة من دولها الواسعة، - تراثاً حضارياً ضخماً كانت تعجُّ به الحياة العقليَّة والأدبيَّة والفنيَّة للمجتمع اليوناني آنذاك.

وقد نقل لنا تأريخ الحضارة اليونانيَّة أسماء لامعة لأساطين من الفلاسفة والعلماء والأدباء وفي مختلف شؤون العِلم والمعرفة والفكر، من أمثال: (سقراط، وافلاطون، وارسطو) في مجال الفلسفة والأفكار العقليَّة والسِّياسيَّة، ومن أمثال: (هوميروس) أوَّل شعراء الملاحم عند اليونان، وصاحب ملحمتي «الإلياذة والأُوديسية» اللَّتين نجد بين سطورهما التَّكوين الهيكلي والمقوِّمات

---

(١) المصدر نفسه: ٣٢ نقلا عن «فتح العرب لمصر» لمؤلِّفه «ألفرد بتلر».

(٢) للتوسُّع في التفاصيل انظر: «خطط الشام» «للأستاذ كردعلي»: ١ / ١٠١ .

الأساسيَّة للفكر السِّياسي للدَّولة[١].

ونجد الأمر نفسه عند الشاعر اليوناني (هيزيودوس» صاحب الملحمتين: «الأَعمال والأيام» و «سلالة الآلهة». وعند «هيرودوتوس» صاحب كتاب «التأريخ» الَّذي سطَّر فيه أفكارهُ عن الدولة ومقوِّماتها، ووضع الحجر الأساس في بناء الدولة أو المجتمع المنظَّم الَّذي يعتمد الحريَّة السِّياسيَّة ويسمح بالرأي والرأي الآخر.

كلُّ هذه النَّظريات والأفكار ورثتها الدولة الرومانيَّة بعد أن أصبحت الدولة اليونانيَّة جزءاً من كيانها السِّياسي، وفقدت استقلالها السِّياسي والعسكري والاقتصادي، إلاّ أنَّها لم تفقد سيادتها الفكريَّة والعقليَّة وتأثيرها الفاعل في المجتمع الروماني، فإذا كان المقدونيُّون (الرومان) قد غزوا بلاد اليونان عسكريًّا فإنَّ الثقافة اليونانيَّة قد غزت المقدونيين حضارياً، فالرومان تأثَّروا بالنظم والأفكار الَّتي انتقلت إليهم.

«وبعد أن شبت «روما» عن الطوق، وأصبحت القوة المسيطرة في حوض المتوسِّط، نجدها تتلمذ على بلاد اليونان في أكثر من مجال من مجالات الأدب والفكر والثَّقافة بوجه عام بحيث أصبحت الثقافة اليونانيَّة لازمة من لوازم أي مثقَّف روماني يعتدُّ بتكوينه الفكري، يحصل عليها عن المعلِّمين اليونان في مهجرهم الروماني، أويسعى إليها في بلاد اليونان، اثينا أو غيرها من مراكز الثقافة اليونانية[٢].

وقد أسهمت نظم الحكم الرومانيَّة بشكل وآخر في هذا التلاقح العقلي بين أبناء الحضارتين، إلاَّ في فترات زمنية مظلمة شنَّ فيها بعض الحُكَّام سيف البغي

---

(١) يحيى – لطفي عبدالوّهاب، اليونان مقدمة في التأريخ الحضاري: ٢٢٨ وما بعدها، ط. دار النهضة العربية – بيروت.

(٢) المرجع نفسه: ٣٣.

على الفلاسفة والمفكِّرين كما حصل في عهد (جوستنيان) الَّذي أغلق مدارس الفلسفة في أثينا واضطهد الفلاسفة[١].

٣ - الحروب بين الإمبراطوريتين

لقد عظمت الإمبراطورية الفارسيَّة، وعظم نفوذها وثرواتها، وتوسَّعت مساحة سيطرتها على أجزاء مترامية الأطراف تشمل آذربيجان وطبرستان، وأسبرته، إلى بلاد خوارزم والعراق، وجزء من اليمن، كذلك دخلت إلى الهند وأفغانستان حتَّى أوغلت في الشِّمال الشَّرقي وبلغت أقصى حدودها.

ولكن كلَّ هذه البلاد لم يوقف طموحها التَّوسُّعي فأخذت ترمي ببصرها إلى بلدان أخرى تقع تحت سيطرت ونفوذ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الَّتي كانت بدورها قد توسَّعت وعظم نفوذها لتشمل مساحات واسعة من العَالَم، إلاَّ أنَّها أيضاً لم يتوقَّف طموحها التوسُّعي عند هذا الحدّ، فأخذت تبحث هي الأخرى عن مناطق نفوذ أخرى.

وقد أدَّى هذا الطُّموح التوسُّعي من كلا الإمبراطوريتين إلى نشوب معارك دامية بينهما استمرَّت إلى أكثر من عشرين سنةً فَقَد فيها الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في خضم تلك المعارك الطاحنة، وبعد الخسائر العظيمة الَّتي تحمَّلها الطرفان إضطرا إلى عقد وثيقة الصُّلح بينهما وحدَّدوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السَّابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام ما يعادل (عشرين ألف) دينار إلى دولة إيران[٢].

إلاَّ أنَّ سرعان ما (تبوأ كسرى انو شيروان) دفَّة الحكم فنقض وثيقة الصُّلح المُبرَمة بين الطَّرفين ساعياً إلى توسيع رقعة نفوذه، وتوسيع حدود إمبراطوريَّته، فشنَّ هجوماً على قوات الدولة الرومانيَّة في سوريا وحرق أنطاكية، وتوسَّع بقواته

(١) أمين، فجر الإسلام: ١٢٩.

(٢) سبحاني، سيِّد المرسلين: ١ / ١١٦ .

إلى آسيا الصُّغرى».

وبعد وفاة كسرى «انوشيروان» خَلَفه في المُلك وَلَده (خسرو برويز) الَّذي قام بدوره بشنِّ حرب واسعة على الروم عام (٦١٤م) وفتح في أوَّل حملاته بلاد الشَّام وفلسطين، ونَهبَ أورشليم، وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيِّد المسيح عليه السلام وهدم المدن ودمَّرها، وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين ألفاً من النَّصارى لصالح الإيرانيين[١].

وهذه الواقعة هي الّتي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].

وقد تحقَّق ما نبَّأ القرآن به سنة (٦٢٧م) حيث زحف المَلِك الروماني (هِرَقل) بجيوشهِ حتَّى صار إلى بلاد آران والبلقان وآذربيجان والماهات من أرض الجبل، واتَّصلت جيوشهُ بأرض العراق فشنَّ الغارات وقتل وسبى وانصرف راجعاً إلى (القسطنطينية)[٣] وفي هذه المعركة سقطت «نينوى» بأيدي الفاتحين الرُّوم.

هذه الحروب السجال بين الإمبراطوريتين أدَّت في النِّهاية إلى إضعاف واضمحلال كلا الإمبراطوريتين، حيث سقطت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة أمام الفتوحات الإسلامية، وانحسرت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وانسحبت من بلاد الشام وفلسطين إلى ماوراء البحر بعد أن لاحقتها جيوش الفتح الإسلامي، وأوقعت بها الهزائم الكبيرة.

---

(١) المرجع نفسه: ١١٦.

(٢) الروم: ١ - ٦ .

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف: ١٣٤ مصدر سابق.

الأسئلة :

١ - ما هي أهمّ سمات الحالة السياسيّة للامبراطورية الفارسيّة قبل الإسلام؟

٢ - ما هي الدّيانة الرسميّة للدولة الساسانية ؟ وما هي أهم الأديان الأُخرى التي ظهرت آنذاك ؟

٣ - كيف تقيّم الحالة الاجتماعية في ظلّ الدولة الساسانية ؟ وما هو التقسيم الاجتماعي الذي رتّبه الملك الساساني (اردشير) لرعيّته ؟

٤ - ما هي أهم الملامح السياسيّة للامبراطورية الرومانية ؟

٥ - ما هو الدين الرسمي للدولة الرومانية ؟ وكيف تقيّم معالم الاختلاف الديني والمذهبي بين أساقفة ورهبان هذه الدّيانة ؟

٦ - ما هي أهم الخصائص الاجتماعيّة للامبراطوريّة الرومانية والدول الخاضعة لها ؟

٧ - كيف تقيّم الحياة العقليّة للامبراطورية الرومانية بعد أن احتلّت بلاد اليونان ؟

٨ - ما هي أسباب ودوافع الحروب التي دارت رحاها بين الامبراطوريتين الفارسيّة والرومانيّة ؟ وما هي أهمّ آثارها ونتائجها لكلا الدولتين ؟

الدرس الخامس
ما قَبل البعثة النَّبويَّة
«القسم الثاني»

أحوال الجزيرة العربيَّة قَبل الإسلام

محاور البحث:

١ - الحالة الاجتماعيَّة عند العرب قبل الإسلام
٢ - الحالة الفكريَّة والثقافيَّة عند العرب قبل الإسلام
٣ - الحالة الدينيَّة عند العرب قبل الإسلام
٤ - الحالة السياسيَّة عند العرب قبل الإسلام
● الأسئلة

أحوال الجزيرة العربيّة
قَبل الإسلام

تمهيد:

قبل الدخول في الحديث عن سيرتهﷺ لا بدَّ لنا من أن نأخذ فكرة موجزة عن التركيبة الاجتماعية وخصائص العرب وطباعهم قبل الإسلام من النواحي الاجتماعيَّة، والفكريَّة والدينيَّة والسِّياسيَّة. . . لكي تتجلّى لنا الصورة الواضحة للواقع الحياتي والمعاشي آنذاك، ثمَّ نقارن حالتهم تلك، بحالتهم بعد تشرُّفهم بحمل الرِّسالة السَّماويَّة، لنرى مدى التغيُّر في الأفكار، والمفاهيم، والأخلاق، والقيم، الإنسانيَّة، فتتجلّى لنا بذلك عظمة تعاليم الإسلام وقيمهُ في التغيُّر من جانب، ومدى الجُهد الكبير الذي بذله رسول اللهﷺ من أجل ذلك من جانب آخر.

ولا بدَّ من التَّنبيه إلى نقطة مهمَّة في البحث وهي أنَّنا عندما ندرس حالة العرب قبل الإسلام، والَّتي سمَّاها القرآن الكريم بـ (الجاهليَّة) لا نريد بذلك «أن نصوِّرهم وكأنَّهم بناء أُصيب بزلزال شديد، زعزعه من أساسه، فإذا كل شيء فيه غير قائم في محلِّه»[1] كما يتّهم بعض الكُتَّاب البعض الآخر بذلك.

وإنَّما الغرض من هذه الدِّراسة هو عرض صورة تأريخيَّة عن ذلك الواقع، وبموضوعية تامة بعيدة عن روح التعصب؛ معتمدين في ذلك على أوثق النُّصوص

---

(١) الحسني، سيرة المصطفى: ١٣ مرجع سابق.

التَّأريخيَّة في هذا المجال، ومتوخِّين الاختصار قدر الإمكان.

لقد أطلق القرآن الكريم على حالة العرب قبل الإسلام مصطلح «الجاهليَّة» وورد هذا المصطلح في مجموعة من الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾(٤).

فالجاهليَّة: «هو الاسم الَّذي يُطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، أو بعبارة أخصّ الاسم الَّذي يطلق على الفترة الَّتي خلت من الرُّسل بين عيسى ومحمَّدﷺ»(٥).

يقول الدكتور جواد علي: «والجاهلية اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأُمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور

---

(١) آل عمران: ١٥٤ .

(٢) المائدة: ٥٠

(٣) الأحزاب: ٣٣

(٤) الفتح: ٢٦

(٥) دائرة المعارف الإسلامية: ٦ / ٢٦٤

أحداث تزلزلها وتتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي تسميها أيضاً بتسميات جديدة. وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة، ما يدل ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان»[١].

إلاّ أنَّ هنالك حقيقة لا بدَّ من توضيحها وهي:

أنَّ الإسلام حينما أطلق مصطلح الجاهليَّة على حياة العرب قبل الإسلام، إنَّما أطلقه ليشخِّص طبيعة هذه المرحلة الحضاريَّة والعقائديَّة وليضعها في صفِّ أخواتها من جاهليَّات الأمم والشُّعوب الأُخرى، باعتبارها إحدى مصاديق الجاهليَّة الأُمميَّة الَّتي ظهرت في مختلف أدوار تأريخ البشريَّة، وفي شتَّى مراحل حياتها. ولم يُطلق الإسلام هذا المصطلح كمصطلح توقيفي يخصُّ هذه الفترة بذاتها، بل أطلقه عليها لإيمانه بأنَّها تمثِّل إحدى مفردات التأريخ الجاهلي.

كما أنَّ الإسلام لم يُطلق هذا المصطلح على حياة العرب قبل الإسلام نتيجة لجهلهم بالعلوم والمعارف، فهو لم يسمِّهم جاهليين لأنَّهم كانوا أمِّيِّين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولا لأنَّهم كانوا أمّة متخلِّفة في العلوم والمعارف والمدنيَّة أو لأنهم كانوا يتصفون بالمفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين.

بل سمَّاهم جاهليِّين لصدق انطباق المفهوم الجاهلي في عُرف الإسلام عليهم، لذلك حكى القرآن عن أمم تمتَّعت بأسباب العِلْم والمدنيَّة وامتلكت وسائل التطوُّر والرَّفاه الاقتصادي والاجتماعي، فوصفها بالضَّلال والتيه والانحراف كما وصف أمّة العرب بذلك، فَساوى القرآن بينهما بالوصف

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١ / ٣٧ .

والطَّبيعة، فكانوا جميعاً جاهليِّين في عُرف القرآن ومفهومه[١].

وعندما نستعرض ما ورد من تشخيص ووصف للحياة الجاهليَّة في عبارات ونصوص إسلاميَّة كثيرة، نستطيع أن نشخِّص معنى هذا المصطلح كمفهوم إسلامي قرآني، وسبب استعمال القرآن له، كما نستطيع أن نربط بين هذا الانطباق الاصطلاحي على حياة العرب قبل الإسلام وبين انطباقه على حياة الأمم والشعوب الأخرى المماثلة على امتداد التأريخ البشري، وتتابع أجيالها.

فحقيقة الجاهليَّة من خلال النُّصوص الإسلاميَّة تعني: مرض حضاري، وحالة فكريَّة ونفسيَّة تعتري الأفراد والشُّعوب والأمم في كلِّ عصر وجيل، وإنَّ مظاهر الحياة الجاهليَّة متشابهة تماماً رغم فواصل الزمان والمكان.

والدليل على هذا التَّشابه هو تأريخ البشريَّة الطويل، وتعاقب الأجيال والأمم، وبروز أعراض الحياة الجاهليَّة في كثير من الأجيال والشعوب؛ ففي كلِّ فترة من فترات التأريخ هناك جاهليَّة وانحراف عن منهج الحقِّ ودعوة الهدى والأنبياء.

فها نحن نشاهد على صفحات التأريخ، ونواجه على مسرح الحياة مشاهد قائمة من حياة البشريَّة الماضية والمعاصرة؛ فنرى الكفر، والإلحاد، والظلم، والطغيان والإرهاب، وسفك الدِّماء، وضياع الحقّ واضطهاد الضُّعفاء، واستغلال الفقراء وانتشار الرذيلة، فتلك هي انعكاسات التَّيار الجاهلي على الحياة البشريَّة، هذا التيَّار الَّذي يمثِّل الضَّلال والانحراف عن منهج الحقِّ والعدل والإيمان، وهي من أبرز سِمات الجاهليَّة وأظهر خصائصها الَّتي ما برح الإنسان يعاني من أزماتها ويقاسي من آلامها[٢].

---

(١) مفاهيم إسلاميَّة - الإنسان والجاهليَّة، دار البلاغ - طهران، ط. الثالثة، (١٩٨٩ م).

(٢) المرجع السابق: ٢٣، وللتوسع انظر محمد قطب: جاهلية القرن العشرين.

وخلاصة الأمر، إن مصطلح الجاهلية «اسم حدث في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة»[١].

فهي جاهلية حضارية سلوكية لها افرازاتها من السفه والحماقة والأنفة والخُفة والغضب.. وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام.

والذي يفهم من خلال آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية إنّ هذا المصطلح «الجاهلية» يعني تلك الحقبة الزمنية وما رافقها من مظاهر الوثنية التي حاربها الإسلام، وأنب القرآن المشركين على حميتهم الوثنية، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾[٢].

وهذا المصطلح لم يكن غريباً عن لسان العرب وبيئتهم التي نشأوا فيها، فقد كانوا يطلقونها في أدبياتهم وأشعارهم ويريدون بها حالة السفه أو الظلم أو الحماقة.. وما شابه ذلك من صفات ذميمة، وأخلاق مرذولة. وبهذا المعنى تقريباً وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوقَ جهل الجاهلينا

أي لا يسفه أحد علينا، فنسفه عليهم فوق سفههم، أي نجازيهم جزاء يربى عليه. ويمكن تعميم مصطلح الجاهلية على كلِّ أُمة تتشابه سلوكياتها وأخلاقها مع تلك الحقبة الزمنية.

وبعد هذا التمهيد والتوضيح لمصطلح الجاهلية نتحدث عن حياة العرب قبل الإسلام.

---

(١) جواد علي، مرجع سابق: ١ / ٤١ نقلا عن ابن خالوية وبلوغ الإرب والمزهر.

(٢) الفتح: ٤٨ .

العرب قبل الإسلام:

أ – أقسام العرب:

جميع العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانيَّة وعدنانيَّة. والقحطانيَّة شعبان: سبأ، وحضرموت.

والعدنانيَّة شعبان أيضاً: ربيعة، ومضر، ابنا نزار بن معد بن عدنان.

والشعب الخامس: وهم قضاعة، فمختلف فيهم، قيل إنَّهم عدنانيون، وقيل إنَّهم من قحطان[١].

وقسَّم المؤرِّخون العرب إلى ثلاثة أقسام: بائدة، وعاربة، ومستعربة.

أما البائدة فهم العرب الأُول، الَّذين ذهبت عنَّا تفاصيل أخبارهم لِقدم عهدهم وانقطاع أسباب العلم بآثارهم، وهم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأُميم، وجاسم، وعبيل، وعبد ضخم، وجُرهم الأُولى، والعمالقة.... وكانت مواطن عاد بأحقاف اليمن وعُمان إلى حضرموت والشِّحر، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عنهم وهم قوم نبي الله هود عليه السلام.

يقول السيِّد الطباطبائي في (الميزان): «هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التأريخ، وكانوا يسكنون الجزيرة، انقطعت أخبارهم، وانمحت آثارهم، ولا يحفظ التأريخ من حياتهم إلاَّ أقاصيص لا يُطمئنُّ إليها، وليس في التَّوراة الموجودة منهم ذِكْر»[٢].

ويقول الدكتور جواد علي: «هؤلاء هم مادة العرب البائدة وخامها، وهم

---

(١) ابن الأثير البداية والنهاية: ٢ / ١٤٥ مصدر سابق.

(٢) للتوسّع انظر: الطباطبائي – السيِّد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣٠٧، ط. الأعلمي – بيروت، الميزان: ١٠ / ٣٠٧

أقدم طبقات العرب على الإطلاق في نظر أهل الأخبار»[١].

وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصَّة نبيِّهم «صالح» عليه السلام والَّذي تحمَّل الأذى والمحنة في جنب الله حتَّى قضى الله بينه وبين قومه - ثمود - بهلاكهم، ونجاته، ونجاة من معه من المؤمنين.

أمّا العرب العاربة: فهم بنو سبأ، واسم سبأ عبد شمس وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها من وُلد سبأ.

وقد حدَّثنا التأرخ عنهم وعن السَدِّ العظيم الَّذي بنوهُ في ذلك الزمان وهو «سدُّ مأرب» وفيهم أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾[٢].

والمعنى: فأعرضوا - أي قوم سبأ - عن الشُّكر الَّذي أمروا به فجازيناهم، وأرسلنا عليهم سيل العَرِمِ فأغرقَ بلادهم وذهب بجنَّتهم. . .

وقيل لهم «عاربة» لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلُّقهم بأخلاقهم، أمَّا العرب - المستعربة - فهم جُرهم الثَّانية، وهم من وُلد قحطان، وبهم اتَّصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وكانت مساكن بني قحطان بالحجاز، ولمَّا أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل في مكّة نشأبينهم وتزوَّج منهم وصار يُطلق على أولاده العرب المستعربة[٣].

يقول صاحب المفصل: «وتقسيم العرب إلى طبقات - وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية - هو تقسيم لا نجد له ذكراً لا في التوراة أو الموارد

---

(١) جواد علي: ١ / ٢٩٥ مرجع سابق.

(٢) سبأ: ١٥ - ١٦، وانظر الميزان: ١٦ / ٣٤٦.

(٣) رضا - الشيخ محمّد، محمّد رسول الله: ٨ - ٩.

اليهودية الأُخرى، ولا في الموارد اليونانية أو اللاتينية، أو السريانية، ويظهر إنه تقسيم عربي خالص، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادوا قبل الإسلام، فلم تبق منهم غير ذكريات، وبين العرب الباقين، وهم إما من عدنان، وإما من قحطان.

وظل العرب يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تأريخ العرب قبل الإسلام، وفي موضوع الأنساب. . »[1].

ب - حالات العرب قبل الإسلام:

١ - الحالة الاجتماعيَّة عند العرب قبل الإسلام

تعني الحالة الاجتماعيَّة، علاقة العربي بأسرته، وأولاده، وأفراد القبيلة الَّتي ينتسب إليها، وكذلك علاقة القبائل المختلفة بعضها مع البعض، ونوع الرَّوابط الاجتماعيَّة الَّتي كانت تربط بعضهم بالبعض الآخر.

وعندما نطالع حياة العرب قبل الإسلام نجد أنَّ الوحدة الاجتماعيَّة الَّتي بُني عليها نظام حياتهم هي القبيلة، وتربط بين أفراد القبيلة الواحدة رابطة العصبيَّة القبلية؛ فكلّ فرد يتعصَّب لقبيلته - يعني يحفظ نسبه، ويفتخر بِهِ ويسير على منهج قبيلته، سواء أصابت أم أخطأت - حتَّى لقد قال شاعرهم يمتدحهم بذلك:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

ولعلَّ الحياة الصَّعبة الَّتي كانوا يعيشونها، والمفاهيم القبليَّة المتحكِّمة في سلوكهم، وعدم وجود الرَّوادع الدينيَّة أو الوجدانيَّة القويَّة، هي الَّتي دفعت بهذه القبائل إلى ممارسة الإغارة والسَّلب وسفك الدِّماء، ممَّا أدَّى إلى تفشِّي الظلم في

---

(١) جواد علي، المفصل: ١ / ١٩٥، وللتوسيع انظر كتابي الهمداني، الاكليل: ١ / ٧٥ و ٢ / ٧٢، وكتاب صفة جزيرة العرب.

المجتمع.

وقد صَوَّرلنا الشاعر زهير بن أبي سلمى هذا المعنى بقوله:

ومنْ لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومَنْ لا يظلم الناس يُظلَم

ويعبِّر عن هذا المعنى القول المتعارف في الجاهليَّة: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً؛ إذ كانوا يعتبرون النُّصرة هي الإعانة على الغير.

وفي إحدى روائع نهج البلاغة يصوِّر لنا أمير المؤمنين عليه السلام تلك الحالة المأساويَّة الَّتي كانوا عليها قبل أن يبعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بشيراً ونذيراً ورحمةً للعالمين حيث يقول: (**فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتفَرِّقَةٌ؛ فِي بَلاَءِ أَزْل، وَأَطْبَاقِ جَهْل! مِنْ بَنَات مَوْؤُدَة، وَأَصْنَام مَعْبُودَة، وَأَرْحَام مَقْطُوعَة، وَغَارَات مَشْنُونَة**)[١].

ومن هذا النَّص، ومن نصوص أخرى، يتَّضح لنا أنَّ مَعالم نظام حياتهم الاجتماعيَّة كان قائماً على الظُّلم بمختلف صُوره، من ظلم القويِّ للضَّعيف، إلى تحكُّم القادر في العاجز، وكانت الإغارة، والسَّلب، والنَّهب، والأخذ بالثَّأر، وحبُّ الانتقام، هي العلاقة الَّتي تربط بين القبائل بعضها ببعض، حتَّى صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم المعتادة، وكانت مناقشة تافهة تكفي لإشعال حرب طاحنة وثارات يتوارثها الخَلَف عن السَّلف، وكان القتال إذا اشتعلت ناره دام عدَّة سنين وقد يدوم عدَّة أجيال حتَّى غدا تأريخهم في الجاهليَّة سلسلة من الحروب الدَّاخليَّة لا تكاد تنتهي[٢].

ومن مظُّاهر الظُّلم في ذلك العصر نظرتهم إلى المرأة؛ إذ كانت في نظرهم

---

(١) نهج البلاغة: ٢٩٨، ترتيب صبحي الصالح، ط. دار الكتاب اللبناني، (١٩٨٠ م).

(٢) دويدار - الشيخ أمين، صور من حياة الرسول: ١١١، ط. ١١، ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة. وللتوسع انظر المفصل في تاريخ العرب، مرجع سابق: ٥ / ٣٩٩ وما بعدها.

نوعاً من المَتاع، فلم يكن لها نصيب من الميراث، بل كانت هي نفسها تورث مع التركة، وكان للوارث فيها مُطلق التصرُّف، فإن شاء تزوَّجها، وإن شاء زوَّجها من غيره، ولم يكن للزَّواج عندهم حدود، ولا للطَّلاق قيود؛ فللرجل أن يتزوَّج ما يشاء من النساء، وله أن يُطلِّق متى شاء، ويرجعها متى شاء دون أن يكون لها في ذلك رأي، وله أن يعلِّقها بين الزواج والطَّلاق، فلا هي زوجة لها ما للزوجة من حقوق، ولا هي مطلَّقة تملك من أمرها وحريَّتها. . . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال؛ حتَّى أنَّ بعض الجواري كنَّ يُرغمنَ على كسب المال بأعراضهنَّ إرضاءً لسادتهنَّ[١].

واستعرض الدكتور جواد علي في المفصل أنواع الزواج في الجاهلية، وقواعدهم العامة في الزواج والصداق ومما ذكر من هذه الأنواع ما يعرف بـ «زواج الضيزن» أو «نكاح المقت» وهو نكاح معروف من أنحكة الجاهلية «ذلك أنهن في الجاهلية كانت احداهن إذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت» وظل هذا شأنهم إلى أن نزل الوحي بتحريم ذلك. . وهذا الزواج على أنه كان معروفاً وقد مارسه أُناس معروفون كان ممقوتاً من الأكثرية.

وطريقة أهل يثرب في إعلان دخول زوجات المتوفى في ملك الابن أو الأخ أو بقية الأقرباء من ذي الرحم إذا لم يكن للمتوفى أبناء أو أخوة، هو بإلقاء الوارث ثوبه على المرأة، فتكون عندئذ في ملكه، إن شاء تزوّجها، وإن شاء عضلها، أي منعها من الزواج من غيره حتى تموت، فيرث ميراثها، إلاّ أن تفدي نفسها منه بفدية ترضيه وهنالك أنواع أُخرى من النكاح لا يسع المجال لذكرها[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ١١١ - ١١٣

(٢) جواد علي، المرجع السابق: ٥ / ٥٣٤ - ٥٣٥ وما بعدها، وانظر مصادره في هامش الصفحتين.

أمّا معاملة العرب لأبنائهم الذُّكور فكانت تنطوي على المفاخرة بكثرتهم، وكان البعض منهم يقتل أولاده مخافة الفقر، وقد سفَّههم الله في ذلك، ونهى عن هذه العادة المرذولة بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾[١].

وأمّا الأنثى فكانت على العموم مجلبة الحزن ومظنَّة العار؛ فكان العربيُّ يحزن أشدَّ الحزن إذا ولدت له أنثى، وبعضهم كان يئد البنات وهنَّ أحياء مخافة العار والفقر، ويُقال إنَّ وأد البنات قد اشتهر في بني أسد، وتميم، وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٢].

والقرآن الكريم يصوِّر لنا الحالة النفسيَّة الَّتي كان يعيشها العربي وهو يُبشَّر بمولد الأنثى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣].

وكان الرِّبا، والخمر، والميسر، من ضرورات حياتهم، وكان السكر، والعربدة، من المفاخر الَّتي يتغنَّون بها في أشعارهم ومجالسهم.

هذه هي الحالة الاجتماعيَّة الَّتي كان يعيشها الإنسان العربي قبل الإسلام كما ترويها لنا كتب التأريخ والنُّصوص الأدبيَّة والشِّعريَّة الَّتي تصوِّر لنا حياتهم الاجتماعيَّة آنذاك، كما أنَّ القرآن الكريم والرِّوايات والأحاديث قد أشارت إلى طرف منها.

وإلى جانب ما ذكرنا فهناك فضائل ومكارم وطباع كريمة وسجايا ذات وزن كبير في مقياس الرُّقي الإنساني اتَّصف ببعضها العرب قبل الإسلام، ومن هذه

---

(١) الإسراء: ٣١

(٢) التكوير: ٨ - ٩

(٣) النحل: ٥٨ - ٥٩

الميزات والخصائص: الكرم، حسن الضيافة، الشَّجاعة، الوفاء، الصِّدق، النَّجدة والإقدام. . . إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة في الامَّة العربية.

ولكن لم تكن كل مزاياهم المعروفة لتمنع من أن تكون حياتهم حياة جاهليَّة صمَّاء، وخاصَّة في عقليَّتها ودينها وعاداتها؛ لأنَّ تلك المواهب الكامنة فيها لم تكن موجَّهة توجيهاً صحيحاً بل لم يكن لها مُوجِّه أصلاً يسيطر على قوَّتها وفاعليَّتها ويبني بها الحياة الصَّالحة[١].

وكثيراً ما كانت الهمجيَّة تسيطر على تلك الشِّيم فتفسدها وتخرجها من جوِّ الفضيلة إلى جوِّ الرذيلة، على أنَّها مع ذلك كانت فضائل شخصيَّة، وصنائع فرديَّة لا أثر لها في بناء المجتمع؛ فكانت الأمَّة العربيَّة بذلك أشبه بالأرض الطَّيبة الَّتي أهملت زراعتها فامتلأت بالحشائش والنباتات، ممَّا قد يكون منها بعض الزهر والَّثمر ولكنَّه شيء لا يُسمِن ولا يُغنِي من جوع، لذلك لم تغن عنهم شيئاً هذه الصِّفات، ولم تحل بينهم وبين ما كانوا يفعلون من المنكرات، فغطت رذائلهم فضائلهم، ومحت سيئاتهم حسناتهم[٢].

أمَّا موقف الإسلام من تلك الصفات فأنّنا عندما نراجع النُّصوص القرآنيَّة والأحاديث المرويَّة عن النَّبيﷺ وأهل بيته الطَّاهرين، نرى بوضوح أنَّ الإسلام قد صبَّ جُلَّ اهتمامه على توجيه الصِّفات الحسنة إلى مافيه خير وصلاح الفرد والأمَّة؛ فوضع تلك الصِّفات في خطِّها الصَّحيح، وجعلها تنطلق من قواعد إنسانيَّة وعواطف حقيقيَّة وفضائل أخلاقيَّة، وبالأخصِّ من إحساس دينيٍّ صحيح، وما كان منها لا يصلح لذلك فقد كان يهتمُّ في القضاء عليه، واستئصاله بالحِكمة والموعظة الحسنة كلَّما سنحت له الفرصة وواتاه الظَّرف.

---

(١) دويدار - أمين: ١١١ مرجع سابق.

(٢) المرجع نفسه: ١١١ - ١١٢ .

٢ - الحالة الفكريَّة والثَّقافيَّة عند العرب قبل الإسلام

لبيان مَعالِم الحالة الفكريَّة والثَّقافيَّة عند العرب قبل الإسلام، لابدَّ لنا من الرُّجوع إلى النُّصوص الإسلاميَّة، والَّتي تتمثَّل في الآيات القرآنيَّة والأحاديث المرويَّة، والنُّصوص التأريخيَّة، عندها تتجلَّى لنا مَعالِم هذه الحالة بصورة واضحة لا لَبس فيها ولا تزوير.

فلقد أطلق القرآن الكريم على تلك الأمَّة لفظة «الأميِّين» لقلَّة من كان يقرأ ويكتب منهم كما في:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾(٣).

ومعنى - الأُمِّي - كما يحدِّده الرَّاغب في مفرداته: هو الَّذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب. أو أنَّ الأميَّة معناها الغفلة والجهالة، فالأُمِّي منه وذلك هو قلَّة المعرفة... قال الفراء: هم العرب الَّذين لم يكن لهم كتاب(٤).

أمَّا الأحاديث المرويَّة، والنُّصوص التأريخيَّة، فهي مهمَّة جداً لمعرفة حالة أُولئك قبل الإسلام لأنَّها ترسم لنا صورة واضحة المَعالِم عنهم.

عن أمير المؤمنين في نهج البلاغة يصف حالة العرب قبل البعثة، ويقرِّر

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) آل عمران: ٢.

(٤) الراغب الإصفهاني، المفردات، مادَّة (أمّ).

فضيلة الرَّسول الكريمﷺ:

(بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَة، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَة، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِياءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الجهلاء؛ حَيَارَى فِي زَلْزَال مِنَ الأَمْرِ، وَبَلاَء مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الْطَرِيقَةِ، وَدَعَا إِلى الْحِكْمَةِ، وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)[١].

أمَّا النُّصوص التأريخيَّة فأنّها أيضاً تنصُّ على أنّهم كانوا أميِّين لا يعرفون القراءة والكتابة إلاَّ القليل النَّادر.

يقول البلاذري: «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب... وكان الكُتَّاب بالعربية من الأوس والخزرج قليلاً»[٢].

ويُروى أنَّ النَّبيَّﷺ أرسل رسالة إلى قبيلة بكر بن وائل فلم يجدوا قارئاً لها في القبيلة حتى جاءهم رجل من بني ضبيعة بن ربيعة فقرأه[٣].

وحتى أولئك القلَّة، من الَّذين لهم معرفة بالكتابة، فقد كان أكثرهم لايتقنها، بل كانت معرفتهم بدائيَّة وضعيفة بشكل ملحوظ، كما ينصُّ على ذلك ابن خلدون[٤]، بل ربَّما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيباً؛ فقد قال عيسى بن عمر: قال لي ذوالرمّة: ارفع هذا الحرف، فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده على فِيْهِ – أي اكتم عليَّ –: فإنَّه عندنا عيب[٥].

(١) نهج البلاغة: ١٤٠، خطبة ٩٥، ترتيب صبحي الصالح.

(٢) البلاذري – أبوالحسن، فتوح البلدان: ٤٥٧ وما بعدها، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) حميد الله – محمد، مجموعة الوثائق السياسية: ٢٥٣، طبعة دار النفائس – بيروت، (١٩٨٥ م).

(٤) ابن خلدون – عبدالرحمن بن محمد، المقدمة: ١٨، ط. الأعلمي – بيروت.

(٥) الصَّحيح من سِّيرة النبي: ٢ / ٢٦، نقلاً عن: الشِّعر والشُّعراء لابن قتيبة: ٣٣٤ .

هذا ملخَّص ما ترسمه لنا الآيات، والرِّوايات، والنُّصوص التأريخيَّة، عن حالة العرب الفكريَّة والثقافيَّة، قبل الإسلام ويمكن أن نُوجِز القول فيها: أنَّ الجهل كان هو الحاكم المُطلق ولم يكن التَّعليم في هذا العصر منتشراً في بلاد العرب؛ لأنَّ العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد، وما نظنُّ أنَّ بلاد العرب كانت تعني بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة.

وكان النَّبيُّ ﷺ أوَّل من عنى عناية خاصَّة بتعليم العرب الكتابة والقراءة بأنْ عَهِد إلى أسرى بدر من الَّذين يعرفون الكتابة والقراءة ممَّن عجزوا عن دفع الفداء بأنْ يعلِّم كل واحد عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة(١).

أمَّا العلوم الَّتي حذقها العرب، بحكم البيئة الَّتي نشأوا عليها، وطبيعة البلاد الَّتي درجوا على أرضها فهي عِلم الأنواء، ولا غرو فقد مهروا في تتبُّع الأنواء، ومعرفة أوقات نزول الغيث، كما مهروا في عِلْم الأثر، فقد كانت لهم دراية خاصَّة بمعرفة آثار الأقدام، وساعدهم على ذلك الصَّحراء المغطَّاة بالرِّمال الَّتي تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة.

كما مهروا في عِلْم الأنساب، فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متنافرة، ومن ثمَّ دفعتهم الحاجة الملحَّة إلى أن يحفظوا أنسابهم الَّتي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم، أو في شنِّ الغارات على أعدائهم، أو المنافسة على مركز الرِّياسة فيهم.

إلى غير ذلك من العلوم الَّتي تنشأ في مثل هذه البيئة والَّتي هي أولى بأن يُطلق عليهامجموعات من المعارف من أن تكون علوماً بالمعنى الَّذي نعرفه(٢).

---

(١) الحلبي - علي بن برهان الدين، السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ١٩٣، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) حسن - د. حسن إبراهيم، تأريخ الإسلام السِّياسي والديني والثقافي والاجتماعي: ١ / ٦٧، ط. دارالأندلس - بيروت، الطبعة السابعة.

وبالجملة كان للعرب معرفة بالأنساب، وبشيء من أخبار الأمم، وبشيء من الطِّب، ولكن ما كان عندهم من ذلك لم يَعْدُ أن يكون معلومات عمليَّة أوليَّة، وتجارب ينقصها الاستقراء، ونظرات عامَّة تخلو من التعمُّق والاستقراء.

أمَّا من النَّاحية الأدبيَّة فكان لهم شعر، وقصص، وأمثال، وقد طبع كل ذلك بطابع عقليَّتهم الَّتي أنتجها تأريخهم وبيئتهم.

أمَّا بالنِّسبة إلى آثار العمران والمدنيَّة، فلم يكن عندهم من آثارهم شيء يُذكَر؛ إذ إنَّ جُلَّ سكان الجزيرة العربية من العرب العدنانيين الَّذين هم أهل بداوة يسكنون الخيام ويربُّون الماشية، ويرحلون وراء المياه والأعشاب، فهم لا يبنون بيوتاً، ولا يؤسِّسون أمصاراً إلاَّ أهل مكَّة ويثرب فإنَّهم تحضَّروا منهم.

وكان هؤلاء العرب العدنانيَّة على حالة قبائل، وكان لهم ماشية كثيرة وتجارة وكان مقامهم في تهامة والحجاز ونجد على حالة بداوة، إلاَّ قريشاً فقد تحضَّرت، وسكنت مدينة مكَّة[١].

٣ - الحالة الدينيَّة عند العرب قبل الإسلام

لقد حفظ لنا التأريخ الشَّيء الكثير عن ديانة العرب في الجاهليَّة؛ فقد كان للعرب في الجاهليَّة دين ولكنَّه دين ضعيف، لا يُخلصون له، ولا يصل إلى أعماق نفوسهم، وحسبنا دليلاً على ذلك أنّنا ننظر فيما بين أيدينا من شعرهم، فنرى فيه من ذِكْر الخمر والنِّساء والميسر الشَّيء الكثير، كذلك نرى للفخر والهجاء ووصف القتال مساحة واسعة، ولكن قلَّما تجد فيه شرحاً لعاطفة دينيَّة، وقلَّما ترى فيه ذكراً للهِ وتمجيده، وقلَّما ترى فيه وصفاً لما كانوا يعبدون.

فقد انتشرت اليهوديَّة والنصرانيَّة في بعض بقاع جزيرة العرب قبل الإسلام

---

(١) وجدي - فريد، دائرة معارف القرن العشرين: ٦ / ٢٤٥ .

ولا سيَّما اليمن، كما انتشرت في وادي القُرى وخيبر وتيماء ويثرب، حيث قامت قبائل بني قُريظة وبي النَّضير وبني قينقاع، وكذلك انتشرت النصرانيَّة في قبائل تغلب وغسَّان وقُضَاعة في الشمال، وفي بلاد اليمن في الجنوب(١).

ولكن اليهوديَّة والنصرانيَّة كانتا قليلتين إذا قيستا بالدِّين السَّائد في الجزيرة وهو الوثنيَّة؛ فقد عَبَد العرب الأصنام، وعظَّموا الأوثان، ونصبوها في الكعبة، وقرَّبوا لها القرابين.

وكان عمرو بن لُحَيّ أوّل أمير من خزاعة قد حَكَم مكَّة بعد الجرهميِّين وهو الَّذى أشاع عبادة الأصنام في مكَّة، وروي عن رسول الله ﷺ قال: أنَّه أوّل من غيَّر دين إبراهيم واتَّخذَ الأصنام، ونصب الأوثان، ونحر البحيرة، وسَيَّب السَّائبة، ووصل الوصيِّلة وحَمىٰ الحام(٢).

قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾(٣).

روى الكلبي: أنَّ عمرو بن لحي مرض مرضاً شديداً فقيل له: إنَّ بالبلقاء من الشام حمّةً إنْ أتيتها برأت، فأتاها فاستحمَّ بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدوِّ، فسألهم أن يعطوه منها، فأعطوه صنماً يقال له هُبَل، فقدم بها مكَّة ونصبها حول

(١) إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام: ١ / ٧٣ مرجع سابق.

(٢) الكلبي – ابن سائب، الأصنام: ٨، تحقيق: أحمد زكي باشا وابن هشام: ١ / ٨٠ .

– والبَحيرة: هي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقُّوا أذنها فسيبوها فلا تُركب ولا يُحمل عليها.

– والسَّائبة: الناقة التي تسيب للأصنام في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف وذلك إذا ولدت خمسة ابطن.

– والوصيلة: هي الناقة تترك إذا بكرت ثم ثنّت بأنثى.

– والحام: هو الفحل إذا ضرب عشرة أبطن كان يقال حَمِيَ ظهرهُ فلا يُركب ولا يُحمل عليه.

(٣) المائدة: ١٠٣ .

الكعبة[١].

قال ابن إسحاق: إنَّ أوّل ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، وكان لا يظعن مكَّة ظاعن منهم إلاَّ وحمل معه حجراً من حجارة الحَرَم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به تطوافهم بالكعبة، حتَّى أدَّى بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان[٢].

ولم يكن «هُبَل» وحده معبوداً للعرب، فقد انتشرت الأصنام في أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت، وأشجار، وحجارة مصوَّرة وغير مصوَّرة، حتَّى قيل إنَّه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً.

ومن طريف ما يُنقل في هذا المجال ما يرويه ابن سائب الكلبي في الأصنام إذ يقول:

«وكان لمالك ومِلكان ابني كنانة بساحل جدَّة، وبتلك الناحية، صنم يقال له سعدٌ، وكان صخرةً طويلة، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه، يتبرَّك بذلك فيها، فلمَّا أدناها منه نفرت منه، فذهبت في كلِّ وجه وتفرَّقت عليه، وأسف لذلك، فتناول حجراً فرماه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً، نفرت عليَّ إبلي، ثمَّ خرج في طلبها حتَّى جمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شَمْلَنا فشتَّتنا سَعْدٌ فلا نحنُ من سَعْدِ
وهل سعدٌ إلاَّ صخرةٌ بِتَنُوفَة من الأرضَ لا يُدْعى لِغَيٍّ ولا رُشْدِ[٣]

ويظهر أنَّ السَّبب في وجودها، أنَّ قريشاً رأت أن تنتفع من قدوم القبائل

---

(١) المصدر نفسه: ٨.

(٢) ابن هشام: ١ / ٨٠.

(٣) الأصنام: ٣٧، والتنوفة: الثغر من الأرض الذي لا ينبت شيئاً.

العربية في موسم الحجِّ فوضعت أصنام القبائل الشَّهيرة حول الكعبة، حتَّى إذا أتوا مكَّة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وقدسيتهم.

وكانت لهذه الأصنام أسماء متعدِّدة منها: مناة، واللاَّت، والعُزَّى، وسُواع، ويَغُوث، ووداً، ويَعُوق، وبلغ من تعظيم العرب لهذه الأصنام أن كانوا يسمُّون أبناءهم بها فيقال زيد اللاَّت، وعبد العُزِّى...»[١].

وكان إلى جانب الوثنيَّة في بلاد العرب، نِحَل ودَيانات أخرى منها الصَّابئة، ويعبد أتباعها النُّجوم والكواكب، ومنها الزرادشتيَّة نسبة إلى زرداشت نبي الفُرس القدماء، وهي ديانة رمزيَّة تقول بأنَّ العَالَم في قوَّتين هما الخير والشَّر، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشَّر بالظُّلمة[٢].

ثمَّ تبع ذلك شيء من المزدكيَّة، ومذهبها الشُّيوع في الأموال والنساء والزواج بالأقارب[٣].

وكان بين العرب أناس مستنيرين، فطنوا إلى سوء حالتهم الدينيَّة، وحاولوا الارتقاء من الوثنيَّة إلى اعتقادات أرقى منها، ودعوا إلى نبذ عبادة الأوثان والتخلُّص من عادات الجاهليَّة كَوَأدِ البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وكانوا يعتقدون في البعث وبوجود إله واحد يُحاسِب ويُجَازي الناس على أعمالهم من خير وشر، ويُطلق على هذه النزعة «التحنُّف»، وعلى أصحابها «الحُنَفَاء»، وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

---

(١) وسوف يأتينا المزيد من التوضيح حول هذه الأصنام والقبائل التي كانت تعبدها، وما آلت إليه من نهاية لا يؤسف لها، وذلك في القسم المدني من هذا الكتاب.

(٢) تأريخ الإسلام، مصدر سابق: ٧٠، ٧١، ٧٣.

(٣) فروّخ - عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية: ٤٣، دار العلم للملايين - بيروت.

نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] .

إلى جانب هذا كانت هنالك بعض الشَّعائر الدينيَّة والَّتي هي من بقايا عهدإبراهيم الخليل عليه السَّلام، وكانوا يتمسَّكون بها، منها تعظيم البيت والطَّواف به، والحجّ والعمرة، والوقوف على عَرَفة، والمُزدَلِفة، وهدى البُدن، والإهلال بالحجّ والعُمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه؛ فكانت كنانة وقريش إذا أهلُّوا قالوا: «لبَّيك اللَّهمَّ لبيَّك، لبَّيك لا شريك لك، إلاَّ شريك هو لك، تملكهُ وما ملك» فيوحِّدونه بالتلبية ثمَّ يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملْكَها بيده[٢] .

إلاّ أنَّ جميع هذه العقائد، والدِّيانات المتناقضة، والمضطربة، لم تكن منسجمة مع الفطرة الإنسانيَّة، ولهذا لم يكتب لأيٍّ منها البقاء والدَّوام والاستمراريَّة.

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه القيِّم (تأريخ الإسلام): «على أنَّه لم يُقدَّر لأيِّ دين من هذه الأديان الفوز و الغَلَبة في بلاد العرب، فقد كانت المسيحيَّة إذ ذاك مذهباً معقَّداً تعدَّدت فيه الفِرَق واختلفت، وكانت اليهوديَّة دين الشَّعب الُمختار الَّذي لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحُّوا له باستقلالهم، ومع ذلك مهَّدت المذاهب والأفكار، والآراء المسيحيَّة، واليهوديَّة، والفارسيَّة، الطَّريق لظهور المُصِلح المنتظَر وهو النَّبي محمَّدﷺ»[٣] .

٤ – الحالة السِّياسيَّة عند العرب قبل الإسلام

لم تشهد الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام نظاماً سياسيّاً يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم، ويشيع العدل والحرية والمساواة بين سكَّانها.

---

(١) آل عمران: ٦٧ .

(٢) ابن هشام، السِّيرة النبويِّة: ١ / ٨٠ .

(٣) تأريخ الإسلام: ٧٣ - ٧٤ مرجع سابق.

كذلك لم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه، أو «شُرطَة» ليقرَّ الأمن والنَّظام، أو جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية، كذلك لم يكلَّفوا دفع الضرائب؛ لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السُّلطة التنفيذيَّة وتضرب على أيدي المعتدي وتوقع به العقاب المناسب مع جرمه(١).

ومع غياب النِّظام السِّياسي، وغياب السُّلطة التشريعيَّة، والتنفيذيَّة، والقضائيَّة، ومع وجود العصبيَّة القبليَّة، سادت الفوضى والهمجيَّة والتَّعدي، وكان الشخص المُعْتَدى عليه يثأر لنفسه بنفسه، وعلى قبيلته أن تشدَّ أزره، وأن تحميه من العدوان، وتطالب بدمه.

وكان لكلِّ قبيلة رئيس، هو سيِّدها، وهو مرجع الأفراد في إقامة العدل بينهم على حسب عرفهم وتقاليدهم.

وعلاقة القبيلة بغيرها من القبائل علاقة عِداء - غالباً - تُغير عليها وتغنم من مالها ورجالها، والأخرى تتربَّص بها الدَّوائر لتنتقم منها، كما يصف ذلك شاعرهم:

يُغارُ علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أُصبنا أو نُغيرُ على وتر
قسمنا بذلك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلاّ ونحن على شطر(٢)

يقول ارنولد: لم يكن هناك إطلاقاً أي منهج منظَّم للإدارة أو القضاء كالَّذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كما كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلِّف جماعة منفصلة مستقلَّة تمام الاستقلال، وينسحب هذا الاستقلال أيضاً إلى أفراد القبيلة، فكلّ فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلاَّ رمزاً لفكرة عامَّة شاءت الظُّروف أن يأخذ هو منها بنصيب، بل كان مُطلق الحريَّة في أن يرفض ما

---

(١) المرجع نفسه: ١ / ٥١ .

(٢) الهاشمي - أحمد - جواهر الأدب: ٢ / ٨ .

اجتمع عليه رأي الأغلبيَّة من أبناء قبيلته.

وأبعد من هذا أنَّه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سنًّا وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشَّخصي، وإذا ما تضخّمت قبيلة تشعَّبت فروعاً كثيرة يتمتَّع كلّ منها بحياة منفصلة، ووجود مستقلٍّ، ولا تتَّحد إلاَّ في ظروف غير عادية اشتراكاً في الدِّفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة»[(١)].

وهنالك في ثنايا تأريخ العرب قبل الإسلام ما يعرف بـ «أيّام العرب» وهي الحروب الكثيرة الَّتي كان سببها كثرة النِّزاع بين القبائل العربيةَّ في الجاهليَّة بسبب الاختلاف، فوقعت تلك الحروب وأريقت فيها الدِّماء، ومن أشهرها «حرب البسوس» بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل، وكانت هذه الحرب الطَّاحنة، والَّتي دامت أربعين سنة بسبب ناقة كانت تملكها امرأة عجوز من بَكر تُدعى البسوس.

وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان بسبب رهان على فرس ! كذلك حروب الفجار الأولى، والثَّانية والثَّالثة والرابعة وهي أشهرها[(٢)].

ويدلُّنا ما صحَّ من تأريخ العرب قبل الإسلام على استيطان بعض القبائل العربية الأراضي القريبة من حدود الدَّولتين الرومانيَّة والفارسيَّة وتمتُّعها باستقلال محدود؛ فقد أُنشيء على تخوم جزيرة العرب الشَّمالية إمارتان كبيرتان: إمارة الحيرة في العراق بجوار فارس، وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الرُّومان وكان يحكم هاتين الإمارتين امراء من العرب يتّبعون في نظامهم نظام الدولة المجاورة

---

(١) ارنولد - السير توماس، الدَّعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، الطبعة الثانية - القاهرة، (١٩٤٧ م).

(٢) للتوسّع في تفاصيل هذه الحروب راجع تأريخ الإسلام: ٥٥ - ٦١ مرجع سابق. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ٣٣٣ وما بعدها.

لهم؛ فإمارة الحيرة تتَّبع في كثير من شؤونها نظام الفرس، وإمارة الغساسنة تتَّبع في كثير من شئونها نظام الرَّومان[١].

واستعان الفرس والروم بهذه القبائل على أغراضهم السِّياسيَّة الَّتي كانت ترمي إلى الوقوف في وجه القبائل العربيَّة الأخرى التي تغير على بلادها، وتهدِّد الأمن في القُرى الزراعيَّة، والمراكز التِّجاريِّة المجاورة لتلك القبائل كلَّما أصابها الجدب، واستعاض الرُّوم والفرس عن جنودهم بجنود هذه القبائل... وتوالت وفُود العرب على بلاط كِسرى وقيصر، حتَّى أنَّ بعضهم تنصَّر واعتنق المسيحيَّة، كذلك اتَّخذ الفرس إمارة الحيرة للاستعانة بها على حرب الروم، ولتكون حائلاً بين العراق وغارات العرب على الدولة الفارسيَّة، كما اتَّخذ الروم أمراء غسَّان أعواناً لهم على الفرس ووسيلة لحكم قبائل العرب القريبة منهم[٢].

كانت هذه بعض الملامح العامة لحياة العرب وأحوال الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان من الممكن أن نتوسع كثيراً في ذكر الشواهد التفصيلية لكلّ حالة من هذه الحالات وغيرها، إلاّ أنّ منهجية البحث فرضت علينا الاختصار الشديد في بيانها.

ولعل أفضل مرجع في هذا الموضوع هو كتاب الدكتور جواد علي الموسوم بـ «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» فهو كتاب موسوعي قيم بذل فيه مؤلفه جهداً علمياً كبيراً، حيث تجد في هذا الكتاب كل شاردة وواردة حول الموضوع وبتوسع وتفصيل.

---

(١) جواهر الأدب: ٢ / ٧ مرجع سابق.

(٢) تأريخ الإسلام: ٣٢ مرجع سابق.

الأسئلة:

١ – ما هي حقيقة مصطلح الجاهليّة في المفهوم الإسلامي ؟

٢ – لماذا أطلق الإسلام مصطلح الجاهليّة على حياة العرب قبل الإسلام ؟

٣ – هل يمكن أن نعمّم مصطلح الجاهليّة على حياة الأُمم والشعوب الأُخرى ممّن تمتلك سِمات الجاهليّة وخصائصها ؟

٤ – ما هي ملامح الحالة الاجتماعيّة عند العرب قبل الإسلام ؟

٥ – كيف تصوّر لنا النصوص الإسلامية مَعالم الحالة الفكريّة والثقافيّة عند العرب قبل الإسلام ؟

٦ – كيف نُقيّم الحالة الدينيّة عند العرب قبل الإسلام ؟ ومن هو الشخص الذي أشاع عبادة الأصنام في مكّة ؟

٧ – هل شهدت الجزيرة العربية قبل الإسلام نظاماً سياسيّاً يمتلك سلطة تشريعية أو تنفيذيّة أو قضائيّة ؟ ولماذا ؟

الدرس السادس
ما قبل البعثة النَّبويَّة
«القسم الثالث»
الميلاد المبارك

محاور البحث:

١ - نَسَب النَّبي ﷺ
٢ - مولده
٣ - رضاعته
٤ - حادثة شقِّ الصدر
٥ - كفالة النَّبي ﷺ
٦ - الإعداد الربَّاني للرسول قبل البعثة
٧ - تعبُّده في غار حراء
- الأسئلة

الميلاد المبارك

١ – نَسَب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم

هو: «أبو القاسم محمَّد بن عبدالله، بن عبدالمطَّلب، [واسم عبد المطَّلب[١] شيبة] بن هشام [واسم هشام عَمْرو] بن عبد مناف [واسم عبدمناف المُغيرةُ] بن قصي، بن كلاب، بن مُرّة بن كعْب، بن لُؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك بن النَّضْر، بن كنانة، بن خُزَيْمَة، بن مُدرِكة، [واسم مدركه: عامر] بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد بن عدنان...»[٢].

قال المؤرّخون: إنّ هذا هو المتّفق عليه من نسبه الشَّريف صلى الله عليه وآله وسلم، واضطربت كلمة النسَّابين فيما بعد عدنان، حتَّى نراهم لا يكادون يُجمعون على جد حتى يختلفوا فيمن فوقه.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إذا بَلَغ نَسبِي إلى عدنان. فأمسكوا».

كما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «كذبَ النَّسابون»[٣].

ونحن نُمسِك هنا عن ذِكْر سلسلة النَّسب الَّذي ذكره ابن هشام، وغيره من

---

(١) كما أشار إلى ذلك السهيلي في الروض الأُنف: ١ / ٧ وسُمِّي كذلك لأنّه ولد وفي رأسه شيبة.

(٢) السِّيرة النّبويَّة، ابن هشام: ١ / ١ – ٢، تحقيق الابياري وآخرون; وانظر الهامش رقم٢، ص٢ .

(٣) بحار الأنوار، المجلسي: ١٥ / ١٠٥ . وهامش السِّيرة النبويَّة لابن هشام: ١ / ٢، هامش٢ .

كُتّاب السِّيرة امتثالاً لأمره.

وهذا النَّسب أشرف الأنساب فقد روي عن ابن عباس عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنّ الله خَلَق الخَلْق، فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثمَّ تخيَّر القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثمَّ تخيّر البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»(١).

وعن وائلة بن الأسقع عن ابن عباس، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٢).

وأمّه آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مُرَّة، بن كعب، ابن لؤيّ، بن غالب بن فِهْر.

وكان أبوها يومئذ سيِّد بني زُهرة نسباً وشرفاً... وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً(٣).

إيمان آباء النَّبي ﷺ:

ولابدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ كلمة الإماميَّة قد اتَّفقت على أنَّ آباء النَّبي ﷺ من لَدُن آدم إلى عبدالله كلّهم مؤمنون موحِّدون.

قال الشيخ المفيد(رحمه الله) في أوائل المقالات: «اتَّفقت الإماميَّة على أنَّ

---

(١) المتقي الهندي – علاء الدين بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ١١ / ٤٢٤، حديث: ٣١٩٨٧، ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) مصدر نفسه: ١١ / ٤٢٣، حديث ٣١٩٨٤ .

(٣) السيرة النَّبويَّة، ابن هشام: ١ / ١٦٤ .

آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبدالله بن عبدالمطَّلب، مؤمنون بالله عزّوجلّ موحّدون له، وأنَّ آمنة بنت وهب كانت على التَّوحيد، وأنَّها تُحشر في جملة المؤمنين. . . »[١].

وقال العلاَّمة المجلسي في البحار: «كانوا من الصَّديقين، إمّا أنبياء مرسلين، أو أوصياء معصومين، ولعلَّ بعضهم لم يظهر الإسلام لتقيَّة أو لمصلحة دينيَّة»[٢].

واستدلَّ على إيمان آباء النَّبيﷺ بعد الإجماع بأدلَّة نذكر منها:

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٣].

قال الطبرسي في مجمع البيان: «قيل معناه وتقلُّبك في أَصلاب الموحّدين من نبيٍّ إلى نبيٍّ حتى أخرجكَ نبيّاً. عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبداللهعليه السلام قالا: أصلاب النبيِّين، نبي بعد نبي، حتَّى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم»[٤].

ثانياً: واستدلُّوا على ذلك بقولهﷺ: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطَّاهرين إلى أرحام المُطهَّرات حتَّى أخرجني في عالَمِكم ولم يُدنِّسني بدنس الجاهليَّة»[٥].

قال الشيخ المفيد (رحمه الله) «فدلّ على أنَّ آباءه كلّهم كانوا مؤمنين، إذ لو

---

(١) الشيخ المفيد - محمد بن محمد بن النعمان، أوائل المقالات: ٥١ - ٥٢، مكتبة الداوري - قم.

(٢) المجلسي - محمد تقي، بحار الأنوار: ١٥ / ١١٧ .

(٣) الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩ .

(٤) الطبرسي - الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ٧ / ٣٥٨، طبعة الأعلمي - بيروت، ط. الأولى، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).

(٥) بحار الأنوار: ١٥ / ١١٧

كان فيهم كافر لَمَا استحقَّ الوصف بالطَّهارة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[١]، فحَكَم على الكفار بالنَّجاسة فلمَّا قضى رسول الله ﷺ بطهارة آبائه كلّهم، ووصفهم بذلك، دلَّ على أنَّهم كانوا مؤمنين...»[٢].

ثالثاً: وبما قاله أمير المؤمنين في صفة الأنبياء:

(فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مستودع، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاَبِ إِلى مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ، حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى إِلى مُحَمَّد، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَأَخْرَجَهُ مِن أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبَتاً، وَأَعزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَم؛ وَبَسَقَتْ فِي كَرَم؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لاَ يُنَالُ...)[٣].

وفي الخطبة ٢١٤ يقول عليه السلام في وصف جوهر الرسول ﷺ:

(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلاَ ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ...)[٤].

هذا بالإضافة إلى تصريح كل من المسعودي واليعقوبي[٥] والسيوطي

---

(١) التوبة: ٢٨ .

(٢) تصحيح الاعتقاد: ٢٤٢، ط. قم - منشورات الشريف الرضي.

(٣) نهج البلاغة: ١٣٩، ترتيب صبحي الصالح، الخطبة ٩٤ .

(٤) المصدر نفسه: ٣٣٠ .

(٥) اليعقوبي: ٢ / ١٠ والمسعودي: ٢ / ١٠٣، تحقيق يوسف أسعد - طبعة دار الأندلس، (١٩٦٥م).

وغيرهم بإيمان آبائهﷺ: «وقد ألَّف السيوطي عدَّة رسائل لإثبات ذلك»[١].

هذه أهمُّ الأدلَّة الَّتي ذكرها العلماء والمؤرِّخون حول إيمان آباء النَّبيﷺ فلا عبرة بالتخرُّصات والأكاذيب الَّتي نسبت إلى النَّبيِّﷺ لإثبات كُفر آبائه.

ومن جميل ما قيل في آباء النَّبيِّﷺ ما قاله أبو العباس عبدالله بن محمد الناشىء في آخر أبيات قصيدته المشهورة المنسوبة إليه:

وكـان رسـولُ الله أكـرمَ مُـنـجَـبٍ جرَى في ظهورِ الطيِّبينَ المنَاجِبِ
مـقـابِـلـةٌ آبـاؤه أُمـهـاتِـه مـبـرأة مـن فـاضـحـات الـمـثَـالـبِ
عـلـيـه سـلام اللهِ فـي كـل شـارق ألاحَ لـنـا ضَـوْءاً وفـي كـل غـارِبِ[٢]

٢ - مولد النَّبيِّﷺ

نصَّ المؤرِّخون على أنَّ ولادة النَّبيِّﷺ كانت في مكَّة، عام الفيل، وذلك قبل بعثته بأربعين سنة.

والمشهور عندالإماميّة: أنَّه وُلد في السَّابع عشر من شهر ربيع الأوَّل، ونقل العلاّمة المجلسي اتِّفاق الإماميَّة على ذلك[٣].

وذهب غير الإماميَّة إلى أنَّه وُلد في الثَّاني عشر من شهر ربيع الأوّل، واختاره الكليني(رحمه الله) في الكافي[٤].

وهناك قول شاذٌ ينصُّ على ولادته في الثَّاني عشر من شهر رمضان.

---

(١) الصَّحيح من سيرة النَّبي: ٢ / ٧٤ وما بعدها.

(٢)ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل: البداية والنهاية: ٢/ ٢٥٠، والسيرة النبوية: ١/ ٨١

(٣) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٤٩ .

(٤) للتوسع؛ انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٢ / ٣٢٠، وانظر: الكليني، وأصول الكافي: ٢ / ٣٦٤ للكليني.

أمّا يوم ولادته ﷺ فالمشهور بين علمائنا ومدلول أخبارنا، أنّه كان يوم الجمعة، والمشهور عند غيرنا إنّه يوم الإثنين.

وكانت ولادته ﷺ في الدار المعروفة بدار محمّد بن يوسف، وكان للنَّبيِّ ﷺ فوهبه لعقيل بن أبي طالب فباعه أولاده محمّد بن يوسف أخا الحجَّاج فأدخله في داره، فلمّا كان زمن هارون الرَّشيد أخذته الخيزران أُمّ الرشيد وجعلته مسجداً، وهو الآن معروف يزار ويُصلَّى فيه...[1].

يقول السيِّد الأمين في (الأعيان) وهو يتحدَّث عن مصير الدَّار الَّتي وُلِد فيها النَّبي ﷺ: «فلَمّا أخذ الوهَّابيون مكَّة في عصرنا هذا هدَّموهُ، ومنعوا من زيارته، على عادتهم في المنع من التبرُّك بآثار الأنبياء والصالحين، وجعلوهُ مربطاً للدَّواب»[2].

كرامات المولد الشَّريف:

وقد كان لرسول الله ﷺ في حَمْلِهِ وولادته كثير من المعجزات والكرامات دوّنها المؤرِّخون في كتبهم[3].

روى ابن هشام في سيرته: أنّ آمنة بنت وهب أُمّ رسول الله كانت تُحدِّث: أنّها أُتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: «إنَّكِ قد حملتِ بسيِّد هذه الأمَّة فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أُعيذُ بالواحد من شرِّ كلِّ حاسد، ثمَّ سمِّيه محمَّداً...» وروي عنها أنَّها رأت حين حملت به أنَّه خرج منها نورٌ رأت به

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ١٥ / ٢٥٠ .

(٢) العاملي - السيِّد محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٢ / ٧، ط. دار التعارف - بيروت.

(٣) للتوسّع انظر بحار الأنوار: ١٥ / ٢٥٧، والسِّيرة النبويَّة لابن هشام: ١ / ١٦٦، واليعقوبي: ٢ / ٨، وأمالي الشيخ الصدوق: ١٧١ .

قصور بصرى من أرض الشام[١].

وروي عنها أيضاً في كيفيّة ولادته ﷺ أنّها قالت: «إنَّ ابني والله سقط فاتَّقى الأرض بيده، ثمَّ رفع رأسه إلى السَّماء فنظر إليها، ثمَّ خرج منِّي نور أضاء له كلُّ شيء، وسمعت في الضوء قائلاً يقول: إنَّكِ قد وَلدت سيّد النَّاس ثمَّ فسمِّيه محمَّداً»[٢].

ومن الخوارق الَّتي وقعت عند ولادته ﷺ ما ذكرهُ اليعقوبي بقوله: «ولمَّا وُلِد رسول الله رُجمت الشَّياطين، وانْقَضَّت الكواكب، فلمَّا رأت ذلك قريش أنكرت انقضاض الكواكب وقالوا: ما هذا إلاَّ قيام السَّاعة، وأصابت الناس زلزلة عَمَّت جميع الدنيا حتَّى تهدَّمت الكنائس والبِيع، وزال كلُّ شيء يُعبَد دون الله عزَّوجلَّ عن موضعه، وعُمِّيت على السحرة والكُهَّان أُمورهم، وحبست شياطينهم، وطلعت نجوم لم تُرَ قبل ذلك فأنكرتها كُهّان اليهود، وزُلزِل «إيوان كسرى» فسقطت منه ثلاث عشرة شرفة...[٣] وخمدت نار فارس، ولم تكن خمدت قَبْل ذلك بألف عام»[٤].

٣ - رضاعته ﷺ

بعد ولادة النَّبي ﷺ أرسلتْ آمنة إلى جدِّه عبدالمطَّلب، تُخبره أنَّه قد وُلِد لك غلام فَأتِه فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه، ففرح به عبدالمطَّلب فرحاً شديداً، ونظر إليه فأعجبه، ونزل من نفسه منزلة عظيمة، فجعل يقول: ليكوننَّ لابني هذا شأنٌ، ثمَّ حمله بين يديه وانطلق به نحو الكعبة؛ فقام يدعو الله ويشكره على ما

(١) السِّيرة النبويّة: ١ / ١٦٦ .

(٢) بحار الأنوار: ١٥ / ٢٥٨ .

(٣) في رواية بحار الأنوار، المجلسي: ١٥ / ٢٥٧ : سقطت منه أربعة عشر شُرفه.

(٤) اليعقوبي، تأريخ اليعقوبي: ١ / ٨، دار صادر - بيروت.

أعطاهُ ويقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
أُعيذه بالبيت ذي الأركان حتَّى أراهُ بالغ البنيان[(١)]

فلمّا كان اليوم السَّابع من ولادته ﷺ عقّ عنه عبدالمطَّلب جزوراً، وأطعم المساكين والفقراء، ودعا رجالاً من قريش فحضروا وطعموا وهنأوا بالطفل السَّعيد وتمنَّوا له رفعة الشَّأن وبركة العمر فلمَّا أكلوا قالوا: يا عبدالمطَّلب أرأيت ابنك هذا الَّذي أكرمتنا على وجهه ما سمَّيته؟ قال: سمَّيته محمَّداً.

قالوا: فما رَغبتَ به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده خلقه في الأرض[(٢)].

وكان من عادة الأشراف من أهل مكَّة أن يبعثوا بأطفالهم إلى البادية، يقضون فيها مدَّة الرِّضاع في حضانة المراضع من نساء البدو، حيث يرون أنَّ بذلك ينشأ أطفالهم:

أولاً - أصحّ أبداناً، لأنَّهم يعيشون في الهواء الطَّلق، ويواجهون مصاعب الطَّبيعة، فتصير لديهم مناعة طبيعيَّة تجاه مختلف المتغيّرات، وفي مختلف الظروف.

ثانياً - أفصح لساناً، وحيث إنَّهم يقلُّ اختلاطهم بأهل الأقطار الأخرى على عكس سكَّان المدن.

ثالثاً - أصفى فكراً وقريحةً، حيث يبتعد الإنسان حينئذ عن هموم المدينة وعن علاقاتها المعقَّدة والمُرهِقة[(٣)].

---

(١) ابن هشام - السِّيرة النبويّة: ١/ ١٦٨، وصور من حياة الرَّسول: ٤٣ .

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية: ١ / ١١٥ .

(٣) الصَّحيح من سيرة النبّي: ٢ / ١٤٨ - ١٤٩ بتصرّف.

ولهذا التمس عبدالمطَّلب لرسول الله الرُّضعاء[١]، وبعد أن أرضعته أمُّه يومين أو ثلاثة، أرضعته ثويبه مولاة أبي لهب بلبن ابنها مروّح[٢] أيَّاماً، ومع أنَّها لم تُرضعه سوى أيَّام فقد ظلَّ ﷺ يحفظ لها هذا الجميل، وما زال يكرمها ويبرُّها حتَّى ماتت مسلمة سنة سبع من الهجرة وهو بالمدينة؛ فلمَّا ماتت سأل عن ابنها «مروّح» وكان أخاً له في الرضاعة ليصله مكانها فعلم أنَّه مات قبلها[٣].

ثمَّ قَدِمَت حليمة بنت أبي ذؤيب السَّعديَّة مكَّة مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن تلتمس الرُّضعاء في حال تدل على شدة الفقر والجدب في بادية بني سعد، وكان طفلها لا يكف عن الصراخ لحظة واحدة من شدَّة ما به من الجوع.

وكانت المراضع يبحثن أوَّل ما يبحثن عن ذوي الآباء، من أبناء الأغنياء والسَّادة، طمعاً فيما ينالهنَّ من بر الآباء وعطائهم، أمَّا يتامى الأطفال، ولا سيَّما الفقراء منهم، فلم يكونوا في موضع الرَّغبة من هؤلاء المراضع.

وكان رسول الله ﷺ قد وُلِد يتيماً - كما سوف يأتي - ليس له إلاَّ جدُّه عبدالمطّلب وأمّه آمنة، فلم تكن حاله تلك، ممَّا يُغري به المراضع من نساء البادية[٤].

وكانت حليمة السَّعديَّة، أُمّ رسول الله ﷺ بالرضاعة، تُحدِّث عن كيفيَّة قدومها مكَّة وأخذها لرسول الله ﷺ، وما رافق ذلك من بركات و معجزات، كما ذكر ذلك ابن هشام في السِّيرة مفصّلاً.

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويّة: ١ / ١٦٩ .

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ١٥ / ٣٣٧ .

(٣) صور من حياة الرَّسول: ٤٤ - ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٥ .

تقول حليمة السَّعدية «قدمنا مكة نلتمس الرُّضعاء، فما من امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنَّه يتيم، وكذلك أنا، إنَّما كنَّا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنَّا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أُمّه وجدّه، فكنَّا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلاَّ أخذت رضيعاً غيري؛ فلمَّا أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي: والله إنِّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه، قال زوجي: لا عليك إن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركةً.

قالت حليمة: فذهبت إليه، فأخذته، وما حملني على أخذه، إلاَّ انِّي لم أجد غيره[١].

قالت: فلمَّا أخذته رجعت به إلى رحلي، فلمّا وضعته في حِجري، أقبل على ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتَّى روى، وشرب معه أخوه حتَّى روى، ثمَّ ناما وما كنَّا ننام معه قبل ذلك... فبتنا بخير ليلة وحين أصبحنا قال زوجي: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت: فقلت: والله إنِّي لأرجو ذلك»[٢].

وتُقبل حليمة إلى بادية بني سعد، وترى من بركة هذا اليتيم ما لم يكن يخطر ببال، خيرٌ يدرُّ عليها من كل ناحية، وبركاتٌ تحلُّ عندها في كل شيء، ظلَّ عندها عامين كاملين حتَّى أتمَّت مدَّة رضاعه، وأصبحت ولا بدَّلها أن تعود به إلى أُمِّه، فجاءت به إليها، وهي أشد ما تكون رغبة في بقائه معها.

---

(١) ينقل السيِّد جعفر مرتضى عن العلاّمة المحقِّق السيِّد مهدي روحاني تعليقاً لطيفاً حول رفض المرضعات وحليمة السَّعدية لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لفقرِهِ ويتمِهِ فيقول: انَّها رفضته في أول الأمر ليتمه إنّما يصحّ بالنسبة إلى يتيم ضائع لا أهمية له... وأمّا بالنسبة لمحمّد، فإن كافله عبدالمطلب سيد هذا الوادي وأُمّه آمنة بنت وهب من أشراف مكّة، بل ثمّة من يقول: إنّه لم يكن حينئذ يتيماً وأنَّ أباهُ قد توفّي بعد ولادته بعدة أشهر، وقيل: ثمانية وعشرين شهراً، وقيل: سبعة أشهر – الصحيح من سيرة النبي: ١ / ٨١ .

(٢) السِّيرة النبويَّة: ١ / ١٧٣، بتصرّف وتلخيص.

تقول حليمة فقدمنا به على أُمِّه ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا، لِمَا كنَّا نرى من بركته؛ فكلَّمنا أُمّه وقلت لها: «لو تركت ابني عندي حتَّى يغلظ فإنِّي أخشى عليه وباء مكَّة، فلم نزل بها حتى ردَّته معنا»[١].

وكانت حليمة شديدة الرِّعاية لرسول الله ﷺ شديدة العناية به، والخوف عليه وكانت تحوطه من رعايتها، وعنايتها، بأكثر ممَّا تحوط به أولادها.

وظلَّ رسول الله ﷺ يحفظ لها هذا الجميل دائماً، فما نسي يوماً أنَّها ظئرهُ الَّتي أرضعته من ثدييها، وغذّته بلبنها، وإنَّ لها عليه حقَّ الأُمِّ على ولدها، بل لم يَنْسَ أن يحفظ هذا الجميل لقبيلتها من بني سعد بن بكر بن هوازن.

حضرت إليه حليمة ذات يوم وهو يتَّجر في مال خديجة، فشكت إليه حالها، وما تلاقيه من شظف العيش في البادية، فكلَّم لها خديجة، فمنحتها بعيراً وأربعين شاة وردَّتها مكرَّمة إلى أهلها.

واستأذنت عليه مرّة أُخرى وهو رسول الله، فأذن لها، فلمَّا دخلت عليه قام لها متهلّلاً يقول: أُمِّي! أُمّي! ثمَّ بسط لها رداءهُ وأجلسها عليه، ثم جعل يلاطفها، ويبتسم لها ابتسامة الابن البارِّ لأُمِّه الحنون.

ولمّا انتصر ﷺ على المشركين في غزوة حُنين، وغنم كثيراً من أموالهم، وسبى كثيراً من نسائهم، وذراريهم، أتى إليه وفد من قبيلة «هوازن»، يرجون أن يعفو عنهم، ويردَّ إليهم أموالهم، وأولادهم، ونساءَهم، فلم يردَّهم خائبين وجعل يرغب الناس ويترضاهم حتَّى ردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، وضرب النبي ﷺ بذلك أروع الأمثال في حفظ الجميل لِمن أولى الجميل[٢].

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ١ / ١٧٣ .

(٢) صور من حياة الرسول: ٥٢ - ٥٣، بتصرّف وتلخيص.

٤ – حادثة شقِّ الصدر

في سياق الحديث عن رضاعه ﷺ في بني سعد، ينقل المؤرِّخون رواية عن هذه الحادثة، رواها مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، جاء فيها: «عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ أتاهُ جبرئيلُ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشيطان مِنك، ثمَّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثمَّ لأمَه، ثمّ أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أُمِّه – يعني ظئره – فقالوا: إنَّ محمَّداً قد قُتِل فاستقبلوه وهو منتقع اللَّون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره»[١].

وقد رويت هذه الحادثة في أغلب كتب السِّيرة والتأريخ[٢]، وقد ذكروا أنَّه قد تكرَّر ذلك مرَّات عديدة بلغت خمساً، أربع منها ثابتة بالاتِّفاق؛ مرَّة في الثالثة من عمره، وفي العاشرة وعند مبعثه، وعند الإسراء، ومرَّة خامسة فيها خلاف!! وقد قالوا إنَّ تكرار شقِّ الصَّدر إنَّما هو زيادة في تشريف النَّبيﷺ حتَّى إنَّ بعضهم نظم أمر شقِّ صدر النَّبيﷺ فقال:

أيا طالباً نظم الفرائد في عِقْد — مواطن فيها شَقُ صدر لذي رُشدِ
لقد شقّ صدرٌ للنبي محمّد — مراراً لتشريف وذا غاية المجدِ
فأُولى له التشريف فيها مؤثل — بتطهيره من مضغة في بني سعد
وثانية كانت له وهو يافعٌ — وثالثة للمبعث الطيب الند

---

(١) رواه مسلم بأربعة طرق في صحيحه، انظر: صحيح مسلم: ٢ / ٢١٦ بشرح النووي، طبعة دار الكتاب العربي.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ / ١٧٦، وطبقات ابن سعد: ١ / ٥٣، والطبري: ٢ / ١٥٨ وما بعدها، ودلائل النبوة لأبي نعيم: ١١١، ودلائل النبوة للبيهقي: ١ / ١٣٥، وابن كثير في البداية والنهاية: ٢ / ٣٣٤ وما بعدها، والخصائص الكبرى للسيوطي: ١ / ٥٤، وقد أشارت إليها كتب التفسير، في تفسير قوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ).

ورابعة عند العروج لربه وذا باتفاق فاستمع يا أخا الرشد
وخامسة فيها خلاف تركتها لفقدان تصحيح لها عند ذي نقد[١]

وقد كثرت التوجيهات من قبل كُتَّاب السِّيرة حول هذه الرِّواية فقد اعتبرها البعض من إرهاصات النبوَّة ودلائل اختيار اللَّه إيَّاه لأمر جليل . . . وأنَّ الحكمة في هذه الحادثة، هي إعلان أمر الرَّسول، وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل ماديَّة[٢].

واعتبرها بعض ثان من نوع الإعجاز والعقل لايحيل ذلك مادامت قدرة اللَّه تتسع لما لايحيط به العقول ولاتدركه الأوهام والظُّنون[٣].

وفريق ثالث حاول أن يناقش فى سند الروِّاية أو يشكِّك فى صحَّتها وينقل عن بعض المستشرقين «إذا كانت حليمة و زوجها قد نَبِها لشيءٍ أصاب الطفل - أي النَّبي - فلعلَّه نوبة عصبيَّة أصابته[٤] !

والَّذي نلاحظه في هذه الحادثة ما يلي:

أوَّلاً: التَّناقض الشدَّيد بين الرِّوايات الحاكية لهذا الحادث، إذ إنَّ الرِّوايات تُجمع على أنَّ محمَّداًﷺ أقام ببني سعد إلى الخامسة من عمره، وهذه الحادثة وقعت ولا يزيد عمره على السَّنتين إلاَّ قليلاً، فلو كان هذا الحادث قد وقع وسِنُّهﷺسنتان ونصف سنة، ورجعت حليمة وزوجها إذ ذاك به إلى أُمِّه، لكان

(١) أضواء على السُّنة المحمَّديَّة: ١٨٧

(٢) البوطي، فقه السيرة: ٦٢ - ٦٣ وانظر تعليقة الدكتور عبد المعطي قلعجي على الحادث في دلائل النبوة للبيهقي: ١ / ١٣٦ (الهامش).

(٣) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٤٦

(٤) هيكل، حياة محمد: ١١١ مرجع سابق.

في الرِّوايتين تناقض غير مقبول[١].

ثانياً: إنَّ ابن إسحاق، يذكر أنَّ السَّبب في ردِّه إلى أُمِّه لم يكن حكاية الملكين، وإنَّما كان على ما روته حليمة لآمنة: «أنَّ نَفراً من الحبشة نصارى، رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه وقولبوه، ثمَّ قالوا لها: لنأخذنَّ هذا الغلام فلنذهبنَّ به إلى مَلكِنا وبلدنا، فإنَّ هذا غلامٌ كائن له شأن، ونحن نعرف أمره»[٢].

يقول السَّيد جعفر مرتضى: « وبذلك تُعتبر الرِّواية المتقدِّمة الَّتي تذكر أنَّ سبب إرجاعه إلى أمِّه كان هو قضية شقِّ الصَّدر محلّ شكٍّ و شبهة»[٣].

ثالثاً: إنَّ هذه الرِّواية و أمثالها ممَّا ورد في حقِّ الأنبياء تتنافى مع نصِّ الآيات القرآنية على عصمتهم عليهم السلام و كونهم من عبادهِ الَّذين اصطفاهم، وطهَّرهم، واستخلصهم لنفسه، وإنَّ الشيطان لا سبيل له عليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٦].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) السِّيرة النبويَّة: ١ / ١٧٧

(٣) الصحيح من سيرة النبي: ٢/ ١٦٧

(٤) الحجر: ٣٩ - ٤٠

(٥) الإسراء: ٦٥

(٦) النحل: ٩٩

لهذه الملاحظات، ولغيرها من أُمور أوردها السَّلف الصالح من العلماء، طَعَن في مثل هكذا روايات جهابذة العلماء والمحقِّقون منهم: الشيخ الطوسي في التبيان والطبرسي في مجمع البيان، والسيّد الطباطبائي في الميزان(١).

وقال الشيخ محمَّد عبده في تفسيره: «والمحقَّق عندنا أنَّه ليس للشَّيطان سلطان على عباد الله الُمخْلَصِين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون، وأمَّا ما ورد في حديث مريم وعيسى مِن أنَّ الشيطان لم يمسَّها وحديث إسلام شيطان النَّبيﷺ، وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبهﷺ، فهو من الأخبار الظنِّية، لأنَّه من رواية الآحاد، ولمَّا كان موضوعها عَالَم الغيب، والإيمان بالغيب من قسم العقائد، وهي لا يؤخذ فيها بالظنِّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٢) كنَّا غير مكلَّفين بالإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا»(٣).

بل إنّ بعض كُتَّاب السيرة من المستشرقين بعد أن نقل قصَّة شقِّ الصَّدر استنكرها بقوله: فالَّذي أراهُ: أنَّ هذه القصَّة نشأت عن قول القرآن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾(٤) وأنَّ هذه العمليَّة أمرٌ باطني قام على تطهير ذلك القلب وتوسيعه ليَتَلقَّى رسالة الله عن حسن نِيَّة، ويُبلغها بإخلاص تام ويحتمل عِبئها الثقيل وأنَّ أسطورة شَقِّ الصَّدر ذاتُ مَغْزى فلسفي...»(٥).

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٦ / ٢١٥، والطباطبائي، الميزان: ٢٠ / ٣١٨.

(٢) يونس: ٣٦.

(٣) محمد عبده، تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار: ٣ / ٢٩١ - ٢٩٢، وأضواء على السُّنَّة المحمّدية: ١٨٨.

(٤) الانشراح: ٢ - ٣، وللتوسُّع انظر السيوطي - الدُّر المنثور في تفسير آيات سورة الانشراح.

(٥) دَرْمنغام - إِميل، حياة محمد: ٤٨، ترجمة عادل زعيتر، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط. الثانية، (١٩٨٨م).

ثمَّ إنَّ هذه الرِّواية تلتقي في فصولها، ووقائعها، مع بعض الأساطير الجاهليَّة، ممَّا يدلُّ على أنَّها مأخوذة عن أهل الجاهليَّة روى أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة أُميَّة بن أبي الصلت قال: «كان أُميَّة نائماً، فجاء طائران، فوقع أحدهما على باب البيت، ودخل الآخر فشقَّ عن قلبه، ثمَّ ردَّه الطائر فقال له الطائر الآخر: أوَعى؟ قال: نعم، قال: زكا؟ قال: أبى»[١].

وإن كان لابد من كلمة نسجلها في نهاية الحديث عن رواية شق الصدر فنقول: إنّ هذه الحادثة رغم ورودها في أكثر كتب السيرة وفي صحيح مسلم، إلاّ أنّها لم تسلم من المناقشات الجادة والموضوعية في سندها ودلالاتها ولوازمها العقائدية التي تمس عصمة النبي ﷺ.

إلاّ أن مما يؤسف له أن نجد بعض الكتاب المحدثين أن يجعل من هذا الخبر «من ارهاصات النبوة! ودلائل اختيار الله إياه..»[٢] ويتهم كلّ من يناقش فيه بضعف الايمان بالله.. وضعف اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته كلّ ذلك من أجل ورود الحديث في صحيح مسلم! ولهذا لابد من قبوله على ما فيه! وكأنه آية محكمة لا يمكن النقاش في ثبوته ودلالته ولوازمه!!

أليس في هذا الكلام تحجير للعقل البشري؛ من أن يناقش في أي قضية ورد فيها خبر من هنا وهناك، وإن كان من الأخبار الظنية التي لا يمكن الاستناد إليها في مجال العقائد، ولابد من ثبوت حجيتها في باب الأحكام ؟!

ثمّ هل إنّ ارهاصات النبوة، ودلائل اختيار الله لنبيّه ﷺ قليلة حتى نتشبث بمثل هكذا أخبار تطعن في شخصية النبي ﷺ وعصمته ؟ وهل نحن بحاجة إلى

---

(١) الاصفهاني - أبو الفرج، الأغاني: ٤ / ١٣٢، تحقيق: سمير جابر، ط. دار الفكر - بيروت، (١٩٨٦م).

(٢) البوطي: ٧٣ - ٧٤ مرجع سابق.

إثبات عظمة النبي ﷺ بمثل هكذا أخبار وروايات بعد أن ملأت فضائله الخافقين؟

٥ – كفالة النبي ﷺ

تُوفِّي عبدالله وللنَّبيِّ ثمانية وعشرون شهراً، وقِيْل أقلَّ من ذلك وقِيْل وهو حمل(١).

قال ابن سعد: «خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم ثمّ انصرفوا، فمرُّوا بالمدينة، وعبدالله يومئذ مريض، فقال: أتخلَّف عند أخوالي بني عديّ بن النَّجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، - فبلغ ذلك عبدالمطّلب - فبعث إليه الحارث وهو أكبر ولده، فوجده قد مات، ودُفن في دار النَّابغة أحد بني النَّجار والنَّبيﷺ يومئذ حمل» ولعبد الله يوم تُوفّي خمس وعشرون سنة(٢).

ثمّ ينقل ابن سعد الأقوال الأُخرى في وفاة عبد الله، فقال: وقد روي لنا في وفاته وجه آخر، عن هشام بن سائب عن عوانة.. قالا: توفّي عبد الله.. بعدما أتى على رسول الله ﷺ، ثمانية وعشرون شهراً، ويقال سبعة أشهر.. والأوّل أثبت أنه توفي ورسول اللهﷺ حمل(٣).

ثمَّ ما لبث النَّبيﷺ كثيراً حتَّى تُوفِّيت أُمُّه (آمنة) بالأبواء وهي راجعة بهﷺ إلى مكَّة من زيارة أخوال أبيه بني عَدِي بن النَّجار، وهو يومئذ ابن ستّ سنين، فلمَّا ماتت ودُفنت حملته أُمّ أيمن مولاته إلى مكَّة، وسلَّمته إلى جدّه عبدالمطّلب، فكان في كفالته، إلى أن تُوفِّي جدُّه وللنَّبيِّﷺ ثمان سنين، فأوصى

(١) الذهبي، تأريخ الإسلام: ٤٩، وابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٩ وعيون الأثر: ١ / ٢٥

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٤٦

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٦، وانظر السيرة الحلبية: ١ / ٧٤

به إلى عمّه أبي طالب[١].

لقد شاءت الحِكْمة الإلهيَّة أن يفقد النَّبيُّ أبويه وهو في هذه السِّن الَّتي يحتاج فيها إلى رعاية الوالدين وحبِّهما.

رجع محمّدﷺ من رحلته إلى يثرب يتيم الأبوين، قد فقد أُمَّه، كما فقد أباه، ولم يكن قد جاوز السَّادسة بعد، ولم يكن له مال موروث يستطيع أن يعيش منه، فكلُّ ما تركه له أبوه خمسة جمال، وقطعة صغيرة من الغنم، وجاريته أُمَّ أيمن، تلك الفتاة الحبشيَّة الَّتي كانت تُسمَّى «بركة» والَّتي لم تكن قد تزوَّجت بعد[٢]، ولا أنجبت ولدها أيمن، ولكنَّ الله عزَّوجلَّ عطف عليه قلب هذه الجارية فحضنته، ورعته، وكانت له أمّاً مكان أُمِّه، وقلب جدّه الشيخ عبدالمطّلب، فأصبَّه، وأحاطه، وكان له أباً مكان أبيه، ونزل محمَّد من هذين القلبين الكريمين، منزلة البنوَّة الحقَّة، يجد لديهما من الإعزاز والإكرام، ومن الرعاية والعناية، ومن الإيثار والحبِّ، فوق ما يجده الأبناء من آبائهم وأُمَّهاتهم[٣].

قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله ﷺ مع جدِّه عبدالمطَّلب بن هاشم، وكان يُوضع لعبد المطَّلب فراش في ظلِّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْر[٤] حتَّى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطَّلب إذا رأى ذلك منهم: «دَعُوا ابني، فوالله إنَّ له لشأناً، ثمَّ

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٥٥ - ٥٦

(٢) السيرة الحلبية: ١ / ٧٧

(٣) صور من حياة الرَّسول: ٦٥ مرجع سابق.

(٤) أي: ظاهر الصحّة والنمو.

يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده ويسرُّه ما يراه يصنع»(١).

ولم يشأ عبدالمطلب أن يترك شأن يتيمه هُملاً بعد موته، فلما أحسَّ بدُنوِّ أجله، أرسل إلى ولده أبي طالب، فأوصاه بأن يضمَّ محمَّداً إليه، ويجعله في كفالته.

قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمّه أبي طالب، وكان عبد المطلب يوصي به عمّه أبا طالب، وذلك لأنّ عبد الله، أبا رسول الله ﷺ، وأبا طالب أخوان لأب وأم، أُمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم. . وكان أبو طالب هو الذي يلي أمرَ رسول الله ﷺ بعد جدّه، فكان إليه ومعه»(٢).

فكان أبو طالب هو الرُّكن الأمين الَّذي آثر عبدالمطَّلب أن يؤدِّي إليه يتيمه، وكذلك برهن أبو طالب على أنَّه عندحسن الظنِّ به، وأنَّه كان أهلاً لهذه الثِّقة الَّتي أولاه إيَّاها أبوه عبدالمطَّلب، فما هو إلاَّ أن ضمَّ إليه محمَّداً، حتَّى أقبل عليه يغمرهُ بعطفه، ورعايته، ويخلطه بنفسه، وأهله، وأنزله بين بنيه، منزلة الإكرام والإيثار، وبسط عليه حمايته مذ كان صبيّاً، حتَّى صار شاباً ثمَّ صار رجلاً، ثمَّ صار زوجاً، له زوجة وبنون، وحين أكرمه الله برسالته، وعاداهُ مَنْ عاداهُ من أهله وقومه، وقف أبو طالب دونه، يحول بينه وبين أعدائه، فلم يستطع أحد أن يناله بسوء، ولقي أبو طالب في سبيل ذلك ما لا قى، من معاداتهم ومن عنفهم، واضطادهم، ولكنَّه صبر على كلِّ ذلك، صبر الكرام، ولم يشأ أن يسلم ابن أخيه، أو يتخلّى عنه لحظة(٣).

وتتجلَّى لنا حكمة الله تعالى في هذا اليتم المبكِّر لرسول الله ﷺ «ليكون

---

(١)ابن هشام، السيرة النبوية: ١/ ١٧٨

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) صور من حياة الرسول: ٧٠ - ٧١ .

هو سبحانه الَّذي يحوطه بعنايته، ويكلؤه بعينه، ويكمِّله بما يرضى له من الأخلاق والآداب، وليسبغ عليه من آيات فضله، ما يجعله آية للناس، ونموذجاً حيّاً للبشر الكامل، الَّذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وصنعه فأتقن صنعه، وأعدَّه لما أراد به من الكرامة «والله أعلم حيث يجعل رسالته»»[١].

٦ - الإعداد الرَّباني للرَّسولﷺ قبل البعثة

ممَّا يُلفت نظر المتتبّع لحياة الرَّسول ﷺ منذ تلك السنِّ المبكِّرة، شعور المتتبِّع بخضوع النَّبيِّ ﷺ خضوعاً مباشراً لرعاية الله سبحانه وتعالى، لا الرِّعاية الصحيَّة والنُّمو السَّليم فحسب، وإنَّما الرعاية الخاصَّة بالإعداد المباشر من أجل النُّهوض بأعباء الرِّسالة العظمى فيما بعد.

وقد انطوت كتب الحديث، والسِّيرة، والتَّفسير، على مجموعة من الأحاديث، تُجسِّد بعمق حقيقة أنَّ الرَّسول ﷺ كان خاضعاً للون خاصٍّ من الإعداد الإلهي لتحملِّ أعباء المستقبل.

وهذ جملة بما تقطع به هذه الكتب في هذا المضمار:

عن علي عليه السلام في خطبته «القاصعة»:

(وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنَ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهارَهُ)[٢].

وعن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام - وهو بصدد الإشارة إلى مسألة الإعداد الإلهي الخاصّ للرسولﷺ قبل الدَّعوة: «. . . ووكل بمحمَّدﷺ ملكاً

(١) المصدر نفسه: ٦٧

(٢) نهج البلاغة: ٣٠٠، ترتيب صبحي الصالح.

عظيماً منذ فصل عن الرِّضاع، يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشَّر، ومساوىء الأخلاق..»[١].

وللإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام إشارة لهذا المعنى في حديث له قال: في جواب من سأله عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[٢] قال عليه السلام: خَلقٌ من خلق الله أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدِّده وهو مع الأئمّة من بعده[٣].

ولقد كان من آثار ذلك الإعداد الرَّباني المباشر للرِّسول صلى الله عليه وآله، «أنَّه كان موحِّداً لله عزَّوجلَّ منذ سِنيِّ حياته الأُولى، وكان يعلن عِداءه للأوثان بلا تحفُّظ، وكان يحجُّ بيت الله تعالى، ويأبى تناول ما يذبح على النُصب، فضلاً عن تسميته على كلِّ طعام، وحمده لله تعالى بعده»[٤]، إلى جانب ما تحلَّى به من الاستقامة في الخُلُق، والتزام الفضيلة في القول والعمل، حتَّى عُرف عند عموم الناس بـ «الصَّادق الأمين» كصفة مُميِّزة له عن سواه.

٧ - تعبُّده في غار حراء[٥]

روى ابن إسحاق عمّن حدثه..: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُجاور - يعتكف.

في حراء، وكان ذلك مما تحنّث به قريش في الجاهلية.. «فكان رسول الله

---

(١) بحار الأنوار: ١٥ / ٣٦٣ و ٧ / ٢٤٠ من الطبعة الحديثة.

(٢) الشورى: ٥٢

(٣) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٨ / ٨٠

(٤) السمهودي، وفاء الوفا بأحوال المصطفى: ١ / ١٣٣

(٥) حراء: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال (معجم البلدان للحموي).

يجاور ذلك الشهر من كلِّ سنة. . . ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جوارهُ من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف سَبعاً. . ثمّ يرجع إلى بيته. . »[١].

ففي الوقت الذي كانت بعض عرب الجاهلية تتقرب إلى آلهتها من خلال التحنث بالزهد والعبادة وعلى طريقتهم الوثنية كان محمّد ﷺ الَّذي لم يتلقَّ درساً من أحد يتَّجهُ وحده إلى أعلى جبل حراء فيجد في هذا المكان خير ما يصلح للانقطاع إلى الله، ويقف خائفاً متضرِّعاً وهو يتأمَّل في الكون وما أبدع فيه الخالق عزَّوجلَّ من روائع تتجلَّى فيها عظمته وقدرته، وكان محمد ﷺ الَّذي أحاطه الله تعالى برعايته، قد ميَّز طريق الحقِّ المستقيم، ومشى فيه بكل ثبات واطمئنان، ومن دون ترديد واضطراب.

والسؤال الَّذي طُرِح قديماً، ويُطرح في هذا المجال هو: ما هو الشَّرع الذي كان يتعبَّد به محمَّد ﷺ في حياته قبل البعثة، وفي غار حراء بالخصوص؟

والجواب: أنَّ هذا الأمر قد اختلف العلماء فيه، وقد روى ابن كثير في تاريخه طرفاً من آرائهم في الشَّرع الذي كان يتعبَّد به ﷺ «فقيل شرع نوح، وقيل إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنَّه شرعٌ عنده اتَّبعه وعمل به. ثمّ قال: ولبسط هذه الأقوال ومناسباتها مواضع أُخر في أُصول الفقه والله العالم»[٢].

يقول السيِّد جعفر مرتضى: «وكان ﷺ يتعبَّد في حراء، على النَّحو الَّذي ثبتت له مشروعيته، وكان قبل ذلك يتعبَّد به عبدالمطَّلب»[٣].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٥١ - ٢٥٢

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ١٠ .

(٣) الصحيح من سيرة النبي: ٢/ ٣ طبعة دار الحديث، قم.

إلاّ أنّه لم يرشدنا إلى ما كان يتعبّد به عبد المطلب ! لنعرف ما كان يتعبد به النبي ﷺ قبل بعثته ؟

ويقول الشيخ السبحاني: «إلاّ أنَّ البحث في هذه القضية لا ينطوي على فائدة كبرى. بعد أن تبيَّنَ أنَّه ﷺ كان قبل البعثة مؤمناً، موحِّداً، يعبد الله، فإنَّه يكفي أَنَّ نعرف انه كان ﷺ يلتزم بما ثبت له أنَّه شرع الله تعالى، وبما يؤدى إليه عقله الفطري السَّليم، وأنَّه بالتالي كان مؤيَّداً مسدَّداً، وأنَّه أفضل الخلق وأكملهم خلقاً وخُلقاً وعقلاً، وأنَّه كان يعمل حسب مايُلهم سواء أكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً، وأنَّ هاديه وقائده منذ صباه إلى أن بُعث هو نفس هادِيه بعد البعثة»[١].

إلاَّ أنَّ هذه القضيَّة - الَّتي حاول الشيخ السُّبحاني أن ينفي أو يُقلِّل من أهمِّيتها - قد بحثها علماء الأصول والكلام باسهاب، وتعدَّدت فيها الآراءُ والأقوال[٢].

وأهمّ الأقوال في هذه المسألة:

١ - لم يكن متعبداً بشرع أصلاً وقد نُسب هذا القول إلى الحسن البصري.

٢ - التوقُّف وعدم الجنوح إلى واحد من الأقوال، وقد ذهب إلى هذا القاضي عبدالجبار والغزالي، وهو خيرة المرتضى في ذريعته.

٣ - أنَّه كان يتعبَّد بشريعة مَنْ قبله مردَّدة بين كونها شريعة نوح أو إبراهيم

---

(١) جعفر، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ٣١٢.

(٢) للتوسع انظر: السيِّد المرتضى، الذَّريعة: ٢ / ٥٩٥، والشيخ الطوسي، عدة الأصول: ٢ / ٦٠، والمجلسي، بحار الأنوار: ١٨، والمحقِّق الحِلِّي، معارج الأصول: ٦٠، والعلاَّمة الحِلِّي، مبادىء الوصول إلى علم الاصول: ٣٠، والمحقِّق القُميِّ، القوانين المحكمة: ١ / ٤٩٤.

أو موسى أو المسيح بن مريم عليهم السَّلام.

٤ - كان يتعبد بما ثبت أنَّه شرع.

٥ - كان يعمل في عباداته وطاعاته بما يوحى إليه سواءً كان مطابقاً لشرع من قبله أم لا.

٦ - أنَّه كان يعمل بشرع نفسه.

والرأي الأخير هو الظَّاهر من الشيخ الطوسي في عدته قال: «عندنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن متعبِّداً بشريعة من تقدَّمه من الأنبياء لا قبل النبوَّة ولا بعدها، وأنَّ جميع ما تعبَّد به كان شرعاً له، ويقول أصحابنا إنَّه كان قبل البعثة يوحى إليه بأشياء تخصه وكان يعمل بالوحي لاتباعاً بشريعة»[١].

وهنالك مناقشات كثيرة وأخذٌ وردٌّ حول هذه الآراء تركناها مخافة التَّطويل[٢].

---

(١) الطوسي، عدة الأصول: ٢ / ٦٠

(٢) وللتوسُّع في عرض هذه الآراء ومناقشتها انظر: الشيخ السُّبحاني، مفاهيم القرآن: ٥ / ١٥٣ وما بعدها. والشيخ اليوسفي الغروي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ١ / ٣٦٠ وما بعدها. وقارن ذلك بما قاله السيّد المرتضى علم الهدى في الذريعة إلى أُصول الشريعة: ٢ / ٥٩٥ - ٥٩٦ .

الأسئلة:

١ - اتّفقت كلمة الإمامية على إيمان آباء النبي ﷺ ما هي الأدلّة التي يستدلّ بها على ذلك ؟

٢ - ما هي الدّوافع وراء إرسال أشراف قريش لأطفالهم إلى البادية في فترة الرضاعة ؟

٣ - من هي مرضعة النبيﷺ ؟ وما هي المدّة التي قضاها النبيﷺ عندها ؟

٤ - ينقل بعض المؤرّخين روايات عن حادثة شقّ صدر النبيﷺ خلال فترة رضاعه في البادية، كيف نناقش هذه الروايات وما يرد عليها من إشكالات ؟

٥ - ما هي ملامح الإعداد الرّباني للرّسول الأكرمﷺ قبل بعثته ؟

٦ - أين كان يتعبّد النبيﷺ ؟ وبأي شريعة كان يتعبّد ؟

الدرس السابع

ما قبل البعثة النَّبويَّة

«القسم الرابع»

رحلات النبي ﷺ

ومشاركته لقومه في حياتهم الاجتماعية والسياسية

محاور البحث:

١ - رحلات النَّبي ﷺ إلى الشام ولقاؤه مع بحيرا الراهب وبعض الأحبار

٢ - حلف الفضول واشتراك النبي ﷺ فيه

٣ - بناء الكعبة ووضع النَّبي ﷺ للحجر الأسود في محلِّه

٤ - الدروس والعبر

- الأسئلة

رحلات النبي ﷺ
ومشاركته لقومه في حياتهم الاجتماعية والسياسية

١ - رحلات النبي ﷺ إلى الشَّام

سافر النَّبيُّ ﷺ إلى الشام أكثر من مرَّة، وأول مرَّة سافر فيها ﷺ كانت بصحبة عمِّه أبي طالب، وكان في الثانية عشرة، من عمره[١] وفي رواية انه كان سنّه ﷺ تسع سنين على الأرجح.

وفي تفاصيل هذه السَّفرة وما وقع فيها روايات كثيرة، نقتصر على ما رواهُ ابن هشام عن ابن إسحاق قال:

إنّ أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، فلمَّا تهيَّأ للرَّحيل، وأجمع المسير، صَبَّ به[٢] رسول الله ﷺ، فرقَّ له أبو طالب، وقال: والله لأَخْرُجَنَّ به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه.

فلمَّا نزل الرَّكب بُصرى[٣] من أرض الشام، وبها راهبٌ يقاله له بَحيرا في صَومعة له، وكان إليه علمُ أهل النصرانيَّة... فلمَّا نزلوا به قريباً من صَوْمَعتِهِ صنع لهم طعاماً كثيراً، ... ثمَّ أرسل إليهم يدعوهم إلى طعامه...، وحينما

---

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ١ / ١٧١ .

(٢) أي: تعلّق به ومال إليه.

(٣) بصرى: مدينة حوران، فتحت صلحاً سنة ثلاث عشرة، وهي أول مدينة فتحت بالشام.

رأى بحيرا رسول اللهﷺ، جعَلَ يَلْحَظُهُ لَحْظاً شَديداً، وينظرُ إلى أشياء من جسدهِ قد كان يجدها عنده من صفتهِ، حتَّى إذا فرغَ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قام إليه بحيرا فقال له:

يا غلام: أسألك بحقِّ اللاَّت والعزَّى إلاَّ ما أخبرتني عمَّ أسألك عنه؛ فقال له رسول اللهﷺ: لا تسألني باللات والعزَّى، فوالله ما أبغضت شيئاً قطّ بغضهما.

فقال له بحيرا: فبالله إلاَّ ما أخبرتني عمَّا أسألكَ عنه.

فقال له ﷺ: سَلني عمَّا بدالك.

فجعل يسأله عن أشياء مِن حالهِ في نومهِ وهيئته وأُموره، فجعل رسول اللهﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثمَّ نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته الَّتي عنده.

قال ابن إسحاق:

فلما فرغ أقبل على عمِّه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟

قال أبوطالب: إنَّه ابني.

قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً.

قال أبو طالب: فإنّه ابن أخي.

قال بحيرا: فما فعل أبوه؟

قال أبو طالب: مات، وأُمه حُبْلى به.

قال بحيرا: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يَهود، فوالله لئن رَأوه، وعرفوا منه ما عرفت، ليَبْغُنَّه شرّاً، فإنَّه كائنٌ لابن أخيك هذا

شأنٌ عظيم، فأَسْرِعْ به إلى بلاده، فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً، حتَّى أقدمهُ مكَّة»[١].

هذا ملخَّص ما نقله ابن هشام عن لقاء النَّبِّي ببحيرا الراهب، وفي ذيل هذه الرِّواية يروى حادثة أخرى ملخَّصها: أنَّ نفراً من أهل الكتاب رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآهُ بحيرا، فأرادوه فردَّهم عنهُ بحيرا، فتركوهُ وانصرفوا عنه[٢].

يقول الدكتور جواد علي: «وينظر معظم المستشرقين إلى قصة بحيرا على أنها أُسطورة وقصة موضوعة، ليس لها أهمية تاريخية بالنسبة إلى نبوة الرسول، واتخذها بعضهم حجة لاثبات أن الرّسول كان قد تعلم منه الدين، وأنه كان قد تلقن منه علم يهود والنصرانية فوضعه في الإسلام»[٣].

ومهما يكن من أمر فالذي نستفيده من حديث بحيرا - وهو حديث رواه عامَّة علماء السِّيرة ورواتها، وإن كانت تختلف في بعض التَّفاصيل، إلاَّ أنَّ القدر المشترك من القصة ثابت بطرق كثيرة - أنَّ أهل الكتاب، من يهود، ونصارى، كان عندهم علم ببعثة النَّبي ﷺ، ومعرفة بعلاماته، وذلك بواسطة ما جاء في التَّوراة والإِنجيل من خبر بعثته ﷺ، وبيان دلائله وأوصافه، والدَّلائل على ذلك كثيرة مستفيضة:

فمنها: ما رواه علماء السِّيرة، من أنَّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ويقولون لهم: إنَّ نبياً سيُبعث قريباً سنتَّبعه فنقاتلكم معه قتل عاد، وإرم، ولمَّا نكثوا عهدهم، أنزل الله في ذلك قوله تعالى:

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ١ / ١٩١ - ١٩٤ بتلخيص.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٩٤ .

(٣) تاريخ العرب في الإسلام: ١٣٣ مرجع سابق.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

ومنها: ما رواه القرطبي وغيره أنَّه لمَّا نزل قول الله تعالى: (الَّذِينَ ءَاتَيْناهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[٢] سأل عمر بن الخطَّاب عبدالله بن سلام – وقد كان كتابياً فأسلم –:

أتعرف محمَّداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه، إلى أمينه في أرضه، بنعته فعرفته[٣].

ومنها: ورود البشارة به ﷺ في التَّوراة، والإنجيل، والزَّبور، فقد جاء في قول يوحنَّا، حكاية عن المسيح عليه السلام ص ١٤ ق ١٥ ما يلي:

«إن كنتم تحبُّونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب، فيعطيكم فارقليطاً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنّه لا يراه، ولا يعرفه، وأمَّا أنتم فتعرفونه لأنّه ماكث معكم وفيكم»[٤].

وترجمة الفارقليط بالعربية (أحمد)[٥] كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٦].

وقد نقل المرحوم (محمّد رضا) أمين مكتبة جامعة القاهرة سابقاً، نصوصاً كثيرة من التَّوراة والإنجيل ووصايا موسى وعيسى عليهما السلام ثمَّ عقَّب عليها

---

(١) البقرة: ٨٩ .

(٢) البقرة: ١٤٦ .

(٣) البوطي، فقه السِّيرة: ٦٦، نقلاً عن القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

(٤) رضا – الشيخ محمد رضا، محمَّد رسول الله (صلى الله عليه وآله): ٤٥ – ٤٦ .

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الصفّ: ٦ .

بقوله: «من يقرأ هذه النُّصوص، وينعم النَّظر في معناها، ومرماها، يجد أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بشَّر برسالة نبيِّنا عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام فسمَّاه «فارقليط» آخر، يعني رسولاً غيره، تبقى شريعتهُ إلى قيام الساعة، ولا يأتي بعده نبي ولا رسول. . . وهذه النُّصوص المذكورة في التَّوراة والإنجيل، ناطقة برسالة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِهذا لمَّا كان بحيرا الرَّاهب، متبحّراً في علم النصرانيَّة، فقد عَرف النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأخبر برسالته ممَّا اطّلع عليه في الكتب المقدَّسة ففيها أوصافه، وشيء من إرهاصاته ومعجزاته»[١].

وممَّا ذكرنا يتَّضح الجواب لِما قديَرِدُ على ما قلناه، ومحصَّلُهُ: أننَّا عندما نطالع كتب أهل الكتاب الموجودة بأيديهم، فأنَّنا لا نجد فيها نعتاً صادقاً لمحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ! فما هو السبب في ذلك ؟ والجواب عن هذا الإيراد والتساؤل واضح فإنَّ المتتبِّع لعبارات كتب أهل الكتاب الموجودة فعلاً والمتداولة، يجد أنَّها بعيدة كلَّ البُعد عن كونها مصداقاً لِمَا يمكن أن يتسمَّى بكلام الله، عدا بعض الجُمَل الَّتي يمكن أن تكون قد نقلت حكاية، كما ينقل أي مؤرِّخ بعض آيات القرآن الكريم[٢].

فما يعتمد عليه أهل الكتاب، والَّذي ينعتونه بالكتاب المقدَّس، ليس بكلام الله، ولا كلام رُسُل، أو أنبياء، بل إنَّ الغالبية العظمى منه لا تعدو كونها مؤلَّفات متناقضة لمؤلِّفين مجهولين، وقد كتبت في مراحل متأخرة جداً عن عصر أنبياءهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) المصدر السابق: ٤٦ - ٤٨ (الأنبياء والرُّسل تقع في حياتهم أُمور خارقة تدلُّ على نبوَّتهم وتؤيِّد رسالتهم ; فالَّتي تقع قبل النبوَّة كالخوارق التي حدثت في مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تسمّى إرهاصات، والتي تقع بعد النبوّة تسمّى معجزات).

(٢) للتوسّع انظر : الكتاب المقدّس تحت المجهر، الأستاذ عودة مهاوش: ١٦٣ - ١٨٠، كذلك كتاب الهدى إلى دين المصطفى والرحلة المدرسية للبلاغي.

هذا ملخَّص لما ذكره المؤرِّخون حول سفر النَّبيﷺ إلى الشَّام، وهي السَّفرة الأُولى وقد سافرﷺ سفرة أخرى إلى الشام وهو في الخامسة والعشرين[١]، مع مَيْسَرة غلام السيِّدة خديجة قبل أن يتزوَّجها، ستأتي الإشارة إليها.

٢ - حِلْف الفضول واشتراك النَّبيﷺ فيه

مع أنَّ رسول اللهﷺ كان يُخالف قومه في كثير من عاداتهم وأخلاقهم، فإنَّه كان يعيش بينهم كواحد منهم، يألفهم ويألفونه، ولم تكن أخلاقهم تلك الجافية، ولا عاداتهم المرذولة، تمنعه من أن يشاركهم فيما لا ينافي الفضيلة من أعمالهم وتقاليدهم، فقد شاركﷺ في حلف الفضول وهو في سن العشرين، وهو حلفٌ تداعت فيه قريش إلى نصرة المظلوم[٢].

وقد ذكر المؤرِّخون تفاصيل هذا الحِلف، وسبب تسميته بهذا الاسم، والأسباب التي دعت إليه.

قال ابن إسحاق: «تداعت قبائل قريش إلى حِلف، فاجتمعوا في دار عبد الله ابن جدّعان، لشرفه وسنه، . . فتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاّ أقاموا معه، وكانوا على من ظَلَمه حتى تردّ عليه مَظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حَلف الفضول»[٣].

وقال السهيلي في (الرَّوض الأُنف)[٤]: «وكان حلف الفضول هذا قبل البعث بعشرين سنة، وكان أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وأوّل من

---

(١) السيرة الحلبية: ١ / ١٩٣ .

(٢) صورة من حياة الرَّسول: ٨٢ مرجع سابق.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) السهيلي - ابن القاسم عبد الرحمن بن أبي الحسنه الخثعمي، الرُوض الأُنف في تفسير السِّيرة النبويَّة لابن هشام: ١ / ١٥٦ .

تكلَّم به ودعا إليه الزبير بن عبدالمطلب»، وكان سببهُ: أنَّ رجلاً من زُبيد، قدم مكَّة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكَّة وشرف، فحبس عنه حقَّه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبدالدار، ومخزوماً، وجُمَحَ وسهماً، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوهُ على العاصي وزبروه (انتهروه).

فلمَّا رأى الزبيدي الشر، أوفى على أبي قبيس(١) عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا آلَ فِهُرٍ لمظلومٍ بضاعتُهُ ببطنِ مكَّة نائي الدارِ والنَّفرِ
ومُحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرتَه يا للرجال وبين الحِجر والحَجَرِ
إنّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرامَ لثوب الفاجر الغُدرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبدالمطلب، وقال: ما لهذا مُتْرك؟ فاجتمعت هاشم، وزُهرة، وتيم بن مرة، في دار عبدالله بن جُدعان، فصنع لهم طعاماً، فتعاقدوا وتعاهدوا باللهِ على أن لا يجدوا بمكَّة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممَّن دخلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى يردَّ عليه مظلمته، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدي من العاص بن وائل.

وقد حدَّث رسولﷺ أصحابه عن ذلك الحلف فقال: «لقد شهدتُ في دار عبدالله بن جُدْعَان حِلفاً ما أُحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعم،(٢) ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبت»(٣).

---

(١) جبل بمكة.

(٢) حمر النَّعم: نوع من الإبل ممتاز كان يُضرب به المثل في الجودة والقيمة كأنّه أحسن شيء يقتنى عند العرب.

(٣) السِّيرة النبويَّة: ١ / ١٤٢، ومعنى قوله(صلى الله عليه وآله): أي لا أحب نقض هذا الحلف، وإن دُفع لي حمر النعم في مقابله.

واستطاع هذا الحلف أن يضع حدّاً للتَّجاوزات الَّتي كانت تصدر من بعض القريشيين على الوافدين إلى بيت الله الحرام، والتي لم تكن تقف عند حدٍّ لولا حلف الفضول، الذي وقف أعضاؤهُ بحزم في وجه أولئك المعتدين.

روى ابن كثير: «أنَّ رجلاً من خثعم، قَدِم مكَّة حاجّاً ومعه ابنة له يقال لها: «القتول»، من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجَّاج، وغيبها عنه، فقال الخثعمي: من يعديني على هذا الرجل؟ فقيل له عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى يا حلف الفضول؛ فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتضوا أسيافهم وهم يقولون: جاءك الفوت فما لك؟ فقال: إنَّ نبيهاً ظلمني في بنتي، وانتزعها منِّي قسراً، فساروا معه، حتَّى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم فقالو له: أخرج الجارية، ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه، . . . . فأخرجها إليهم»[1].

والذي يتأمَّل في حديث النَّبيِّ ﷺ لأصحابه عن هذا الحلف يجد أنّه ﷺ قد أمضى هذا الحلف، وأقرَّه، وأثنى عليه، لانسجام أهدافه مع أهداف الإسلام، التي تتلخّص بنصرة المظلوم، والدِّفاع عن الحقِّ.

إنَّ اهتمام النَّبيِّ ﷺ بحلف الفضول، إنَّما يدلُّ على أنَّ الإسلام ليس منغلقاً على نفسه، وإنَّما هو يستجيب لكلِّ عمل إيجابي فيه خير الإنسان، ويشارك فيه بأعلى المستويات، انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، وانسجاماً مع أهدافه العليا، ومع المقتضيات الفطريَّة، وأحكام العقل[2].

أمَّا الدوافع الَّتي دعت أن تكون استجابة هؤلاء للزبير بن عبدالمطَّلب حين دعا لعقد هذا الحلف سريعة، فيمكن تلخيصها بما يلي:

---

(١) البداية والنهاية: ٢ / ٣٥٦ - ٣٥٧، والروض الأُنف: ١/ ١٥٧ .

(٢) الصَّحيح من سيرة النَّبي: ٢ / ٢٤٥ (بتصرف).

أوّلاً: الدَّوافع الإنسانيَّة والفطريَّة: إذ إنَّ أهداف هذا الحلف، تنسجم مع الشُّعور الإنساني والأخلاقي، وتهتف به الفطرة الإنسانيَّة، والعقل البشري السَّليم.

ثانياً: الدَّوافع الأمنيَّة: وذلك لأنَّ فقدان الأمن في مكَّة لسوف يقلِّل من رغبة التُّجار في الوفود عليها، والتعامل مع أهلها، فتفقد بذلك مكَّة موقعها التِّجاري العَالَمِي في ذلك الوقت.

ثالثاً: الدَّوافع العقائديَّة: كالحفاظ على قُدسيَّة مكَّة وأهلها؛ إذ إنَّ العرب وعلى رغم تفشِّي الشِّرك، وعبادة الأصنام فيهم، إلاَّ أنَّهم كانوا يتعاملون مع الحرم المكِّي من مُنطَلَق التَّقديس والاحترام(١).

٣ - بنيان الكعبة وحكم رسول الله ﷺ بين قريش في وضع الحَجَر

كان رسول الله ﷺ قبل بعثته، يشارك قومه في الحياة العامَّة، ولم ينقطع عن هذه المشاركة ما لم تتنافَ مع الفضيلة، والعدل، ومكارم الأخلاق، وقد أشرنا إلى ذلك في معرض حديثنا عن حلف الفضول.

ومن الحوادث الَّتي شارك فيها رسول الله ﷺ هي حادثة بناء الكعبة، وكان له دور فاعل في فضِّ النِّزاع بين القبائل المشاركة في بناء الكعبة، والَّتي كادت أن تؤدِّي إلى حرب طاحنة، لولا سداد الرأي، وصواب الحُكم الذي صدر من نبيِّنا الأكرم ﷺ في هذه الحادثة.

وقد نصَّ مؤرِّخو السِّيرة على هذه الحادثة، بتفاصيلها، وجزئياتها، وملابساتها، والذي يهمّنا في هذا الدرس هو أن ننقل ملخَّص ما ذكره ابن هشام في سيرته، حول هذه الحادثة، ثمَّ نحاول أن نستلهم بعض الدروس والعِبَر منها.

---

(١) المرجع نفسه: ٢ / ٢٤٦ (بتصرف).

روى ابن هشام عن ابن إسحاق، قال: «فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمّون لذاك ليسقّفوها، ويهابون هَدْمَها وإنَّما كانت رضماً[١] فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدّة، لرجل من تجّار الروم، فتحطَّمت، فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكَّة قبطيّ نجّار فتهيَّأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يصلحها. . . فلَّما أجمعوا أمرهم في هدمها، وبنائها، قام (ابو وهب بن عمر) فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتَّى رجع إلى موضعه فقال: يا معشرَ قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلاَّ طيّباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. . .».

ثم أضاف ابن إسحاق: «ثمَّ إنَّ القبائل من قُريش جَمَعَتْ الحجارة لبنائها، كلُّ قبيلة تجمع على حدة، ثمّ بَنوها حتَّى بلغ البنيان موضع الرُّكن[٢] فاختصموا فيه، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخرى، حتى تحاوزوا[٣] وتحالفوا، وأعدُّوا للقتال، فقرَّبت بنو عبد الدار جَفْنة مملوءة دماً، ثمَّ تعاقدوا هم، وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدَّم في تلك الجفنة، فسمّوا لَعَقَة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمس، ثمَّ إنَّهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعضُ أهل الرِّواية أنَّ أبا أميَّة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسنَّ قريش كلّها قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أوّل داخل عليهم رسول الله ﷺ فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رَضينا، هذا

---

(١) الرَّضم: ان تنضّد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط (الروض الأُنف: ١ / ٢٢١).

(٢) يريد بالركن الحجر الأسود، وسُمِّي ركناً لأنّه مبني في الركن (هامش السِّيرة النبويَّة: ٢٠٩).

(٣) أي انحازت كل قبيلة إلى جهة.

محمَّد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، قالﷺ هلمَّ إليَّ ثوباً، فأُتي به فأخذ الركن، فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوهُ جميعاً، ففعلوا حتَّى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثمَّ بنى عليه».

وكانت قريش تُسمِّي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين»[١].

هذا وقد أسهب المؤرخون، في ذكر تفاصيل بناء الكعبة المشرَّفة، وتأريخ بنائها. والذي لا يمكن لنا التَّشكيك فيه هو أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بنى البيت ورفع قواعده.

قال ابن كثير في (البداية والنِّهاية)[٢]: «ذكر البيهقي ما ورد من الإسرائيليَّات في بنائه في زمن آدم، ولا يصحُّ ذلك، فإنَّ ظاهر القرآن يقتضي أنَّ إبراهيم أوّل من بناهُ مبتدئاً، وأوّل من أسَّسه، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها، مشرَّفة في سائر الأعصار والأوقات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[٣].

٤ - الدُّروس والعِبَر

والذي نستفيده من خلال التأمُّل في فصول وملابسات هذه الحادثة، أموراً كثيرة يمكن إيجازها بما يلي:

أوّلاً: الثِّقة المطلقة الَّتي كانت قريش تُوليها لرسول اللهﷺ:

فلقد تجسَّدت في شخصيّة محمَّدﷺ كل صفات الكمال، وعرف له أهل مكة هذا الكمال الإنساني، فوصفوهُ بأحسن ما يمكن أن يوصف به إنسان، من

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ١ / ٢٠٤ - ٢١٠، والطبري: ٢ / ٢٩٠، والسيرة الحلبية: ١ / ٢٠٤ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية: ٢ / ٣٦٥، وانظر دلائل النبوة للبيهقي: ٤٣/٢ وما بعدها.

(٣) آل عمران: ٩٦ - ٩٧.

صفات الكمال فلقَّبوه بـ «الأمين» وأصبح هذا اللَّقب وصفاً مميِّزاً له دون غيره، حتى صار عَلَماً عليه لا يُنادى ولا يُذكرُ إلاَّ به.

ولهذا كانت قريش - وهي سيدة القبائل العربية في ذلك الوقت - تحكِّمه في كثير ممَّا كان يشجُر بينهم، ويضعون كل ثقتهم فيه، وعُرف بينهم بسداد الرأي، وصواب الحُكم؛ ولهذا نجدهم قد فرحوا جميعاً، واستراحوا لرؤيته حين دخل عليهم من باب المسجد، وقالوا: «هذا الأمين رضينا»[١].

يقول صاحب السِّيرة الحلبيَّة: «إنَّهم - قريش - كانوا يتحاكمون إلى النَّبي في الجاهليَّة، لأنّه كان لا يُداري ولا يُماري»[٢].

ثانياً: اهتمام قريش بأمر الكعبة:

فَبِغضِّ النَّظر عن الدَّوافع الَّتي دفعت بقريش إلى التَّفكير في إعادة بناء الكعبة، فإنَّنا نجد الاهتمام البالغ بأمر البيت الحرام متجسِّداً في ثنايا النصوص الَّتي نقلنا طرفاً منها، والَّتي تتحدَّث عن بناء الكعبة.

فنجد قريشاً تهيء كل مستلزمات إعادة بناء البيت، من خشب وأحجار وعُمَّال، ونجدهم يشاركون في البناء بأنفسهم، وينفقون على أمر البناء من طيب أموالهم، ممَّا لا ربا فيه ولا مظلمة، ثمَّ نجدهم حينما بلغوا موضع الركن. وهو الحجر الأسود - وأرادوا أن يضعوه في مكانه فاختلفوا: أيّهم ينال ذلك الشَّرف العظيم؟ إذ كان للحجر الأسود في نفوسهم منزلةٌ من الإجلال والتَّقديس لا تدانيها منزلة[٣].

---

(١) صور من حياة الرسول: ٨٠ - ٨٣ .

(٢) السِّيرة الحلبية: ١ / ٢١٠ .

(٣) صور من حياة الرَّسول: ٨٣ .

ثالثاً: الحكِمَة وسَدَاد الرأي في طريقة رسول الله ﷺ لفضّ نزاع القوم:

لقد كانت قريش موفَّقة جدّاً في احتكامها لرسول الله ﷺ، والإذعان لحكمه، ولولا ذلك لوقعت حرب أخرى دامية تُضاف إلى مجموعة الحروب الماضية، والَّتي اصطلح عليها عُلماء السِّيرة بـ «أيّام العرب»، والّتي فتكت بالأموال والأنفسُ والأعراض[١].

وقد تجلَّت الحِكمة في أوضح معانيها في شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ من خلال هذه الحادثة، إذ استطاع ﷺ بحكمته، وحُسن تدبيره، أن يُجنِّب قريشاً فتنة خطيرة، كان من الممكن أن تؤدِّي إلى سفك دماء كثيرة، وتجرُّ عليهم ويلات ومصائب عظيمة، وقد أوضحت هذه القضيَّة بشكل جليٍّ الشخصيَّة الاجتماعيَّة العظيمة للنَّبيِّ محمد ﷺ، كما أنّها بيّنت بعض جوانب العَظَمة في آرائه الصَّائبة ونظراته الحكيمة[٢].

وبهذا يُعلم أنَّه ﷺ كان أهلاً وكفوا لمقام النبّوة، ولما اختارهُ اللهُ له من القيام بعبء الرِّسالة، ورفع راية الإصلاح. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ..﴾[٣].

وفي ختام هذا الدرس ينبغي أن نشير إلى أن هنالك بعض الوقائع والأحداث الأُخرى التي شهدتها مكة قبل بعثة النبي ﷺ، ومنها: «حرب الفجار»، التي وقعت بين قريش وهوازن، أو بين كنانه وهوازن.. حيث ذكر ابن هشام والسهيلي وغيره من المؤرخين مشاركة النبي ﷺ فيها، وكان له من العمر أربع عشرة سنةً، ونُسب له ﷺ قوله: «كنتُ أُنبّل على أعمامي، أي أرد عليهم نَبلَ عدوّهم إذا رَموهم بها».

---

(١) للتوسّع انظر محمّد أبو الفضل وآخرون، أيّام العرب في الجاهلية.

(٢) التسخيري - الشيخ محمد علي، نظرة سريعة إلى حياة نبي الإسلام: ٥٨ .

(٣) الأنعام: ١٢٤ .

إلاّ أنّ ابن إسحاق يقول: «هاجت حربُ الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وإنما سمّى يوم الفجار، بما استحل هذان الحيّان كنانة وقيس عيلان، فيه من المحارم بينهم».

إلاّ أن مشاركة النبي ﷺ في هذه الحرب محل شك عند بعض المؤرخين؛ لاضطراب واختلاف رواياتها، ولما دُسّ فيها من أخبار كاذبة، ولهذا نجد ابن إسحاق يعرض عن الدخول في تفاصيلها ولهذا أعرضنا عنها[١].

الأسئلة:

١ - ما هي الدلائل التي نستفيدها من رحلة النبي ﷺ إلى الشام ولقائه مع بحيرا الراهب؟

٢ - ما هي تفاصيل حلف الفضول، وما سبب تسميته بهذا الاسم؟ وكيف كان رسول الله ﷺ يُحدّث أصحابه عن هذا الحلف ؟

٣ - ما هي الدروس والعبر المستفادة من حادثة بناء الكعبة المشرّفة، وحكم رسول الله ﷺ بين قريش في وضع الحَجَر في مكانه؟

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ١٩٥ - ١٩٨، والروض الأنف للسهيلي: ١ / ١٥٦، وقارن برواية السيرة الحلبية: ١ / ١٨٥ وما بعدها. وما ذكر اليعقوبي في تاريخه: ٢ / ١٥

الدرس الثامن
ما قبل البعثة النَّبويَّة
«القسم الخامس»

زواج النَّبيﷺ من خديجة (عليها السلام)
وتراجم نساء النبيﷺ

محاور البحث:

١ - الزواج في الإسلام
٢ - حكمة تعدّد الزوجات في الإسلام
٣ - زواج النّبيﷺ من خديجة (عليها السلام) وتراجم زوجات النَّبيﷺ
٤ - الغايات والأهداف الَّتي كان النَّبيﷺ يبتغيها من زواجه
٥ - تُهم المستشرقين وردّها

زواج النَّبي ﷺ من خديجة (عليها السلام)

وتراجم نساء النبي ﷺ

١ - الزواج في الإسلام

قبل الحديث عن موضوع تعدُّد زوجات النَّبي ﷺ، نرى من المفيد أن نستهلَّ البحث بمقدِّمة موجزة نسلِّط فيها الأضواء على سُنَّة الزواج في الإسلام، كمدخل للموضوع المراد بحثه.

فالزواج من السُّنن الاجتماعيَّة والفطريَّة الَّتي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات الإنسانيَّة منذ فجر التأريخ وحتَّى يومنا هذا، بل إنَّ الزواج أعمق في التأريخ من بني الإنسان كما يقول ديورانت[١].

وقد زُوِّد الانسان بحسب بنيته الجسميَّة بوسائل التَّناسل والتَّوالد، كما أنَّ هنالك الغرائز الإنسانيَّة والعاطفيَّة، الَّتي بدورها تدفعه إلى إشباعها من خلال عملية الزواج؛ فالإنسان يتطلَّع إلى الأولاد والذُّريَّة من صُلبه، ولا يحصل على ذلك إلاَّ من خلال الزواج، بل حتَّى منطق الطبيعة وقضاؤها، يحكم بأنَّ بقاء الإنسان ببقاء نسله. والمجتمعات التي تحترم هذه الأُصول والأحكام الفطرية، لا مناص لها من الإذعان لسنّة النكاح، ووضع القوانين التي تفصل قواعده، وتحدِّد أحكامه.

---

(١) ديورانت - ول، قصة الحضارة: ١ / ٦٧، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، ط. بيروت، (١٩٨٨ م).

وهكذا كان فقد أجازتها الشَّرائع السَّماويَّة المتقدِّمة بأجمعها، وأكَّد الإسلام عليها، «إلاَّ أنَّا إذا قايسنا القوانين المشرّعة في الإسلام لتنظيم أمر الزواج، بسائر القوانين والسُّنن الدَّائرة في الدنيا، وتأمَّلنا فيها تأمُّل منصف، وجدناها أدق، وأضمن، لجميع شؤون الاحتياط في حفظ الأنساب، وسائر المصالح الإنسانيَّة الفطريَّة»[١].

«فالزواج في الإسلام يعني تلك الصِّلة الشَّرعيَّة بين الرجل والمرأة، والَّتي تُسَنُّ لحفظ النوع البشري، وما يتبعه من النظم الاجتماعية»[٢].

«وهو الحصن الَّذي يردُّ عن المرء جموح الغريزة، ويدفع غائلة الاشتهاء، ويحفظ الفرج، ويصون العرض، ويحول دون التردِّي في مزالق الفجور ومهاوي الفاحشة»[٣].

ولقد كان لأعراب الجاهلية في الجزيرة العربية أحكامهم الخاصة في الزواج والطلاق والعدة والميراث.. وغيرها مما يصطلح عليه بالأحوال الشخصية. وقد وصلتنا أخبار تاريخية كثيرة حول هذه الأحكام وخاصة عن الجاهليين القريبين لعصر ظهور الإسلام أو الذين عاصروا الفترتين.

وعندما نعود إلى سنن أهل الجاهلية في الزواج، الذي يعبر عنه بـ «النكاح»، نجد هنالك الزواج المألوف المتعارف، والذي يستند إلى عقد وصداق وولي أمر وتراضي من الطرفين.. وهو النكاح المعروف بين الناس والذي أقرّه الإسلام بعد أن بيّن حدوده القانونية والشرعية.

يقول الدكتور جواد علي: «والزواج المألوف بين الجاهليين، هو الزواج

(١) الطبطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٤ / ٣١٤ (بتصرف).

(٢) العقاد – عباس محمود، المرأة في القرآن: ٧٦، ط. دار الهلال – مصر.

(٣) الشهاوي – محمّد عبدالفتاح، الإسلام والأسرة: ٥٨ .

هذا اليوم، أي الزواج القائم على الخطبة والمهر، وعلى الايجاب والقبول، وهو ما يسمى بزواج البعولة، وهو زواج منظم، رتّب الحياة العائلية وعيّن واجبات الوالدين والبنوة، وهو الذي أقره الإسلام. . . ».

إلاّ أنّ هذا اللون من الزواج لم يكن فيه سقف محدد لعدد الزوجات، « . . . وللزوج في هذا الزواج أن يتزوج من النساء ما أحب من غير حصر، وله أن يكتفي بزوج واحد، وأمر عدد الأزواج راجع إليه وإلى هواهُ بالنساء. . . إلاّ أنّ هنالك إلى جانب هذا النوع من الزواج أنواعاً أُخرى لم يقرها الإسلام وحرمها بشدة، منها: نكاح الضيزن، والذي أطلق عليه المسلمون (نكاح المقت). . . ، وهنالك نكاح البدل، ونكاح الشغار، ونكاح الاستبضاع. . إلى غير ذلك من أنواع الزواج والنكاح الذي كان متعارفاً في عصر الجاهلية»[١].

وجاء الإسلام ومعه النظام الاجتماعي المتكامل والذي ينسجم مع فطرة الإنسان ويلبي حاجاته الاجتماعية والجسدية والنفسية، فأولى قضية الزواج الأهمية القصوى وذلك من خلال تولّي الشَّارع المقدَّس رعاية أمر الزواج بدقَّة وتفصيل منذ اللَّحظات الأولى للتَّفكير فيه حتَّى إتمامه، ثمَّ أولاهُ عناية فائقة وأحاطه بالاهتمام البالغ من بدايته حتَّى ينتهي بالموت أو بغيره، ولم يفسَح الشَّارع المجال للناس ليضعوا له ما شاءوا من أنظمة وأحكام، ويقيموا له ما يرتضون من قواعد وأُصول، بل تولاَّهُ بنفسه، تفضُّلاً منه وتحنُّناً بعباده، فوضع له أُصوله ونظّم أحكامه[٢]؛ ليكتسب الزواج بهذه الرِّعاية المقدَّسة، والحماية، ما يُشعر الزَّوجين بأنَّهما يرتبطان برباط مقدَّس، يشمله الدِّين بقدسيَّته في كلِّ لحظة من مراحلهِ، فيسكن كل منهما إلى صاحبه عن رضى واختيار، ويطبِّقان عليهما

(١) جواد علي، المفصل: ٥ / ٥٢٧ وما بعدها.

(٢) للتوسّع انظر: الصالح - د. صبحي، النظم الإسلامية، نشأتها وتطوّرها: ٤٣١، الفصل الخامس، ط. دار العلم للملايين.

أحكامه، بطيب نفس، وارتياح بال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

كما ورد في المأثور عن النَّبيﷺ:

«ما استفاد امرؤٌ مسلم فائدة بعد الإسلام، أفضل من زوجة مسلمة، تسرّهُ إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله...»[2].

وقد تكفَّلت كتب التَّفسير، والفقه، والتَّشريع الإسلامي، ببيان الحقوق، والواجبات المتعلِّقة بالزوجين، ممَّا لا يمكننا استقصاءه في هذه المقدِّمة[3].

يبقى أن نشير إلى أن المشرع الإسلامي قد أقر عقود النكاح التي وقعت في الجاهلية ورتب عليها آثارها الوضعية كالنسب والميراث.. على قاعدة: «لكل قوم نكاح» ففي رواية أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كلّ قوم يعرفون النكاح من السفاح فنكاحهم جائز»[4].

٢ - حكمة تعدُّد الزوجات في الإسلام

اتِّخاذ الزوجات المتعدِّدة كانت سُنَّة جارية في أغلب الأمم القديمة، كمصر، والهند والصين، والفرس، بل الروم واليونان؛ فإنَّهم كانوا ربَّما يضيفون إلى الزوجة الواحدة في البيت خدنا يصاحبونها، بل وكان ذلك عند بعض الأمم

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) الحر العاملي - محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ٢٠ / ٤٠ - ٤١، حديث ٢٤٩٧٩، أبواب مقدمات النكاح، ط. مؤسسة آل البيت - قم.

(٣) للتوسّع انظر: المطهري - الشيخ مرتضى، حقوق المرأة في الإسلام.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢١ / ٢٠٠، الباب ٨٣ من أبواب نكاح العبيد والإماء.

لا ينتهي إلى عدد يقف عليه كاليهود، والعرب، فكان الرجل منهم ربَّما تزوَّج العشرة والعشرين وأزيد. . . »[١].

جاء في تفسير الطبري: «أن قريشاً كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل»[٢].

فلم يكن الإسلام هو الذي ابتكر تعدُّد الزوجات، فقد كان موجوداً في العَالَم قبل الإسلام بقرون، ولم يبطله، لأنَّه يرى أنَّ هنالك ثمَّة مشاكل يمكن أن تعرض للمجتمع ينحصر حلُّها في تعدُّد الزوجات.

لكنَّ الإسلام أصلح عادة تعدُّد الزوجات، بل حدَّده وقيَّده؛ فمن جهة جعل له حدّاً أعلى (أربع زوجات)، ومن جهة أخرى، وضع له قيوداً وشروطاً، ولم يترك الأمر لكلِّ من أحبَّ وأراد.

والعجيب أنَّ من جملة الاشاعات التي أطلقها أعداء الإسلام ضدَّه في القرون الوسطى هي: أنَّ نبي الإسلامﷺ هو الذي ابتدع ولأوّل مرة عادة تعدُّد الزوجات!! وادَّعوا أنَّ الإسلام قد بُنِي على نظام تعدُّد الزوجات، وأنَّ سبب انتشاره السَّريع بين الأمم والشُّعوب لم يكن إلاَّ لسماحه بتعدُّد الزوجات، وادَّعوا في الوقت ذاته أنَّ سبب تأخُر الشَّرق هو تعدُّد الزوجات أيضاً[٣].

ذكر ويل ديورانت في (قصة الحضارة): «ولقد ظنَّ رجال الدين في العصور الوسطى، أنَّ تعدُّدالزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمَّد ابتكاراً، لم يُسبق إليه، لكنَّه في الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال، لأنّه النِّظام الَّذي ساد

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٤ / ١٨٣ .

(٢) الطبري - محمد بن جرير، تفسير الطبري: ٤ / ٢٨٩، ضبط وتعليق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(٣) نظام حقوق المرأة في الإسلام: ٢٦٧ مرجع سابق.

العَالَم البدائي وهنالك من الأسباب عِدَّةٌ عملت كلّها على تعميم هذا النظام ونشره. . . »[١].

وقال الرحّالة الفرنسي غوستان لوبون: «لا نذكر نظاماً أنحى الأُوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأُوروبيون في إدراكه كذلك المبدأ، وذلك أنّ أكثر مؤرخي أُوربة إتّزاناً يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام، وإنه سبب انتشار القرآن، وأنه علة انحطاط الشرقيين، ونشأت عن هذه المزاعم الغربية، على العموم، أصوات سخط ورحمة بأولئك البائسات المكدسات في دوائر الحريم. . . .

ثمّ يقول: ذلك الوصف مخالف للحقيقة، وارجو أن يثبت عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح عنه أوهامَه جانباً، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقيّ نظام طيّب يرفع المستوى الأخلاقي في الأُمم التي تقول به، ويزيد الأُسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادةً لا تراهما في أُوربة»[٢].

بعد هذا العَرْض الموجز لأصل مسألة تعدُّد الزوجات، لابدَّ لنا من إيضاح الحِكمة من مشروعيَّة التعدُّد.

لقد حاول كثير من الكُتَّاب تعليل ذلك بالعوامل والأسباب التَّأريخيَّة، والجغرافيَّة، والاقتصاديَّة، متجاهلين في الوقت نفسه العوامل النَّفسيَّة، والاجتماعيَّة لذلك. ولا نريد في هذا العرض السَّريع أن نورد تلك العوامل والأسباب التي ذكروها، ونردَّ عليها، ولكنَّنا نوجز أهمَّ الأسباب الَّتي من أجلها لم يلغِ الإسلام أصل هذه المسألة، وإنَّما قنَّنها ضمن حدود ربانيَّة تنسجم مع

---

(١) قصة الحضارة: ١ / ٧٠ مرجع سابق.

(٢) لبون - غستاف، حضارة العرب: ٣٩٧، ترجمة: عادل زعيتر، طبعة دار بيبليون - باريس، (٢٠٠٨ م).

ميول الإنسان وفطرته، وأهمّ هذه الأسباب هي:

أوّلاً: زيادة عدد النِّساء المهيَّئات للزواج على عدد الرجال:

وعلَّة هذا الأمر واضحة، وهي أنَّ الوفيات بين الرجال أكثر منها بين النساء، وهذه الوفيات تقع حين يكون الرجل في عمر يمكن أن يكون فيه ربّ عائلة؛ فلو لاحظنا الوفيات التي تحصل نتيجة الحوادث المختلفة من الحروب، والغرق، والموت تحت الأنقاض والاصطدامات... لوجدنا أنَّها تُصيب أكثر ما تُصيب الرجال[١].

ثانياً: محدوديَّة سن الإخصاب لدى المرأة:

ويعتبر هذا العامل من أهمِّ عوامل نشوء تعدُّد الزوجات إذ قد تصل المرأة إلى هذه السِّن قبل أن تكون قد أنجبت عدداً كافياً من الأولاد، أو يكون الأولاد السَّابقون قد قضوا نحبهم، ونظراً لرغبة الرجل في الحصول على الأولاد، وعدم رغبته في طلاق زوجته، تراه يسعى للزواج من ثانية وثالثة، وهكذا الحال إذا كانت الزوجة عاقراً، فإنَّ الرجل يتّجه أيضاً إلى الزواج مجدَّداً للحصول على الأطفال[٢].

ثالثاً: أنَّ مرحلة البلوغ لدى الفتيات تسبق فترة البلوغ للفتيان:

لذا نجد سنَّ الزواج القانوني للفتيات في كلِّ قوانين العَالَم أقل من سنِّ الزواج القانوني للفتيان، وبشكل عملي نجد أعمار الرجال عند الزواج تزيد - في أكثر بقاع العالم - خمس سنوات على أعمار زوجاتهم[٣].

هذه أهم العوامل التي أدَّت إلى تعدَّت الزوجات، ولكن يبقى عامل زيادة

---

(١) مطهري، مرتضى، نظام حقوق المرأة في الإسلام: ٢٩٣.

(٢) المرجع نفسه: ٢٨٥.

(٣) المرجع نفسه: ٢٨٩.

عدد النساء المهيَّئات للزواج على عدد الرجال المهيَّئين له، هو العامل الرئيسي من بين هذه العوامل[١].

تحدث كتّاب السيرة - وباسهاب وتطويل - حول زواج النبي وتراجم نسائهﷺ، وعقدوا لذلك فصولا مطولة قد تكون بعضها في حجم الكتاب المستقل في موضوعه كما هو عند ابن سعد، والمقريزي. ودونوا هذه التراجم - في الغالب - في أواخر كتبهم كما هو عند ابن هشام في سيرته، وابن سعد في طبقاته، والصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد. وأفرد بعض الكتاب المحدثين مؤلفات حول تراجم نساء النبيﷺ فكتبت الباحثة الدكتورة: عائشة عبد الرحمن المعروفة بـ «بنت الشاطي» كتاباً تحت هذا العنوان، وهناك كتاب: «نساء حول النبيﷺ» وغيرها الكثير.

ولو أردنا أن نسير مع أُولئك الكتّاب في ما دونوه من جزئيات كثيرة حول هذا الموضوع، لخرجنا عن منهجية الاختصار والاقتصار على ما هو الأهم من أحداث السيرة.

ولهذا سوف ندخل في هذا الموضوع من خلال زواج رسول اللهﷺ من خديجة بنت خويلد، ثمّ نذكر نساء النبيﷺ من خلال ترجمة مختصرة لكلّ واحدة منهن.

٣ - زواج النبيﷺ من خديجة

قال ابن هشام: «فلما بلغ رسول اللهﷺ خمساً وعشرين سنة[٢]، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن

(١) للتوسّع انظر المرجع السابق: ٢٨٨ - ٢٩٥ .

(٢) وهنالك أقوال أُخرى في سنّهﷺ عندما تزوج من خديجة. (انظر شرح المواهب اللدنية، والاستيعاب).

لؤي بن غالب».

قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم[١] إياه، بشيء تجعله لهم. . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكَرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يَخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له مَيسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها مَيسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صَومعة راهب[٢]، من الرّهبان، فاطّلع الراهب إلى مَيسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم؛ فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ !»[٣].

ثمّ باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثمّ أقبل قافلا إلى مكة ومعه مَيسرة، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى مَلكين يُظلاّنه من الشمس وهو يسير على بعيره.

فلما قَدِم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به، فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمّا كان يرى من إظلال الملكين إياه.

(١) المضاربة: مفاعلة من الضرب، وهو من العقود المتعارفة بين المسلمين، وتتقوم بين طرفين؛ من أحدهم المال والآخر العمل.

(٢) وقيل أن اسمه: «نسطوراً».

(٣) يريد: ما نزل تحتها هذه الساعة إلاّ نبي، ولم يرد ما نزل تحتها قط إلاّ نبي، لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك.

وكانت خديجة امرأة حازمةً شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها مَيسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يابن عمّ، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك وحُسن خُلقك، وصدق حديثك، ثمّ عرضت عليه نفسها. وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالا، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه.

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذَكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة بن عبد المطلب (رض)[1]، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها.

قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله ﷺ وَلَده كلّهم إلاّ إبراهيم: القائم، وبه يكنى ﷺ، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأُمّ كلثوم، وفاطمة عليهم السلام... فأما القاسم، والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلّهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ[2].

وأضاف ابن هشام في مكان آخر من كتابه: «.. وكانت – أي خديجة – قبله عند أبي هالة بن مالك، أحد بني أُسيد بن عمرو بن تميم.. فولدت له هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة، وكانت قبل أبي هالة عند عُتيق بن عابد.. فولدت له عبد الله، وجارية»[3].

وقال المجلسي في البحار: أوّل امرأة تزوجها رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد ابن أسد، بن عبدالعزّى، بن قصي، تزوّجها ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكانت قبله عند عتيق بن عابد المخزوميّ؛ فولدت له جارية، ثمَّ مات،

(١) وفي رواية أُخرى أن الذي نهض معه وخطب خطبة النكاح هو أبو طالب، ولعلّها أقرب للواقع.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٩٨ – ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٦٤٣ – ٦٤٤.

فتزوجها أبو هالة الأسدي، فولدت له هند بن أبي هاله، ثمَّ تزوجها رسول الله ﷺ. . . ولم يتزوَّج عليها رسول الله ﷺ حتَّى ماتت، وأقامت معه أربعة وعشرين سنة وشهراً. . . وولدت له عبدالله، وهو الطيب، والطاهر، وولدت له القاسم وأربع بنات، زينب و رقية، وأُم كلثوم، وفاطمة[1][2].

فهذا هو الزواج الأول لرسول الله ﷺ وقد كان زواجاً موفَّقاً سعيداً كان فيه رسول الله ﷺ نِعْمَ الزَّوج، وكانت خديجة نِعْمَ الزوجة، وعاشا معاً زوجين هانئين حتَّى أكرم الله محمَّداً بالرِّسالة؛ فكانت خديجة له ردءاً وعوناً من عوادي الدهر. . . صدَّقته حين كذَّبه الناس، وآمنت به حين كفر الناس، وأغنته بمالها، وغمرته بإخلاصها، وملأت نفسه عزماً وقوَّة، وملأت قلبه طمأنينة ورضى، وملأت حياته هدوءاً وسكينة؛ فاندفع في طريقه الوعر، يقاوم أعداء الحقِّ ويجاهد أنصار الباطل، ويكشف ظُلُمات الكفر والطُّغيان، حتَّى ظهر نور الحقِّ وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً، من أجل ذلك كانﷺ بعد وفاة خديجة دَائِم الذِّكر لها، والحنين لها، يترحَّم عليها، ويتحدَّث بأيامها، ويبرُّ صديقاتها، حتَّى أنَّ عائشة كانت تَغَار منها بعد وفاتها، وتغضب حين يذكرها النَّبيﷺ أو يُثني عليها؛ فقد روى البخاري ومسلم عَنْ عائشة قالت: ما غرتُ

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢ / ٢٠١ عن الطبرسي في أعلام الورى: ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) لقد أبدى السيِّد جعفر مرتضى بعض الملاحظات حول موضوع زواج خديجة عليها السلام قبل زواجها بالنَّبي ﷺ، وخَلُص إلى أنَّ النَّبي تزوَّجها وهي عذراء وما نسب لخديجة من بنات، من غير النبي، فقد ذكر أنَّ هذه الذرية كانت لأُخت خديجة هالة بنت خويلد، (الصَّحيح من سيرة النبي: ٢ / ٢٠٧ من طبعة دار الحديث) ولسنا في وارد مناقشة هذا الرأي أو الرد عليه بعد أن كفانا بعض الباحثين مؤنة ذلك.

ولهذا البحث جذور قديمة يعود بعضها إلى زمن الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) والسيّد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) وغيرهما من أعلام الطائفة.

على أحَد مِنْ نساء النَّبيﷺ ما غِرتُ على خديجة وما رأيتها، ولكنَّ النبيَّ كانَ يُكثِر ذِكْرها فَرُبَما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدنيا إلاَّ خديجة؟ فيقول إنَّها كانت وكانت وكان لي منها الولد».

وفي رواية أُخرى عن عائشة قالت: «كأن لم يكن في الدنيا إلاَّ خديجة، وما تذكّر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدَلَك الله خيراً منها ؟!»[1] فأغضبته كثيراً، فقالﷺ: «ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنتْ بي إذ كَفَر بي الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وأغنتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عزَّوجلَّ ولدها إذ حرمني أولاد النِّساء»[2].

ولقد عرَّف الله عزَّوجلَّ لخديجة قدرها، فحيَّاها من فوق سبع سماواته، وبشَّرها على لسان جبرئيل ببيت من لؤلؤ في الجنَّة، يسوده الهدوء والسَّكينة، وتغشاه السَّعادة والطمأنينة جزاء ما أسبغت على حياة رسولهﷺ من راحة ونعيم، وما أمدَّته به من أسباب العزم والقوَّة، حتَّى استطاع أن يبلِّغ الرِّسالة، ويؤدِّي الأمانة، ويُخرج الناس من الظُّلمات إلى النُّور.

روى البخاري قال: «أتى جبريلُ النَّبيﷺ فقال: يا رسولَ الله، هذه خديجة قد أَتَتْ معَها إِناءٌ فيه أدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أَتَتْكَ فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها ومنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قصب لاصَخَبَ فيه ولا نصَب»[3].

وسوف يأتي الحديث عن وفاة خديجة في الدروس اللاحقة.

---

(١) البخاري – أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري المجلد الثاني: ٢٧٩، الحديث ٣٨٢٠ والحديث ٣٨٢١، كتاب مناقب الأنصار، ط. دار الفكر – بيروت، (١٩٩٨ م).

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٦ / ١٥٠ وما بعدها.

(٣) صحيح البخاري: ٢ / ٦٣٦، حديث ١٦٦٩ أبواب العمرة، باب ١١، وصحيح مسلم بشرح النووي : ١٥ – ١٩٩ .

تراجم نساء النبيﷺ:

فيما يلي ترجمة مختصرة لنساء النبيﷺ بعد خديجة بنت خويلد بحسب الترتيب الذي ذكره الطبرسي في اعلام الورى وعنه في البحار:

● **سودة بنت زمعة**: وكانت قبله عند السكران بن عمر فمات في الحبشة مسلماً.

● **عائشة بنت أبي بكر**: تزوَّجها بمكَّة وهي بنت سبع، ودخل بها وهي بنت تسع، لسبعة أشهر من مَقْدَمه المدينة.

● **أُم شريك**: وهي الَّتي وهبت نفسها للنَّبيﷺ، واسمها عزية بنت دودان، وكانت قبله عند أبي العكر فولدت له شريكاً.

● **حفصة بنت عمر بن الخطَّاب**: تزوَّجها بعد ما مات زوجها خنيس بن عبدالله بن حذامة السهمي، وكان رسول اللهﷺ قد وجَّهه إلى كسرى فمات ولا عقب له، ماتت في المدينة في خلافة عثمان.

● **أم حبيبة بنت أبي سفيان**: اسمها رملة، وكانت متزوِّجة من عبيدالله بن جحش، فهاجر بها إلى الحبشة، وتنصَّر بها، ومات هناك، فتزوَّجها رسول اللهﷺ.

● **أمُّ سلمة**: وهي بنت عمّته عاتكه بنت عبدالمطَّلب، وقيل هي عاتكة بنت عامر بن ربيعةَ من بني فراس، واسمها هند بنت أَبي أميّة، وكانت أُمّ سلمة من أواخر أزواج النَّبيﷺ وفاةً بعده.

● **زينب بنت جحش الأسديَّة**: هي ابنة عمَّته ميمونة بنت عبدالمطَّلب، وهي أوّل من مات من أزواجه بعده (توفِّيت في خلافة عمر)، وكانت قبل الزواج من النَّبيﷺ عند زيد بن حارثة، فطلَّقها زيد، وذكر الله تعالى شأنه وشأن زوجته

زينب في القرآن[١].

● **زينب بنت خزيمة الهلاليّة**: وقد ماتت في حياة النَّبيﷺ، وكان يقال لها أمّ المساكين، وكانت قبل الزَّواج من النَّبي متزوِّجة من عبيدة بن الحارث ابن عبدالمطّلب.

● **ميمونة بنت الحارث**: تزوَّجهاﷺ وهو في المدينة، وكانت متزوِّجة قبل النَّبيﷺ من أبي سبرة بن أبي رهم العامري.

● **جويريَّة بنت الحارث**: من بني المصطلق، سباها فأعتقها وتزوَّجها، توفِّيت سنة ست وخمسين.

● **صفيَّة بنت حييّ بن أخطب النَّضري**: من خيبر، اصطفاها لنفسه من الغنيمة، فأعتقها وتزوَّجها، وجعل عتقها صداقها، توفِّيت سنة ست وثلاثين.

فهذه اثنتا عشرة امرأة تزوجهنَّ رسول اللهﷺ[٢] ومات رسول الله عن تسع، «عائشة، حفصة، أمّ سلمة، أمّ حبيبة، زينب بنت جحش، ميمونة، صفية، جويرية، سودة».

وهنالك تفاصيل كثيرة حول هذا الموضوع تجدها في مظانها من كتب السيرة[٣].

---

(١) الأحزاب: ٣٧ وللتوسع؛ انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٦/ ٣٢١ وما بعدها .

(٢) الطبرسي، اعلام الورى: ٢/ ٢٧٤-٢٧٨، والمجلسي، بحار الأنوار: ٢٢ / ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٣) للتوسع انظر: ابن هشام، السيرة النبوية : ٤/ ٦٤٣، ابن سعد، الطبقات: ٨/ ٢٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية: ٦ / ٣١٢ وما بعدها، المقريزي، امتاع الاسماع : ٦ / ٢٤، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد: المجلد الثالث، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي)، تراجم نساء النبي ﷺ: ٣/ ٣٧٢ .

٤ - الغايات والأهداف الَّتي كان النَّبيﷺ يبتغيها من زواجه

لقد كان زواجهﷺ بهذا العدد من النساء لأهداف إنسانيَّة، واجتماعيَّة، أو لأجل تطبيق المفاهيم الإسلاميَّة، الَّتي أقرَّها القرآن الكريم.

وعندما نستعرض نماذج من زوجاتهﷺ تتَّضح لنا هذه الحقيقة الكبرى، ويمكن للباحث في سيرة النَّبيﷺ أن يحدِّد هذه الأهداف والغايات فيمايلي:

أوّلاً: لأجل رعاية اليتامى والأرامل:

فقد تزوَّج النَّبيﷺ من أمّ سلمة، أرملة عبدالله المخزومي الَّذي استشهد في سبيل الله، بعد معركة أحد، إثر جراحات أصابته، وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة، وفي الهجرة إلى المدينة، وقد كانت امرأة محسنة، وصاحبة أيتام، وعلى جانب كبير من الإيمان، والورع، فتزوَّجها النَّبيﷺ لأجل ذلك.

ولنفس السبب كان زواجهﷺ من (سودة) الَّتي هاجرت مع ابن عمِّها المتزوِّج بها، فمات عنها زوجها في دار الهجرة، وبقيت بدون راع وكفيل، ولا مأوى لها

إلاَّ أن تعود إلى أهلها، فيُكرهوها على ترك الإسلام، أو تتزوَّج بغير كفء لها، فأية روعة في حياة الرسول إذ تزوَّج هذه المرأة صاحبة الموقف الصَّامد أمام تحدِّيات الأعداء.

كذلك الأمر بالنسبة إلى زينب بنت خزيمة الَّتي مات عنها زوجها عبدالله ابن جحش شهيداً في غزوة أحد، فتكفَّل بها الرَّسولﷺ إذ لا كفيل لها من قومها.

ثانياً: من أجل تطبيق المفاهيم الإسلامية:

فقد جاء الإسلام، وهدفه السامي، القضاء على بِدَع الجاهليَّة ومحو آثارها، وكانت من المظاهر الجاهليَّة السَّائدة آنذاك، مبدأ الطبقيَّة والتَّعالي الأُسري، فجاء الإسلام وأقرَّ مبدأ **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)**، **وأراد النَّبيﷺ** أن يطبِّق هذا المبدأ السَّامي، انطلاقاً من عشيرته المقرَّبين، وهكذا كان في قضيَّة زواج زينب بنت جحش ابنة عمَّة النَّبيﷺ من زيد بن حارثة متبنى النبيﷺ.

وكان هذا الزواج قد تمَّ باقتراح وطلب من النَّبيِّﷺ لكي يكون مثلاً ودليلاً حيَّاً على إلغاء الإسلام للطبقيَّة والتَّعالي الأُسري، ذلك أنَّ زينب كانت إحدى حفيدات عبدالمطَّلب كبير قريش وزعيمها، أمَّا زيد فقد كان عبداً مملوكاً أعتقه النَّبيﷺ ثمَّ تبنَّاه من بعد.

وكانت زينب، باعتبار شخصيَّتها ونسبها، تتعالى على زيد، وتفتخر عليه، ممَّا جعل حياتهما الزوجية مشوبة بالمرارة، وبعيدة عن السَّعادة المطلوبة من الحياة الزوجيَّة، ولم تثمر نصائح النَّبيﷺ لها بإدامة زواجها ودفع الاختلاف من بينهما، ممَّا أدَّى في النَّهاية إلى انفصام عُرى الزوجيَّة والطَّلاق[١].

وبعد أن طلَّق زيدٌ زينبَ، عقد عليها الرَّسول الأكرمﷺ، وذلك بأمر إلهي، ودستور ربَّاني، للقضاء على عادة جاهليَّة كانت سَارِية المفعول في المجتمع آنذاك، وكان لها آثارها السَّيئة في أوساطهم، وذلك أنَّ العرب في الجاهليَّة كانوا يعتبرون الولد الذي يتبنونه ولداً واقعياً لهم، يجري عليه ما يجري على الأولاد الصلبيّين للرجل؛ لذا فإنَّهم لم يكونوا يتزوَّجون من نساء الولد المتبنّى، كما لو كانت زوجة ابنه الحقيقي الصلبي[٢].

---

(١) للتوسع انظر - بحار الأنوار: ٢٢ / ٢١٤ - ٢١٨ .

(٢) نظرة سريعة إلى حياة نبي الإسلام: ٤٥ - ٤٦ مرجع سابق.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القضيَّة وملابساتها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(١).

ثالثاً: من أجل فكّ الأسراء، وتحرير الأرقاء:

فالسيِّدة صفيَّة، بنت حييّ بن أخطب، بنت سيِّد بني النَّضير، وقعت أسيرة بيد المسلمين، فخيَّرها النَّبي بين أن يردَّها إلى أهلها، أو يعتقها ويتزوَّجها، فاختارت الثاني.

والسيِّدة جويريَّة، بنت الحارث، بنت سيد بني المُصطلق، هي أيضاً وقعت أسيرة بيد المسلمين، فأطلق النَّبيﷺ سراحها إكراماً لها و تزوَّج بها.

وكان زواجهﷺمن صفيَّة قد أدَّى إلى إيجاد نوع من الصِّلة بين النَّبيﷺوبين أكبر القبائل اليهوديَّة عدداً، وأهمَّها خطراً، وهي قبيلة بني النَّضير، وكذلك زواجهﷺ من السيِّدة جويرية كان له أثر بالغ في نفوس المسلمين كما يقول ابن هشام في السِّيرة: «لقد تمَّ تحرير مائة أُسرة من بنى المصطلق ببركة هذا الزَّواج»(٢).

رابعاً: من أجل الارتباط بالقبائل العربيَّة:

واحتواء بعض أفرادها، وجلب حمايتهم، والحيلولة دون تحزّبهم وتأليب الناس عليه، وعلى الدين الجديد؛ ومن هذا القبيل كان زواجه بعائشة، وحفصة، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وميمونة من قبيلة بني مخزوم العربيَّة الشَّهيرة(٣).

---

(١) الأحزاب: ٣٧ . وللتوسع؛ انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٦/ ٣٢١ ومابعدها.

(٢) السِّيرة النبويَّة: ٣ / ٢٩٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٢ .

إذن يتَّضح لنا من كلٍّ ذلك أنَّ نساء النَّبيﷺ ما عدا عائشة كُنَّ من الأرامل، وأنَّ أكثرهُنَّ تخطَّينَ سنَّ الشَّباب والنَّضارة، وفي هذا أكبر دليل على أنَّ تعدُّد أزواج النَّبيﷺ كان في واقعه لأجل مصالح، وأهداف إسلاميَّة، وإنسانيَّة، واجتماعيَّة، وغايات نبيلة، ممَّا لا يدع مجالاً لإلصاق التُّهم بشخصيَّة النَّبيﷺ وهو أعظم رجل عرفته البشريَّة في تاريخها(١).

٥ - تُهَمُ المستشرقين والردّ عليها

بعد هذا الاستعراض السَّريع للغايات والأهداف، الَّتى كان النَّبيﷺ يبتغيها من زواجه بهذا العدد من النّساء، يتَّضح لنا زَيف الاتِّهامات الَّتي أطلقها أعداء الإسلام، من المستشرقين، وبعض الكتَّاب والباحثين الغربيّين، والَّتي كانت تستهدف النَّيل من الإسلام، ومحاولة إلقاء الشُّبهات على أصوله، وأسسه ومفاهيمه، وتأريخه، بشكل عام، في أسلوب مليء بالهجوم العنيف، والاتِّهام الصَّارخ على نحو بعيد كلَّ البعد عن منهج العِلم، أو أسلوب العلماء. كما أنَّ هذه الدِّراسات تناولت بصورة خاصَّة مهمَّة تشويه الصُّورة الحقيقيَّة لأعظم شخصية عرفتها الإنسانيَّة في حياتها، وهي شخصيَّة النَّبي الأكرمﷺ، وذلك ليضلِّلوا الناس، ويصرفوهم عن الاهتمام بالإسلام، والتوجُّه إليه.

والمصادر الأوليَّة الَّتي اعتمد عليها هؤلاء الكُتَّاب - بالإضافة إلى ما ورد من روايات ضعيفة ومتناقضة في بعض كُتب السِّيرة والحديث - هي بعض المؤلَّفات الحاقدة، الَّتي أُلِّفت في القرون الوسطى المظلمة في أوربا من قِبَل بعض المؤلِّفين المسيحيِّين، الَّذين أعمتْ العصبيَّة بصائرهم، فحالتْ بينهم وبين إدراك الحقائق، ويمكننا بهذا الصَّدد أن نُشير إلى كتاب (ردود على دين محمَّد) الذي صدر في القرن الخامس عشر للباحث (جان آندريه مورو Maure. A. J)

---

(١) نظرة سريعة إلى حياة نبيِّ الإسلام: ٤٩ بتصرّف.

وهو يُعتبر مرجعاً هامّاً لأكثر من جاء بعده من الكُتَّاب المسيحيين في كتاباتهم المُعادية للإسلام[١].

والنقطة الأساسيَّة الَّتي انطلق منها هؤلاء الكُتَّاب في بحوثهم، هي البحث في شأن محمَّدﷺ وصلته بالمرأة، وأَطلقوا لخيالهم العنان حين تحدَّثوا عن تأريخ محمَّدﷺ في هذا الموضوع، فنجدهم يصوّرون قضية زواج النَّبيﷺ من زينب حسب ما يشتهون، ويعتبرونها قصَّة غراميَّة؛ إذ إنَّ النَّبي - حسب افترائهم - كان عاشقاً لزينب، ومبهوراً بجمالها... وأمثال هذه الصُّورة الَّتي ابتدعها الخيال كثير، تراه في كتابات جملة من المستشرقين، والمبشّرين، من أمثال موير، ودرمنغم، وواشنطن ارننج، ولا منس، وغيرهم.

ومن العجب أن نجد فيلسوفاً عُرِف في تأريخ الفكر الغربي بحريَّة الرأي «كفولتير» يكتب عام ١٧٤٢ قصَّة عن نبيِّ الإسلام، ويقدِّمها إلى البابا بنو الرابع، أطلق على مسرحيَّته «التعصُّب أو النَّبي محمَّد» وشحنها بحوادث، وشخصيَّات مُفتعلَة، قائمة على التخيُّل أكثر ممَّا تقوم على الواقع التَّأريخي، وهو يوجِّه كتابه على نحو مُثير يفصح دخيلة النَّفس، ويكشف عن الضَّعف البشري، لكاتب وُصف بأنَّه حرُّ الفِكر فيقول في تقديمه المسرحيَّة «إلى رئيس الدِّيانة الحقيقيَّة، ضدّ مؤسِّس ديانة كاذبة بربرية، أضع عند موطىء قدميك الكتاب ومؤلِّفه»[٢].

ولا نريد أن نطيل في ذكر مفتريات هؤلاء الكُتّاب، فانّها أكثر من أن تُذكر، ويتَّضح بطلانها من خلال نظرة سريعة وإجماليَّة إلى سيرة النَّبي الأكرمﷺ عامَّة، وإلى المبرِّرات الواقعيَّة والموضوعيَّة الَّتي انطلق منها النَّبيﷺ في زواجه من زينب بنت جحش، وبقيَّة أزواجه والَّتي ذكرناها سابقاً.

---

(١) المصدر نفسه: ٤٠ .

(٢) الجندي - أنور، آفاق جديدة للدَّعوة الإسلاميَّة في عَالمِ الغرب: ١٣ .

ولكن لم يطل الوقت، فقد ظهر كتَّاب، وعلماء مسيحيون مُنصفون، جعلوا البحث العِلمي الموضوعي البعيد عن التعصُّب مهما أمكن شِعاراً لهم، ومنهجاً، وانبروا للذبِّ عن ساحة نبيِّ الإسلامﷺ والدِّفاع عن شخصيَّته العظمية، والاعتذار في الوقت نفسه عمَّا تعرَّض له النَّبيﷺ والقرآن الكريم من حَمَلات ظالمة شنَّتها أقلام قومهم المتعصِّبة.

وفي مقدِّمة من تصدّوا لكشف الحقيقة هو الباحث الأسكتلندي: «توماس كارليل» في كتابه القيِّم (الأبطال)، والذي عقد المحاضرة الثانية بعنوان (البطل في صورة رسول – محمَّد – الإسلام) حيث يقول: «وما كان محمّد أخا شهوات، برغم ما اتُّهم به ظُلماً وعدواناً، ولشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلاً شهوياً لا همَّ له إلاَّ قضاء مآربه من الملاذ، كلاَّ فما أبعد ما كان بينه و بين الملاذ أية كانت، لقد كان زاهداً متقشّفاً في مسكنه، ومأكله، ومشربه، وملبسه، وسائر أموره وأحواله»[١].

ويقول المستشرق (جان ديون يورث): ولا يسعنا الاعتراف والشهادة للنبي، بأنه اقتنع بزوجة واحدة من السنة الخامسة والعشرين من عمره حتى بلغ خمسين عاماً، . . فإذا كانت الحالة هذه في صبره على زوجة واحدة هي أكبر منه سناً، أيجوز أن يقال إنما دفعته الشهوة إلى اتخاذ عدة زوجات. . . ؟ إنها لمدة طويلة مقرونة بالشباب والقوة. . صبر فيها محمد على زوجة هي أكبر منه بخمسة عشر عاماً وهو أقدر على أن يتخذ غيرها. . . وهو معذور بذلك عندها وعند الناس. . . »[٢].

---

(١) كاريل – السير توماس، الأبطال: ١٤٧، ترجمة: محمد السباعي، الطبعة الثانية. القاهرة(د–ت).

(٢) يورث – جان ديون، الاعتذار إلى محمّد والقرآن: ٣٣- ٣٤، ترجمة: عباس الخليلي، ط. طهران (د–ت).

الأسئلة :

١ - هنالك جملة من الأسباب والعوامل التي من أجلها لم يُلغِ الإسلام مشروعيّة تعدّد الزوجات وإنّما قنّنها ضمن حدود ربّانية تنسجم مع ميول الإنسان وفطرته، فما هي أهم هذه الأسباب والعوامل ؟

٢ - ما هي الغايات والأهداف التي كان النبيﷺ يبتغيها في زواجه من «زينب بنت جحش» وبقيّة أزواجه ؟

٣ - ما هي المنطلقات التي انطلق منها بعض المستشرقين والكتّاب في بحوثهم حول النبيﷺ وصلته بالمرأة ؟ وما هي المصادر الأوليّة التي اعتمدها هؤلاء الكتّاب ؟ وما هي الأهداف التي كانوا يبتغونها من وراء بحوثهم ؟

الدرس التاسع
البعثة النَّبويَّة المباركة
«القسم الأوّل»
بداية الوحي

محاور البحث:

المدخل

١ - بعث الرَّسول ﷺ في سنِّ الأربعين

٢ - ما هو الوحي

٣ - أقسام الوحي

٤ - ما روي حول بداية نزول الوحي

٥ - مناقشة ما روي عند نزول الوحي

٦ - بدايات الوحي في القرآن والأحاديث

٧ - الآثار السيئة لروايات بداية البعثة

● الأسئلة

بداية الوحي

المدخل

لكلّ مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ وسيرته، سماتها وخصائصها التي تتميز بها عن سابقتها من المراحل.

وقد استعرضنا في دروس سابقة مرحلة من هذه المراحل، واقتبسنا منها بعض الصُّور المضيئة لمرحلة ما قبل بعثته الشَّريفة، وقد حاولنا أن نلمّ - قدر الإمكان - ببعض الملامح من حياته الشَّريفة المليئة بأسمى معاني السُّمو والرِّفعة والجَلال والعَظَمة.

وسوف نتحدَّث في هذا الدرس، والدروس المقبلة، عن مرحلة أخرى من مراحل حياتهِ الشَّريفة، وهي مرحلة البِعثة النَّبويَّة الشَّريفة، وهي أسمى المراحل في حياته المقدَّسة؛ لِمَا رافقتها من أحداث عظيمة، غيَّرت وجه التأريخ، وكانت بحقٍّ نقلة اجتماعيَّة كبيرة، نقلت المجتمع من ذلك الوضع البائِس الى مجتمع الرِّفعة والسُّمو، وانقلاب حضاري كبير على كلِّ القِيَم والأعراف الجاهليَّة، واستبدالها بِقيَمَ وأعراف وأخلاق ترتبط بالسَّماء، وبالله (جلَّ زوعلا) خالق الكون والإنسان.

١ - بعث الرسول ﷺ في سن الأربعين

القول المشهور بين علماء السيرة والأثر إنّ بعثة رسول الله ﷺ كانت بعد بلوغه سن الأربعين.

قال ابن إسحاق: «فلمّا بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنةً بعثه الله تعالى رحمة للعالمين»[(١)].

وهنالك أقوال أُخرى في سنّه الشريف حين بعثته.

ويروى عن بعضهم قوله: «الأربعون هي سن الكمال، ونهاية بعث الرسل: أي لا يرسلون دونها ومن ثمّ قال في الكشاف: ويروى أنه لم يبعث نبي إلاّ على رأس أربعين سنة»[(٢)].

ولا ندري مدى صحة ما قاله صاحب الكشاف في تعليل سن الأربعين وإنه لم يبعث نبي إلاّ في هذا السن، مع أن القرآن الكريم يحدثنا عن يحيى بن زكريا فيقول تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ وهكذا بالنسبة إلى عيسى عليه السلام.

ولقد كان بدء الوحي في غَار حِراء، وأول ما نزل عليه ﷺ هو قوله تعالى في أوّل سورة العلق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٣)].

وهذا هو المروي في كتب السيرة في بَدء الوحي وأَوّل ما أُنزل عليه ﷺ، ورُوي أيضاً عن أهل البيت عليهم السلام بكثرة، ويدلُّ عليه سياق الآيات المذكورة[(٤)].

وربَّما قيل إنَّ أوّل ما نزل عليه ﷺ هو فاتحة الكتاب، ولا سيَّما بملاحظة أنّه ﷺ قد صلّى في اليوم الثاني هو ﷺ وعلي عليه السلام وخديجة عليها السلام حَسْبما ورد في الرِّوايات[(٥)].

(١) سيرة ابن هشام: ١ / ٢٤٩،

(٢) السيرة الحلبية: ١ / ٣٢٢.

(٣) العلق: ١ - ٥.

(٤) ابن هشام: ١/٢٥٣.

(٥) المجلسي، البحار: ١٨ / ١٧٤ - ١٧٩ و ٨ / ٣٠٦ - ٣١٠ من طبعة البحار الجديدة.

«ولكن من الواضح أنَّ ذلك لا يُثبِت شيئاً؛ إذ يمكن أن تنزل الحمد بَعْدَ آيات سورة اقرأ بلافَصْل ثمَّ يصلِّي ويَقْرَؤها في صلاتهِ، كما أنَّ من الممكن أن تكون صلاتهم آنئذ غير مشتملة على فاتحة الكتاب، ثمَّ وجبت بعد ذلك وإن كان لم يذكر ذلك أحد. هذا كلّه عدا عن أنَّهم يروون أنَّ سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدَّثِّر[1].

والمروي عن أهل البيت عليهم السلام - وأهل البيت أدرى بما فيه وأقرب إلى معرفة شؤون النَّبيﷺ الخاصَّة -، والثَّابت تأريخياً أنَّ بعثة النَّبيﷺ كانت في السابع والعشرين من شهر رجب، وهذا هو المشهور بل ادَّعى المجلسي الإجماع عليه عند الشيعة، ورُوي عن غيرهم أيضاً.

وقيل إنَّهﷺ بُعث في شهر رمضان المبارك واختلفوا في أيِّ يوم منه، وقيل بُعث في شهر ربيع الأوّل واختُلفِ أيضاً في أيِّ يوم منه[2].

٢ - ما هو الوحي

تلقَّى النَّبيﷺ القرآن الكريم عن طريق الوحي، ونظراً الى أنَّهﷺ كان يتلقَّى الوحي الإلهي من جهة عُليا وهي الله تعالى يقال عادة إنَّ القرآن نزل عليهﷺ، للإشارة باستعمال لفظ النُّزول إلى علوِّ الجهة التي اتَّصل بها النَّبيﷺ عن طريق الوحي وتلقَّى عنها القرآن الكريم.

والوحي لغةً: هو الإعلام في خفاء، أي الطريقة الخفيَّة في الإعلام لمن يوجهُ إليه، بحيث يخفى على غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النَّحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[3]، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السَّليم

---

(١) انظر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ١/٩٦ ،تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة الشريف الرضي ١٤١١ هـ.

(٢) الصَّحيح من سيرة النبي: ٢ / ٢٩٠ .

(٣) النحل: ٦٨ .

الفطرة، الطاهر الروح؛ كالوحي إلى أمّ موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[1]، ومنه ضدّه وهو وسوسة الشيطان قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

والوحي اصطلاحاً: الطَّريقة الخاصَّة التي يتَّصل الله تعالى برسوله، نظراً إلى خفائها ودقَّتها وعدم تمكُّن الآخرين من الاحساس بها.

ولم يكن الوحي هو الطَّريقة الَّتي تَلقَّى بها خاتم الأنبياء وحده كلمات الله، بل هو الطريقة العامة لاتِّصال الأنبياء بالله، وتلقِّيهم للكُتب السَّماوية منه تعالى، كما حدَّث الله بذلك رسوله في قوله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ﴾[4].

والذي نلاحظه في تعريف الوحي هو التطابق الكامل بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذا المصطلح، فنجد القرآن الكريم يراعي المعنى اللغوي الأصلي لمادة الايحاء حين يسمي وسيلته في الاعلام الخفي السريع «وحياً»[5].

---

(١) القصص: ٧.

(٢) الأنعام: ١٢١.

(٣) الأنعام: ١١٢

(٤) النساء: ١٦٣.

(٥) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٢٥، وللتوسع انظر: لسان العرب لابن منظور، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الإصفهاني.

٣ - أقسام الوحي

يبدو من القرآن الكريم أنَّ الوحي - هذا الاتِّصال الغيبي الخفي بين الله عزَّوجلَّ وأصفيائه - له صور ثلاث:

أحدها: إلقاء المعنى في قلب النَّبيِّ ﷺ أو نفثه في رُوْعه بالضَم - القلب والخلد والخاطر - بصورة يحسُّ بأنّه تلقَّاه من الله تعالى.

والثانية: تكليم النَّبيِّ ﷺ من وراءِ حجاب. كما نادى الله موسى من وراءِ الشجرة وسمع نداءه.

والثالثة: هي الَّتي متى أُطلقتْ انصرفت الى ما يفهمه المتديِّن عادةً من لفظة الإيحاء؛ وذلك حين يُلقي مَلَك الوحي المرسَل من الله جلَّ وعلا إلى نبيٍّ من الأنبياء ما كلِّفَ إلقاءَهُ إليه، سواء أَنزل عليه في صورةِ رجل أم في صورتهِ المَلكِيَّةَ.

وقد أُشيرَ إلى هذه الصُّور الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١).

وتدلُّ الرِّوايات على أنَّ الوحي الَّذي يُلقى عن طريق الرَّسالة الخاتمة وآيات القرآن المجيد كان بتوسُّط المَلكَ في كثير من الأحيان وبمخاطبة الله تعالى لعبده ورسوله من دون واسطة في بعض الأحيان، فالقرآن نزل بهاتين الطريقتين أمَّا طريقة مِنْ وراء حجاب فلم ينزل به قرآنٌ، وإنّما نزلت فيه مواقف عمليَّة في بعض الموارد(٢).

---

(١) الشُّورى: ٥١ .

(٢) الحكيم - السيِّد محمد باقر، علوم القرآن: ٢٥، ط. مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١٧ وفي هامش الصفحة، ورد: أن الذي كتب هذا البحث آية الله الشهيد الصَّدر.

٤ – ما رُوي حول بداية الوحي

روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة في بدء الوحي ما ملخَّصه: أنَّ المَلَك جاء للنَّبيِّ وهو في غار حراء «فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغتَّني[1] حتَّى بَلَغ منِّي الجهد ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء» فأخذني فغطّني ثانية حتَّى بَلَغ منِّي الجَهد، ثُمَّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارىء فأخذني فغطَّني الثَّالثة ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ بسم ربِّك الَّذي خَلَق... الآيات، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زمِّلوني، زمِّلوني» فزمّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وقد أخبرها الخبر «لقد خشيتُ على نفسي». فقالت خديجة: كلا، والله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنَّك لتَصلُ الرَّحم، وتَحملُ الكَلَّ، وتكسِبُ المعدوم، وتُقري الضَّيفَ، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتّى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى – ابن عم خديجة – وكان امرَأً تنصّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العبراني... فقالت له خديجة: يا ابن عمَّ اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: ماذا ترى ؟ فأخبره الرَّسول خَبر مارأى، فقال له ورقة: هذا النَّاموس الَّذي أَنزَّل الله على موسى...»[2].

وفي رواية أنَّ خديجة أرسلته مع أبي بكر إلى ورقة بن نوفل، مبشِّرة بأنَّه هو الذي بشَّر به ابن مريم...؛ فلمَّا تُوفِّي ورقة قال ﷺ لقد رأيت القسَّ في الجنَّة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بي وصدَّقني[3].

---

(١) وفي رواية ابن اسحاق ١/٢٥٢: غشني وتعني: حبس النفس.

(٢) صحيح البخاري: ١ / ٤ كتاب الوحي، وصحيح مسلم: ١ / ١٦٢ كتاب بدء الوحي. وانظر: الطبري: ٢ / ٢٩٨ – ٢٩٩، والبداية والنهاية: ٣ /١٦، وابن هشام.

(٣) البداية والنهاية: ٣ / ١٥.

وفي رواية أُخرى: «أنَّ خديجة لمَّا أخبرها رسول الله ﷺ بما رأى، بشَّرته بأنَّه نبي هذه الأُمَّة، وأنَّ الَّذي أخبرها بذلك هو غلامها ناصح وبحيرا الرَّاهب، ثمَّ أتت عبداً لعتبة بن ربيعة يقال له عداس[١]، فسألته، فأخبرها بمثل ما أخبرها الراهب وأزيد !! ثمَّ أتت ورقة فأخبرها بمثل ذلك. . . وطلب منها أن ترسل ابن عبدالله إليه ليسأله ويسمع قوله مخافة أن يكون الَّذي جاءه هو غير جبرائيل فإنَّ بعض الشَّياطين يتشبَّه به ليُضلَّ به بعض بني آدم ويفُسدهم حتَّى يصير الرجل بعد العقل الرَّضي مُدلهاً مجنوناً. . . فرجعت إلى النَّبي وأخبرته بمقالة ورقة فنزل قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[٢] وأصرَّت خديجة عليه أن يذهب إلى ورقة ففعل، وصدَّقه ورقة، فذاع قول «ورقة» وتصديقه لرسول الله فشقَّ ذلك على الملأ من قومه»[٣].

وفي رواية ثالثة: أنَّ خديجة طلبت منه أن يخبرها حين يأتيه المَلَك، ففعل، فأمرته أن يجلس إلى شقِّها الأيمن، ففعل، فلم يذهب المَلَك، فأجلستهُ في حجرها فلم يذهب، فتحسَّرت فشالت خمارها ورسول الله جالس في حجرها، فذهب المَلَك فقالت: ما هذا بشيطان إنَّ هذا الملك يا ابن عم وابشر. . . !!

وفي رواية أنَّها أدخلت رسول الله بين جلدها ودرعها، وأخرجت رأسه من جيبها فذهب جبرئيل عند ذلك!!

---

(١) ويقول زيني دحلان: وعداس هذا كان راهباً، وكان شيخاً كبير السن، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر، وهو غير عداس غلام عتبة بن ربيعة، الذي اجتمع بالنبيّ ﷺ بالطائف وأسلم على يديه (السيرة النبوية: ١ / ١٣٧).

(٢) القلم: ١ - ٢ .

(٣) البداية والنهاية: ٣ / ٢١ - ٢٢، والسيرة الحلبية: ١ / ٣٤٣ (باختصار).

وفي رواية: أنَّ ذلك كان بإِشارة من ورقة[١].

ويروى أيضاً: أنَّه لمَّا فتر عنه الوحي حزن حزناً شديداً حتى غدا مراراً كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وافى ذروة جبل كي يلقي فيشيكن قلبه وتقر شفته ويرجع وفي رواية الطبري يروي عن النبيﷺ قوله: لاعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلأقلتها فلأستريحنّ.

ويروون أيضا: أنَّه كان قبل النبوَّة يتعرَّض للرِعْدَة وتغميض العينين وتَرَبُد الوجه ولما يشبه الإغماء[٢].

كان هذا بعض من مرويات ما جرى في بداية الوحي، وهنالك روايات أُخرى مشابهة لها في المضمون تركناها اختصاراً.

وأمثال هكذا مرويات تحتاج إلى التوقف عندها ومناقشتها سنداً ودلالة، لأنها تحكي لنا وقائع وردود أفعال صدرت من النبيﷺ وهو يتلقى الوحي أول مرة، بحسب ما تعكسه هذه الروايات.

وقضية الوحي من القضايا الحساسة والخطيرة لأنها تلامس أصل ثبوت الإسلام في تشريعاته وأحكامه، وأصل تلقيها من الله سبحانه بوساطة الوحي الذي نزل على نبيناﷺ ومن دون ثبوت هذه القضية يقيناً، سوف يسري الشك إلى كل ما نسب إليها من تشريعات الإسلام !!

٥ – مناقشة الروايات

ينبغي علينا أن نتوقف قليلا عند هذه الروايات ومناقشتها سنداً ومضموناً ودلالة.

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٢، والسيِّرة الحلبية: ١ / ٣٤٣، ودحلان – أحمد زيني، السيرة النبوية: ١ / ١٣٨، طبعة دار احياء التراث – بيروت، ط. الأُولى، (بلا – ت).

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٣٩، والطبري: ٢ / ٣٠١.

أولا: المناقشة في سند هذه الروايات:

تنتهي أغلب هذه الروايات سنداً إلى السيّدة عائشة زوج النبيﷺ، ولم تكن في حينها زوجة للنبيﷺ، بل لم تكن قد ولدت في ذلك التاريخ بناءً على ما يذكر من عمرها حين خطبها رسول اللهﷺ ثمّ دخل بها في المدينة[١].

فالسيدة عائشة لم تشهد بداية الوحي، فروايتها ليست عن حسٍّ، ولا ندري عمّن تروي هذه الروايات؟ فكيف لا تروى هذه الروايات عن السيدة خديجة، وهي التي كانت زوج النبيﷺ عند نزول الوحي، وتنسب إليها هذه الروايات دور التثبيت للنبيﷺ في نبوته ورسالته!

وهكذا الأمر بالنسبة إلى بعض هذه الروايات التي ينتهي سندها بابن عباس، فهو كذلك لم يكن حاضراً حينها، فإنه ولد بعد البعثة بعشر سنوات وقبل الهجرة بثلاث سنوات.

وهكذا الكلام في عروة بن الزبير الذي يروي بعض هذه الروايات عن السيّدة عائشة فهو ليس من الصحابة وإنما من التابعين ومن الطبقة الثانية منهم[٢].

أما عكرمة الذي يروي طرفاً من هذه الأحاديث عن ابن عباس، فهو متّهم بالكذب عند علماء الرجال، وكان يروي الأحاديث الموضوعة عن ابن عباس، وقصته في الوضع والكذب مشهورة معروفة[٣].

وهكذا الكلام في الرواة الآخرين حيث لا يعدون من الصحابة. والذي يبدو أن روايات بدايات الوحي وبما فيها من عناصر الإثارة والتشويق، قد

---

(١) انظر تفاصيل ذلك: في ميزان الاعتدال للذهبي: ٣ / ٩٤ .

(٢) انظر: تقريب التهذيب: ٣ / ١٩ وطبقات ابن سعد.

(٣) انظر: ميزان الاعتدال: ٣ / ٩٣ - ٩٨ .

استحوذت على اهتمام القصاص في مكة، فنجد هذه الروايات مجموعة في رواية قاص أهل مكة عبيد بن عمير الليثي كما رواه كل من ابن هشام والطبري بسندهما عنه. في رواية جامعة لكل ما روي عن عائشة وابن عباس وعكرمة وابن الزبير. . ! ومن أجل أن يعزز روايته بغير أُولئك الرواة، نراه في ذيل روايته يسند الرواية مع تغيير في اللفظ إلى فاطمة بنت الحسين عليها السلام وإنها سمعت من جدتها خديجة تقول: أدخلت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينها وبين درعها، فذهب عنه ذلك جبرئيل. فقالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ هذا لملك، وما هو بشيطان[1].

ولا ندري متى رأت فاطمة جدّة أبيها لتروي عنها ما أسند إليها من روايته؟

ثانياً: المناقشة في دلالات هذه الروايات:

عندما نعود إلى المحتوى الداخلي لهذه الروايات ونتأمل في مضامينها المختلفة، وما تستلزمه هذه المضامين من لوازم ونتائج. . تبرز لدينا مجموعة من التساؤلات التي قد لا نجد لها إجابة مقنعة، ومن هذه التساؤلات:

أولا: ما نسبته الروايات إلى أمين وحي الله جبرئيل، من غلظة وخشونة وهو يلتقي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأول مرة حاملا إليه رسالة ربه ! فبدلا من أن يطمئن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويهدىء من روعه. . نجده يلجأ إلى أُسلوب الخنق وحبس النفس، ولأكثر من مرة، حتى ظن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه الموت ! كما في الرواية !

فهل كان هذا هو أُسلوب جبرئيل الأمين مع جميع الأنبياء، أم أنها من مختصات نبينا ؟! وإن كان هذا الامتحان العسير قد جرى لبقية الأنبياء فلماذا لم تنقلها لنا روايات تراجم حياتهم ؟

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٥٣ - ٢٥٧، وللتوسع انظر: أحاديث أُم المؤمنين عائشة للسيد العسكري: ٢ / ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ثمّ هل كان جبريل الأمين يريد أن ينتزع من النبي ﷺ اقراراً بالقوة، فيكرر عليه المرة تلو الأُخرى الأمر بالقراءة، والنبي ﷺ يقول له في كل مرّة: «لستُ بقارئ» ؟! ولماذا لم يصدقه في المرة الأُولى أو الثانية واستمر في غطِّه وخنقه وتعذيبه إلى المرة الثالثة !

هذه التساؤلات وغيرها تفرضها علينا مضامين الروايات التي نقلنا طرفاً منها والتي تحكي لنا كيفية تلقي الوحي في بداية بعثته ﷺ. وهي مضامين غير واقعية لأنها لا تنسجم مع شخصية النبي ﷺ الذي اختاره الله سبحانه ليختم به النبوات ورسالات السماء، ولا تنسجم مع المهمة التي أوكلها الله إلى أمين وحيه جبريل الأمين.

وعندما نعود إلى الروايات الأُخرى والتي تتعلق بنفس موضوع بعثة النبي ﷺ، نجد طريقة في التعامل بين النبي ﷺ وجبريل تختلف كلياً عما تحكيه روايات عائشة وعكرمة وابن الزبير وقاص مكة.. وسوف يأتينا طرفٌ من هذه الروايات.

والذي يثير الدهشة أن بعض المؤرخين وشراح السيرة بدلا من أن يناقش في سند ومضمون هذه الروايات، نجده يبحث عن بعض التعليلات العليلة، ويوجه مضامين الروايات بطريقة فيها تكلف واضح.

يقول السهيلي في الروض الأنف مبرراً ومعللا لما نسب لجبريل: «وكان ذلك إظهاراً للشدة والجد في الأمر، وأن يأخذ الكتاب بقوة، ويترك الأناة فإنه أمر ليس بالهُوَينى» ثمّ يقول: «وقد انتزع بعض التابعين من هذا: ألاّ يضرب الصبي على القرآن إلاّ ثلاثاً كما غطَّ جبرئيل عليه السلام محمداً ﷺ ثلاثاً» !

ثمّ يعلل تلك الغطات الثلاث فيقول: «يكون في تلك الغطات الثلاث من التأويل ثلاث شدائد، يبتلى بها أولا، ثمّ يأتي الفرج والرَّوح، وكذلك كان، لقي

هو وأصحابه، شدة من الجوع في شعب الخيف، . . وشدة أُخرى من الخوف والإبعاد بالقتل، وشدة أُخرى من الإجلاء، عن أحب الأوطان إليه، ثمّ كانت العاقبة للمتقين. . »[١].

ونجد مثل هكذا تعليلات وتأويلات عند غير السهيلي من المؤرخين[٢]، والتي هي من حشو الكلام الذي لا يحل اشكالا، ولا يجيب عن تساؤل.

ثانياً: ما نسبته الروايات من أدوار لشخصيات ورد اسمها في هذه الروايات:

وأول هؤلاء: «ورقة بن نوفل» الذي أسندت له دور المرجعية الفكرية والدينية، في هذه القضية، ثمّ جعلته من أهل الإيمان، ومن أهل جنة الرضوان على لسان النبيﷺ الذي نُسب إليهﷺ قوله: «لقد رأيت القسّ في الجنة، وعليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني، يعني: ورقة. وفي رواية إنه عليه السلام قال لرجل سبَّ ورقة: أما علمت أني رأيت لورقة جنة أو جنتين»[٣].

إلاّ أننا عندما نعود إلى كتب تراجم الرجال فلا نجد اسمه فيمن آمن برسالة النبيﷺ ! بل إن ابن حجر ينقل في كتابه «الاصابة» عن ابن عساكر قوله: لا أعرف أحداً قال: إنّه أسلم.

وقد عاش ورقة إلى زمن البعثة، وقد روى ابن حجر أنه مرّ ببلال وهو يعذب «وهذا يدل على أنّ ورقة عاش إلى أن دعى النبيﷺ إلى الإسلام، حتى

(١) السهيلي، الروض الأنف: ١ / ٢٧٢ .

(٢) السيرة الحلبية: ١ / ٣٤٥ وما بعدها.

(٣) السهيلي، الروض الأنف: ١ / ٢٧٥

(٤) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة: ٣ / ٦٣٣ - ٦٣٤ وانظر: كتاب نسب قريش لمصعب الزبيري: ٢٠٧ - ٢٠٨

أسلم بلال»[١].

فإذا كان ورقة بهذه الدرجة من اليقين بنبوة النبيﷺ كما تصوره روايات بدايات البعثة، فلماذا بقي على كفره ولم يسلم كما أسلم الآخرون ؟ ولم ينصر رسول اللهﷺ كما وعده بذلك بحسب الرواية المزعومة.

وما نسب إلى النبيﷺ من روايات حول ورقة وإن عليه ثياباً بيضاً.. فهي روايات مكذوبة مقطوعة السند لا يعرف راويها[٢]، ولعلها من الاسرائيليات التي دست في كتب الحديث.

يقول الدكتور جواد علي عن شخصية ورقة بن نوفل: «ولا نعرف من أمره شيئاً واضحاً صريحاً يلقي الضوء على حياته وعلى معتقده وآرائه وموقفه من اليهودية والنصرانية غير تلك الروايات المهلهلة الغامضة التي رواها أهل الأخبار، ولم يذكر أحد منهم أنّه أسلم، أو أنه روى حديثاً عن الرسول»[٣].

وثاني تلك الشخصيات هو «عدّاس»: وهذا الرجل أكثر غموضاً من صاحبه - ورقة - إلاّ أنه كان له دور - كما في روايات بدايات البعثة - في تثبيت النبيﷺ وطمأنة خديجة.. ولكنه - وللأسف - لم ينل من شهادات التقدير لجهوده تلك، فلم يبشر بالجنة والملابس البيض كما نال صاحبه ! من تلك الأوسمة !

وتذكر الرواية التاريخية: أن خديجة، وقبل أن تذهب برسول اللهﷺ إلى ورقة بن نوفل ذهبت به إلى عداس.. وفي رواية أُخرى أن خديجة ذهبت إلى عداس وحدها تسأله عن جبريل.. وفي رواية ثالثة: إن عداساً قد أعطى لخديجة

---

(١) انظر المصدر نفسه: ٣ / ٦٤٦، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢ / ١٥٩، وابن كثير في البداية والنهاية: ٣ / ٩ .

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الاسلام، السيرة النبوية: ١٨٣ .

كتاباً لتذهب به إلى رسول الله ﷺ فإن كان مجنوناً فسيذهب عنه الجنون. . وفي رواية أُخرى إن خديجة أخذت رسول الله إلى عداس فكشف عن ظهره، فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه، فلما نظر عداس إليه خرَّ ساجداً يقول: قدوس، قدوس، أنت والله النبي الذي بشّر بك موسى وعيسى. . .

واختلفت الروايات في تشخيص «عدّاس» ! فهو تارة: «كان راهباً نصرانياً من أهل نينوى، وكان شيخاً كبير السن، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر. . وثقل سمعه». إلاّ أنّ روايةً أُخرى تقول: عداس كان غلاماً لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى، عنده علم من الكتاب»[١].

وسوف يكون لنا لقاء آخر مع «عدّاس» هذا أو «عدّاس» آخر عند هجرة النبي إلى الطائف، والذي تذكر الرواية قال للنبي ﷺ: أشهد أنك عبد الله ورسوله!!

ويذكر ابن حجر: أن «عداساً» قد نهى سيّديه عتبة وشيبة من الخروج إلى قتال رسول الله ﷺ في بدر، وقال لهما: «إنكما تساقان إلى مصارعكما» فخالفاه فخرج معهما فقتل ببدر ! ويقال إنه لم يقتل بها بل رجع فمات»[٢].

ولا ندري – ولا المنجم يدري – أي عداس نصدق في هذه الروايات ؟ هل هو عداس الشيخ الكبير ؟ أم هو عداس الغلام ؟ هل هو عداس المكي، أم هو عداس الذي في الطائف ؟ هل هو عداس الذي قتل على نصرانيته في بدر أو الذي مات بعدها ؟ أم عداس الذي أسلم بين يدي النبي ﷺ ؟

والذي يبدو أنهم أرادوا أن يعززوا بالرواية موقع ورقة بن نوفل بايجاد مؤيدات له من كلام غيره. فاخترعوا شخصيات أُخرى من أمثال عداس وبحيرا

---

(١) السيرة الحلبية: ١ / ٣٤٨ – ٣٤٩ .

(٢) ابن حجر، الاصابة: ٢ / ٤٦٦ – ٤٦٧ .

وناصح، فنسبوا إليهم نفس الكلمات التي نسبوها لورقة بن نوفل، إلاّ أنهم بخسوهم حقهم فلم ينالوا البشارة بالجنة والملابس البيض كما نالها صاحبهم.

يقول الدكتور جواد علي معلقاً على قصة عداس: «وقد اخطأ أُولئك الرواة في إقحام اسم عداس في هذا الموضوع، ولا سيما أنهم نسبوا إليه ما نسبوه إلى ورقة من كلام، وإن ما قالوه عن عداس المذكور في هذا الخبر، هو نفس ما ذكر عن عداس الطائف»(١) وقديماً قيل: «لا حافظة لكذوب».

والشخصية الثالثة في هذه الروايات هي السيّدة خديجة (رضي الله عنها) زوج النبيﷺ.

وما نسب إليها من روايات البعثة لم تروِ عنها مباشرة، وإنما روتها عنها السيّدة عائشة، وهي في ذلك الوقت لم تكن في عمر يتناسب مع عمر السيّدة خديجة لكي تسمع منها وتروي عنها. فالسيدة خديجة قد توفيت في السنة العاشرة من الهجرة، بعد أن تخطت الخامسة والستين من العمر، وكان عمر عائشة في ذلك الوقت لم يتجاوز الخمس أو الست سنوات(٢). وروي عن عائشة نفسها أنها قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة، وما رأيتها !! ولكن النبي كان يكثر ذكرها..»(٣).

ولا ندري عمّن تروي السيّدة عائشة أحاديث بداية الوحي بعد اعترافها أنها ما رأت السيدة خديجة ؟ ولا يمكن أن نتصور أن رسول اللهﷺ قد حدثها عن

(١) جواد علي، السيرة: ١٨٣ .

(٢) انظر ترجمتها في أُسد الغابة: ٧ / ٢٠٥، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م).

(٣) رواها البخاري في صحيحه : المجلد الثاني الجزء الرابع : ٢٧٩، باب : «تزويج النبي خديجة وفضلها»، الحديث رقم : ٣٨١٨

ذلك، لأنها لم تروها عنه، وأحاديث رسول اللهﷺ حول طريقة تلقيه الوحي، وكيفية تعامل جبرئيل الأمين معه عندما كان يأتيه بالوحي. . كل ذلك يخالف ما روته السيدة عائشة من حالته حين تلقى الوحي أول مرة.

فلا يبقى لدينا إلاّ أن نحتمل أن السيّدة عائشة لم تقل مثل هكذا أحاديث وأنها مكذوبة عليها، من قبل الرواة من أمثال عكرمة وغيره ! أو أنها قالتها اجتهاداً منها حيث تصورت ذلك! من حال النبيﷺ حين تلقى الوحي أول مرة!

ذهب السيّد العسكري في كتابه: «أحاديث أم المؤمنين عائشة» إلى الاحتمال الأول، فعقد فصلا في كتابه تحت عنوان: «ما افتري به على أُم المؤمنين عائشة وغيرها من الصحابة» وذكر فيه روايات بدء نزول الوحي، ثمّ درس سندها، وقارن محتواها بآيات من القرآن لكريم، والروايات الموثقة التي تصرح بأن الرسولﷺ كان عليماً بأمر رسالته قبل أن ينزل الله الوحي إليه بواسطة جبرئيل، ثمّ خلص في نهاية بحثه إلى القول: «وأما الروايات التي سبق إيرادها – حول بدء نزول الوحي – فهي مختلقة، وافتريت روايتها على أُم المؤمنين وغيرها من الصحابة، وسوف نبحث عمّن اختلقها بعد ايراد روايات بدء الدعوة وأُسطورة الغرانيق ودراستها بإذنه تعالى»(١).

وبعد دراسته لتلك الروايات يخرج السيّد العسكري بنتيجة مفادها أن هذه الروايات وأمثالها «قد لفقها الوضّاعون من الزنادقة، واسندوا روايتها إلى بعض الصحابة والتابعين وتابعي التابعين زوراً وبهتاناً، وإن زمان وضعها كان أوائل القرن الثاني الهجري. . وانتشرت هذه الروايات في كتب التفسير والسير والتاريخ، وتناقلوها جيلا بعد جيل. . »(٢).

(١) العسكري – مرتضى، أحاديث أُم المؤمنين عائشة: ٢ / ٢٤٥ – ٢٩٢ .
(٢) المرجع نفسه: ٢ / ٣٣٠ .

فالسيدة عائشة قد نسب إليها ما لم تقله - بحسب هذا الرأي - والسيدة خديجة قد افتري عليها أمثال هذه الروايات بعد وفاتها لحاجة في نفس قائلها ومختلقها.

وأما الشخصية الرابعة في هذه الروايات فهو الرسول الأعظم محمدبن عبدالله ﷺ.

وهو المظلوم الأعظم في هذه الروايات وأمثالها من الروايات التي نسبت إليه أقوالا وأفعالا وتقريرات لم يقلها أو يفعلها ويقررها! وقد كذب عليه ﷺ في حياته، واتسع ميدان الكذب عليه ولدواعي مختلفة بعد وفاته ﷺ، وقد قالها ﷺ صريحة لا لَبسَ فيها: فقد روي عن علي عليه السلام إنه قال: «وقد كُذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «أيها الناس قد كثرت عليَّ الكذابة، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار» ثمّ كذب عليه من بعده»[1].

وما جاء في هذه الروايات فهو من أقبح أنواع الكذب والافتراء على رسول الله ﷺ، فقد رسمت لنا هذه الروايات شخصية رسول الله ﷺ، بخلاف ما تصوره آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة الموثقة.

فهو ﷺ في هذه الروايات المكذوبة، شخصية مرعوبة خائفة تدور به زوجته على الرهبان لتبعث الطمأنينة في نفسه! وهو في نفس الوقت جاهل بنبوته، ظاناً بنفسه الجنون، ويريد أن يلقي بنفسه من شواهق الجبال.. فيحتاج إلى من يثبته ويبعث الطمأنينة في نفسه فيستعين بامرأة، وراهب نصراني.. فيدرك ذلك الراهب ما لم يستطع أن يدركه هو من نفسه!

---

(١) الكليني - محمد بن يعقوب، أُصول الكافي: ١ / ٦٢، وانظر: المتقي الهندي، كنز العمال: ١٠ / ١٣١.

٦ – بدايات الوحي في الآيات والروايات الصحيحة

عندما نعود إلى القرآن الكريم، والروايات الموثقة الصحيحة لنستجلي حقيقة الأمر في موقف الأنبياء عامة، ونبينا خاصة من الوحي وبداياته، نجد أن الأمر يختلف اختلافاً كلياً عن الطريقة التي عكستها لنا الروايات السابقة.

وبداية لا بد لنا من أن نطرح بين يدي البحث سؤالين مهمين، لنستنطق القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة الموثقة للإجابة عنهما. وهذان السؤالان لهما أهميتهما الكبيرة في رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله تعالى.

السؤال الأول: كيف عرف الأنبياء – ومنهم نبينا – عليهم السلام أنهم مبعوثون من الله ؟ ولِمَ لم يساورهم الشك في أنّ الذي أتاهم الشيطان، واطمأنوا أنّه جبرائيل ؟

والسؤال الثاني: هل يجوز على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي، أو يلقي عليه إبليس ما يظنّه وحياً من الله ؟

وكلا السؤالين لهما أهميتها من البحث، إلاّ أن السؤال الأول هو محور بحثنا في هذا الدرس.

قاعدة اللطف:

وقبل أن نستنطق القرآن الكريم والأحاديث والروايات للإجابة عن هذا السؤال لابد من الإشارة إلى قاعدة بحثها علماء الكلام ويصطلح عليها بـ «قاعدة اللطف» لنرى مدى قابليتها للاجابة عن السؤال.

وفحوى هذه القاعدة كما في كلمات علماء الكلام: «يجب على الله – وجوباً منبعثاً من مقام لطفه ورأفته بعباده – أن يمهد لعباده جميع ما يقرّبهم إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية. وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا

كان يريد من عباده الانقياد، وإلاّ كان نقضاً لغرضه من التكليف. ومن ثمّ وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء وينزل الشرائع ويجعل في الأُمم ما ينير لهم درب الحياة، أما إلى السعادة فباختيارهم، أو إلى شقاء فباختيارهم أيضاً»[١].

وتطبيقاً لهذه القاعدة فيما نحن فيه من تساؤل يقول أحد الباحثين: «يجب على الله - وجوباً منبعثاً من مقام لطفه ورأفته بعباده - أن يقرن «تنبيئه» إنساناً بدلائل نيّرة لا تدع لمسارب الشك مجالا في نفسه، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين، أو كما ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[٢]، أو ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ . . . يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٣].

وطبقاً لهذه القاعدة: «فلا بد أن يكون النبيﷺ حين انبعاثه نبياً على علم يقين، بل عين يقين من أمره، لا يشكّ ولا يضطرب، مستيقناً مطمئناً باله، مرعيّاً بعناية الله تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيداً، لا سيما في بدء البعثة، فيأتيه الناموس الأكبر وهو الحق الصراح معايناً مشهوداً، وهي موقعيّة حاسمة لا ينبغي لنبيّ أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾»[٤].

ولعلّ القاضي عياض يشير إلى هذه القاعدة عندما يقول: «لا يصحّ أن يتصوّر له الشيطان في صورة المَلك، ويلبس عليه الأمر، لا في أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد - أي اطمئنان النبي - في ذلك دليل المعجزة. بل لا يشكّ

(١) العلامة الحلي، شرح تجريد الاعتقاد: ١٨١ .

(٢) طه: ١١ - ١٢

(٣) النمل: ٩ - ١٠

(٤) معرفة - محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن: ١ / ٧٤ - ٧٦

النبي أنّ ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي، إما بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان جليّ يظهره الله لديه. لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدّل لكلمات الله»[١].

فهذه هي قاعدة اللطف التي قال بها علماء الكلام وإن لم يسمها القاضي عياض بهذه التسمية.

القرآن الكريم وبدايات البعثة:

عندما نعود إلى القرآن الكريم لنستجلي حقيقة الأمر من خلال استنطاق بعض آياته والتأمل فيها، نجد:

أولا: إنّ القرآن الكريم جاء لتثبيت فؤاد النبيﷺ، وليس لادخال الرعب إلى نفسه !

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

ثانياً: إنّ النبيﷺ كان على بينة من ربه، وبصيرة من أمره:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾[٤].

---

(١) القاضي عياض، رسالة الشفاء: ١١٢

(٢) الفرقان: ٣٢

(٣) النحل: ١٠٢

(٤) الانعام: ٥٧

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[١].

فشخصية النبيﷺ شخصية سوية تتصف بالثبات والاتزان والاستقامة، وكان على بينة من أمره، وعلى بصيرة ووعي لثقل المهمة الرسالية التي أعده الله سبحانه لها.

لا كما تصوره لنا تلك الروايات من ضعف وانهيار وعدم اتزان.

ثالثاً: الوحي قاسم مشترك بين جميع الأنبياء:

يقول الدكتور صبحي الصالح: «لم يكن محمد بدعاً من المرسلين، ولا كان أول نبي خاطب الناس باسم الوحي، وحدثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح تتابع أفراد مصطفون أخيار ينطقون عن الله ولا ينطقون عن الهوى، ولم يكن الوحي الذي أيدهم به الله مخالفاً الوحي الذي أيد به محمداً، بل كانت ظاهرة الوحي متماثلة عند الجميع لأن مصدرها واحد، وغايتها واحدة، كما قال الله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٢].

وواضح أن الأنبياء الذين صرحت الآية بأسمائهم إنما خصوا لأنهم كانوا أشهر أنبياء بني إسرائيل، وكانت أخبارهم مشهورة بين أهل الكتاب المجاورين لرسول اللهﷺ في الحجاز وما حوله»[٣].

فإذا كان الوحي هو القاسم المشترك بين جميع الأنبياء، والطريقة التي كانوا

---

(١) يوسف: ١٠٨

(٢) النساء: ١٦٣ - ١٦٤

(٣) علوم القرآن: ٢٢ مرجع سابق.

يتلقون فيها الوحي فيها قاسم مشترك أيضاً وهو «جبرئيل» أمين الله في وحيه، ولم ينقل في سيرة نبي من أُولئك الأنبياء أن جبرئيل قد غطهم أو غتّهم وقطع أنفاسهم حتى ظنوا أنه الموت ! فلماذا يختص نبينا من بين جميع أُولئك الأنبياء بتلك القسوة ؟!

كذلك لم ينقل عن أُولئك الصفوة من الأنبياء عليهم السلام أنهم انهاروا عند نزول الوحي عليهم أول مرة، أو أنهم تصوروا أنفسهم وكانوا أُصيبوا بالجنون، أو ذهبوا إلى شواهق الجبال لإلقاء أنفسهم منه !

فكيف يمكن لنا أن نصدق ما تقوله تلك الروايات والقرآن الكريم يكذبها، ويرسم لنا صورة مشرقة لأُولئك الأنبياء والمرسلين وهم يتلقون وحي السماء. ومنهم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم الذي خصّه الله تعالى من بينهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

بدايات الوحي في الأحاديث الصحيحة الموثقة:

عندما نعود إلى الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام في قضية بداية البعثة ونزول الوحي، نجد أن هذه الروايات قد عكست لنا القضية بأمانة ونزاهة وواقعية.

وفيما يلي طرف من هذه الروايات:

الرواية الأُولى: عن علي عليه السلام ضمن خطبة له معروفة بـ «القاصعة» وهي خطبة طويلة جليلة المعاني، جاء في مقطع منها وصف وبيان للوحي وفضله، قال:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ

الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر»[1] .

ومن الواضح في هذه الرواية أن راويها وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يرويها عن حسّ ومشاهدة، بل هو الشاهد الوحيد لبدء نزول الوحي ! وإنّ هذا من رواة تلك الروايات الذين لم يكونوا حاضريها ! ولا نعلم ممن سمعوها !

الرواية الثانية: عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان ؟ قال: فقال: إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولا أنزل عليه السكينة والوقار، فكان - الذي - يأتيه من قبل الله عزّ وجل مثل الذي يراه بعينه»[2] .

والرواية واضحة الدلالة، فالله سبحانه وتعالى قد أسبغ على نبيه ﷺ الطمأنينة والاتزان، فكان يرى الوحي ناصعاً جليلا ومن دون شك أو ريب أو اضطراب.

الرواية الثالثة: عن محمد بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال: قلت له: «كيف علمت الرسل أنها رسل ؟ قال: كشف عنها الغطاء»[3] .

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٩٢ (الخطبة القاصعة): ٣٠٠ - ٣٠١، تحقيق: صبحي الصالح.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١٨/ ٢٦٣ و٨/ ٣٧٣ (الطبعة الحديثة) عن تفسير العياشي: ٢/ ٢١٣ .

(٣) المصدر نفسه: ١١ / ٥٦ - ٥٧ و ٥ / ٤٣ - ٤٤ (الطبعة الحديثة) عن محاسن البرقي: ٣٢٨ .

يقول العلامة الطبرسي: «إنّ الله لا يوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النيرة، والآيات البينة الدالة على أنّ ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفرغ ولا يفزع ولا يفرق»(١).

والنتيجة التي نستخلصها على ضوء ما تحدثنا به الآيات القرآنية، والأحاديث الموثقة، وقاعدة اللطف، ومن قبل ذلك العقل الفطري السليم، إنّ روايات بداية البعثة ونزول الوحي، وموقف النبي من الوصي وبالشكل الذي تصوره تلك الروايات، لا يمكن قبولها والركون إليها، لأنها روايات زائفة كاذبة، يكذبها القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، وموقف النبيﷺ من الوحي.

أخبار الوحي الكاذبة: «وأسبابها ونتائجها»:

وضع الحديث والكذب على رسول اللهﷺ وبعض الصحابة والمقربين منه، له جذوره التاريخية التي تمتد إلى زمن رسول اللهﷺ نفسه وفي حياته، كما أشرنا سابقاً إلى ذلك.

إلاّ أن الكذب على رسول اللهﷺ في حياته كان محدوداً جداً، لوجود رسول اللهﷺ ووجود من يردع هؤلاء عن كذبهم، أو يكشف زيف روايتهم.

إلاّ أن ميدان وضع الأحاديث قد اتسع بعد وفاة رسول اللهﷺ، وخاصة في زمن التابعين وتابعي التابعين، حيث راج سوق الوضع لأسباب كثيرة قد يكون السبب السياسي على رأسها وفي مقدمتها.

ولا نريد أن نفتح ملف هذا الموضوع ونستغرق في تفاصيله، لأنه موضوع شائك ومتشعب ويخرج بنا عن وحدة موضوعنا. وقد كفانا بعض الباحثين في دراسة الحديث والتاريخ مؤنة ذلك، وذكروا تفاصيل وجزئيات كثيرة حول

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ١٠ / ٣٨٤ نقلا عن التمهيد في علوم القرآن: ١ / ٧٦ .

الموضوع، وسموا الأشياء بمسمياتها بما لا مزيد عليه لمن جاء من بعدهم[١].

إلاّ أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا أخذت قضية الوحي وبداياته حيزاً من اهتمام الوضاعين؟ وللإجابة عن هذا السؤال نكتفي بما قاله بعض الباحثين في السيرة وباختصار وتعديل وإضافة بعض الشواهد الضرورية، قال: «والجواب: إنَّ افتعال تلك الأكاذيب يعود لأسباب أهمها:

أولاً: إنَّ حديث الوحي هو من الأمور التي يعتمد عليه الاعتقاد بحقائق الدين وتعليمه، وله أهميَّه قصوى في إقناع الإنسان بضرورة الاعتماد في التَّشريع، والسُّلوك، والاعتقاد، والإخبارات الغيبيَّة، وكل المعارف والمفاهيم عن الكون، وعن الحياة، وعن الرُّسل والأنبياء والأئمَّة والأوصياء، وله أهميَّة كبرى في إقناعه بعصمة ذلك الرَّسول، وصحَّة كل مواقفه وسلوكه وأقواله وأفعاله، فإذا أمكن أن يتطرَّق الشَّك في نفسه إلى الوحي على اعتبار أنَّه لم يستطع النبيﷺ نفسه أن يفرِّق بين المَلاَك والشيطان والوسوسة والحقيقة، وهو يعاين ويشاهد فإنَّ غيره - وهو لا يتيسَّر له الاطِّلاع الحسِّي على شيء من ذلك - يكون أولى بالشَّك وعدم الاعتماد. . . .

ومن هنا نستطيع أن نعرف سرَّ محاولات أعداء الاسلام الدَّائبة للتَّشكيك في اتِّصال نبيِّناالأعظمﷺ بالله تعالى، فافتعلوا الكثير ممَّا رأوه مناسباً لذلك من الوقائع والأحداث الَّتي رافقت الوحي في مراحله الأولى، أو حرفوه وحوَّروهُ حسب أهوائهم، وخطُطهم، ومذاهبهم، على اعتبار أنَّها فترة بعيدة نسبيَّاً عن

---

(١) للتوسع انظر: كتابي ابن الجوزي: «الموضوعات» و «تبليس إبليس»، وكتاب «أضواء على السنة المحمدية» وكتاب «أبو هريرة شيخ المضيرة» للكاتب المصري الأزهري محمود أبو رية، كذلك كتاب: «أبو هريرة» للسيد عبد الحسين شرف الدين، وانظر مؤلفات العلامة السيّد مرتضى العسكري «عبد الله بن سبأ» و «مائة وخمسون صحابي مختلق»، و «أحاديث أُم المؤمنين عائشة» وغيرها ففيها التفاصيل الوافية حول الموضوع.

مُتناول الأيدي عادة.

فلمَّا فشلوا في ذلك حاولوا ادِّعاء أنَّ ما جاء به نبيناﷺ كان نتيجة عبقريَّته ونبوغه وعمق تفكيره ومعرفته بطرق استغلال الظروف وانتهاز الفرص، وليس لأجل اتِّصاله بالمبدأ الأعلى تبارك وتعالى.

وهكذا، فإنَّنا نستطيع أن نتَّهم يد أهل الكتاب في موضوع الأحداث غير المعقولة الَّتي نُسبت زوراً وبهتاناً إلى مقام نبيِّنا الأعظمﷺ حين بعثته»[١] وقد تسرَّبت إلى بعض المسلمين من قِبل أهل الكتاب، حتَّى أصبحت جزءاً من التَّأريخ والفقه والعقائد ودخلت إلى كتب الصحاح والمسانيد وكتب السيرة والتاريخ من أوسع أبوابها.

ثانياً: إنَّنا لا نستبعد أن يكون الهدف من جَعْل تلك الرِّوايات هو الحطّ من كرامة النَّبي الأعظمﷺ، والطَّعن في قدسيَّته ومقامه في نفوس الناس، وتصويره لهم على أنَّه رجل عادي مبتذل، يحتاج إلى أبسط الناس ليرشده إلى طريق الهُدى ويدلُّه على الحقّ، ممَّا يدلُّ على أنَّه قاصر محتاج باستمرار إلى مساعدة الآخرين الذين هم أحسن تصرُّفاً وأكثر تعقُّلاً منه.

والظَّاهر أنَّ تلك خطة السِّياسيِّين الَّذين يريدون أن يُرغموا أنوف بني هاشم ويبزوهم سياسيّاً، مِن أمثال معاوية الَّذي أقسم على أن يدفن ذِكر النَّبيﷺ[٢]، ومع معاوية سائر الأمويين وأعوانهم، ومن أمثال عبدالله بن الزبير الَّذي قطع الصَّلاة على النَّبيِّﷺ مدَّة طويلة لأنَّ له أُهيل سوء إِذا ذكر شمخت آنافهم[٣].

وهكذا فإنَّ النتيجة تكون هي أنَّ الأمويين يستفيدون من افتعال القصَّة على

(١) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات: ٥٧٦ - ٥٧٧، تحقيق: الدكتور سامي العاني. أفست الشريف الرضي - قم.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٦٩

هذا النحو ويحقِّقون أعزَّ أهدافهم وأغلاها، كما أنَّ الزبيريِّين أيضاً يستفيدون منها.

أمَّا أهل الكِتَاب فيكون لهم فيها حصَّة الأسد. . . وهكذا فقد التقت المصالح والأهواء واجتمعت على هذا الأمر فلماذا لا يُدلي كل بدلوه، ويشجع أمثال هذه الأباطيل.

وجاء بعدهم جملة من المستشرقين، وطرحوا شبهاتهم حول الوحي، مستندين في بعضها على هذه الرِّوايات، ومتشبّثين بما دُوِّنَ في كتب السِّيرة والتفسير من الإسرائيليَّات، فقد نقل الحجَّة البلاغي: «أنَّ بعض أهل الكتاب قد نقض على المسلمين فقال: «الشيطان قرين محمَّد»، وتشبَّث بنقله عن بعض المفسِّرين قولهم: إنَّه كان لرسول الله عدو من شياطين الجنِّ، كان يأتيه بصورة جبرائيل، وأنَّه يسمّى الأبيض»[1].

٧ – الآثار السيئة لروايات بداية البعثة

لقد كان لأحاديث وروايات بداية الوحي الكاذبة، آثار سيئة جداً، فقد استند المستشرقون في بحوثهم عن الوحي إلى تلكم الروايات الزائفة، واعتمدوها في بحوثهم باعتبارها مرويّة عن كبار الصحابة والتابعين، ومدونة في كتب الصحاح والمسانيد! فخرجوا علينا في بحوثهم حول الوحي بمجموعة من الشبهات الخطيرة حول الوحي والتي سوف نتوقف عندها في الدرس القادم إن شاء الله.

---

(١) البلاغي – محمَّد جواد، الهدى إلى دين المصطفى: ١ / ١٦٩، دار الكتب الإسلامية – قم.

الأسئلة :

١ - في أي سنيّ عمره بُعث النبيﷺ ؟ وفي أيّ مكان كان بَدء الوحي ؟ وما أول ما نزل عليه من القرآن الكريم ؟

٢ - ما هو الوحي ؟ وما أقسامه ؟ وكيف تلقّى النبيﷺ الوحي وبأيّ طريقة ؟

٣ - كيف نناقش ما رُوي حول بداية الوحي، ودعوى انهيار الرَّسولﷺ عند نزول الوحي ؟

٤ - ما هو القاسم المشترك بين جميع الأنبياء بالنسبة للوحي ؟

٥ - لماذا أخذت قضية الوحي وبداياته حيزاً من اهتمام الوضاعين ؟ اذكر ذلك باختصار.

٦ - ما هي الآثار السيئة للروايات الكاذبة عن بداية الوحي ؟

الدرس العاشر

البعثة النَّبويَّة المباركة

«القسم الثاني»

«شُبُهات المستشرقين حول الوحي»

محاور البحث:

الشبهة الأولى: إنَّ محمَّداً ﷺ جاء بدين الإسلام واخترعه من نفسه بعد مطالعته في التَّوراة والإنجيل.

الشبهة الثانية: إنَّ النَّبي ﷺ كان يُصابُ بالصَّرع والهستيريا...

الشبهة الثالثة: إنَّ الوحي نوع من الإلهام يفيض من نفس النَّبي ﷺ لا من الخارج.

الأسئلة

شبهات المستشرقين حول الوحي

لقد أثار أعداء الإسلام من جاهليين قُدامى، ومستشرقين جُدُد، الشُّبهات الكثيرة حول الوحي القرآني، وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب التأكيد على أنَّ الوحي القرآني ليس مرتبطاً بالسَّماء وإنَّما هو نابعٌ من ذات محمَّدﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الشُّبهات الَّتي أثارها أعداء الإسلام في بداية الدَّعوة الإسلاميَّة في مواضع مختلفة منها:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[4].

---

(١) الفرقان: ٥

(٢) الأنبياء: ٥

(٣) الدّخان: ١٣ - ١٤

(٤) النحل: ١٠٣

هذا وقد ردَّد بعضُ المستشرقين هذه الشُّبهات وغيرها، وحاولوا إضفاء طابع البحث والدِّراسة، وسِمات الموضوعيَّة عليها، كما هي الطريقة المتَّبعة لديهم في مِثل هذهِ الحالات.

وكان الغرض من ذلك هو الطَّعن في صاحب الرَّسالة السَّماوية بعد أن عجزوا عن الطَّعن في رسالته ﷺ.

وإن دلّ هذا التعنُّت من قِبَل المستشرقين على شيء، فإنَّما يدلُّ على شدَّة حرص أصحابه على التَّشكيك في الإسلام، وهم لم يستطيعوا الطَّعن على هذا الدين لذاته، وقد رأوه ديناً بلغ غاية السُّمو، مع بساطة ويسر هما مصدر قوَّتهِ، لذلك لجأوا إلى حجَّة العاجز حين يرى الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن، لأنَّ المطاعن لا ترقى إليه، فهو يتناول مَنْ صَدَرَ هذا الأثر عنه، أو كان وسيلته إلى الناس، فيجعله هدف مطاعنه، وهذا عجز لا يلجأ إليه عَالِم، فهؤلاء الَتمَسُوا المطاعن الَّتي لا سند لها من الحقِّ، ولم يبلغوا من ذلك غايتهم، وإن كشفوا عن سوءِ رأي وحقد يُسقط حجَّتهم ويَحُول دون الاستماع لهم، وهؤلاء كانوا يفرِّغون حقدهم في قَالب العِلْم والبحث العِلميِّ، إلاَّ أنَّ الحقد لا يعرف الحقيقة، وكبُرت الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدراً، وهذا شأن أُولئك المستشرقين في حقدهم على النَّبيِّ ﷺ خاتم المرسلين، ولذلك هَوَتْ مطاعنهم إلى الحضيض.

ولعلَّ من أخبث الأساليب في إثارة الشُّبهة حول الوحي هو الأسلوب الذي يحاول أن يُضفي على النَّبيِّ ﷺ صفات الصِّدق والأمانة والإخلاص والذكاء الأمر الذي أدَّى به – كما يزعمون – أن يتخيَّل نفسه أنَّه ممَّن يُوحى إليه، وهو ما يسمَّى بالوحي النَّفسي؛ فإنَّ هذا الأسلوب يحاول أن يستردَّ دوافعه المغرضة بمظاهر الإنصاف والمحبَّة والإعجاب.

ويمكن تلخيص شبهات المستشرقين حول الوحي بمايلي:

١ - قالوا: إنَّ محمَّداً ﷺ كان يُطالع في غار حراء التَّوراة والإنجيل وتعليمات الأنبياء السَّابقين وشرائعهم ويستغرق متأمّلاً في كلِّ ذلك، وإنَّه قد جاء بدين الإسلام واخترعه من نفسه بعد مطالعته في هذه الكُتب والشَّرائع السَّابقة.

٢ - وقالوا: إنَّ بحوثهم العلميَّة دلَّتهم على أنَّ النَّبيﷺ كان يُصاب بالصَّرع، وأنَّ أعراضه كانت تبدو عليه (إذ كان يغيب عن الوعي) ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنُّجات، وتخرج من فمه الرَّغوة، حتَّى إذا أفاق من نوبته تَلا على المؤمنين ما يقول إنَّه وحي الله إليه، في حين لم يكن هذا الوحي إلاَّ أثراً من نوباتِ الصَّرَع.

٣ - وقالوا: إنَّ الوحي إلهام يفيض من نفس النَّبيﷺ، لا من الخارج ويقولون: نحن لانشكُّ في صدق محمَّد في خبره عمَّا رأى وسمع، وإنّما نقول إنَّ منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عَالَم الغيب الَّذي يُقال إنَّه وراء عَالَم المادَّة والطَّبيعة الَّذي يعرفه جميع الناس؛ فإنَّ هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده[1].

هذه هي أهمُّ الشُّبهات الَّتي يطرحها هؤلاء حول الوحي، بالإضافة إلى شبهات أخرى حَولَ مُجملِ تعاليم الإسلام.

وقد سَرَتْ هذه الشُّبهات إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلِّدون هؤلاء المادِّيين في نظرياتهم الماديَّة ويَقْتَنِعونَ بها.

وسوف نبحث هذه الشُّبهات ونجيب عليها باختصار:

الشُّبهة الأُولى:

إنَّ محمَّداً جاء بدين الإسلام واخترعه من نفسه بعد مطالعته في التَّوراة والإنجيل!

---

(١) هيكل، حياة محمَّد: ٩ مرجع سابق.

رد الشُّبهة الأُولى:

ويمكن رد هذه الشُّبهة بما يلي:

١ - نحن نجد بعد المقارنة بين القرآن وكتب العهدين تفاوتاً شديداً واختلافاً أساسيَّاً، وعليه فلو كان القرآن قد استمدَّ تعالميه من التَّوراة والإنجيل وغيرهما لتشابهت المطالب والأفكار.

٢ - إنَّ الإعجاز القرآني يتمثَّل في جانبين رئيسيين هما: جانب الأسلوب والتَّركيب البياني، وجانب المضمون والمحتوى والأفكار، وفي كلٍّ من الجانبين لا مجال للإدِّعاء بأنَّ القرآن اقتبس من التَّوراة والإنجيل، لأنَّ هذه الآيات بكلماتها وتركيبها المعجز لم تكن، وليست موجودة في أيِّ كتاب ليقتبس النَّبيُّ ﷺ منه.

٣ - إنَّ النقطة الأساسيَّة الَّتي يستند إليها الإعجاز القرآني هو عدم قدرة العرب على معارضته رغم تحدِّي القرآن الكريم لهم مرَّة تلو الأخرى. فلو كان القرآن - كما يدَّعون - قد أُلِّف وكُتِب اعتماداً على مطالعة التَّوراة والإنجيل لسهل على هؤلاء أن يردُّوا تحدِّي القرآن عن طريق مطالعة التَّوراة والإنجيل.

٤ - من الثَّابت والمسلَّم به تأريخيَّاً أنَّ نبيَّ الإسلام محمَّداً كانَ أميًّا فَهَل يمكن لعاقل أن يصدِّق بأنَّ انسانا لم يتلقَّ درساً من أحد أبداً ويعيش في محيط بعيد عن العِلم والمعرفة أن يأتي بمثل هذا الكتاب المملوء بالمعارف والحقائق.

بعد هذه الشَّواهد والأدلَّة لا يمكننا إلاَّ أن نقول بأنَّ هذه الدَّعوى لا أساس لها ولا تستند إلى أيِّ مصدر مُعتبر، وإنَّما هي عبارة عن شائعة وشُبهة اختلقها آباء الكنيسة المسيحيَّة وبعض المستشرقين وهدفهم من ذلك النَّيل من الإسلام والنَّبي الأكرم ﷺ.

الشبهة الثانية: دعوى أنّ النبيّ كان يصاب بالصَّرع !

رد الشُّبهة الثَّانية:

أمَّا هذه الشُّبهة فهي من الشُّبهات الواهية جداً ويمكن ردّها بمايلي:

أولاً: لم ينقل لنا التأريخ من قريب أو بعيد أنَّ أحداً شاهد الرَّسول الأعظمﷺسواء منهم الأعداء الذين كانوا يتوسّلون بكلِّ الوسائل للنَّيل من شخصيَّته أم غيرهم - قد أصابته حالة الصَّرع.

ثانياً: إنَّ تصوير ما كان يبدو على محمَّدﷺ في ساعات الوحي على هذا النَّحو الَّذي صوَّروه خاطىء من النَّاحية العلميَّة أفحش الخطأ، فنوبة الصَّرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مرَّ به أثناءها بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تامّاً ولا يذكر شيئاً ممَّا صنع أو حلَّ به خلالها؛ ذلك لأنَّ حركة الشُّعور والتَّفكير تتعطَّل فيه تمام التَّعطيل، هذه أعراض الصّرع كما يثبتها العِلم ولم يكن ذلك ما يُصيب النَّبيﷺ أثناء الوحي بل كانت تنتبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبُّهاً لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقَّة - غاية الدِّقة - ما يتلقَّاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه.

٣ - إنَّ نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بغيبوبة جسميَّة مع تنبه الإدراك الرُّوحي غاية التنبه، بل كان كثيراً ما يحدث والنَّبيﷺ في تمام يقظته العادية كما حدث في نزول سورة الفتح عند رجوع المسلمين من مكَّة إلى يثرب بعد عهد الحُديبيَّة، وغيرها من الأماكن الَّتي نزل فيها القرآن، ويمكن ملاحظة أسباب النزول لتتجلَّى لنا صورة ذلك.

ينفي العِلم إذاً أنَّ الصَّرع كان يعتري محمَّداًﷺ ولذلك لم يقل به إلاَّ الأقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنّه حُرِّفَ، وهم لم يقولوا به حرصاً على حقيقة يلتمسونها وإنَّما قالوا به ظنّاً منهم أنَّهم يحطُّون من قدر

النَّبيِّ ﷺ في نظر طائفة من المسلمين. أم حسبوا أنَّهم يلقون بأقوالهم هذه ظلاً من الريبة على الوحي الذي نزل عليه لأنّه نَزل عليه فيما يزعمون أثناء هذه النَّوبات؟ إن يكن ذلك فهو الخطأ المبين وهو ما ينكره العِلم عليهم أشدَّ الإنكار، ولو أنَّ نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما حمَّلوا العِلم ما ينكره. . . فالصَّرع يعطِّل الإدراك الإنساني ويُنزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشُّعور والحس، أمّا الوحي فسموٌّ روحيٌّ اختصَّ الله به أنبياءه ليُلقى إليهم بحقائق الكون اليقينيَّة العُليا كي يبلِّغوها للناس، وقد يصل العِلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سُننها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتَّى يرث الله الأرض ومَن عليها، وهي مع ذلك حقائق يقينيَّة تهدي قلوب المؤمنين الصَّادقين إلى حقيقتها، على حين تظلُّ قلوب عليها أقفالها جاهلة إيَّاها لغفلتها عنها(١).

الشبهة الثالثة:

الإدِّعاء بأنَّ الوحي نوع إلهام يفيض من نفس النَّبيِّ ﷺ. وقبل الدُّخول في بيان تفصيل هذه الشُّبهة نرى من الضَّروري توضيح الفَرْق بين الإدراك العادي الذي يكون نتيجة الموهبة وبين الإلهام والوحي فنقول:

١ - **الإدراك العادي أو «إدراك الموهبة»**: وهو عبارة عن فكرة يدركها الإنسان مع شعوره بأنَّ هذه الفكرة نتيجة للجهد الشخصي، وإن كان يدرك بشكل عقلي ومنطقي أنَّ هذه الفكرة مرتبطة بسبب أو بآخر بالله تعالى.

٢ - **الإلهام**: وهو عبارة عن فكرة يدركها الإنسان مصحوبة بالشُّعور الواضح بأنَّها مُلقاة من طرف أَعلى مُنفصِل عن الذَّات الإنسانيَّة، وإن كان لا

---

(١) هيكل، حياة محمّد: ٤٠ - ٤١ .

يُدرك الإنسان شكل الطريقة الَّتي تمَّ فيها هذا الإلقاء.

٣ - **الوحي**: عبارة عن فكرة يُدركها الإنسان، مصحوبة بالشُّعور الواضح بأنَّها مُلقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الإنسانيَّة، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تمَّ فيها الإلقاء.

اذا اتَّضح الفرق بين هذه المصطلحات الثلاثة نأتي الى شبهة المستشرقين: وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشُّبهة كما فصَّلها - أميل درمنغام - المستشرق الفرنسي في كتابه (حياة محمَّد)، والذي يعتبر من المستشرقين الذين تعرَّضوا لحياة محمَّدﷺ بشيء من الإنصاف نسبة إلى غيره من كُتَّاب النِّصف الأوّل من القرن التاسع عشر، فقد جاء في موسوعة لارُوس الفرنسيَّة خلال العرض لآراء كُتَّاب المسيحيَّة ممَّن نالوا من محمَّدﷺ شرَّ نيل ما نصّه: «بقي محمَّد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخُلُق، لصّ نياق، كاردينالاً لم ينجح في الوصول إلى كرسيِّ البابويَّة، فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه واستولى القصص الخيالي والخليع على سيرته»[١].

أمّا خلاصة ما كتبه (اميل درمنغام) في صياغة هذه الشبهة[٢] فهي:

١ - إنَّ محمداًﷺ قد أدرك بقوَّة عقله الذَّاتية، وبما يتمتَّع به من نقاء

---

(١) المرجع نفسه: ٩ وانظر: موسوعة لاروس الفرنسية، مادة محمد: ١٨٣.

(2) Rengwlte Et Mahomet. Paris (183).

(٢) نشر كتاب: «حياة محمد» للمستشرق الفرنسي «أميل درمنغم» سنة (١٩٣٠م) تحت عنوان:

(Emile Der Menghem, The Life Of Mahmoed. D.D 135, Newyork Dial Press 19300 U.S.A).

وترجم الكتاب إلى العربية في طبعة الأُولى سنة (١٩٤٥م)، وبعد فترة طويلة من الزمن أعاد المترجم: عادل زعيتر النظر في ترجمة الأُولى للكتاب، فطبع الكتاب في طبعته الثانية سنة (١٩٨٨م). ويرى السيّد محمد رشيد رضا كتاب الدكتور محمد حسين هيكل «حياة محمد» ترجمة لكتاب درمنغم (حياة محمد) إلاّ أن مقارنة الكتابين تفصح عن تغايرهما وإن تشابها في العنوان. للتوسع انظر: الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا: ١٠٣

روحي ونفسي بُطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه.

٢ - وإنَّ فطرته الزكيَّة، بالإضافة إلى بعض الظروف الموضوعيَّة - كالفقر - حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، وأكل المال بالباطل، أو الانغماس بالشَّهوات وارتكاب الفواحش.

٣ - وإنَّه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشِّرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات.

٤ - وقد استفاد من النَّصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها، كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين ممَّن بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرها فأخرجوهم من الظلمات إلى النور.

٥ - إنَّه ﷺ لم يقبل جميع هذه المعلومات الَّتي وصلت إليه من هؤلاء النَّصارى وذلك لِمَا عرض للنصرانيَّة من الأفكار الوثنيَّة والانحرافات كألوهية المسيح وأُمّه وغير ذلك من البِدَع.

٦ - وإنَّه كان قد سمع أنَّ الله سيبعث نبيَاً مثل أولئك الأنبياء من عرب الحجاز بشَّر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وتولَّد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون ذلك النَّبي الذي آن أوانه، وأخذ يتوسَّل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء.

٧ - وهنالك - في غار حراء - قوى إيمانه، ونمى وجدانه، «فاتَّسع محيطُ تفكيره وتضاعف نور بصيرته فاهتدى عقله الكبير الى الآيات والدَّلائل البيِّنة في السماء والأرض على وحدانية الله تعالى خَالِق الخَلْق، ومدبِّر أموره، وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النُّور».

٨ - ثمَّ ما زال يفكِّر ويتأمَّل، ويتقلَّب بين الآلام والآمال حتَّى أيقن أنَّه هو

النَّبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشريَّة، تجلَّى له هذا الاعتقاد في الرؤى المناميَّة، ثمَّ قوي حتَّى صار يتمثَّل له المَلَك يلقّنه الوحي في اليقظة.

وأمَّا المعلومات الَّتي جاءته من هذا الوحي فهي مُستمدَّة في الأصل من تلك المعلومات الَّتي حصل عليها من اليهود والنَّصارى، وممَّا هداه إليه عقله وتفكيره في التَّمييز بين ما يصحُّ منها وما لا يصحُّ، ولكنها كانت تتجلَّى وكأنَّها وحي السَّماء وخطاب الخالق عزَّوجلَّ يأتيه بها النَّاموس الأكبر الَّذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيِّين عليهم السلام(١)(٢).

مناقشة الشُّبهة الثالثة

وإذا أردنا أن ندرس هذه النَّظرية - نظرية الوحي النَّفسي - لا نجدها تصمد أمام النَّقد والمناقشة العلميَّة؛ إذ يمكن أن نلاحظ عليها من خلال جوانب ثلاثة:

الأوّل: إنَّ الدَّلائل التأريخيَّة وطبيعة الظروف التي مرَّبها النَّبيُّ صلى الله عليه وآله تأبى التَّصديق بهذه النَّظرية وقبولها.

الثاني: إنَّ المحتوى الدَّاخلي للظاهرة القرآنية بما يضمُّ من تشريع وأخلاق وعقائد وتأريخ لا يتَّفق مع هذه النَّظرية في تفسير الوحي القرآني.

---

(١) رضا - محمد رشيد، الوحي المحمّدي: ١٤٩ - ١٥٠، وعلوم القرآن: ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) قرر السيّد محمد رشيد رضا شبهات «أميل درمنغم» وقدم لها بمقدمات عشرة، وقد لخصناها عنه هنا، وليس بين أيدينا النسخة الفرنسية من كتاب (حياة محمد) كي نقارنها بالنسخة التي ترجمها عادل زعيتر، وعندما نعود إلى النسخة العربية المترجمة لا نجد هذه الشبهات التي قررها السيّد محمد رشيد رضا، واضحة المعالم وبالشكل المقرر لها، فلا ندري هل أن المترجم لم يكن دقيقاً في ترجمته للكتاب؟ أم ان السيّد محمد رشيد رضا اعتمد نسخة الكتاب بلغتها التي كتبت بها، أو أنه اعتمد على ترجمة أُخرى غير ترجمة عادل زعيتر.

ومهما يكن من أمر، فإن ما ننقله كتقرير لهذه الشبهات والمقدمات التي ذكرت لها، ومن ثمّ بعض ردودها، مقتبس من كتاب السيّد محمد رشيد رضا (الوحي المحمدي).

الثالث: إنَّ موقف النَّبيﷺ من الظَّاهرة القرآنيَّة يشهد بوضوح على رفض تفسير الظَّاهرة القرآنيَّة بنظريَّة الوحي النَّفسي.

وهذه الجوانب الثلاثة سوف نتحدَّث عنها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

ولا يفوتنا من خلال التأمُّل في تفاصيل صياغة الشُّبهة أنَّ الأسلوب الذي صاغ به (اميل درمنغام) شبهته من أخبث الأساليب في إثارة الشُّبهة حول الوحي، وهو الأسلوب الذي يحاول أن يضفي على النَّبيِّ محمَّدﷺ صفات الصِّدق، والأمانة، والإخلاص، والذكاء الأمر الذي أدَّى به أن يتخيَّل نفسه أنَّه ممَّن يُوحى إليه، وهو ما يُسمَّى بالوحي النَّفسي فإنَّ هذا الاسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة بمظاهر الإنصاف والمحبَّة والإعجاب، وهذا التَّصوير الذي يصوِّرون به ظاهرة الوحي قد سَرَتْ شُبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلِّدون هؤلاء المادِّيين في نظرياتهم الماديَّة أو يقتنعون بها[١].

---

(١) للتوسع في مبحث الدرس تُراجع الكتب التالية:

الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي. مباحث علوم القرآن، د. صبحي الصالح. النبأ العظيم، د. محمّد عبدالله دراز. علوم القرآن، السيّد محمّد باقر الحكيم. حياة محمّد، محمّد حسين هيكل. الوحي المحمّدي، محمّد رشيد رضا.

الأسئلة :

١ - أشار القرآن الكريم إلى شبهات أثارها أعداء الإسلام في بداية الوحي، فما هي الآيات القرآنية التي أشارت إلى ذلك ؟ وما هي أهم الشبهات التي أُثيرت في ذلك الوقت ؟

٢ - ما هي أهم شبهات المستشرقين حول الوحي ؟ وكيف نناقش هذه الشبهات ؟

٣ - كيف نفرّق بين: الإدراك العادي، والإلهام، والوحي ؟

٤ - ما هي خلاصة ما كتبه المستشرق الفرنسي (اميل درمنغام) من شبهات حول الوحي؟

الدرس الحادي عشر
البعثة النَّبويَّة المباركة

«القسم الثالث»
بداية الوحي
ردُّ شُبُهات المستشرقين حول الوحي

محاور البحث:

١ - ردّ الشبهة الثالثة من خلال جوانب ثلاثة:

الأولى: الدَّلائل التأريخية وطبيعة الظروف التي مرَّ بها النبيﷺ تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

الثانية: المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية بما يضم مِن تشريع وأخلاق وعقائد وتأريخ، لا يتَّفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني.

الثالثة: موقف النَّبيِّﷺ من الظاهرة القرآنية يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي.

- الأسئلة

بداية الوحي
ردُّ شُبُهات المستشرقين حول الوحي

أولاً: ردُّ الشبهة الثالثة من خلال جوانب ثلاثة

أولاً: الدَّلائل التَّأريخيَّة تُناقِض نظرية الوحي النَّفسي:

عندما نتأمَّل في المقدِّمات التأريخيَّة وغيرها، التي رتَّبها] درمنغام [لعرض نظرية الوحي النَّفسي فسوف نلاحظ عليها عدَّة ملاحظات منهجيَّة منها:

أولاً: إنَّ أكثر المقدِّمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم لا تقوم على أساس تأريخي صحيح، وإنَّما تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مُسبق، وهي أنَّ الوحي القرآني ليس وحياً منفصلاً عن الذَّات المحمَّدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النَّظرية إلى اختلاق الحوادث والأخبار أو تخيُّلها من أجل إكمال الصُّورة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع محمَّدﷺ وهو بصحبة عمّه أبي طالب الأمر الذي يدعوهم إلى الاستنتاج وافتراض محادثات دينيَّة وفلسفيَّة معقَّدة. وما يذكرونه أيضاً بصدد تعليل اطِّلاعه على أخبار عاد وثمود من أنَّه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف، بالرَّغم من أنَّ هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التِّجاريَّة، كما أنَّ التأريخ لم يذكر لنا مرور النَّبيﷺ بها. إلى غير ذلك من الحوادث والقضايا.

ثانياً: إنَّ افتراض تعلُّم محمَّدﷺ من نصارى الشَّام وغيرهم لا يتَّفق مع

واقع الحيرة والتردُّد في موقف المشركين من رسول الله ﷺ، لأنَّ مثل هذه العلاقة لايمكن التستُّر عليها أمام أعداء الدَّعوة من المشركين وغيرهم، الذين لم يسكتوا عن إطلاق شتَّى التُّهم والأراجيف وافترضوا في الوحي الفرضيات المتعدِّدة ومنها فرض التعلُّم والتلقِّي من أشخاص معينين، كالرومي الحداد في مكَّة، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

ولكن مع ذلك كلّه لم يكن ليفرضوا أن يكون قد تعلَّم من نصارى الشام أو غيرهم.

ثالثاً: إنَّه لم يُعرف عن الرَّسول ﷺ أنَّه كان ينتظر أن يُفاجأ بالوحي أو يأمل أن يكون هو الرَّسول المنتظر لينمو ويتطوَّر الأمل في نفسه فيصبح واقعاً نفسيَّاً، بالرَّغم من تدوين كُتب السِّيرة النَّبويَّة لأدقِّ الأحداث والتَّفصيلات عن حياة الرَّسول ﷺ الشخصية .

ولعلَّ من الطَّرائف التأريخيَّة التي تشهد بكذب هذا الافتراض هو ما ذكرته كُتب السِّيرة من اضطراب النبي ﷺ وخوفه حين فاجأه الوحي في غار حراء بل صرَّح القرآن المجيد بأنّه لم يرج هذا ولا يؤمله قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

رابعاً: إنَّ هذه النظرية تفرض أن يكون إعلان النبوَّة نتيجة مرحلة معيَّنة من التَّكامل العقلي والنَّفسي، ونتيجة مراحل طويلة من المُعَاناة والتَّفكير والتأمُّل والحساب. . . وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن ينطلق الرَّسول ﷺ في اللَّحظة الأولى من دعوته إلى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة

---

(١) النحل: ١٠٣ .

(٢) القصص: ٨٦ .

والمجتمع بجوانبه المتعدِّدة لأنَّ المفروض أنَّ الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل.

مع أنَّ التأريخ يؤكِّد أنَّ أسلوب الدَّعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تماماً فلقد كانت البداية هي الدَّعوة إلى التَّوحيد، ومن ثَمَّ الانطلاق إلى المجالات الأخرى بشكل تدريجيٍّ مع ما كان يتخلَّل ذلك من ركود وانقطاع في الوحي.

ثانياً: المحتوى الدَّاخلي للظَّاهرة القرآنيَّة يناقض نظرية الوحي النَّفسي:

إنَّ لِسَعة النظرية القرآنيَّة، وآفاقها المتعدِّدة، ومجالاتها المتشعِّبة أهميَّة كبرى في رفض نظرية الوحي النَّفسي؛ إذ إنَّ هذا الاتِّساع والشمول لا يتَّفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية، ويتَّضح ذلك عندما نلاحظ الأمور التالية:

أولاً: إنَّ الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهوديَّة والمسيحيَّة هو موقف المصدِّق لهما والمهيمن عليهما؛ فقد صدَّق القرآن الكريم الأصل الإلهي لهاتين الدِّيانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، كما جاء مهيمناً ورقيباً وحاكماً على ما فيهما من ضلالات. يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(١).

وجاءت هذه الرقابة الدَّقيقة شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حُكماً أو حادثة إلاَّ ووضع المقياس الصَّحيح فيه.

فلا يمكن أن نتصوَّر محمّداً ﷺ وهو يأخذ عن أهل الكتاب - بزعمهم - يتمكَّن من أن يصفهم بالجهل والتَّحريف والتَّبديل بمثل هذا اليقين والثبات،

---

(١) المائدة: ٤٨.

ويوضِّح الموقف الصَّحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصَّحيح للديانة، ثمَّ تأتي نظرّيته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف.

وهذا يعني أنّ محمّداًﷺ لم يكن قد أخذ منهم شيئاً، وإنَّما تلقَّى كل ذلك عن الوحي الإلهي الذي جاء مصدِّقاً لما سبقه من الوحي، ومهيمناً على الانحراف والتحريف معاً.

ثانياً: ونجد القرآن أيضاً يخالف التَّوراة والإنجيل في بعض الأحداث التأريخية فيذكرها بدقَّة متناهية ويتمسَّك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يترك بعضها على الأقل تفادياً للاصطدام بالتَّوراة والإنجيل، ففي قصَّة موسى عليه السلام يشير القرآن إلى أنَّ التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أنَّ سِفر الخروج يؤكِّد أنّها كانت ابنته، وكما إنَّ القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق لا يهمل حتى مسألة نجاة فرعون من الغرق مع موته وهلاكه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[١].

في الوقت الذي نجد التوراة تُشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرَّر نفس الموقف في قصَّة العِجل، حيث تذكر التَّوراة أنَّ الذي صنعه هو هارون، وفي قصَّة ولادة مريم للمسيح عليه السلام وغيرها من القضايا. ولا يصحُّ لمحمَّدﷺ وهو الإنسان الصادق الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سبب معقول لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي لا يستطيع مخالفته.

ثالثاً: إنَّ سعة التَّشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقَّة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات،

---

(١) يونس: ٩٢

برهان واضح على تلقِّيه ذلك عن طريق الوحي؛ إذ لم يكن لمحمدﷺ - وهو الإنسان الأُمِّي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم كما أنّه قضى أكثر مراحل دعوته في خِضمِّ الصراع الاجتماعي - ليتمكَّن كإنسان أن يفعل ذلك، لولا أن يكون قد تلقَّى ذلك عن طريق الوحي والسَّماء.

ثالثاً: موقف النَّبيﷺ من الظَّاهرة القرآنيَّة شاهد على رفض نظريَّة الوحي النَّفسي:

لقد كان النَّبيُّﷺ يُدرك وبشكل واضح الانفصال التَّام بين ذاته المتلقِّية والذَّات الإلهية المُلْقِية من أعلى، وهذا الإدراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً، وقد صوَّر الرَّسولﷺ هذا الوحي والإدراك في مناسبات متعدِّدة وواضحة للمسلمين فيما رُوي عنهﷺ حيث قال: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عنِّي[١] وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي المَلكَ رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول».

وتوضيح هذا الحديث: «المراد من التَّشبيه أنَّه صوت كصلصلة الحديد المتَّصلة المتداركة التي تُسمع من الجلاجل ونحوها، وليس بكلام مؤلَّف من الحروف؛ والأقرب أنَّ سببه وجود الملائكة، وإن لم ير أحداً منهم في حال سماعه، وكانت هذه الحال أشد الحالتين عليه؛ لأنَّها انسلاخ من البشريَّة الجسمانيَّة، واتِّصال بالملكيَّة الرُّوحانيَّة»[٢].

وقد انعكس هذا الشُّعور الواعي بالانفصال في الوحي، بين الذات الآمرة المُطاعة والذات المخاطَبة المُتلقيِّة، على الظاهرة القرآنية، وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية:

---

(١) يفصم: يعني ينفكّ وينجلي.

(٢) محمد رشيد رضا، الوحي المحمّدي: ١٤١

الصورة التي يبدو فيها النَّبيﷺ من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً لله سبحانه وتعالى، يقف بين يدي مولاه، يستمدُّ منه العون، ويطلب منه المغفرة، ويتمثَّل أوامره ونواهيه. والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة، فالقرآن يصوِّر محمّداًﷺ في صور الإنسان المُطيع، الذي لا يَملكِ لنفسه شيئاً، ويخاف ربَّه فهو يعترف بالعجز المُطلق تجاه إرادة الله، أو تبديل حروف من القرآن الكريم.

ولو تأمَّلنا هذه الباقة العطرة من الآيات لاتَّضحتْ لنا الصورة أكثر:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

(٣) الأنعام: ٥٠.

(٤) يونس: ١٥ - ١٦.

مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾[١].

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها، ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه إلاَّ أن يقتنع من أعماق قلبه ونفسه بالفرق بين الذَّات الإلـهية الآمرة المُلْقِية، والذات المحمَّدية المطيعة المُتلقِّية.

وكذلك بالتأمُّل في هذه الآيات يتَّضح لنا أنَّه ﷺ كان كامل الوعي للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وبوعيه الكامل هذا كان ﷺ يفرِّق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه، وبين أحاديثه الخاصَّة التي كان يعبّر عنها بإلهام من الله تعالى.

الشكل الثاني: يبدو النبي في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنية ونسيانها، الأمر الذي كان يدعوه إلى أن يعجل بقراءة القرآن قبل أن يُقضى اليه وحيه، ويأخذ بترديده، ويجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك، ويتّضح هذا في قوله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[٣].

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلاَّ أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النَّبي ﷺ استقلالاً مطلقاً، وتفرُّدها عن العوامل النفسيَّة تفرُّداً كاملاً؛ فالنَّبي ﷺ لا

---

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) القيامة: ١٦ - ١٩.

يملك حتى حقَّ استخدام ذاكرته مُطلقاً في حفظ القرآن بل الله يتكفَّل بتحفيظه إيَّاه، وقانون التذكُّر نفسه بطل الآن سحره وعفا أثره إتّجاه إرادة الله، فكيف لا يعي النَّبيﷺ بعد هذا كلّه الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وهو يرى بنفسه أنَّه لا يملك من أمر نفسه شيئاً!!

الشكل الثالث: يبدو النَّبي من خلال تأريخ نزول القرآن، أنَّه كان مقتنعاً بأنَّ التَّنزيل القرآني مصحوب باستمحاء إرادته الشخصيَّة وأنَّه مُنسلخ عن الطبيعة البشريَّة حتَّى ما بقي لهﷺ اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه، فقد يتتابع الوحي ويحمى حتَّى يشعر أنَّه يكثر عليه، وقد يفتر عنه الوحي وهو يشعر أنَّه أحوج ما يكون إليه. والأمثلة في هذا المجال كثيرة نذكر واحداً منها: لقد كان النَّبيﷺ يتحرَّق شوقاً إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وظلَّ يُقلِّب وجهه في السماء ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً لعلَّ الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكنَّ ربَّ القرآن لم يُنزِل في هذا التّحويل قرآناً رغم تلهُّف رسوله الكريمﷺ إليه إلاَّ بعد قُرابة عام ونصف العام في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾(١).

فالوحي ينزل ويكثر على محمَّدﷺ حين يشاء ربُّ محمَّدﷺ ويفتر إذا شاء له رب محمّدﷺ الانقطاع؛ فلا تقدِّم إرادة وعواطف رسول اللهﷺ ولا تؤخِّر في أمر السماء.

وحين نلتفت إلى هذه الأشكال الثلاثة بصورها المختلفة ونضيف إليها الجانبين الآخرين لا يبقى لدينا مجال لأي تردُّد في شأن حقيقة الظَّاهرة القرآنيَّة، وانفصالها عن الذات المحمَّدية، وبطلان الوحي النَّفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

---

(١) البقرة: ١٤٤ .

وبهذا ينتهي البحث في شبهات «اميل درمنغم» والردّ عليها، ونحن وإن أطلنا الكلام بعض الشيء في ردِّ هذه الشُّبهات إلاَّ أنَّ الموضوع يستحقُّ أكثر من هذه الأهميَّة لأنَّ هذه الشُّبهات تمسُّ صميم عقيدتنا(١).

الخلاصة

توصلنا في بحثنا في الدروس السابقة إلى نتيجة علمية مفادها، أن مصدر القرآن الكريم هو الله سبحانه، وانه سبحانه أنزله على النبيﷺ عن طريق الوحي (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى).

ونحن كمسلمين نعتقد بالوحي الإلهي، ونسلم به وبأساليبه وأقسامه، ونؤمن كذلك بالاتصالات الروحية بالملكوت الأعلى، ولكننا لا نستطيع إثبات هذه الأُمور باستخدام العقل والحواس لوحدها، وإنما يجب التسليم بها باعتبارها مسائل اعتقادية غيبية، ليست خاضعة لمناهج المستشرقين المتصفة بالمادية، والتي لا تعترف بالقضايا الغيبية.

وبالرغم من كون ظاهرة الوحي من الظواهر الخفية التي لا يطلع عليها ولا يعرفها سوى من يُوحى إليه، دون غيره من البشر، إلاّ أنّ علماء المسلمين قد فسروا هذه الظاهرة تفسيراً علمياً مقنعاً، وبينوا مراتبه وأقسامه بما لا يترك المجال لانكاره من الناحية العلمية.

إلاّ أنّ مدرسة المستشرقين ذهبوا - وفق منهجهم المادي - مذاهب شتى

---

(١) اقتبسنا هذا البحث من كتاب علوم القرآن للسيِّد محمد باقر الحكيم وللتوسع قارن ما كتبه:

١ - الدكتور صبحي الصالح في كتابه: مباحث علوم القرآن: ٢٨ - ٣٢ .

٢ - ومحمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم.

٣ - ومالك بن نبي في كتابه الظاهره القرآنية.

٤ - ومحمد رشيد رضا في كتابه: الوحي المحمدي.

في تفسير ظاهرة الوحي الإلهي المنزل على النبيﷺ الخاتم محمدﷺ، وأتوا بتفسيرات، وتعليلات، وتأويلات حاولوا من خلالها تفسير التصرفات التي تنتاب الرسولﷺ إبان نزول الوحي، والتي استندوا فيها إلى الروايات المروية عن السيدة عائشة عن كيفية الوحي، والمظاهر الخارجية التي كانت تعتري الرسول في أثناء تلقيه الوحي. . !

والنتيجة التي انتهى إليها أُولئك المستشرقون في تفسيرهم لظاهرة الوحي، بحسب ما استندوا إليه من روايات، وعلى ضوء منهجهم المادي، يتلخص فيما يلي:

أولا: انكارهم لظاهرة الوحي الإلهي، وتفسيرها بنحو يقطع صلتها بمنبعها الإلهي.

ثانياً: إنكار المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وأجمعوا على بشريته. ولم يكن المستشرق الفرنسي «درمنغهام» هو الوحيد الذي تحدث عن ظاهرة الوحي، وفسرها بما ذكرنا كلماته، وإنما سبقه مجموعة من المستشرقين، ولم تتوقف نتائج هذه البحوث عن هذا المستشرق الفرنسي أو غيره.

ولم يكن بالامكان أن نستعرض أسماء كلّ المستشرقين الذين تحدثوا عن ظاهرة الوحي، ولا استعراض النتائج التي توصلوا إليها في بحوثهم، واكتفينا بما ذكره «درمنغهام» لانها تتضمن خلاصة وافية لآراء وتفسيرات ونتائج بحوث الذين سبقوه من المستشرقين(١).

---

(١) للتوسع انظر: «حضارة العرب» لجوستاف لوبون، و «محمد في مكة» لمنتجمري وات، و«العقيدة والشريعة» لجولد زيهر، و «تاريخ الشعوب الإسلامية» لبروكلمان.

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الدلائل التاريخية التي تدحض نظرية الوحي النفسي التي تبنّاها المستشرق الفرنسي «اميل درمنغام» ؟

٢ - هل يمكن الاستناد إلى المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية لدحض نظرية الوحي النفسي ؟

٣ - وضح العبارة التالية : «موقف النبيﷺ من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي» .

الدرس الثاني عشر
الدَّعوة

«القسم الأوّل»
أوائل من دخل في الاسلام

محاور البحث:

١ - المسلمون الأولون، وأهمية البحث في أوائل من أسلم
٢ - أول من أسلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
٣ - شبهات وآراء حول أولوية اسلام علي عليه السلام
أ - شبهة صغر السن وعدم البلوغ
ب - دعوى سبق خديجة لعلي عليه السلام في اسلامها
ج - دعوى سبق اسلام أبي بكر
٤ - حقيقة اسلام علي بن أبي طالب عليه السلام
● الأسئلة

أوائل من دخل في الاسلام

١ - المسلمون الأولون، وأهمية البحث في أوائل من أسلم

دأب مؤرخو السيرة النبوية في كتبهم على فتح موضوع تحت عنوان: «أوائل من أسلم» وذلك بعد الحديث عن بعثة رسول الله ﷺ.

وتكمن أهمية البحث في هذا الموضوع باعتبار أن هذه الأولية تمثل في حد ذاتها فضيلة وشرفاً كبيراً لصاحبها.

وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الأولية، وأولية الهجرة والجهاد في سبيل الله سبحانه، وجعلها من المزايا الايمانية التي ترفع صاحبها وتجعله من المقربين في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

وفسرت الآية بالسابقين إلى الإسلام والإيمان، أو بالمتقدّمين إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

---

(١) الواقعة: ١٠ - ١٢.

(٢) انظر: مفردات الراغب (مادة: سبق).

(٣) التوبة: ١٠٠.

فالسبق في الايمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عند ربه، من أشرف الفضائل والمكارم، كذلك السبق في الهجرة إلى الله والانفاق في سبيله في تلك الساعات العصيبة والتي يعبر عنها القرآن الكريم بـ (ساعة العسرة) في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وأيضاً من الفضائل الكبرى التي أشاد بها القرآن الكريم واثنى على القائمين بها، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

فهذه الباقة العطرة من الآيات المباركة تشيد وتثني وتنوه بفضل الأوائل من الذين أسلموا وآمنوا وانفقوا وهاجروا في سبيل الله تعالى.

أما الأحاديث النبوية التي رويت عن النبيﷺ حول هذا الموضوع فهي كثيرة وسوف يأتينا الاشارة إلى بعضها في ثنايا البحث.

لهذا كلّه، نجد لموضوع الأولية مساحة واسعة في كتب السيرة وكذلك في كتب التراجم والرجال، بل إن بعضهم قد أفرد هذا الموضوع بمؤلف تحت عنوان: «الأوائل» وقد نجد تحت هذا العنوان الكثير من المؤلفات.

فلأهمية هذا الموضوع أولا، ولوجود بعض الأقوال والآراء فيها ثانياً،

---

(١) التوبة: ١١٧ .

(٢) الحديد: ١٠ .

(٣) التوبة: ١٩ .

ولبيان وجه الحق في هذا الموضوع ثالثاً؛ فسوف نتحدث في هذا الدرس - وباختصار - عن هذا الموضوع وضمن محاور محددة.

٢ - أول من أسلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

جاء في سيرة ابن هشام تحت عنوان: «علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عنه أول ذكر أسلم».

قال ابن إسحاق: «ثمّ كان أوّل ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وآله، وصلّى معه وصدّق بما جاءه من الله: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين».

ثمّ يذكر ابن إسحاق نشأة علي في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسبب ذلك فيقول: «وكان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الإسلام» ثمّ يضيف تفاصيل ذلك فيقول: «كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله.. فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب.. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمّه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيّاً، فاتبعه علي (رضي الله عنه) وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه»[(١)].

وفي رواية ابن سعد عن زيد بن أرقم قال: «أول من أسلم مع رسول

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٦٢ - ٢٦٣.

الله ﷺ علي، قال عفان بن مسلم: أوّل من صلّى»[١].

وللمقريزي في كتابه «امتاع الأسماع» كلام ممتع في قصة إسلام علي عليه السلام إذ يقول: وأما علي بن أبي طالب.. فلم يشرك بالله قط، وذلك إنّ الله أراد به الخير فجعله في كفالة ابن عمه سيد المرسلين محمد ﷺ.. فلم يحتج علي (رضي الله عنه) أن يُدعى، ولا كان مشركاً حتى يوحّد فيقال: أسلم، بل كان عندما أُوحي إلى رسول الله عمره ثماني سنين، وقيل: سبع سنين، وقيل إحدى عشرة سنة، وكان مع رسول الله ﷺ في منزله بين أهله كأحد أولاده يتبعه في جميع أحواله»[٢].

وهو كلام وجيه جداً، وينسجم مع طبيعة الجو الذي عاش فيه الإمام علي عليه السلام، فمنذ أن ضمه النبي ﷺ إلى جنبه صار بالنسبة إليه كالأب الحاني المحب، وكان ﷺ حريصاً على تربيته وتنشئته بأحسن وجه.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذا المعنى في خطبته المعروفة بـ «القاصعة» حيث يقول: «... وَقد عَلمتُم مَوضعي مِن رَسول الله ﷺ بالقَرابَةِ القريبَةِ، والمَنزلة الخصيصَة، وَضَعني في حِجره، وأَنا وَلد يضمُّني إلى صَدرِه، ويكنُفُني في فراشه، ويمسُّني جَسَده، ويشممّني عَرفَه، وكان يَمْضَغُ الشيء ثمّ يُلْقِمْنِيه، وما وجد لي كِذبةً في قول، ولا خَطْلَةً في فعل... ولقد كُنت أتبعهُ اتّباع الفصيل إثر أُمّه، يرفع لي في كلِّ يوم من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقَد كان يُجاورُ في كلِّ سَنة بحراء فأراه، ولا يراهُ غيري، ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ١٣ .

(٢) المقريزي – تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥)، امتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: ١ / ٣٣ – ٣٤، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م).

والرِّسالة، وأشُم ريح النبوّة..»[١].

وقد نقلنا في الدرس السابق مقاطع أُخرى من هذه الخطبة والتي يتحدث فيها الإمام عليه السلام عن بدايات نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله له: «هذا الشيطان قد أيسَ مِن عبادتِهِ، إنّك تَسمع ما أسمَع، وترى ما أرى، إلاّ أنّك لست بنبيّ، ولكنك لوزير وأ نّك لعلى خير»[٢].

فالذي يعيش هذا القرب الجسدي والمعنوي من رسول الله صلى الله عليه وآله فمن الطبيعي أن يكون أعرف الناس بخصوصيات النبي صلى الله عليه وآله الأخلاقية وفضائله وصدقه وكمالاته النفسية، فلا يحتاج معها أن يطلب منه النبي صلى الله عليه وآله إن يُسلم، ولهذا كان علي عليه السلام أول الناس إسلاماً وإيماناً بنبوّة النبي صلى الله عليه وآله، إذ كان من أول الأمر على بصيرة من أمره، مقتدياً بخير الناس وأكملهم، فكان أول رجل آمن بالله وبرسوله.

وقضية أولية اسلام علي عليه السلام تكاد أن تكون من المسلمات القطعية لدى جمهور كبير من المحدثين والعلماء والأُدباء والشعراء من الخاصّة والعامة، وقد دونوا ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم، ونظموها في أشعارهم، وأشادوا بفضل صاحبها في تراجم رجالهم.

ولو أردنا أن نتتبع كلمات المؤرخين والرواة، وشعر الشعراء والأُدباء حول هذا الموضوع، لخرجنا عن منهج الاختصار الذي نحاول أن نسير على ضوئه في كتابنا، وقد كفانا مؤنة هذا التتبع العلامة الأميني في كتابه القيم «الغدير» ودوّن أقوالا كثيرة لكبار الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، بالاضافة إلى ما روي من

---

(١) نهج البلاغة: ٣٠٠ - ٣٠١ تحقيق صبحي الصالح.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠١ .

أبيات شعرية حول هذه الأَولية وصاحبها عليه السلام[١].

أما الأحاديث المرويّة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قضية أوليّة إسلام وإيمان وصلاة علي عليه السلام فهي كثيرة جداً، بالاضافة إلى ما روي من كلمات ومناشدات واحتجاجات لعلي عليه السلام وفي أكثر من موطن ومناسبة وموضع، ويضاف إلى ذلك كلمات الصحابة وأشعارهم.. حتى تكاد القضية تصل إلى حد التسالم والاجماع وقد ادُّعي ذلك وليس ببعيد[٢]. وحصول الاجماع في هذه القضية، وقد يكون من الاجماع المدركي الذي في حجيته كلام بين العلماء، ولهذا نعود إلى المدارك التي استند إليها هذا الاجماع.

وفيما يلي طرفاً من الأحاديث النبوية، وبعض ما روي عن علي وعن بعض الصحابة والتابعين:

١ – قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّلكم وارداً – وروداً – عليَّ الحوض أوّلكم إسلاماً، عليّ بن أبي طالب».

٢ – وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّل هذه الأُمّة وروداً عليَّ الحوض أوّلها إسلاماً، علي بن أبي طالب».

٣ – وقال صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة: «زوّجتك خير أُمّتي، أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سلماً».

٤ – وقال صلى الله عليه وآله وسلم – وهو آخذ بيد علي.: «إنّ هذا أول من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيق الأكبر».

---

(١) انظر، الغدير: ٣ / ٣٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر المجلسي، بحار الأنوار: ٣٨ / ٢٥٣ – ٢٦٢ و ١٦ / ١٨٢ – ١٨٩ الطبعة الحديثة، والمفيد في كتابه الفصول المختارة من العيون والمحاسن: ٢٥٤ – ٢٥٥.

٥ - وعن ابن عباس، قال، قال النبيﷺ: «إنّ أوّل من صلّى معي علي».

٦ - وعن أبي أيوب، قال: قال رسول اللهﷺ: «لقد صلّت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ سبع سنين، لأ نّا كنّا نصلّي وليس معنا أحد يصلّي غيرنا» فقيل: وَلِمَ ذلك يا رسول الله؟ قالﷺ: «لم يكن معي - من أسلم - من الرجال غيره»[١].

وهناك عشرات النصوص النبوية الأُخرى والتي تنص على أولية علي في الإسلام والإيمان والصلاة[٢].

أما كلمات الامام علي عليه السلام - وهو الصادق فيما يقول - فقد نقلنا بعض فقرات خطبة القاصعة، ونضيف إليها بعض كلماته الأُخرى حول هذا الموضوع.

١ - قال عليه السلام: «أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه».

٢ - وعنه عليه السلام: «أنا أوّل رجل أسلم مع رسول اللهﷺ» أو «أنا أوّل من أسلم مع النبيﷺ».

٣ - وعنه عليه السلام: «أنا أوّل من صلّى مع رسول اللهﷺ».

٤ - وعنه عليه السلام: «ما أعرف أحداً من هذه الأُمّة عبد الله بعد نبيّنا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة تسع سنين»[٣].

وأمثال هذه الأحاديث المروية عنه عليه السلام وفي مناسبات متعددة نجدها بوفرة في كتب الحديث، ومروية بأسانيد متينة وعن عشرات الصحابة والتابعين.

---

(١) الأميني، الغدير: ٣ / ٣١٠ - ٣١٢، وانظر مصادره في هامش الصفحات.

(٢) انظر الطبري، التاريخ: ٢ / ٣٠٩ وما بعدها.

(٣) الغدير: ٣ / ٣١٢ - ٣١٤

وهنالك كلمات وخطب قالها عَلَيْهِ السَّلَامُ في مقام الاحتجاج على خصومه ومنافسيه على الخلافة، حيث احتج عليهم بهذه الفضيلة وغيرها من الفضائل التي حباه الله سبحانه بها.

روى الحمويني عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم الشورى أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ احتج على أهل الشورى بقوله: «أنشدكم الله أيها النفر جميعاً: أفيكم أحدٌ وحّد الله قبلي؟ قالوا: لا..»[1].

وهذا اقرار واضح من أهل الشورى وهم كبار الصحابة الذين رشحهم عمر لخلافته من بعده.

كذلك نجد في احتجاجاته من خلال خطبه في صفين، ومن خلال رسائله التي بعثها إلى معاوية، النص منه عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذه الأولية، وهكذا احتج بها الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام معاوية وبمحضره، واحتج بها أصحابه من الصحابة والتابعين وبكثرة وفي مناسبات مختلفة.

وفي المقابل لا نرى أي تكذيب أو انكار أو تشكيك لهذه الدعوى، رغم توفّر الدواعي لذلك من قبل خصوم علي الذين لم يكونوا يتورعون عن الاختلاق والكذب وقلب الحقائق.

وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على أن هذه الأولية لعلي كانت من المسلمات الواضحة التي لا يمكن لأحد أن يتنكر لها أو يشكك فيها، أو يذكر اسم شخص آخر على انه صاحب هذه الأولية وهذه الفضيلة.

وفيما يلي من هذه الاحتجاجات كما وردت في مصادرها:

١ - عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ من خطبة له في يوم صفين: «وابن عمّ نبيكم بين أظهركم،

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٢٨ عن الحمويني في فرائد السمطين: ١ / ٣١٩

يدعوكم إلى طاعة ربّكم، ويعمل بسنّة نبيكمﷺ، فلا سواه من صلّى قبل كلّ ذكر، لم يسبقني بصلاتي مع رسول اللهﷺ».

٢ - ومن خطبة له عليه السلام في صفين: «أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق على المسبوق، وأ نّه لم يسبقني إلى الله ورسوله أحد من الأُمّة ؟ قالوا: نعم».

٣ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية: «إنّ أولى الناس بأمر هذه الأُمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول الله، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأوّلها إسلاماً وأفضلها جهاداً»[١].

ومن احتجاجات الإمام السبط الحسن بن علي عليه السلام:

١ - من خطبة له عليه السلام في مجلس معاوية، قال: «أنشدكم الله أيها الرهط: أتعلمون أنّ الذي شتمتموه منذ اليوم صلّى القبلتين ؟ وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة، وتعبد اللات والعزّى غواية.. وأنشدكم الله: هل تعلمون أنّه أوّل الناس إيماناً ؟ وأ نّك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم».

٢ - ومن خطبة له عليه السلام: «فلمّا بعث الله محمداً للنبوة، واختاره للرسالة، وأنزل عليه الكتاب، ثمّ أمره بالدعاء إلى الله، فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأول من آمن وصدق الله ورسوله...»[٢].

أما الصحابة والتابعين ممن صرح بأولية إيمان وإسلام علي عليه السلام فالقائمة طويلة بأسمائهم وكلماتهم التي حوتها عيون المصادر والكتب والتراجم. وقد ذكر العلامة الأميني في غديره نقلا عن المصادر السنية أسماء أكثر من ستين صحابياً

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٣١٤ - ٣١٥، وانظر مصادره في المتن وهامش الصفحات.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٣١٦ - ٣١٧، وانظر مصادره في المتن وهامش الصفحات.

وتابعياً وعلماً من أعلام المذاهب يصرحون بسبق علي عليه السلام إلى الإسلام والإيمان والجهاد والدعوة إلى الله سبحانه، ولا يمكن لنا أن نستوعب هذه الكثرة وإنما نكتفي بذكر بعض الأسماء وكلماتهم:

١ - روى الحاكم في المستدرك، وصححه الذهبي في تلخيصه أيضاً، قال: روى فلان عن فلان.. عن قيس بن حازم قال: كنت بالمدينة أطوف في السوق.. فرأيت قوماً مجتمعين على رجل.. وهو يشتم علي بن أبي طالب، والناس وقوف حواليه، إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليه.. فقال: يا هذا علامَ ما تشتم علي بن أبي طالب؟! ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»[1].

علماً بأن سعد بن أبي وقاص كان من الممتنعين عن بيعة علي عليه السلام في أيام خلافته.

٢ - روي عن زيد بن أرقم قال: «أوّل من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب».

وروي عنه أيضاً: «أوّل من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب».

وعنه أيضاً: «أوّل من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي».

٣ - وعن عبد الله بن عباس قال: «لعلي أربع خصال ليست لأحد: هو أوّل عربيٍّ وأعجميٍّ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...».

وعنه أيضاً: «أوّل من أسلم علي بن أبي طالب».

---

(١) الحاكم النيسابوري - أبي عبد الله، المستدرك على الصحيحين: ٣ / ٤٩٩، ٥٠٠، وتلخيصه للذهبي في هامش نفس الصفحة، طبعة دار المعرفة - بيروت، أُفست على طبعة حلب.

٤ - وعن سلمان الفارسي، قال: «أوّل هذه الأُمة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً علي بن أبي طالب».

٥ - وروى عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قوله بأولية إسلام علي عليه السلام، قال: «سمعت عمر وعنده جماعة، فتذاكروا السابقين إلى الإسلام، فقال عمر: أمّا علي فسمعت رسول الله يقول فيه ثلاث خصال، لوددت أن تكون لي واحدة منهنّ، وكانت أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة، وأبو بكر وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على منكب علي فقال له: يا علي، أنت أوّل المؤمنين إيماناً، وأوّل المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى»[1].

وخلاصة الأمر:

ثبوت أولية إسلام علي عليه السلام وإيمانه بالله وبرسوله وبما جاء به من عند ربه، وصلاته معه في أول صلاة صلى الله عليه وآله وسلم بعد بعثته.. من الأُمور الواضحة المسلمة والتي تقتضيها طبيعة نشأة علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ نعومة أظفاره، فمن الطبيعي أن يكون من أول المبادرين إلى تصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعثته ونزول الوحي عليه. بالاضافة إلى عشرات النصوص النبوية المروية في عيون كتب التاريخ والأثر، يضاف إلى ذلك كلمات الإمام علي نفسه عن أولية إسلامه وإيمانه وصلاته، واحتجاجه بذلك في مواطن كثيرة ومن دون نكير من أحد وخاصة خصومه! يضاف إلى ذلك كله كلمات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين واعلام الأُمة والتي تنص على هذه الأولية بوضوح.

(١) الأميني، الغدير: ٣ / ٣١٧ وما بعدها، وانظر مصادره في هامش الصفحات.

٣ - شبهات وآراء حول أولية إسلام علي عليه السلام

مع وضوح قضية أولية إسلام علي عليه السلام وإيمانه وصلاته قبل كلّ أحد، حتى كادت هذه القضية أن تكون من المسلّمات أو من المشهور والمتفق عليه بين المحدثين والمؤرخين. . إلاّ أنّنا نجد في مقابل هذا من أثار شبهة حول صحة إسلام علي لصغر سنه وعدم بلوغه حين أسلم ! وبعض آخر طرح أسماء أُخرى ! وثالث تنكر لكل الأحاديث المروية في قصة أولية إسلام علي عليه السلام !! فلابد لنا من وقفة مع هذه الشبهات والآراء ومناقشتها.

أولا: شبهة صغر سن علي وعدم بلوغه حين إسلامه:

اختلفت روايات المحدثين والمؤرخين في سنّ علي عليه السلام حين أسلم وآمن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ففي امتاع الأسماع للمقريزي قال: «. . كان - أي علي - عندما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عمره ثماني سنين، وقيل: سبع، وقيل: إحدى عشرة سنة»[(١)].

وفي رواية الكليني عن سعيد بن المسيب قال: «سألت علي بن الحسين: ابن كم كان علي بن أبي طالب يوم أسلم ؟ فقال: أو كان كافراً قط ؟ إنما كان لعلي عليه السلام حيث بعث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين. . .»[(٢)].

وجاء في شرح النهج لابن أبي الحديد - بعد أن نقل الخلاف في سنّ علي - قال: «فالأشهر من الروايات إنّه كان ابن عشر، وذكر شيخنا أبو القاسم البلخي وغيره إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة»[(٣)].

---

(١) المقريزي، امتاع الأسماع: ١ / ٣٤ .

(٢) الكليني، روضة الكافي: ٢٧٩ .

(٣) شرح النهج: ١ / ١٥ .

وفي بعض مرويات البيهقي: «وكان أول من آمن به ﷺ علي بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة أو ست عشرة»[١].

ومن هنا توقف بعضهم في صحة إسلام علي عليه السلام لمشكلة عدم بلوغه، رغم اعترافهم بأولية إسلامه، يقول الحاكم في المستدرك: «ولا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام أوّلهم إسلاماً، وإنما اختلفوا في بلوغه»[٢].

وتطرف أبو عمرو الجاحظ في رسالته «العثمانية» واستخف باسلام علي عليه السلام وزعم انه أسلم إسلام حدث غرير، وطفل صغير[٣].

وللاجابة عن هذه الشبهة نقول:

١ - إن قضية تحديد سن البلوغ من القضايا التشريعية التي لا أثر لها في صدر الإسلام وفي الفترة المكيّة، وقد حدّد سنّ البلوغ بعد الهجرة بزمن طويل، وتجدها في كلمات المؤرخين عند الحديث عن غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة وفي قضية ردّ عبد الله بن عمر وقبوله في الغزوة[٤]، أما قبل ذلك فكان المعتمد هو التمييز والادراك، وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام

---

(١) البيهقي، الكبرى: ٦ / ٣٤٠ (كتاب اللقطة).

(٢) الأميني، الغدير: ٣ / ٣٣٨ عن الحاكم في المستدرك.

(٣) شرح النهج: ١٣ / ٢٤٤، وللتوسع انظر الرسالة العثمانية للجاحظ، ونقضها لأبي جعفر الاسكافي، في المصدر نفسه: ١٣ / ٢١٥ إلى ٢٩٥، وقد نقل ابن أبي الحديد قطعة من رسالة العثمانية للجاحظ، ورد الاسكافي عليها، علماً بأن «عثمانية» الجاحظ، قد تم تحقيقها من قبل المحقق: عبد السلام هارون وطبع الكتاب طبعة علمية محققة بعد أن الحق بها ما عثر عليه من نقضها للاسكافي، وتمّ طبع الكتاب في دار الكتاب العربي - بيروت، سنة (١٩٩٥ م). ولم نعثر على نسخة من الكتاب عند كتابة هذا الدرس.

(٤) انظر: مغازي الواقدي: ١ / ٤٥٣ .

والايمان وعدمه.

قال البيهقي: «إن الأحكام إنما تعلقت بالبلوغ في عام الخندق، وفي لفظ في عام الحديبية، وكانت قبل ذلك منوطة بالتمييز»(١).

بل حتى تحديد تعلق الأحكام ببلوغ سن معينة لم يأخذ به بعض من تسنم منصب خلافة رسول الله ﷺ من بعده، فمن طريف ما ينقل: إنّ عمر بن الخطاب كان يعتبر البلوغ بالشبر! فمن بلغ ستة أشبار أجرى عليه الأحكام، ومن نقص عنها تركه. وكذلك كان رأي ابن الزبير أيضاً(٢).

وبقي هذا التحديد إلى زمن العباسيين إلاّ أنهم انقصوا شبراً منه! ففي رواية تاريخية أنّ إبراهيم العباسي أمر أبا مسلم الخراساني، أن يقتل في خراسان كل من يتهمه، إذا كان قد بلغ خمسة أشبار(٣).

ولا نريد أن نعلق على هذه الاجتهادات، وإنما غرضنا بيان كون قضية تحديد سن البلوغ من القضايا المتأخرة عن زمن البعثة بكثير، ولا يمكن التشكيك في صحة إسلام علي لأنه لم يبلغ في حينها.

٢ - إنّ الإمام علياً عليه السلام قد انتقل إلى كنف رسول الله ﷺ وله من العمر ست سنوات. فتربى في حجره، وشاهد ارهاصات النبوة معه عن قرب، فكان إسلامه وإيمانه عن تَعقل وتدبر وفكر وروية وتبصر، ولم يكن إسلامه منبثقاً عن عاطفة أو طفولة كما يزعم الجاحظ وأمثاله.

---

(١) البيهقي - أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨)، السنن الكبرى: ٦ / ٣٤٠ تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

(٢) الأميني، الغدير: ٦ / ٢٤١ عن مصنف ابن أبي شيبة، وكنز العمال للمتقي الهندي.

(٣) ابن قتيبة - محمد بن عبد الله، الامامة والسياسة: ٢ / ١٥٦ - ١٥٧، تحقيق: علي شيري، أُفست الشريف الرضي - قم، (١٤١٣ هـ).

٣ - لقد كان رسول الله ﷺ يرى في علي عليه السلام كلّ المؤهلات اللازمة ليكون أول الناس إسلاماً ولهذا أقدم على دعوته إلى الإسلام والايمان، ولو أنّ رسول الله ﷺ قد علم أن الإمام علياً عليه السلام فاقد لأهلية الدخول في الإسلام، لما أقدم على دعوته، ولما قال في أحاديثه عنه: «إنه أول من أسلم» أو «أولكم إسلاماً».

هذا كلّه إن لم نقل إن دعوة رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام إلى الإسلام كان بأمر من الله سبحانه، وهو لس ببعيد! إذ كما اختار رسول الله ﷺ علياً ليكون معه وفي حجره وبيته، باختيار من قبل الله سبحانه، كما روي عن رسول الله ﷺ عندما أخذ علياً من والده حيث قال: «اخترت من اختار الله لي عليكم: علياً»[1]، كذلك كان اختيار علي بأن يكون أول الناس إسلاماً بأمر من الله سبحانه.

جاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه تحت عنوان: «احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي». وضمن رواية طويلة يرويها إسحاق بن إبراهيم عن حماد بن زيد، وفيها أن المأمون بعث إلى أربعين رجلا كلهم فقيه «يفقه ما يقال له ويحسن الجواب» وعندما اجتمعوا عنده دخل معهم في مناظرة واحتجاجات طويلة في فضل علي وإنه خير خلق الله بعد رسول الله ﷺ وأولى الناس بالخلافة، جاء في طرف منها احتجاجه على إسحاق بن إبراهيم في موضوع أولية علي في الإسلام ننقلها من المصدر نفسه.

قال - أي المأمون -: «يا إسحاق، أي الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله؟ قلت: الاخلاص بالشهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: اقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ

(١) الاصفهاني - أبي الفرج، مقاتل الطالبيين: ٢٦، تحقيق: أحمد صقر، طبعة دار المعرفة - بيروت، (د - ت).

ﵟٱلۡمُقَرَّبُونَﵞ(١) إنما عنى من سبق إلى الإسلام. فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام ؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنّ علياً أسلم وهو حديث السنّ لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم. قال: أخبرني أيهما أسلم قبل ؟ ثمّ أُناظرك من بعده في الحداثة والكمال. قلت: عليٌّ أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة. فقال: نعم، فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم، لا يخلو من أن يكون رسول اللهﷺ دعاه إلى الإسلام أو يكون الهاماً من الله؟

قال: فاطرقت. فقال لي: يا إسحاق، لا تقل الهاماً فتقدّمه على رسول اللهﷺ لأنّ رسول اللهﷺ لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى. قلت: أجل، بل دعاه رسول اللهﷺ إلى الإسلام. قال: يا إسحاق، فهل يخلو رسول اللهﷺحين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلّف ذلك من نفسه ؟ قال: فاطرقت، فقال: يا إسحاق: لا تنسب رسول الله إلى التكلّف، فإنّ الله يقول: ﵟوَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَﵞ(٢).

قلت: «أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله. قال: فهل من صفة الجبّار جلّ ذكره أن يكلّف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم ؟ قلت: أعوذ بالله ! فقال: أفتراه في قياس قولك يا إسحاق إنّ علياً أسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم، وقد كُلّف رسول اللهﷺ دعاء الصبيان إلى ما لا يطيقونه ؟ فهو يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء، ولا يجوز عليهم حكم رسول اللهﷺ، أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّ وجل ؟ قلت: أعوذ بالله. . .»(٣).

---

(١) الواقعة: ١٠ - ١١ .

(٢) سورة ص: ٨٦ .

(٣) ابن عبد ربه - أبي عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد: ٥ / ٩٤ - ٩٥، تحقيق: أحمد أمين وزميلاه، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، ط. الأولى، (١٩٨٣م).

والمناظرة طويلة جليلة المعاني، نقلها ابن عبد ربه بطولها نقلنا منها ما له صلة بموضوع بحثنا، علماً بأن مؤلف العقد الفريد قد ترجم للإمام علي عليه السلام ترجمة مختصرة قبل ذلك وذكر في فضائله قوله: «أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو أول من شهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله»[١].

٤ - بعد ثبوت دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله علياً إلى الإسلام وهو صبيّ في حينها، وهو ثابت قطعاً ولا يتنكر له أحد من الرواة والمؤرخين، إلاّ أنهم لا يتأملون في دلالاته ! فلماذا لم يدعُ رسول الله صلى الله عليه وآله غيره من الصبيان ! أليس هذه الدعوة لعليّ خاصة نوع امتياز له عن اقرانه من الصبيان ؟ ألا تدل أحداث الدعوة اللاحقة وما كان لعلي من دور فيها، وخاصة دعوة الأقربين وعشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرى في علي عليه السلام الامتداد الطبيعي له في رسالته بعد رحيله وانقطاع وحي السماء ؟

نكتفي بهذه الاثارة وسوف يأتينا في دروس لاحقة مزيد بيان لها عند الحديث عن «حديث الدار» المشهور بين الرواة والمؤرخين.

ثانياً: دعوى أولية إسلام خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها):

وهذه دعوى أُخرى أُثيرت أمام حقيقة أولية إسلام علي عليه السلام، ويمكن أن نعبر عن هذه الدعوى بأنها كلمة حق أُريد بها باطل !

ومما لا يشك فيه أحد بأن السيدة خديجة «رضوان الله تعالى عليها» كانت أول نساء هذه الأُمة إسلاماً وإيماناً، وأولهن صلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي التي وقفت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وآزرته على أمره، حتى تلقت من ربها تحيةً وسلاماً وبشارة ببيت في الجنة، وجاءت البشارة والسلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٣١١ .

جبريل الأمين عن الله سبحانه[١].

قال ابن إسحاق: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه».

وفي إسلام علي عليه السلام يقول ابن إسحاق: «ثمّ كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله وصلّى معه، وصدق بما جاءه من الله تعالى: علي بن أبي طالب.. وهو يومئذ ابن عشر سنين»[٢].

فنجد ابن إسحاق ينص على أولية إيمان خديجة، وأولية إيمان علي من الذكور، إلاّ أنّه لا ينص على السابق منهما في هذا المضمار، إلاّ أن يقال: إنّه ذكر إسلام خديجة أولا، ثمّ ذكر إسلام علي عليه السلام واستخدم حرف العطف «ثمّ» التي تقتضي الترتيب، - على رأي من يقول بافادتها الترتيب الزمني[٣] - يدل على أولية إسلام خديجة!

وذكر ابن الأثير: «اختلف العلماء في أوّل من أسلم مع الاتفاق على أن خديجة أوّل خلق الله إسلاماً»[٤].

إلاّ أننا عندما نعود إلى النصوص الروائية المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن علي عليه السلام وعن الصحابة في كلماتهم وأشعارهم، نجد في الكثير منها التعبير الواضح بأن علياً أول من آمن أو أول من صلّى، «إنّ هذا أول من آمن بي» كما

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٥٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٥٧ و ٢٦٢.

(٣) انظر مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري: ١ / ١١٧ - ١١٨.

(٤) ابن الأثير - عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ١ / ٤٨٤، تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (١٩٨٩م).

عن رسول اللهﷺ أو قوله: «إنّ أول من صلّى معي علي» فهل كان رسول اللهﷺ يقصد بهذه التعابير خصوص رجال هذه الأمة ؟ أو خصوص صبيانها ؟

نعم توجد بعض الروايات المروية عنهﷺ التعبير بكلمة «الرجال» كما في قوله: «. . لم يكن معي من أسلم من الرجال غيره»، إلاّ أن الروايات الأُخرى التي تنص على أنّ علياً أول الناس إسلاماً أكثر عدداً وأوضح دلالة.

ويؤيد ذلك الروايات المروية عن رسول اللهﷺ وعلي عليه السلام والتي تنص على أنهما كانا يصليان لله سبع سنين، وبحسب تعبير الرواية النبوية: «لأنا كنا نصلّي وليس معنا أحد يصلّي غيرنا».

أو بحسب تعبيرات الإمام علي عن نفسه: «ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه» أو قوله: «عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمة تسع سنين».

وقد أطلق الإمام كلماته هذه على رؤوس الأشهاد وفي مقام الاحتجاج على خصومه ومنافسيه، فلم نجد أحداً منهم قد ردّ عليه مقولته، أو كذبه فيما ادعى، وهذا يعني أن أولية إسلامه على الناس جميعاً، وعلى الأُمة قاطبة كانت من المسلمات القطعية التي لا يمكن تكذيبها من أحد مع وجود الدواعي لتكذيبها من قبل خصومه.

يضاف إلى ذلك كله ملازمة علي عليه السلام ومرافقته له في غار حراء، ومشاهدته لنور الوحي، وقول رسول اللهﷺ له عند نزول الوحي: «إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبي».

فهذه كلها دلائل وشواهد على تقدم إسلام علي عليه السلام على إسلام خديجة (رضي الله عنها)، ولا ينفى فضل خديجة في إسلامها وأوليتها على نساء الأُمة، فهؤلاء الثلاثة، رسول الله وعلي وخديجة أول من عَبد الله تعالى على وجه

الأرض، وكان بيتهم أول مسجد في الاسلام يعبد الله فيه، وبحسب تعبير الإمام عليه السلام: «ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله، وخديجة وأنا ثالثهما».

ثالثاً: دعوى أولية إسلام أبي بكر:

وهذه أيضاً دعوى أُخرى ادعتها بعض الروايات المروية في كتب السيرة، وكذبتها روايات أُخرى وردّ عليها بعضهم بشدة، وفنّد دعواها ومضمونها.

فنجد ابن كثير في البداية والنهاية يستعرض كلمات ابن إسحاق، وابن جرير الطبري، والأحاديث الواردة في أولية اسلام علي عليه السلام قبل غيره.. ثمّ أخذ في القدح في رواة بعض أحاديثها، وذكر ما يعارضها من الروايات التي تدعي أولية اسلام أبي بكر وتقدمه على إسلام علي عليه السلام.

ثمَّ يتوقف عند الرواية التي يرويها عن محمد بن إسماعيل الرازي، عن عبيد الله بن موسى الفهمي عن العلاء بن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الذي يقول: «سمعت علياً يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين...» فأخذ بالتعقيب على هذه الرواية فقال عن بعض رواتها: «وهو شيعي.. كان من عُتّق الشيعة.. روى أحاديث مناكير.. ضعيف الحديث».

ثمّ يعقب على ذلك الحديث فيقول: «وهذا الحديث منكر بكل حال، ولا يقوله علي (رضي الله عنه)..».

ثمّ أخذ يذكر أحاديث في أولية إسلام أبي بكر، فيروي عن أبي حمزة قوله: «سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب، قال: فذكرته للنخعي فأنكره، وقال: أبو بكر أول من أسلم»!

ثمّ يقول: وقال آخرون: «أول من أسلم من هذه الأُمة أبو بكر الصديق».

بعد هذا يأتي بوجه تبرعي للجمع بين الأقوال كلها فيقول: «والجمع بين الأقوال كلها: أن خديجة أول من أسلم من النساء - وقيل الرجال أيضاً - وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب، فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهل البيت، وأول من أسلم من الرجال الاحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان انفع من اسلام من تقدم ذكرهم إذ كان صدراً معظماً، ورئيساً في قريش مكرماً، وداعية إلى الإسلام»[1].

ثمّ أخذ يسطر الصفحات الطويلة في ذكر فضائل أبي بكر وسبق إسلامه والروايات الواردة في ذلك وتفنيد ما يعارضها. والذي يبدو من منهج ابن كثير في مؤلفاته في التفسير والتاريخ والسيرة، إنه نفس المنهج الذي اتبعه ابن تيمية الحراني في كتبه وخاصة كتاب «منهاج السنة» فهو يتوقف عند كل فضيلة لعلي عليه السلام فيطعن فيها أو يكذبها أو يقلل من شأنها ! ثمّ يذكر للآخرين ما يضارعها ويدعم ذلك بالروايات ووجوه الأقوال والآراء ! وهذا ما نلاحظه في الجمع التبرعي الذي ذكره فقدم إسلام خديجة وزيد على إسلام علي عليه السلام، وجعل إسلام أبي بكر أنفع من إسلام من تقدمه ! بل يبدو أن ابن كثير كان مولعاً بتفنيد فضائل علي عليه السلام والاشادة بفضائل غيره ! فيذكر في كتابه حديثاً صحيحاً باسناد الامام أحمد والترمذي في إسلام علي، وأ نه أول من أسلم وصلّى، فيعقب على ذلك بقوله: «وهذا لا يصحّ من أيّ وجه كان روي عنه، وقد ورد في أنّه أول من أسلم من هذه الأُمة، أحاديث كثيرة لا يصحّ منها شيء»[2].

---

(١) البداية والنهاية: ٣ / ٣٤ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ٧ / ٣٩٢ .

وفي المقابل نجده يذكر رواية ابن إسحاق التي جاء فيها أن رسول الله ﷺ دعا أبا بكر إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن: «فلم يقر ولم ينكر» فيعقب على ذلك ويقول: وهذا الذي ذكره ابن إسحاق في قوله: «فلم يقر ولم ينكر» منكر، فإن ابن إسحاق وغيره ذكروا أنه كان صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن سجيته وكرم أخلاقه، ما يمنعه من الكذب على الخلق فكيف يكذب على الله ؟ ولهذا بمجرد ما ذكر له أن الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم ولا تراجع.

ثمّ يقول: «وقد ذكرنا كيفية إسلامه في كتابنا الذي أفردناه في سيرته وأوردنا فضائله وشمائله وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي ﷺ من الأحاديث، وما روي عنه من الآثار والأحكام والفتاوى، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ولله الحمد والمنة»[١].

ونحن ليس لدينا اعتراض في أن يكتب ابن كثير أو غيره في فضائل من شاء من الإنس والجن ! إلاّ أننا نستنكر روح المكابرة والتجني على الحقيقة من خلال انكار الروايات الصحيحة التي رواها رجال ثقات من الصحابة والتابعين، وحكم بصحتها الحفاظ، وأطبق على صحة مؤداها أرباب السير والمغازي، والتي تنص على أن الإمام علياً أول الناس إسلاماً وإيماناً، فيأتي الرجل ويحكم عليها بالتعصب والهوى ويدعي أنها أحاديث كثيرة ولا يصح منها شيء !

ومهما يكن من أمر، فإن ما يروى ويقال حول أولية إسلام أبي بكر لا يمكن الأخذ به لما يلي:

١ - إنّ ما يروى من أسبقية إسلام أبي بكر على غيره، معارض بروايات أُخرى أصح منها سنداً وأوضح دلالة تنص على تأخر إسلامه إلى ما بعد بعثة

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٣٧ .

النبي ﷺ بزمن طويل، ففي صحيح محمد بن سعد بن أبي وقاص التي أخرجها الطبري في تاريخه، وباسناد صحيح رجاله ثقات، قال محمد بن سعد: «قلت لأبي: أكان أبو بكر أوّلكم إسلاماً؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين، ولكن كان أفضلنا إسلاماً»(١).

وهذا يعني أن إسلام أبي بكر كان بعد المرحلة السرية التي دامت ثلاث سنوات، حيث «كان رسول الله في دار الأرقم عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلا مسلماً، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب، فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا»(٢). ويؤيد هذا ما في الطبري: «وقال آخرون: أسلم قبل أبي بكر جماعة»(٣). بل إن بعضهم قال: «إنّ أبا بكر قد أسلم بعد سبع سنين من البعثة»(٤).

٢ - إن من يروى عنهم أولية إسلام أبي بكر كابن عباس، والشعبي، وأبي ذر الغفاري، يروى عنهم أيضاً أولية إسلام علي عليه السلام! ورواياتهم في أولية إسلام علي عليه السلام أكثر وأشهر، كما يقول أبو جعفر الاسكافي المعتزلي(٥).

وقد نقلنا سابقاً أكثر من رواية في سبق علي عليه السلام إلى الإسلام. وروى الشعبي عن رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «هذا أول من آمن بي وصدّقني وصلّى معي».

بالاضافة إلى الأخبار الواردة بسبقه عليه السلام المذكورة في الكتب الصحاح

---

(١) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٢ / ٣١٦ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٧٠ (الهامش).

(٣) الطبري: ٢ / ٣١٦ .

(٤) الاستغاثة: ٢ / ٣١ .

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

والأسانيد الموثوق بها[١].

٣ - إنّ فضيلة أسبقية وأولية أبي بكر إلى الإسلام من الدعاوى المتأخرة، ولم يدعيها أحد ولا احتج بها أحد من المناصرين لأبي بكر يوم السقيفة، والحوارات الحادة التي جرت في تلك السقيفة قد نقلها المؤرخون وليس فيها هذه الدعوى.

يقول أبو جعفر الاسكافي - وهو البعيد عن عالم التشيع - في معرض رده على الجاحظ الذي احتج بإمامة أبي بكر، بكونه أوّل الناس إسلاماً: «فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً، لاحتجّ به أبو بكر يوم السقيفة، وما رأيناه صنع ذلك لأ نّه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح، وقال للناس: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا منهما من شئتم، ولوكان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لادّعى واحد من الناس لأبي بكر الامامة في عصره أو بعد عصره، بكونه سبق إلى الإسلام، وما عرفنا أحداً ادّعى له ذلك..»[٢].

٤ - كل المعطيات التاريخية في هذه القضية تشير إلى سبق إسلام عليعليه السلام على غيره، وعندما نتتبع السير التاريخي لدعوى سبق إسلام غيره عليه، نجدها دعوى متأخرة عن عهد الخلافة، وهذا يعني ظهور هذه الدعوى في عصر مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان الذي كان مولعاً بعداوة علي وسبه على المنابر، والسعي بكل الوسائل لطمس فضائله ومناقبه، أو وضع ما يناقضها في الصحابة، وذلك ضمن كتب رسمية أرسلها إلى عماله في جميع الآفاق والأقاليم! وقد ورد في بعض من هذه الكتب: «إذا جاءكم كتابي هذا

(١) المصدر نفسه: ١٣ / ٢٢٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ١٣ / ٢٢٥ وما بعدها.

فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وائتوني بمناقض له في الصحابة !.. فقُرأت كتبه على الناس فرويت أحاديث كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها!.. وقد روى ابن عرفة المعروف بـ «نفطويه» وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أُمية تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أُنوف بني هاشم»[١].

● محاولة الجمع بين الآراء:

رغم كل ما تشبث به من ادعى أسبقية أبي بكر إلى الإسلام، إلاّ أنهم وجدوا في مقابلهم حشداً من الروايات والأدلة الواضحة على خلاف ما يدعون، وأن أسبقية علي عليه السلام إلى الإسلام، أوضح دلالة، وأوثق رواية من غيرها من الدعاوى ! ولهذا تجدهم يلجأون إلى طريقة أُخرى لعلها تصب في صالحهم في نهاية المطاف ! وذلك من خلال جمع تبرعي بين الروايات يعطي أولوية السبق إلى الإسلام لمجموعة من الأسماء في عرض واحد، مع ابراز أفضلية إسلام أبي بكر من بينهم !

قال صاحب السيرة الحلبية: «وقول بعض الحفاظ إنّ أبا بكر أول الناس إسلاماً، هو المشهور عند الجمهور من أهل السنة، لا ينافي ما تقدم من أن علياً أول الناس إسلاماً بعد خديجة، ثمّ مولاه زيد بن حارثة، لأنّ المراد أول رجل بالغ ليس من الموالي أسلم أبو بكر !.. وعبارة ابن صلاح والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار - أي غير الموالي - أبو بكر، ومن الصبيان

(١) العلوي - محمد بن عقيل، النصائح الكافية لمن يتولى معاوية: ٩٨ - ٩٩، طبعة دار الزهراء - بيروت، (١٩٨١م).

علي ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة. . » وزاد دحلان في سيرته: « . . ومن العبيد بلال»[١].

ويروى عن المحب الطبري قوله: «الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها، فيقال: أوّل من أسلم مطلقاً خديجة. . وأول ذكر أسلم علي بن أبي طالب وهو صبي لم يبلغ الحلم، كان مستخفياً بإسلامه، وأوّل رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة».

وقد قال دحلان قبل ذلك بقليل: « . . والتحقيق: أنّ كلا من أبي بكر وعلي - رضي الله عنهما - بادر بالتصديق والإسلام! وعلي (رضي الله عنه) كان عند النبي ﷺ وفي بيته فيحتمل أنّه أسلم مع إسلام خديجة، ويحتمل أنه قارن إسلامه إسلام أبي بكر! ومثل ذلك زيد بن حارثة، فإنه كان مولى النبي ﷺ وكان من السابقين في الإسلام، وكذا بلال، كان من السابقين في الإسلام»[٢].

وهذا الجمع التبرعي كما نرى لا يتفق مع الأُسس العلمية التي اتبعها العلماء للجمع بين الروايات المختلفة المتعارضة إن لم يصل التعارض بينها إلى حد التباين، كأن يكون بين الروايات إطلاق وتقييد، أو عموم وخصوص، أو تكون رواية مفسرة لأُخرى. . وأين هذا مما نحن فيه؟ فبعد ثبوت أسبقية علي عليه السلام وأولية إسلامه وإيمانه على غيره، فلا يبقى مجال لهذا الجمع التبرعي الفاقد للأُسس العلمية.

والذي نعتقده أن الغرض من هذا الجمع التبرعي الذي قال به بعضهم بعد أن أعيته المذاهب في إثبات ما يدعيه، هو التقليل أو الحط من قيمة أسبقية علي عليه السلام إلى الإسلام لأ نّه إسلام صبي ولا ينم عن تعقل وتدبر، أما إسلام غيره فكان عن تبصر وتدبر وتعقل!

---

(١) السيرة الحلبية: ١ / ٣٩٢، والسيرة النبوية لدحلان: ١ / ١٤٩ .

(٢) دحلان، السيرة النبوية: ١ / ١٤٨ - ١٤٩ .

أو كما ادعى ابن كثير - بعد أن ذكر الجمع بين الأقوال كلها .: «وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفع من اسلام من تقدم ذكرهم . . »(١) .

وهنالك جموع تبرعية أُخرى للذهبي في تلخيص المستدرك، وللجاحظ في الرسالة العثمانية(٢) تركناها خوف الاطالة .

٤ - حقيقة إسلام علي عليه السلام

تستوقفنا ونحن نستعرض أولية وسبق علي عليه السلام إلى الإسلام والإيمان، كلمة المقريزي في الامتاع وقد نقلناها سابقاً عنه والتي يقول فيها : «وأما علي بن أبي طالب فلم يكن مشركاً بالله أبداً، لأنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كفالته كأحد أولاده، يتبعه في جميع أُموره، فلم يحتج أن يدعى للإسلام فيقال أسلم» .

وهو استدلال لطيف مقنع ليس فيه أي تكلف، ويستند إلى سيرة علي وخصائصه الذاتية والتربوية، وكل الأدلة الروائية التي ذكرنا طرفاً منها تؤيد هذا الاسلام النقي الذي ليس فيه أي شائبة شرك سابق، وقد تفرد بذلك علي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

إلاّ أن صاحب السيرة الحلبية نقل كلام المقريزي وعقب على ذلك بقوله : «هذا كلامه فليتأمل، فإنّ علياً كان تابعاً لأبيه في دينه، ولم يكن تابعاً له صلى الله عليه وآله وسلم كأولاده»(٣) .

فهو لا يرتضي كلام المقريزي ويتأمل فيه، ثمّ يقول إنّ علياً كان تابعاً لأبيه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٣٦، ودحلان، السيرة النبوية: ١ / ٤٣٢ .

(٢) الذهبي، تلخيص المستدرك: ٣ / ١١٢ المطبوع على هامش المستدرك للحاكم، وشرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٣٢

(٣) السيرة الحلبية: ١ / ٣٨٤ .

في دينه، وليس لرسول الله ﷺ، وبما أنهم يقولون إن والد علي «أبا طالب» قد مات مشركاً ! - كما سوف يأتينا - فالنتيجة تكون أن التابع يأخذ حكم المتبوع، فيكون علياً تابعاً لدين والده وهو الشرك وذلك قبل أن يسلم مع رسول الله ﷺ !

وبعد هذا يأتي صاحب الحلبية بحشد من الأسماء وعلى رأسهم أبا بكر الصديق ويعدُّهم في مَنْ رفض عبادة الأصنام في الجاهلية، مضارعاً بذلك ما تفرد به علي من فضيلة عدم السجود لصنم قط !

ومن المفارقات العجيبة لدى الحلبي في سيرته أنه يروي روايات عجيبة في حق علي عليه السلام قد لا نرى صحتها كما يقول الأميني في الغدير(١).

فقد روى عن فاطمة بنت أسد أُم الإمام علي عليه السلام أنها قالت: «إنها في الجاهلية أرادت أن تسجد لهبل وهي حامل بعلي، فتقوّس في بطنها فمنعها من ذلك».

ويروي عنها أنها قالت: «لما ولدته سماه - أي رسول الله ﷺ - علياً وبصق في فيه، ثمّ إنه ألقمه لسانه، فما زال يمصه حتى نام. قالت: «فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد، فدعونا له محمداً ﷺ فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله عزّ وجل».

ويروي أيضاً عن خصائص العشرة للزمخشري: «أنّ النبي ﷺ تولى تسميته بعلي وتغذيته أياماً من ريقه المبارك بمصه لسانه»(٢).

فإذا كان علي عليه السلام بهذه المثابة، إذ يمنع أُمه من السجود للصنم وهو حمل - بحسب ما تزعم الرواية(٣) - فهو موحد لله في عالم الأجنّة، فكيف

---

(١) الغدير: ٣ / ٣٢٩ .

(٢) السيرة الحلبية: ١ / ٣٨٢ .

(٣) نحن نؤمن تبعاً للأدلة الواضحة أن آباء وأُمهات الأنبياء والأئمة مطهرون من دنس الشرك والأصنام، وتحدثنا في درس سابق، عن طهارة وإيمان آباء وأُمهات النبي ﷺ، والكلام نفسه يأتي في الحديث عن آباء وأُمهات الأئمة عليهم السلام .

يدنّسه درن الكفر في عالم التكليف؟

وكيف يتأمل ويتوقف صاحب الحلبية فيما قاله المقريزي في الامتاع ؟ أليس هذا بعجيب ! ثمّ إن ما رواه عن فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) في تسمية علي من قبل رسول الله وتغذيته . . . يدل بوضوح على أن رسول الله ﷺ قد اختار علياً - باختيار من الله - ليكون إلى جنبه، منذ ولادته ورضاعه وليس بعد أن بلغ من العمر ست سنوات بحسب زعم الرواية التاريخية، أو على الأقل كانت نشأته، رضيعاً، وفطيماً، ويافعاً، وغلاماً على يد رسول الله ﷺ ثمّ انتقل إلى جنب رسول الله ﷺ .

ومهما يكن من أمر، فإسلام علي عليه السلام ليس كإسلام غيره، يقول العلامة الأميني: «فقد انعقدت نطفته على الحنيفيّة البيضاء، واحتضنه حجر الرسالة، وغذّته يد النبوّة، وهذّبه الخلق النبوي العظيم، فلم يزل مقتصاً أثر الرسول قبل أن يصدع بالدين الحنيف وبعده، فلم يكن له هوى غير هواه، ولا نزعة غير نزعته، فكيف يمكن للخصم أن يقذفه بكفر قبل الدعوة ؟ وهو يقول - وإن لم نر صحّة ما يقول .: إنه كان يمنع أُمه من السجود للصنم وهو حمل».

وقد يكون هنالك نوع من المسامحة في التعبير عندما نقول: إنّ علياً أسلم، أو إنه أول من أسلم ! إلاّ أن: «هذا ما اقتضته المسالمة مع القوم في تحديد مبدأ إسلامه عليه السلام وأما نحن فلا نقول: إنّه أوّل من أسلم بالمعنى الذي يحاول ابن كثير وقومه قوله؛ لأنّ البدأة به تستدعي سبقاً في الكفر، ومتى كفر أمير المؤمنين حتى يسلم ؟ ومتى أشرك بالله حتى يؤمن ؟ . . . بل نحن نقول: «إنّ المراد من إسلامه وإيمانه وأوّليته فيهما وسبقه إلى النبي ﷺ في الإسلام، هو المعنى المراد من قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] .

(١) الأنعام: ١٦٣ .

وفيما قال سبحانه عنه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وفيما قال سبحانه عن موسى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وفيما قال تعالى عن نبيه الأعظم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾[3].

وفيما قال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

هكذا قرّر العلامة الأميني (رحمه الله)[6] إسلام علي بن أبي طالب عليه السلام، ونعمَ ما قرره، فإسلام علي هو إسلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإسلام الأنبياء عليهم الصلاة؛ والإسلام الذي تحدثت الآيات المباركة عنه.

وليس فيما قاله الأميني أي غلو أو تطرف، فهو قول يستند إلى الأدلة والسيرة العملية والايمانية لعلي عليه السلام، وكلّ منصف أن تجرد عن نزعة التعصب ودرس حياة علي عليه السلام ودقق في أفعاله وكلماته في التوحيد لله سبحانه يصل إلى نفس النتيجة والتقرير الذي وصل إليه الأميني (رحمه الله) والمقريزي من قبله.

يقول كاتب مصر الكبير عباس محمود العقاد في كتابه: «عبقرية الإمام علي»: «إنّ علياً ولد في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود للأصنام،

---

(١) البقرة: ١٣١ .

(٢) الأعراف: ١٤٣ .

(٣) البقرة: ٢٨٥ .

(٤) الأنعام: ١٤ .

(٥) غافر: ٦٦ .

(٦) الأميني، الغدير: ٣ / ٣٣٩ - ٣٤٠ بتصرف في التقديم والتأخير.

فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة والعبادة فيها، بل قد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قط عبادة الأصنام، وقد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة في صلاة النبي ﷺ وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأُمه».

ثمّ أضاف يقول: «لقد ملأ الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة، ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه، فبحق ما يقال: إنّ علياً كان المسلم الخالص في سجيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً، ولا أعمق نفاذاً منه، لقد كان المسلم في عبادته وعلمه وعمله، وفي قلبه وعقله حتى ليصح أن يقال: بأنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلاّ ما يزيد التعليم على الطباع»[1].

وفي خاتمة هذا الدرس، ينبغي أن نسجل بأننا عندما نبحث في قضية إسلام علي عليه السلام واسبقيته على غيره من المسلمين الأوائل، لا نريد بذلك أن نقلل من أهمية إسلام غيره، ولا أن ننكر فضلهم ومرتبتهم، فهؤلاء لهم شرف الأولية إلى الإسلام والإيمان وصحبة رسول الله ﷺ في تلك الظروف العصيبة، وتلك الجاهلية الجهلاء، وقد أشاد القرآن الكريم بموقفهم ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

إلاّ أننا توقفنا طويلا عند قضية أسبقية وأولية إسلام علي عليه السلام لأنها من القضايا الواقعية التي حكتها عشرات النصوص، ونطق بها كبار المؤرخين والحفاظ.. إلاّ أن بعضهم حاول جاهداً أن يتنكر لها، أو يشكك فيها، أو يضع في مقابلها ما يناقضها، فكان لابد لنا من ابراز هذه الحقيقة ونحن نؤرخ لبدايات البعثة النبوية وظهور الإسلام.

---

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ١١٥ - ١١٦ نقلا عن عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية الإمام علي».

الأسئلة:

١ – ما هي أهمية البحث في أوائل من أسلم ؟

٢ – ما هي الأدلة على أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أول الناس إسلاماً ؟

٣ – ما هي الشبهات والآراء التي قيلت في أولية إسلام علي عليه السلام ؟

٤ – ما هي الأغراض والأهداف من وراء تلك الشبهات التي قيلت حول أولية إسلام علي عليه السلام ؟

٥ – كيف حاول بعضهم الجمع بين الروايات لتعيين من أسلم أولا ؟ وما هو الخلل في هذا الجمع ؟

٦ – كيف نصف حقيقة إسلام علي بن أبي طالب عليه السلام ؟

الدرس الثالث عشر
الدَّعوة

«القسم الثاني»
الدَّعوة في المرحلة السِّريَّة

محاور البحث:

١ - المراحل الثلاث للدعوة الإسلاميَّة
٢ - أسباب المرحليّة في التغيير الاجتماعي
٣ - مدَّة المرحلة السريَّة
٤ - الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم
٥ - المعالم العامة للمرحلة السرية
٦ - موقف قريش من الدعوة في مرحلتها السرية
٧ - نموذج من المسلمين الأوائل: «أبو ذر الغفاري»
● الأسئلة

الدَّعوة في المرحلة السِّريَّة

المدخل

اصطلح المؤرخون وكتّاب السيرة على المرحلة التي سبقت الدعوة العامة بـ «المرحلة السرية»، وهي مرحلة الاستخفاء والكتمان، والتي بدأت بعد بعثته ﷺ، حيث: «أقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثمّ أنزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]، فأعلن بالدعوة، وجاهره قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرتين»[٢].

وتعتبر هذه المرحلة من أدق وأخطر مراحل الدعوة الإسلامية، إذ تمثل مرحلة البناء للأُسس التوحيدية، واعداد وبناء الجماعة الصالحة من الرعيل الأول من الدعاة، والاعدادالنفسي والروحي والمعنوي للمواجهة المتوقعة مع الوثنية والجاهلية التي سوف تقف في وجه الدعوة والدعاة.

ولأهمية هذه المرحلة في دراسة السيرة النبوية، فسوف نتناول بالاجمال أهم معالمها، وبالتفصيل في بعض مقاطعها، وذلك بعد مقدمة نبين فيها التقسيم المرحلي للدعوة الإسلامية وضرورة هذه المرحلية.

---

(١) الحجر: ٩٤ .

(٢) ابن قيم، زاد المعاد في هدي خير العباد: ١ / ٣٠ .

١ – المراحل الثلاث للدعوة الإسلاميَّة

قامت الدعوة الإسلاميَّة المحمَّدية منذ انطلاقها، على أساس العمل المرحلي انسجاماً مع سُنَّة الله تبارك وتعالى في تغيير المجتمعات والأُمم، ولهذه المرحلية سبب موضوعي، فرضته ضخامة أهداف الدعوة الإسلاميَّة، وتواضع الإمكانيات. فالعمل التَّغييري الهادف لا يمكن تحقيقه في الناس دون تمرُّس بعمل الدَّعوة في خطوات يتلو بعضها الآخر، بل إنَّ المرحليَّة تتعدَّى ذلك لتمثِّل قانوناً وسُنَّة كونيَّة واجتماعيَّة.

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض في ستَّة مراحل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(١).

وخلق الإنسان في عدة مراحل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٢).

وخلق سبحانه الكائنات الحيَّة على أطوار، وأَودَع في الجميع خاصيَة الُنمو التَّدريجي، كما نشاهد فيما حولنا من خلق الله (جلَّ وعلا).

وكذلك سنَّته تعالى في تحوِّل المجتمعات من وضع إلى آخر، سواء كان التحوُّل جزئيّاً أم كلِّياً، حيث يتمُّ هذا التحوُّل على مراحل، خاصَّة إذا كان هذا التحوُّل يتمُّ بجهود فئة من المجتمع نفسه.

---

(١) سورة ق: ٣٨ .

(٢) المؤمنون: ١٢ – ١٤ .

٢ - أسباب المرحليَّة في التغيير الاجتماعي

ويمكن تلخيص أسباب ضرورة وجود المرحلية في التغيير الاجتماعي والديني بما يلي:

أوّلاً: ضرورة استكمال الفئة المُغيّرة للحدِّ الأدنى من مقوّمات البناء الذاتي اللّازم كمّاً ونوعاً.

ثانياً: صعوبة تقبّل المجتمع للتغيُّر دفعة واحدة.

ثالثاً: بروز العَقَبات الَّتي يُحدثها أعداء التَّغيير، والتي تستدعي زيادة الطاقة الفاعلة والاستمرار لدى قوة المُغَيِّر.

وتختلف المرحليَّة في التحوُّل والتَّغيير الاجتماعي باختلاف الظروف الموضوعيَّة الموجودة في المجتمع، وباختلاف القدرات التي تملكها الفئة المُغيرة، وطبيعة الأهداف التي تعمل بها، وحجم القوى المعارضة التي تقف في طريقها، والحقبة الزمنيَّة التي تمرُّ على المجتمع والفئة العاملة لتغييره.

إنَّ أدنى نظرة إلى جهاد الأنبياء عليهم السلام ترينا كيف كانوا يتدرَّجون في عملهم لتحويل الناس وتغييرهم برسالة الله تعالى، وكيف كانوا يتقيَّدون بالتدريج والمرحليَّة، وقد التزم الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الحقيقة وطبَّقها بدقة، حيث صدع بدعوته المباركة على ثلاث مراحل:

المرحلة السِّريَّة: وهي المرحلة التي تمَّ فيها بناء النَّواة الطليعيَّة من المتغيرين بالإسلام، والذين يتحمَّلون بدورهم أعباء المسيرة، وقد دامت هذه المرحلة ثلاث سنوات.

المرحلة العلنيَّة: وهي مرحلة التبليغ العام، والتفاعل مع المجتمع في صراع فكري وسياسي مرير، وقد دامت هذه المرحلة عشر سنوات.

مرحلة تأسيس الدولة: وهي المرحلة التي تمَّ فيها تأسيس الدولة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي في المدينة، وخوض الصِّراع الكامل مع أعداء الدعوة، وتحرير أوسع بقعة ممكنة من المناطق المحيطة بالدولة وضمُّها إلى الدولة(١).

وهناك تقسيم آخر لأحد الكتَّاب إذ يُقسِّم مراحل الدَّعوة الإسلامية إلى أربع مراحل وهي:

المرحلة الأُولى: الدّعوة سراً أو «المرحلة السِّرية»: واستمرَّت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً، وباللسان فقط أو «مرحلة الإعلان» بالدَّعوة إلى الله بالقول فقط دون اللُّجوء إلى العنف واستمرَّت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو «مرحلة الدِّفاع» عن الدَّعوة بالسَّيف، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة، أو امتنع عن الدخول في الإسلام من الوثنيين والمشركين وغيرهم، وهو ما استقرَّ عليه أمر الدعوة وحُكم الجهاد(٢).

٣ - مدَّة المرحلة السِّريَّة

بدأ رسول الله ﷺ من حين بعثته ﷺ يدعو الأفراد سرَّاً إلى الإسلام، وكان من يُسلم منهم يكتم إسلامه ولا يُعلن شعائره.

---

(١) ثقافة الدَّعوة: ٣٢٦ - ٣٢٧، بتصرّف.

(٢) البوطي، فقه السِّيرة: ١٠٥ . مرجع سابق.

وتكتَّم النبيﷺ في السنوات الثلاث الأولى لم يكن سببه الخوف على نفسه، بل أراد الحفاظ على مستقبل الدَّعوة حتَّى لا تتعرَّض لعمل مسلَّح يقضي عليها في مهدها؛ فلا بدَّ من إيجاد ثُلَّة من المؤمنين ومن مختلف القبائل يحملون هذه العقيدة ويدافعون عنها، حتَّى لا يبقى مجال لتصفيتهم السَّريعة والحاسمة من قِبَل أعدائهم الأشرار، كما أنَّهﷺ أراد أن لا تُهدر الطاقات وتذهب الجهود سُدى وينتهي الأمر إلى تمزُّق وتوزُّع في الثُلَّة المؤمنة ثمَّ إلى ضياع مدمِّر، ولهذا كانت هذه الفترة السِّريَّة بمثابة إعداد نفسي وتربية عقيديَّة وروحيَّة لتلك الصفوة المؤمنة بربّها وبرسالة نبيّها الأكرمﷺ، تمكِّنهم من الصُّمود في وجه التَّحديات الَّتي تنتظرهم[١].

٤ - الدَّعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم

استمرَّ رسول اللهﷺ يدعو إلى الإسلام سرَّاً وأصحابه من حوله يدعون بدعوته، فيستجيب لهذه الدعوة من أراد الله له الهداية من رجال مكَّة ونسائها فيزداد عدد المؤمنين بها يوماً بعد يوم؛ لكنَّها كانت زيادة ضئيلة متباطئة، إذ كان الناس في مكَّة يخشون بأس قريش وسلطانها، فكان الذين يُسلمون منهم يُسلمون في حذر وخوف، وكان الرَّسولﷺ يُسرُّ إلى أصحابه تعاليمه، ويحذِّرهم أن يستعلنوا بصلاتهم ودعوتهم مخافة أن تتسرَّب أنباؤها إلى قريش فتقضي عليها وهي لا تزال قليلة الأنصار ضعيفة الشَّوكة «فكان أصحابُ الرَّسولﷺ إذا أرادوا أن يُصلُّوا خرجوا إلى ظواهر مكَّة، وسكنوا في شِعاب الجبال فصلُّوا هناك في منعطفاتها المنعزلة، مستخفين بصلاتهم من عيون القوم خشية أن تراهم.

لكن أنباء الدَّعوة على الرَّغم من ذلك تسرَّبت إلى قريش، فأخذوا يراقبون محمَّداًﷺ وصحبه ليعلموا عملهم، وليعرفوا حقيقة ذلك الأمر، الذي يجتمعون

---

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٧٥ - ٧٦ . مرجع سابق.

له، ويتخافتون به ويعتزلون القوم من أجله، وصار بعض المشركين يترصَّدونهم ويتعمَّدون إيذاءهم، وحصلت صدامات فرديَّة لهم معهم. وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يتجنَّب مواقف الاصطدام بينه وبين قومه، فاختار له ولأصحابه مكاناً منعزلاً عن الناس هو دار (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي)، وهو سيِّد من سادات قريش الذين سابقوا إلى الإسلام، وكانت تلك الدَّار على مَقرُبة من الصَّفا؛ فكان رسول الله ﷺ يجتمع فيها بأصحابه، يَعظهم ويرشدهم، ويصلِّي بهم، ويتلو عليهم ما أوحي إليه من آيات القرآن الكريم ويعلِّمهم كيف يُطبِّقون مبادئها في حياتهم، فكانت تلك الدَّار لهم مَسْجِداً للعبادة، ومدرسة للتَّعليم والتهذيب وندوة للشورى وتدبير الأمر.

واستمرَّت الحال على ذلك النحو ثلاث سنين وعدد المسلمين يزداد شيئاً فشيئاً حتَّى بلغوا - من الرجال والنساء - نحو الأربعين أكثرهم من المستضعفين والفقراء وأقلّهم من الأشراف والسَّادة(١).

قال ابن اسحاق: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمرَهُ واستتر به إلى أن أمرهُ الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين»(٢).

٥ - المعالم العامة للمرحلة السّرية

بعد العرض الاجمالي الذي قدمناه بين يدي البحث حول هذه المرحلة الهامة من مراحل الدعوة الإسلامية، لابد لنا من وقفة تأملية نقدية عند كلمات بعض كتّاب السيرة حول هذه المرحلة، وضمن محاور محددة تبين لنا المعالم العامة لهذه المرحلة.

---

(١) صور من حياة الرَّسول: ١٣٧ - ١٣٨، مرجع سابق.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٨٠ .

أولا: المسلمون الأوائل في هذه المرحلة وعددهم:

يذكر لنا مؤرخ السيرة والمغازي ابن إسحاق عدة قوائم في المسلمين الأوائل، والذين تكامل عددهم تدريجياً حتى وصل إلى أربعين مسلماً.

ففي القائمة الأُولى يذكر: «إسلام خديجة بنت خويلد، ثمّ إسلام علي بن أبي طالب، ثمّ إسلام زيد بن حارثة، ثمّ إسلام أبي بكر الصديق» وهؤلاء قد أسلموا بدعوة النبيﷺ لهم مباشرة.

ثمّ يذكر قائمة ثانية تضم أسماء خمسة أشخاص هم: «عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله» وهؤلاء الخمسة قد أسلموا بدعوة أبي بكر لهم: «فجاء بهم إلى رسول اللهﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلّوا».

ويقول ابن إسحاق: «فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام، فصلّوا وصدّقوا رسول اللهﷺ بما جاءه من الله».

ثمّ يذكر قائمة ثالثة، تضم أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة، يذكر إسلامهم مع بعض التفاصيل المقتضبة عن نسبهم وعشائرهم. وهؤلاء هم: «أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه: قدامة وعبد الله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وسعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر (وهي يومئذ صغيرة)، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعيّاش بن أبي ربيعة وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله ابن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب؛ وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث؛ وامرأته فاطمة بنت المجلّل، وأخوه حطاب

ابن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون؛ وامرأته رملة بنت عوف، ونُعم بن عبد الله، وعامر بن فُهيره، وخالد بن سعيد بن العاص؛ وامرأته أُمينة بنت خَلف، وحاطب بن عمرو، وأبو حذيفة بن عتبة، وواقد بن عبد الله، وخالد وعامر وعاقل وإياس، وبنو البكير، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي»[١].

وقد تحدثنا في الدرس السابق عن أوائل من أسلم، ولا نريد أن نعيد ما قلناه في ذلك الدرس، ولكن هنالك جملة من الملاحظات على القائمة الثانية والثالثة لابن إسحاق:

الملاحظة الأُولى: إن القائمة الثانية تضم أسماء خمسة أشخاص: «عثمان، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، وطلحة».

وتقول رواية ابن إسحاق إنهم أسلموا بدعوة أبي بكر لهم! وأضاف ابن كثير وغيره من المؤرخين أسماء بعض من ورد أسماؤهم في القائمة الثالثة وقالوا إنهم أيضاً أسلموا بدعوة أبي بكر[٢].

ولكن قد مرّ بنا سابقاً بعض الآراء في وقت إسلام أبي بكر، ففي رواية محمد بن سعد عن أبيه والتي يرويها الطبري، قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أو لكم إسلاماً؟ قال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين..»[٣]، وهذا يعني أنه أسلم بعد الخروج من دار الأرقم، أي بعد المرحلة السرية.

ثمّ أليس من العجيب أن يكون أُولئك الخمسة الذين أسلموا بدعوة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٥٧ - ٢٧٠، وانظر هوامش الصفحات ففيها بعض التفاصيل المهمة عن هؤلاء.

(٢) انظر ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٣٩ - ٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٣٩، والطبري: ٢ / ٣١٦.

أبي بكر، هم أنفسهم أهل الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب، في مقابل علي بن أبي طالب لتأمين انتخاب الخليفة !! فهل لعبت الصِدفة دورها فاجتمع أُولئك الخمسة بعد عشرات السنين لينافسوا علياً على الخلافة ؟ أم أنها فضيلة سجلت لأبي بكر من قبل الرواة ؟ ولعل ما في عثمانية الجاحظ ما يكشف لنا عن هذا العجب، يقول الجاحظ: «مَن أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد؛ بل عَنوا الكثرة في القدر، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشورى، كلهم يصلح للخلافة، وهم أكفاء علي عليه السلام، ومنازعوه الرياسة والإمامة، فهؤلاء أكثر من الجميع»[1].

ثمّ إننا عندما نعود إلى تراجم أُولئك الخمسة في كتب التراجم والتاريخ نجد أن بعضهم يُدعى تقدم إسلامه على إسلام أبي بكر، وبعض آخر أسلم بدعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يسعنا المجال لذكر تفاصيل ترجمتهم وطريقة إسلامهم[2].

الملاحظة الثانية: إن القائمة الثالثة قد ضمت إسلام جعفر بن أبي طالب، مع أن هنالك روايات أُخرى تذكره من ضمن السابقين إلى الإسلام وإن إسلامه بعد إسلام علي عليه السلام بقليل من الوقت وقبل إسلام زيد بن حارثة، قال ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة جعفر بن أبي طالب: «. . . أسلم بعد إسلام أخيه عليّ بقليل» ثمّ يقول: «روي أن أبا طالب رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً (رضي الله عنه) يصليان، وعلي عن يمينه، فقال لجعفر (رضي الله عنه): صِل جناح ابن عمك، وصلِّ عن يساره. . . »[3].

الملاحظة الثالثة: إنّ القائمة الثانية والثالثة قد أهملت ذكر أسماء بعض

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٧٠ - ٢٧١ عن الرسالة العثمانية للجاحظ.

(٢) انظر ترجمتهم في أُسد الغابة لابن الأثير، والاستيعاب لابن عبد البر، والاصابة لابن حجر.

(٣) ابن الأثير - علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١ / ٤٢١ بتحقيق: عادل أحمد الرفاعي، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م).

الصحابة ممن كانوا من المسلمين الأوائل، من أمثال: أبي ذر الغفاري، وأبي نجيح السلمي، وعتبة بن مسعود، ومصعب بن عمير، وياسر، وسمية والدي عمار.. وغيرهم.

وقد نص المؤرخون على إسلامهم خلال هذه المرحلة، بل كان بعضهم من المسلمين الأوائل، فقد ذكر أبو عمر في السابقين: «أبا ذر جندب بن جنادة، وأبا نجيح السلمي... ومازن بن مالك، وغاضرة بن عتاب.. قال أبو عمر: ولكنهما - يعني أبا ذر وأبا نجيح - رجعا إلى بلاد قومهما، وذكر فيهم عتبة بن مسعود أخا عبد الله بن مسعود..»(١).

وعن اليعقوبي: «وكان أول من أسلم، خديجة بنت خويلد من النساء، وعلي ابن أبي طالب من الرجال، ثمّ زيد بن حارثة، ثمّ أبا ذر، وقيل أبو بكر قبل أبي ذر، ثمّ عمرو بن عنبسة السلمي، ثمّ خالد بن سعيد بن العاص ثمّ سعد بن أبي وقاص، ثمّ عتبة بن غزوان ثمّ خبّاب بن الارت ثمّ مصعب بن عمير»(٢).

ومهما يكن من أمر، فعندما نقارن بين القوائم التي يذكرها ابن إسحاق عن المسلمين الأوائل مع القوائم التي يذكرها غيره من المؤرخين نجد اختلافاً بينها، كذلك الاختلاف موجود في تلك القوائم أيضاً.

وهذا الاختلاف يعود إلى جملة من الأسباب منها:

١ - حساسية الموضوع: إذ إن موضوع من كان أول الناس إسلاماً، ومن كان أقدم من غيره في الإسلام، من الموضوعات التي استغلتها الدوافع والأغراض السياسية فيما بعد.

---

(١) ابن سيد الناس - فتح الدين أبو الفتح محمد، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: ١ / ١١٥ - ١١٦، تحقيق وشرح: إبراهيم محمد رمضان، طبعة دار القلم.

(٢) اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٢٣، طبعة دار صادر - بيروت.

٢ - عدم الاعتناء بضبط الحوادث: وهو سبب أساسي في ضياع كثير من المعلومات الهامة، فإنّ القوم لم يكونوا يومئذ يعنون بتثبيت الحوادث وتدوين التواريخ، وأن التدوين لم يتم إلاّ بعد أمد، وبالاعتماد على ذاكرة من تبقى من الصحابة.. والذاكرة لا تعي الأخبار ولا تحافظ عليها أمداً طويلاً[١].

ثانياً: دار الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي:

لم يرد في سيرة ابن إسحاق ذكر لدار الأرقم بن أبي الأرقم، إلاّ أن كثيراً من المؤرخين ذكروا هذه الدار، ولكنهم اختلفوا في الجزئيات والتفاصيل.

يقول الأزرقي - المتوفى سنة (٢٢٣ هـ) وهو أقدم من صنف في تاريخ مكة - في كتابه: «تاريخ مكة» قال: «الدار التي عند الصفا يقال لها دار الخيزران، وفيها مسجد يصلّى فيه كان ذلك المسجد بيتاً كان يكون [هكذا] فيه النبيﷺ يتوارى فيه من المشركين، ويجتمع هو وأصحابه فيه عند الأرقم بن أبي الأرقم ويقرئهم القرآن، ويعلمهم فيه..»[٢].

إلاّ أنّ هذه المعلومة المقتضبة لا تعطينا فكرة واضحة عن المدة التي كان فيها رسول اللهﷺ مستخفياً في هذه الدار، ولا عن كيفية هذا الاستخفاء! وعندما نراجع المصادر الأُخرى نجد بعض المعلومات الأُخرى عن هذه الدار، إلاّ أنها معلومات مضطربة بعض الشيء، يقول الحلبي: «.. ثمّ دخل وأصحابه مستخفين في دار الأرقم، ودار الأرقم هي المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا اشتراها الخليفة المنصور وأعطاها ولده المهدي، ثمّ أعطاها المهدي للخيزران أُم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد.. فكان وأصحابه يقيمون الصلاة بدار الأرقم، ويعبدون الله تعالى فيها إلى أن أمره الله تعالى باظهار الدين

(١) جواد علي، السيرة: ١٩٠ - ١٩٢ (مرجع سابق).

(٢) الأزرقي - محمد بن عبد الله، تاريخ مكة: ٢ / ٢٦٠ .

وهذا السياق يدل على أنه ﷺ استمر مستخفياً هو وأصحابه في دار الأرقم إلى أن أظهر الدعوة، وأعلن ﷺ في السنة الرابعة: أي وقيل مدة استخفائه ﷺ أربع سنين وأعلن في الخامسة، وقيل أقاموا في تلك الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون. وقد يقال: الإقامة شهراً مخصوصة بالعدد المذكور، فلا منافاة، واعلانه كان في الرابعة أو الخامسة»[(١)].

وهذا النص - كما ترى - فيه اضطراب واضح، وأُمور لا يمكن تعقلها ! فكيف نتعقل استخفاء رسول الله ﷺ وأصحابه أربع أو خمس سنوات ! وكيف نجمع بين قول الأربع والخمس سنوات، وبين من يقتصر المدة على شهر فقط ! وما قاله الحلبي لرفع المنافاة غير واضح في ذلك.

وعلى أي حال، يقول الدكتور جواد علي: «فالروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الأرقم، فهنالك من يجعل مدتها شهراً واحداً فقط، ثمّ إنها متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء، هل كان استخفاءً في أوقات قصيرة من النهار، وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي ﷺ لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام. .».

كذلك: «لا نعلم متى كان خروج الرسول من دار الأرقم، فكتب السير والتواريخ ساكتة عن ذلك، كذلك لا نعلم عن كيفية اختفائه في هذه الدار، ولا عن عمله وعمل بقية المسلمين فيها شيئاً، فكتب السير والتواريخ ساكتة عنها أيضاً، ولم تذكر هل كان الرسول يخرج من هذه الدار بين الحين والحين فيذهب إلى الكعبة أو إلى بيته. أو أنه كان مختفياً فيها اختفاءً تاماً، فلم يغادرها إلى آخر يوم، وهو اليوم الذي غادرها بأمر نزل عليه، ولم تتحدث هذه الموارد عن الوحي، هل نزل عليه في دار الأرقم أو لا ؟ إنّ سكوت هذه الموارد عن هذه الأُمور شيء مؤسف حقاً،

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ١ / ٤٠٣ (مصدر سابق).

جعلنا في جهل عن هذه الحقبة الأُولى من تاريخ الرسالة»[١].

ومن المفارقات العجيبة إنه رغم الاضطراب الواضح في المعلومات الواردة عن دار الأرقم إلاّ أن المؤرخين وكتاب التراجم اتخذوا من استخفاء الرسول في هذه الدار حادثاً أرّخوا به؛ فقالوا: «أسلم فلان قبل دخول دار الأرقم» أو «لقي فلان فلاناً على باب دار الأرقم» أو «إسلام فلان بعد الخروج من دار الأرقم» وهي موارد متعددة تجدها في كتب التراجم والسير بوفرة.

إلاّ أن اضطراب المعلومات عن دار الأرقم لا يقلل من شأنها كثاني دار بعد دار رسول الله ﷺ، تشرفت بسكنى الرسول فيها، وباسلام أوائل المسلمين فيها، وانقطاعهم فيها بالصلاة والعبادة وتلاوة القرآن، «فإنّ من حق «دار الأرقم» أن تتباهى على سائر الدور الأُخرى بكونها «دار الإسلام»، والمنزل الأول الذي اختاره الرسول ليكون مقراً ومسكناً له وللمسلمين إلى حين»[٢].

وينبغي أن نشير إلى الحكمة في اختيار هذه الدار لتكون مقراً للرسول ﷺ وأصحابه ومنطلقاً للدعوة الإسلامية في مرحلتها السرية ومن ثمّ الدخول في المرحلة العلنية، دون غيرها من دور المسلمين، لعلّ الحكمة في هذا الاختيار تكمن في مكانة الأرقم بن أبي الأرقم الاجتماعية فهو مخزومي من آل مخزوم المعروفين بالثروة والغنى في أيامهم بمكة، فبفضل مكانة الأرقم في بيته، وبحكم العنعنات الاجتماعية وعصبية الدم، تمكَّن المسلمون من التحصن في هذه الدار بأمان وسلام»؛ وقد يكون لموقع الدار عند جبل الصفا دور في هذا الاختيار، إذ قد يكون هذا الموقع من الجبل بعيداً عن فضول عيون الناس!

---

(١) جواد علي، السيرة: ٢٠٥ - ٢٠٧ (مرجع سابق).

(٢) المرجع نفسه: ٢٠٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢٠٦.

٦ - موقف قريش من الدعوة في مرحلتها السريّة

لقد كانت المرحلة السرية من عمر الدعوة الإسلامية من أدق المراحل وأهمها - كما أسلفنا سابقاً - إلاّ أنها كانت من أهدأ المراحل بالنسبة للمسلمين قياساً بالمراحل اللاحقة لها.

ويمثل هذا الهدوء النسبي سمة من سمات هذه المرحلة إذ لم يكن فيها عنف ولا اعتداء يذكر سوى بعض المناوشات الفردية والتي لم تكن تمثل اتجاهاً عاماً معادياً للرسول وللمسلمين وللدعوة.

ويعود السبب الرئيسي في هذا الهدوء إلى عاملين أساسيين هما:

العامل الأول: عامل الحيطة والحذر والتخفي الذي اتخذه الرسولﷺ والمسلمون الأوائل كستراتيجية ومنهج عمل حركي لهذه المرحلة. فكانت دعوة الرسولﷺ تقتصر على من يجد فيه ميلا للدخول في الإسلام ولم تكن دعوته عامة إذ لم يهجر بدعوته لأهل مكة في هذه الفترة.

وكان المسلمون يتكتمون على إسلامهم ولا يتظاهرون بذلك أمام المشركين خشية استفزازهم والاصطدام بهم، ولهذا نجد أن عدد المسلمين لم يتجاوز الأربعين شخصاً خلال هذه الفترة والتي حددها المؤرخون بثلاث أو أربع سنين، وهو عدد قليل إذا قيس بعدد سكان مكة، إلاّ أن ذلك كان من متطلبات هذه المرحلة التي تهيىء الأرضية وتضع الأُسس وترسم المنهج للمرحلة القادمة.

العامل الثاني: موقف قريش وردود أفعالها اتجاه الدعوة في هذه المرحلة.

لم تكن قريش في غفلة عما يجري في مكة وما حولها، فلقد كانت لها السيادة والزعامة في مكة، بل إن نفوذها وتحالفاتها كانت ممتدة إلى أطراف الجزيرة العربية، وكانت ترصد كلّ حركة غير مألوفة في مكة، وتصلها أخبار ما يحصل في خارجها من خلال من يفد عليها من التجار أو الحجاج.

فمن السذاجة التاريخية أن نقول إن قريشاً لم تكن تعرف بنبوة النبي ﷺ خلال هذه المرحلة، فالنصوص التاريخية تشير إلى معرفتهم بذلك.

يقول ابن سعد متحدثاً عن دعوة الرسول ﷺ في المرحلة السرية: «فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنّ غلام بني عبد المطلب ليُكلّم من السماء..»[١].

وهنا يأتي هذا السؤال: إن كانت قريش قد عرفت بأمر نبوة النبي ﷺ، ولم يكن يخفى عليها أمره، وأمر من دخل في الإسلام وآمن بنبوّته ودعوته فلماذا سكتت عن ذلك؟ ولماذا لم تبادر إلى القضاء على هذه الدعوة قبل أن يشتدَّ عودها؟ ولماذا لم تمنع الآخرين من الايمان بدعوته؟

ويمكن ايجاز الجواب عن هذا السؤال والذي تتفرع منه تلك الأسئلة المتكثرة بما يلي:

لقد كان عدم اهتمام قريش بأمر رسول الله ﷺ ودعوته في هذه المرحلة يكمن في كونها لا ترى فيها ما يشكل قضية خطيرة تهدد مصالحهم التجارية والعشائرية والدينية.

فلقريش تجارتها الممتدة من مكة إلى الشام، ومن مكة إلى اليمن والحبشة ولها طرقها التجارية في رحلتي الصيف والشتاء، فما دامت تجارتها مستقرة وطرق قوافلها التجارية مؤمَّنة فهي في خير، ولها أيضاً سيادتها وهيمنتها العشائرية، فهي سيدة العرب، وأهل الحرم، والعرب تنظر لها نظرة احترام وهيبة، فمادام الأمر على هذه الحالة ولا منازع لها في حق السيادة العشائرية فلا

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٦ .

تبالي بشيء بعدها.

كذلك لقريش آلهتها وأصنامها، وللعرب أيضاً نسخ من أصنامهم في الكعبة يحجون إليها كلّ عام بإشراف مباشر من قريش، فما لم يتعرض أحد لآلهتها بشر أو تسفيه فهي لا تتعرض له بشر.

فمادام ثلاثي المصالح تلك محفوظة، فلا تبالي قريش بدعوة من هنا أو هناك يقوم بها بعض الأفراد ممن تستهويه ديانة معينة فيعتنقها ويحاول نشرها بين الناس، إلاّ أنّه سرعان ما يصطدم بالأمر الواقع وبإعراض الناس عنه، فينكفيء على نفسه، أو يعود إلى حظيرة قومه.

وهكذا كانت نظرة قريش إلى الإسلام في هذه المرحلة حيث: «ظنت أنه حركة من تلك الحركات، ودعوة من تلك الدعوات، ثمّ لا تلبث أن يملَّ صاحبها ويتغلب عليه اليأس، فيقطع أمله، ويتراجع كما تراجع من قبله، أو يقبع في كهف أو زاوية، متنسكاً تنسك الأحناف»[١].

ثمّ إنّ هنالك سبباً وجيهاً لإعراض قريش عن التصدي لدعوة الرسول في هذه المرحلة، وهي الرابطة العشائرية، أو ما تسمى برابطة الدم، التي كانت قريش والقبائل العربية تنظر لها بقدسية واحترام وتتمسك بها ولا تنتهكها لأنها تعرض نفسها للعار والشنار.

وكانت رابطة الدم هذه من أقوى الروابط بين قريش والقبائل الأُخرى بعد فقدان رابطة الدين الواحد، فكان شعارهم المعروف انصر أخاكم ظالماً أو مظلوماً، وقد أثرت هذه الرابطة تأثيراً كبيراً في السياسة العربية في الجاهلية وفي الإسلام.

---

(١) جواد علي، السيرة: ١٩٩ - ٢٠٠ (مرجع سابق).

انطلاقاً من هذا المبدأ: «لم يكن من السهل على قريش ايذاء الرسول في هذا العهد، وهو من أُسرة كريمة معروفة لها في مكة مركز ومقام، ولم يكن من السهل عليها ايذاء المسلمين وبينهم من كان من أرقى الأُسر وأشرفها حسباً ونسباً»(١).

هذا كلّه من جهة قريش التي اتخذت موقف المسالمة وعدم التعرض للرسول والدعوة في هذه المرحلة من مراحل الدعوة.

أما من جهة الرسول والمسلمين، فإن أُسلوب الحيطة والحذر وعدم استفزاز قريش في عقائدهم وآلهتهم، والتحلي بأعلى درجة من السرية والكتمان، والتحلي بالأخلاق الحميدة والتعقل والروية في التصرفات والأقوال.. كلّ هذه الأُمور أبعدت عن الدعوة الإسلامية أذى قريش في هذه المرحلة.

وخلاصة الأمر: ففي بداية الدعوة كانت قريش تنظر إلى الرَّسولﷺ، كما كانت تنظر للرهبان والنساك والمتحنثين.. الذين سرعان ما يخمد تأثيرهم ويعود الناس بعدهم إلى دين الآباء الوثني، ولم ترَ في هذه الحركة الناشئة أي خطر يهدد مصالحها التجارية والسيادية والدينية، مادام تلك الدعوة لا تمس هذه المصالح.

إلاّ أن تنامي تيار الدعوة، وظهور تأثيرها الديني والاجتماعي في الوسط المكي، ثمّ ظهور بوادر التنديد بالأوثان والآلهة التي تعبد من دون الله، والدعوة إلى الله وتوحيده.. كل ذلك أيقظ قريشاً من سباتها، فأحست بالخطر المحدق بها من هذه الدعوة الجديدة، فجاهرت بعداء الرسولﷺ ودعوته ومن أسلم معه، واتخذ هذا العداء أُسلوباً تصاعدياً.

وقد تمحورت سياسة ردّ الفعل من قبل قريش اتجاه الرسولﷺ ودعوته في

---

(١) المرجع نفسه: ٢٠٠ .

محورين أساسين:

الأول: استهدفت جانباً من شخصيّة الرسول ﷺ بالذات.

الثاني: استهدفت اضطهاد السابقين إلى الإسلام.

وسوف نتحدث عن هذين المحورين في دروس قادمة إن شاء الله تعالى.

٧ - نموذج من المسلمين الأوائل: «أبو ذر الغفاري»

يذكر المؤرخون وكتّاب السير والتراجم قوائم بأسماء المسلمين الأوائل وقصة إسلامهم، وقد ذكرنا فيما مضى من هذا الدرس قائمة ابن إسحاق الثالثة والتي أهمل فيها ذكر مجموعة من الصحابة الأوائل، بالاضافة إلى التقديم والتأخير في أولية إسلام بعض آخر. وممن أهمل ابن إسحاق ذكره «أبو ذر الغفاري» واسمه «جُندب بن جُنادة» وفي رواية ابن سعد: «برير بن جُنادة»، وهو من المسلمين الأوائل، بل روي عنه قوله: «كنت رُبع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر» وفي رواية الحلبية عنه: «وكنت أول الإسلام خامساً»[١].

وقد ذكر قصة إسلامه كلّ من البخاري ومسلم بروايتين مختلفتين، بالاضافة إلى مصادر أُخرى.

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: «لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فأعلم لي عِلمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثمّ ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثمّ رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو

(١) الذهبي - محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨)، سير أعلام النبلاء: ١ / ٨٧، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (٢٠٠٦ م)، والسيرة الحلبية: ١ / ٣٩٩، وابن سعد، الطبقات: ٤ / ٤٢٩ .

من الشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت. فتزوّد وحمل شنّة فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبيﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل اضطجع، فرآه علي (رضي الله عنه)، فعرف أنه غريب، فلما رآه تَبعهُ فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثمّ احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظلّ ذلك اليوم ولا يراه النبيﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به علي فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث، فعاد علي مثل ذلك فأقام معه ثمّ قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، قال: فإنه حقّ وهو رسول اللهﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمتُ وكأني أُريق الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مَدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل علي على النبيﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبيﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري».

قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله» ثمّ قام القوم فضربوه حتى اضجعوه، وأتى العباس فاكبّ عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفار، وأنّ طريق تجارتكم إلى الشام؟ فانقذه منهم، ثمّ عاد من الغد بمثلها فضربوه وثاروا إليه فاكبّ العباس عليه»[١].

وفي رواية الطبراني وأبو نعيم في الحلية؛ من طريق ابن عباس عن أبي ذر قال: أقمت مع رسول اللهﷺ بمكة فعلّمني الإسلام وقرأت من القرآن شيئاً، فقلت: يا رسول الله إني أُريد أن أظهر ديني، فقال رسول اللهﷺ: «إني أخاف

---

(١) البخاري، الصحيح: ٤ / ١٩١، الباب ٣٣، الحديث رقم: ٣٨٦١، كتاب مناقب الأنصار، وقارن برواية مسلم في الصحيحة: ١٦ / ٢٧ بشرح النووي.

عليك أن تقتل»، قلت: «لابد منه وإن قتلت، قال: فسكت عني، فجئت - وقريش حلقاً يتحدثون في المسجد - فقلت: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، فانتقضت الحلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بي من الحال فقال لي: «ألم أنهَك»، فقلت: يا رسول الله كانت حاجة في نفسي فقضيتها، فأقمت مع رسول الله ﷺ، فقال: «الحق بقومك فإذا بَلغَك ظهوري فأتني»[١].

وفي رواية صحيح مسلم عنه: «فو الله إني لأول الناس حيّاه بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله، مَن أنت؟» فقلت: رجل من بني غفار»[٢].

وروي عنه قوله: «صليت قبل أن ألقى النبي ﷺ ثلاث سنين لله، أتوجه حيث يوجهني ربي».

وفي رواية أن أبا ذر: «بايع رسول الله ﷺ أن لا يأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق ولو كان مرّاً»[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد عاد أبو ذر إلى قومه غفار كما أراد له رسول الله ﷺ: «فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله المدينة،.. وقال بقيّتهم: إذا قدم رسول الله ﷺ أسلمنا، فقدم المدينة فأسلم بقيتهم.. وأسلم معهم قبيلة أسلم فقال رسول الله: «غِفار غَفَر الله لها، وأسلمُ سالمها الله»[٤].

---

(١) الكاندهلوي - محمد يوسف، حياة الصحابة: ١٣٣، طبعة دار الفكر - بيروت، الطبعة الأُولى، (٢٠٠٤ م).

(٢) المرجع نفسه: ١٣٣ .

(٣) السيرة الحلبية: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة : ١٦ / ٧٣ بشرح النووي.

وقد رويت روايات عن النبيﷺ في حق هذا الصحابي الجليل، تبين عمق إيمان الرجل وصدقه:

روي عنهﷺ: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، أصدق من أبي ذر».

وعنهﷺ: «أبو ذر يمشي في الأرض على زهد عيسى بن مريم».

وفي الحديث: «أبو ذر أزهد أُمتي وأصدقها»[١].

وفي طبقات ابن سعد[٢] ترجمة وافية لأبي ذر، وما لاقاه من عَنَت وظُلم من جاهلية قريش في أول إسلامه، وممن لم يتحمل صدقه وقوله الحق من حكام زمانه، فعاش الغربتين، غربة الحق وغربة النفي، فصدق فيه قول رسول اللهﷺ: «يا أبا ذرّ تعيش وحدك وتموت وحدك، وتدفن وحدك».

وقصة إسلام أبي ذر الغفاري تعزز ما قلناه حول موقف قريش من الدعوة الإسلامية في مرحلتها السرية، إذ اتسم موقفها بالمسالمة وعدم التعرض لرسول الله ﷺ والمسلمين بالأذى، مادامت مصالحهم لم تتعرض لخطر من قبل المسلمين، فهي بمثابة الخطوط الحمراء التي يمنع الاقتراب منها.

وأبو ذر قد تجاوز هذه الخطوط الحمراء التي تعتبر من المحرمات عند قريش، فقد جَهَر بإسلامه في مجمع قريش مخترقاً بذلك مبدأ السريّة والكتمان، الذي رسمه رسول اللهﷺ كمنهج لهذه المرحلة، وإن كان نعتقد أنَّ هذا الاختراق كان عن حُسن نية ويدل على اعتزاز من أبي ذر باسلامه واستعداده للتضحية في سبيله، إلاّ أنّ الظروف لم تكن مؤاتية في حينها، ولهذا عندما رأى رسول اللهﷺ

---

(١) السيرة الحلبية: ١ / ٣٩٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٤ / ٤٢٩ - ٤٣٨.

هذا التسرع في الموقف من أبي ذر طلب منه الخروج إلى قومه وانتظار ظهوره في المدينة وهذا ما حصل.

وقد طلب النبي ﷺ من عمرو بن عبسة السلمي الخروج إلى قومه (بني سلمة) كما طلب من أبي ذر الخروج إلى قبيلته غفار، وقد يكون السبب في ذلك بالاضافة إلى ما بدر من أبي ذر من خروج على السرية والكتمان هو كونهما من قبائل متفرقة وليس لهما رصيد قبلي في داخل مكة، فلا بد أن تكون إقامتهما فيها بجوار وحماية من شخصية قوية مرهوبة الجانب، ولن يجيرهما أحد من المشركين، وجوار المسلمين لهما من قِبل بعض المسلمين مرفوض من قبل قريش.

وفي قصة أبي ذر درس للدعاة وللقائمين على أمر الدعوة من حيث الالتزام بمبدأ الكتمان والسرية، ومن حيث ايكال المهام الخطيرة إلى من تتوفر فيه هذه الصفة فلا ينقاد إلى عواطفه وحسن نيته فيفصح عن أُمور ينبغي كتمانها في ظروف زمنية معينة.

ثمّ إنّ أبا ذر قد استفز قريشاً في آلهتها، وتحداها في ناديها واجتماعها، فرفع صوته بالشهادتين، بما تحمل هذه الكلمة من نفي وإثبات، نفي لكل ما يعبد من دون الله من آلهة وأوثان، وإثبات لألُوهية إله واحد، هو الله الواحد الأحد. فلم تكن قريش لتقبل من أحد أن يتحداها في كبريائها، ولا أن يتعرض لدين آبائها، ولهذا انهالوا عليه ضرباً.

وكان العباس ذكياً في محاولته لنجاة أبي ذر من أيدي قريش حيث قال لهم: «ويلكم ألستم تعلمون إنه غِفار، وإنّ طريق تجارتكم إلى الشام» فأمسكوا عنه عندما لاح لهم أن طريق تجارتهم سوف تتعرض للخطر.

والذي يستوقفنا في قصة هذا الصحابي الجليل هو أولية إسلامه حيث تنصُّ

الروايات التاريخية على أنّ إسلامه كان «رابعاً أو خامساً»[١]، فكيف وصل خبر بعثة الرسولﷺ لأبي ذر وهو يسكن شمالي الجزيرة حيث مساكن «كنانة» وهي قبائل غِفار ودوس وبني ليث وخزاعة. . »[٢].

يروي ابن سعد عن محمد بن عمر (الواقدي) عمن حدثه قال: «كان أبو ذر يتألّه في الجاهلية ويقول: لا إله إلاّ الله ولا يعبد الأصنام، فمرّ عليه رجل من أهل مكة بعد ما أُوحي إلى النبيﷺ فقال: يا أبا ذرّ إنّ رجلا بمكة يقول ما تقول: لا إله إلاّ الله، ويزعم أنّه نبي، قال: ممّن هو ؟ قال: من قريش، قال: فأخذ شيئاً من بهش وهو المُقِلُ فتزوده حتى قدم مكة. . »[٣].

فالذي يبدو أن أبا ذر كان يترقب ظهور النبيﷺ، ولهذا سأل عن نسبه فما أن عرف أنه من قريش شدَّ الرحال إليه، وكونه رابع أو خامس من أسلم يقتضي أن يكون ذلك قبل دخول الرسول دار الأرقم.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٣٢ .

(٢) اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب، البلدان: ١٥٤، تحقيق: محمد أمين ضناوي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، (٢٠٠٢ م).

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٣١ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الأسباب الموضوعية لاتخاذ أُسلوب المرحليّة في التغيير الاجتماعي ؟

٢ - ما هي المراحل التي مرّت بها الدَّعوة الإسلامية منذ انطلاقها ؟

٣ - كيف كانت سياسة ردِّ الفعل من قبل قريش اتجاه النبيﷺ ودعوته وأصحابه من السّابقين إلى الإسلام ؟

٤ - ما هي أهم المعالم العامة للمرحلة السريّة ؟

٥ - ما هي الدروس التي نستفيدها من قصّة إسلام أبي ذر الغفاري ؟

الدرس الرابع عشر
الدعوة

«القسم الثالث»
بدء الدعوة في المرحلة العَلَنيَّة

محاور البحث:

١ - دعوة العشيرة والأقربين نَسباً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم
موقف العشيرة الأقربين من دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
حديث الدّار، واستجابة الإمام علي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
تحريف حديث الدار من قبل بعض المؤرخين
٢ - غرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دعوة الأقربين
٣ - شبهات المستشرقين حول عالمية الدعوة ودعوة الأقربين
• الأسئلة

بدء الدعوة في المرحلة العَلَنيَّة

١ - دعوة الأقربين

لا يوجد لدينا من النصوص التاريخية ما يحدد لنا وبدقة فترة انتهاء المرحلة السرية، وابتداء المرحلة العلنية للدعوة الإسلامية، وما بين أيدينا من نصوص تشير إلى تكامل عدد المسلمين إلى أربعين شخصاً، بعد ثلاث أو أربع سنوات من بعثته ﷺ. ثمّ البدء بمرحلة جديدة من الدعوة، وهي المرحلة العلنية، ويوجد في بعض النصوص ما يشير إلى تداخل بين المرحلتين، السرية والعلنية! فلم تكن المرحلة السابقة سرية بكل معنى الكلمة وإنما امتزج معها بعض العلن الهادي والذي لم يولد عنفاً أو صداماً مع قريش.

وعلى أي حال، فبعد تلك الفترة السرية التي قضاها رسول الله ﷺ في دار الأرقم، بدأت مرحلة جديدة وخطيرة وصعبة كان على رسول الله ﷺ ومن آمن برسالته اجتيازها بحزم وقوة وصبر وعزيمة.

والفترة العلنية من الدعوة يمكن تقسيمها على ضوء النصوص التاريخية إلى قسمين أو أُسلوبين من الدعوة:

الأول: دعوة العشيرة الأقربين من رهط رسول الله ﷺ إلى الإسلام والإيمان بالله.

والثاني: دعوة عامة الناس إلى التوحيد والإسلام ونبذ الوثنية والشرك.

والأُسلوب الأول (دعوة الأقربين) يمثل الخطوة الأُولى باتجاه الدعوة

العامة، ولها ما يبررها كما سوف يأتينا.

قال ابن إسحاق - بعد حديثه عن إسلام من أسلم من المسلمين الأوائل -: «ثمّ دخل الناس في الإسلام إرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذِكْرُ الإسلام بمكة وتُحدِّث به. ثمّ إنّ الله عزّ وجل أمر رسولهﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يباديُ الناس بأمره، وأن يدعو إليه؛ وكان بين ما أخفى رسول اللهﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، من مبعثه، ثمّ قال الله تعالى له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

ثمّ يقول ابن إسحاق: «فلما بادى رسول اللهﷺ قومه بالإسلام وصدع بما أمره الله، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه.. حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلمّا فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته..»[3].

والملاحظ في نص ابن إسحاق الذي يرويه ابن هشام هو عدم ذكر دعوة العشيرة والأقربين، وإنما دخل في الدعوة العامة لقريش واسترسل في تفاصيل ذلك كما سوف يأتي عنه.

إلاّ أننا وجدنا في سيرة ابن إسحاق التي حققها وعلّق عليها الدكتور سهيل زكار، نص دعوة العشيرة الأقربين برواية ابن إسحاق عمّن حدثه عن ابن عباس

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤ - ٢١٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٨٢.

عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: «لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

قال رسول الله ﷺ: عرفت أني إن بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره، فَصَمَتُّ عليها، فجاءني جبرئيل فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرك ربك تعالى عذبك ربك. قال علي: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: يا علي إنّ الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فعرفت أني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره، فصمتُّ عن ذلك حتى جاءني جبرئيل فقال: يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك، فاصنع لنا يا علي رجل شاة على صاع من الطعام، وأعدّ لنا عس لبن، ثمّ اجمع بني عبد المطلب، ففعلت، فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلا أو ينقصون، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث، فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ حِذَية فشقها بأسنانه، ثمّ رمى بها في نواحيها، ثمّ قال: كلوا باسم الله، فأكل القوم حتى نهلوا منه، فما رؤي إلاّ آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثمّ قال رسول الله ﷺ: اسقهم يا علي، فجئتُ بذلك القعب فشربوا حتى نهلوا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدرهُ أبو لهب إلى الكلام فقال: لهدُ[1]، وما سحركم صاحبكم! فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ.

فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: يا علي عد لنا بمثل الذي صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإنّ هذا الرجل قد بدرني إلى ما قد سمعت قبل أن أُكلم القوم، ففعلتُ، ثمّ جمعهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، ثمّ سقيتهم فشربوا من ذلك القعب حتى نهلوا عنه، وأيم

(١) اللهد: داء يصيب الناس في أرجلهم وأفخاذهم: وهو الضرب والصدمة الشديدة في الصدر، ولهده لهداً أي دفعه (الفراهيدي، كتاب العين).

الله إنّ الرجل منهم ليأكل مثلها، ويشرب مثله، ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»[١].

هذا المقطع من رواية ابن إسحاق حذفها ابن هشام في تهذيبه لسيرة ابن إسحاق مما يعزز عدم أمانته العلمية، والغرض واضح من هذا الحذف المتعمد، إلاّ أن ما عثر عليه وحققه الدكتور سهيل زكار من سيرة ابن إسحاق لا يمثل إلاّ قطعة من هذه السيرة المطولة، ولهذا نجد في النص الذي نقلناه عنه اضطراباً وتكراراً في المتن، ونقصاً في آخر الرواية كما يرويها الطبري بالسند نفسه.

قد جاء في رواية الطبري نفس الرواية السابقة وبنفس السند، مع اختلاف يسير لا يخل بالمعنى وفيها تتمة في آخرها لا توجد في الرواية التي نقلناها آنفاً، وهي تتمة مهمة جاء فيها: «ثمّ تكلّم رسول الله ﷺ، فقال: يا بني عبد المطلب؛ إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به؛ إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: - وإني لأحدثهم سنّاً، وأرمصهم[٢] عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً[٣] - أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثمّ قال: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي بطالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[٤].

---

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق: ١٤٥ - ١٤٦، تحقيق: سهيل زكار، طبعة دار الفكر، (١٩٧٨م).

(٢) الرمص في العين كالغمص، وهو قذى تلفظ به، وهو كناية عن صغر سنّه.

(٣) حمش الساقين: دقيقها.

(٤) الطبري، التاريخ: ٢ / ٣١٩ - ٣٢١ (مصدر سابق).

ورواية اليعقوبي للحادثة تختلف عن رواية ابن إسحاق والطبري، وجاء في آخرها أنّ أبا طالب قال لأبي لهب: «يا عورة، والله لننصرنّه ثمّ لنعيننه، يا ابن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح»(١).

هذه الواقعة وبحسب ما رواها ابن إسحاق، والمروية عن الطبري في تاريخه، أصبحت من الحقائق الثابتة المنقولة في المصادر الموثقة، وقد عرفت تاريخياً بـ «حديث الدار» أو «حديث العشيرة».

وقد رأينا كيف حذفها ابن هشام من سيرة ابن إسحاق، ومن جاء من بعد ابن هشام حاول التنكر لها أو افراغها من محتواها من خلال تغيير ألفاظها، فنلاحظ محمد بن جرير الطبري ينقلها في كتاب التاريخ بألفاظها التي نقلناها عنه، إلاّ أنه في كتابه في تفسير القرآن الكريم، ينقل الرواية عينها إلاّ انه يبدّل ويغيّر في قول رسول اللهﷺ: «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي» فيكتب في محلها: «على أن يكون أخي وكذا وكذا ؟» كذلك يحرف آخر الرواية فيبدل كلام النبيﷺ «إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي» فيبدل ذلك بعبارة: «إنّ هذا أخي وكذا وكذا»(٢).

ونجد الأمر نفسه عند ابن كثير في كتابيه التاريخ والتفسير، حيث بدل كلام النبيﷺ في الموضعين، ووضع محلها: «كذا وكذا» متهماً راويه بأنه شيعي كذاب، برواية أُخرى جاء فيها: «أيكم يقضي ديني ويكون خليفتي في أهلي»(٣).

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٢٧ - ٢٨ (مصدر سابق).

(٢) الطبري، تفسير الطبري: ١٩ / ١٤١، ضبط وتعليق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأُولى، (٢٠٠١ م).

(٣) انظر ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٥٣ وما بعدها. وتفسير القرآن العظيم: ٣ / ٤٦٩ بتحقيق: أحمد عبد السلام الزُّعبي، طبعة دار الأرقم - بيروت، (د - ت).

والذي يبدو أن ابن كثير قد تأثر بأُستاذه ابن تيمية الحراني الذي توقف عند هذا الحديث طويلا.

وقال عنه: «.. فإن هذا الحديث ليس في شيء من كتب المسلمين.. لا في الصحاح ولا في المسانيد والسنن والمغازي والتفسير التي يذكر فيها الاسناد الذي يحتج به.. وهذا الحديث غايته أن يوجد في بعض كتب التفسير التي فيها الغث والسمين، وفيها أحاديث كثيرة موضوعة مكذوبة..»[١].

ودعوى ابن تيمية يكذبها وجود الحديث في كتب التواريخ والسيرة والحديث وحوتها مختلف كتب تفسير القرآن ويكفي وجود الحديث في تاريخ الطبري وفي تفسيره الذي يقول عنه ابن تيمية نفسه: «أما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها: تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السَّلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتّهمين..» وفي مؤلف آخر له يذكر تفاسير أُخرى ثمّ يعود ويؤكد ما قاله عن الطبري فيقول: «لكن تفسير ابن جرير الطبري أصحّ من هذه كلّها»[٢]، فهل نسي ابن تيمية أو تناسى أن هذا الحديث موجود عند الطبري في كتابيه ؟! وكذلك أخرجه الطبري في كتاب ثالث له يعرف بـ «تهذيب الآثار» في مسند علي بن أبي طالب وصحح سنده[٣].

وممن جنى على هذا الحديث من الكتّاب المحدثين الكاتب «محمد حسين هيكل» في كتابه الشهير «حياة محمد» فقد دوّن الحديث في كتابه في طبعته الأُولى

(١) ابن تيمية - أحمد بن عبد الحليم، منهاج السنة: ٧ / ٢٩٧ - ٣١٣، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة، الطبعة الأُولى، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

(٢) المؤلف نفسه، مقدمة في أُصول التفسير: ٥٠ - ٥٣، طبعة منشورات دار مكتبة الحياة، (د - ت).

(٣) ذكره السيّد عبد العزيز الطباطبائي في تعليقاته على كتاب الغدير: ١ / ٤١٣ .

(ص: ١٠٤) والمطبوع في حوالي سنة (١٩٣٥ م) بحسب مقدمة الشيخ المراغي، مستنداً في ذلك إلى رواية الطبري في تاريخه، إلاّ أنه في الطبعة الثانية للكتاب (ص: ١٤٢) المطبوع سنة (١٣٥٤ هـ)، اسقط من الحديث أوّلا ما فرّع به رسول الله كلامه من قوله لعلي: «فأنت أخي ووصيي ووارثي»، ثمّ نسب إلى أمير المؤمنين ثانياً أنّه قال: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على ما حاربت».

ثمّ ذكر: «فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم وجعل نظرهم يتنقّل من أبي طالب إلى ابنه ثمّ انصرفوا مستهزئين»[(١)].

يقول العلامة الأميني: «ليته دلّنا على مصدر هذه النسبة في لفظ أيّ محدث أو مؤرخ من السلف؟ ‌وراقه أن يحكم في الحضور في تلك الحفلة بتبسّم بني هاشم وقهقهة بعضهم، ولم نجد لهذا التفصيل مصدراً يعوّل عليه»[(٢)].

أما عن دوافع هيكل لهذا التحريف المتعمد، فقد احتمل الأميني كونه مجاراة لابن كثير بعد أن اطلع على كلماته بعد نشر الكتاب، أو أنه كثر عليه اللغط والصخب واللوم والعتب حتى اضطر إلى الحذف والتحريف، أو أن أصحاب المطابع عاثوا في الكتاب فغض الطرف عنهم لاشتراكه معهم في المبدأ أو عجزه عن دفعها.

وينقل الشيخ محمد جواد مغنية إنّ هذا الحذف والتحريف كان مقابل (٥٠٠) جنية مصري أو شراء ألف نسخة من كتابه[(٣)].

ومهما يكن من أمر أُولئك المحرفين والعابثين بنصوص الأحاديث النبوية، لأنها تلامس قضية الخلافة والوصية، وهي من أدق القضايا وأهمها في حياة الأُمة

---

(١) هيكل، حياة محمد : ١٤٢ .

(٢) الأميني، الغدير: ٢ / ٤٠٧ .

(٣) مغنية - محمد جواد، فلسفة التوحيد والولاية: ١٧٩ .

الإسلامية، يبقى «حديث الدار» أو «حديث العشيرة» في عداد الأحاديث التي تناقلتها كتب التاريخ والسيرة والحديث وبألفاظ وأسانيد مختلفة، جمع طرفاً منها العلامة الأميني في الغدير[1].

٢ - غرض رسول الله ﷺ من دعوة عشيرته الأقربين

من الواضح أن دعوة العشيرة الأقربين مِن قبل رسول الله ﷺ كان امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ولم يكن اجتهاداً شخصياً من الرَّسول وإنّها انطلقت من منطلقات العصبية للأهل والعشيرة، ولا كونها تطوراً في الفكر الخلاق! عند النبي ﷺ كما سوف يأتينا لاحقاً في كلمات بعض المستشرقين.

وأوامر الله ونواهيه تنطلق من حكمة ومصالح يقدرها المولى سبحانه وتعالى سواءً أدركتها عقولنا أم لم تدركها، وسواءً أسلمت هذه العشيرة القريبة أو لم تسلم! فالرسول ﷺ بشير ونذير، ولابد أن يبدأ أمر البشارة والانذار من داخل البيت النبوي ثمّ تتسع الدعوة إلى دائرة أوسع وهي دائرة العشيرة الأقربين، لتتسع الدائرة بعدها فيكون الانذار للناس كافة.

والله سبحانه لم يترك أنبياءه ورسله ودعوتهم، وإنما رسم لهم منهج عمل يسيرون عليه في تبليغ رسالته، ودعوة الأقربين والرهط والعشيرة من السنن الإلهية في دعوة الأنبياء والرّسل ولها أسبابها الموضوعية، وقد حدثنا القرآن الكريم عن قصة نبيه «لوط عليه السلام» حين جاءه قومه يهرعون إليه يريدون الفاحشة بضيفه من الملائكة، وهو بينهم ليس له قبيلة تحميه أو تمنعه منهم، فيحدثنا القرآن عن لسان هذا النبي ﷺ في محنته بين أُولئك فيقول: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً

---

(١) الأميني، الغدير: ٢ / ٣٩٣ - ٤٠٨.

أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1].

كذلك نجد هذه السنة الإلهية في قضية الرهط والعشيرة في قصة نبي الله «شعيب»، إذ حال رهطه بينه وبين كفار مدين، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

وعندما نعود إلى التركيبة الاجتماعية لعرب الجزيرة إبان العهد الجاهلي وبعد ظهور الإسلام نجد مبدأ القوة والمنعة يستند إلى العشيرة والرهط، والقبيلة هي الوِحْدَةُ الحاكمة في ذلك المجتمع، وكان قانون الحماية والجوار هو القانون الحاكم في ذلك الوقت، وكانت قريش والقبائل الأُخرى تقيم وزناً لهذا القانون وتستند إليه في تعاملها الاجتماعي. فكان القوي يحمي الضعيف إذا دخل في جواره، ويمنع أي اعتداء يقع عليّة، فيعيش الضعيف حينها عزيزاً منيعاً، بعزة ومنعة من أجاره من عليّة القوم وقويهم.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال أنّ رسول الله ﷺ قد اتبع سنن الجاهلية في التعامل الاجتماعي حيث أقبل على دعوة عشيرته الأقربين، وإنما كان هدف الرسول ﷺ هو أنذارهم وتبشيرهم وهدايتهم لما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم، فإن استجابوا له كانوا عوناً له، لأنهم رهطه وعشيرته الأقربون، وخلاصة الأمر، إنّ رسول الله ﷺ - وبحكمة الله وأمره - أراد أن يوظف ذلك القانون الاجتماعي الحاكم في ذلك المجتمع لخدمة الدعوة والدعاة وحمايتها من المواجهة المتوقعة.

---

(١) هود: ٨٠ .

(٢) هود: ٩١ - ٩٢ .

ولهذا كلّه انطلق الرسول لدعوة عشيرته، وعندما اجتمعوا حدثهم بما أمره الله تعالى به وبين لهم سبب دعوته لهم، وإنه ﷺ يريد خيرهم في عاجلهم وآجلهم، فكانت ردود الأفعال متباينة، فبين استهجان عمه أبي لهب وسخريته من الأمر، واقرار الآخرين لهذا الاستهجان بسكوتهم وتخاذلهم عنه، نجد موقف أبي طالب المعلن في حماية الرسول ﷺ ونصرته حيث قال كلمته التي نقلناها سابقاً: «.. والله لننصرنّه ثمّ لنعيننه، يا ابن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فاعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح». وهكذا حصل إذ كان أبو طالب وفياً بوعده لرسول الله ﷺ طيلة حياته، ولهذا روي عن رسول الله ﷺ قوله: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[١].

وسوف يأتينا مزيد من البيان عن هذه الحماية التي تمتع بها رسول الله ﷺ وعن مواقف أبي طالب في حماية رسول الله ﷺ ودعوته، في دروس قادمه إن شاء الله.

٣ – شبهات المستشرقين حول عالمية الدعوة ودعوة الأقربين

حاول بعض المستشرقين أن يسقط نظرته العلمانية الوضعية على بعض أحداث السيرة النبوية، وقد تحدثنا سابقاً عن بعض اتجاهاتهم الوضعية في تفسير الوحي، وكيف حاولوا أن يفسروا الوحي على أنه وحي نفسي أو تخيل خلاق أو لا وعي جماعي.. والنتيجة التي انتهوا إليها، أنّ النبوة ليست اصطفاءً من الله سبحانه لمحمد لأداء رسالته، وإنما هي من ابداع عقلية النبي ! وقد ناقشنا ذلك وأوضحنا أبعاد تلك الشبهة في الدروس السابقة.

إلاّ أنّ هؤلاء المستشرقين لم تتوقف شبهاتهم عند قضية الوحي ونبوة النبي ﷺ، وإنما درسوا السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني وألفوا فيها

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٥٨ .

الكتب، وأسقطوا نظرتهم المادية العلمية على كل مفاصل وجزئيات السيرة.

ومما تناولته بحوثهم قضية اقليمية الإسلام وعالميته. فكلّ النصوص القرآنية التي تتحدث عن الإسلام وعن تعاليمه، وعن رسالة النبيﷺ، تشير إلى عالمية هذا الدين وعموم رسالة النبيﷺ للناس كافة. كذلك تدل عليه سيرة النبيﷺ وخطواته في هذا الاتجاه وخاصة في أواخر العهد المدني. حيث أرسل النبيﷺ رُسله وكتبه إلى الملوك والأُمراء خارج الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام، بالاضافة إلى أحاديثهﷺ الصريحة والواضحة.

إلاّ أننا - ورغم وضوح هذه القضية قولا وعملا - نجد بعض المستشرقين يشكك، بل ينفي عالمية الإسلام من أول أمره، ويعتبرها دعوة اقليمية في بداياتها ومن ثمّ تطورت تبعاً لطموحات النبيﷺ في توحيد الأُمة العربية وبسط سيادته عليها.

يقول المستشرق الألماني، كارل بروكلمان: «إذا كانت الحماسة الدينية قد غلبت في مكة على محمد الذي أحس في ذات نفسه أنه رسول و «نذير» إلى أبناء موطنه، فقد انتهى في المدينة إلى أن يصبح زعيم جماعة سياسية، ورجل دولة موهوباً لا ينثني عن هدفه النهائي، وهو السيطرة على بلاد العرب».

ويقول أيضاً: «ولقد بعث محمد إلى العرب قبل كل شيء.. وليس من الميسور أن نقرّر على وجه الدقة، ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر إنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية، وفي أي فترة من فترات حياته كان ذلك»[1].

ويقول المستشرق مونتجمري وَات: «اعتبر محمد نفسه في البدء مرسلا

---

(١) بروكلمان - كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية: ٦٨ و ٧٠، ترجمة: نبيه أمين فارس وزميله، طبعة دار العلم للملايين - بيروت، (١٩٩٨ م).

لقريش خاصة، وليس لدينا أية وسيلة لمعرفة ما إذا كان قد فكر بتوسيع أُفق رسالته لتشمل العرب جميعاً، قبل وفاة أبي طالب أو بعدها، وقد اضطره تدهور وضعه – مع ذلك – أن ينظر إلى أبعد من ذلك، فلا نسمع من ثمّ خلال سنواته الثلاث الأخيرة في مكة، إلاّ عن علاقاته بالقبائل البدوية وسكان الطائف ويثرب».

ويقول أيضاً: «ونحن نعتقد أنّ محمداً في هذا الوقت – أي بعد عودته من الطائف – أخذ يدعو أفراد القبائل البدوية للدخول في الإسلام، وأن وراء هذا النشاط تكمن فكرة غامضة في توحيد العرب جميعاً»(١).

ويقول المستشرق يوليوس فلهاوزن: «كان محمد في وسعه أن يحطم رابطة الدم، لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة. هذا الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها، ولكن محمداً لم يرد ذلك، ومن الجائز أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم. ولذلك لم ير أن رسالته هي أن يضم إلى دعوته اتباعاً متفرقين من هنا وهناك. نعم كان لابد له من أن يضم أفراداً لكنه كان يرمي إلى ضم الجماعة كلّها، فكان يطمح إلى أن يجعل أُمته العربية كلها جامعة دينية له»(٢).

عندما نتأمل في كلمات هؤلاء المستشرقين نجدها لا تبتعد عن المنهج العلماني المادي الذي ساروا من خلاله في تفسير أحداث السيرة النبوية، بعيداً

---

(١) وات – منتجمري، محمد في مكة: ٢١٩ و ٢٢٣، تعريب: شعبان بركات، طبعة منشورات المكتبة العصرية – صيدا، بيروت.

(٢) فلهاوزن – يليوس، تاريخ الدولة العربية: ٤ – ٥، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، ط. الثانية، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، (١٩٦٨ م).

عن النصوص القرآنية والروائية التي تسلط الضوء على مراتب الدعوة ومرحليَّتها.

والذي استوعبه العلماء استناداً إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، إنّ مراتب الدعوة الإسلامية هي: «المرتبة الأُولى: النبوة. والمرتبة الثانية: انذار عشيرته الأقربين، والثالثة: إنذار قومه، والرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، والخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته..»(١).

والقرآن الكريم قد أشار إلى هذه المراتب في أكثر من آية من آياته:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِير﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٢).

بالاضافة إلى الآيات القرآنية الأُخرى الدالة على عالمية الرسالة الإسلامية.

إلى جانب ذلك نجد الأحاديث النبوية الكثيرة التي قالها النبيﷺ، وبين فيها عالمية رسالتهﷺ.

روى ابن سعد، عمن حدثه عن أبي جعفر قال: قال رسول اللهﷺ: «بُعثت إلى الأحمرِ والأسود».

وعنه ﷺ: «بُعثتُ إلى الناس كافّة فإن لم يستجيبوا لي فإلى العَرب فإن لم

---

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٠.

(٢) الآيات بحسب تسلسلها: الشعراء: ٢١٤، الأنعام: ٩٢، السجدة: ٣، سبأ: ٢٨، الأنبياء: ١٧١.

يستجيبوا لي فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي فإليّ وَحدي».

وعنهﷺ: «أرسلتُ إلى الناس كافّةً وبي خُتم النبيون»(١).

وعنهﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامةً»(٢).

فهذه الآيات المباركة كلها مكية، وكذلك الأحاديث الشريفة التي قد يستفاد من مناسبات الحكم فيها أنها قيلت في أول بعثته في مكة، مما يدل على أن مسألة عالمية الرسالة قد أظهرها الله ورسوله منذ العهد المكي، وليس في العهد المدني، حتى يدعي هؤلاء المستشرقون أنها جاءت نتيجة لطموحات النبيﷺ الشخصية في توحيد العرب وبسط نفوذه عليهم.

وخلاصة الأمر، أن دعوة الرسولﷺ للأقربين من عشيرته وقومه في بداية الأمر، لا تعني بأي حال من الأحوال أنه أرسل إليهم أو إلى العرب خاصة، إذ إن عالمية رسالتهﷺ ظهرت منذ بعثته في مكة، إلاّ أنها كفكرة كانت تنتظر تهيؤ الظروف الموضوعية لتطبيقها كفعل يمارس على أرض الواقع، وهذا ما تهيأ لها في المدينة، بعد أن تأسست دولة الإسلام فيها، فبلغت الدعوة جميع عرب الجزيرة، لتنطلق دعوة الإسلام إلى العالم الخارجي من خلال رُسل النبيﷺ وكتبه إلى الملوك والأُمراء في الامبراطوريتين الفارسية والرومانية وإلى ماوراء البحر الأحمر حيث ملوك الحبشة.

وقد حاول منتغمري وات أن يشكك في هذه الرسائل والكتب النبوية ويدعي عدم معقوليتها في كتابه الذي كتبه تحت عنوان «محمد في المدينة».

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٢ .

(٢) ابن الجوزي – أبو الفرج عبد الرحمن، الوفا بأحوال المصطفى: ١ / ١٨٥، طبعة مصر، (١٩٦٦ م).

وينبغي أن نشير إلى أن بعض الكتّاب والمفكرين والسياسيين قد استهوتهم أُطروحات المستشرقين، فقام دعاة القومية العربية بالدعوة إليها، وفي المقابل رفضوا فكرة الأُمة الإسلامية، فقال قائلهم: «كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمداً» ورفعوا شعارات جوفاء خالية المحتوى من قبيل «الأُمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة»[١]. وقد نسي هؤلاء الأدعياء أن الإسلام هو الذي وحد الأُمة العربية، وجعلها **(خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)** وليس العصبية القومية التي كانت موجودة قبل الإسلام، ولم تستطع أن توحد العرب، ولا غيرهم ممن تنادوا بها!

ولا نستبعد أن تكون الدعوة إلى القومية العربية - والتي يتغنى بها إلى يومنا هذا - فكرة مستوردة، وصنيعة أيادي مشبوهة، ولهذا نجد أغلب قادتها ومن نظّر لها من المسيحيين أو العلمانيين، من أمثال شبلي شميل، وشبلي العيسمي، وميشيل عفلق.. وغيرهم.

لقد كان ولا زال لفكرة القومية العربية، أو القومية التركية، أو القومية الفارسية.. دورها في التعصب المقيت، والعداء بين أبناء الأُمة الإسلامية، وتفتيت واضعاف الطاقات والجهود الكبيرة التي تتمتع بها أُمة الإسلام، فأصبح المسلمون بقومياتهم المختلفة يعيشون ثقافة التشرذم والتعصب مما سهل مهمة السيطرة عليها ونهب ثرواتها من قبل الاستكبار العالمي.

---

(١) انظر، شبلي العيسمي، عروبة الإسلام وعالميته.

الأسئلة:

١ - لماذا بدأ النبيﷺ بدعوة أقاربه وعشيرته إلى الإسلام من أول الأمر ؟

٢ - كيف كان موقف الإمام علي عليه السلام اتّجاه دعوة النبيﷺ لعشيرته ؟ وما هي الكلمات التي قالها النبي الأكرمﷺ بحقّ علي عليه السلام ؟ والتي يصطلح عليها تأريخياً بـ «حديث الدّار» ؟

٣ - كيف كان موقف عشيرة النبيﷺ وأقربائه اتّجاه دعوته لهم ؟ وبماذا تميّز موقف أبي طالب من بين القوم ؟

٤ - ما هي الأُمور والحقائق التي تتّضح لنا من خلال قصّة «حديث الدار» ؟

٥ - ما هو موقف المستشرقين من عالمية الرسالة الإسلامية ؟

٦ - كيف يمكن أن يُردَّ على دعوات المستشرقين في عدم عالمية الرسالة الإسلامية ؟

الدرس الخامس عشر
الدعوة

«القسم الرابع»
الدعوة في المرحلة العلنيَّة

محاور البحث:

١ - من ثمرات الدعوة في مرحلتها السرية
٢ - الدعوة العامة وطريقة النبيﷺ في ابلاغها
٣ - ردود أفعال قريش لنداء النبي
٤ - مفاوضات قريش من دعوة مع النَّبيﷺ
المفاوضات غير المباشرة
المفاوضات المباشرة
٥ - الدروس والعبر
- الأسئلة

الدعوة في المرحلة العلنيَّة

١ - من ثمرات الدعوة في مرحلتها السرية

ينبغي أن نذكر ونحن نجتاز المرحلة السرية إلى المرحلة العلنية إلى أننا عندما نستعرض قائمة المسلمين الأوائل التي ذكرها ابن إسحاق وغيره من المؤرخين نلاحظ أنها استوعبت تقريباً أفراداً من كل القبائل التي كانت تشكل نسيج المجتمع المكي آنذاك، وقد انضمّ إلى هذه القائمة رجال ونساء من شتى فروع قريش ففيها من بني هاشم، ومن بني أُمية، وبني مخزوم، وبني تميم، وبني عدي، وبني زهرة، وبني سهم، وبني جمح، وبني الحارث، وبني أسد، وشخصان من قبيلتين متفرقتين هما عمرو بن عنبسة من بني سلمة، وجندب بن جنادة (أبو ذر الغفاري) من بني غفار، اللذان طلب منهما النبيﷺ مغادرة مكة للأسباب التي ذكرناها سابقاً.

وكانت هذه المجموعة التي تشكلت منها قائمة المسلمين الأوائل، تضمّ نسيجاً اجتماعياً متنوعاً، ففيه الأحرار والعبيد، والرجال والنساء، والشباب والشيوخ والفتيان، وكان للمرأة حضورها أيضاً في هذا التكتل.

ومرّت الدعوة السرية بسنواتها الثلاثة أو الأربعة من دون أن تثير مشاكل معينة مع قريش لما ذكرناه سابقاً من أسباب موضوعية دعت قريشاً للسكوت على هذه الظاهرة، إذ اعتبرتها سحابة صيف لا تحمل معها رعداً ولا مطراً.

إلاّ أن دعوة الإسلام ودخول تلك المجموعة من الأوائل فيه بدأت تتفاعل في أوساط المجتمع المكي، ومن المؤكد أن دعوة النبيﷺ لعشيرته واجتماعه

بهم ودعوتهم إلى الإسلام. . قد وصلت أخبارها إلى مسامع كل المجتمع القرشي في مكة، فعلمت قريش أن هذه الدعوة الجديدة ليست من سنخ الدعوات السابقة، وليست كما كانت تتصور مجرد طقوس عبادية وتحنث وعزلة عبادية سرعان ما تنتهي بمرور الزمن، بل إنها دعوة راسخة تريد أن تتوسع لتكتسح كل المفاهيم الجاهلية التي تلتزم بها قريش وتعتبرها من الثوابت التي لا تحيد عنها.

وقد رسخ هذا الاعتقاد لديها دعوة النبي ﷺ لهم إلى هذا الدين الجديد، وبصورة عامة، وعلى رؤوس الأشهاد، ولهذا أعدّت نفسها لمواجهة النبي ﷺ ودعوته وبمختلف الأساليب والطرق، فبدأت بذلك صفحة جديدة من الأحداث نستعرض بعض جوانبها في هذا الدرس والدروس القادمة.

وينبغي أن نذكر أيضاً بأنّ دعوة النبي ﷺ لعشيرته الأقربين، وإن لم تنتهِ إلى النتيجة التي كان يبتغيها النبي ﷺ من دعوته لهم، إلاّ أنها أثمرت عن دعم أبي طالب الذي كان يمثل تكتل بني هاشم وله ثقله الاجتماعي في مكة، مما يعني أن قريشاً سوف تحسب حسابها في مواجهة النبي ﷺ فلا تقدم على أُسلوب العنف من أول الأمر، وإنما تحاول ثنيه عن عزمه بالوسائل السلمية والاغراء المادي، ثمّ تتدرج إلى أُسلوب السخرية والاستهزاء، وهكذا حتى تصل إلى الأساليب الأشد، وهذا ما أقدمت عليه قريش، وفيما يلي تفاصيل ذلك.

٢ - الدعوة العامة، وطريقة النبي في ابلاغها

لقد استخدم النَّبي ﷺ الوسائل الإعلاميَّة المُتاحة في ذلك الزمان لتبليغ دعوته المباركة، سواء في بداية أمر الدعوة العامَّة أو في المراحل التالية.

ومن الوسائل التي وظَّفها النَّبي ﷺ لنشر الدعوة بين الناس وسيلة الخطابة،

إذ كان من عادة الخطيب في ذلك الوقت إِذا أراد أن يخطب الناس الوقوف

على مرتفع من الأرض، أو على ظهر راحلته، وذلك لابعاد مدى الصوت وللتأثير بشخصيَّته وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه وبما أنَّ هذه الطريقة لا تتنافى مع الإسلام فقد استخدمها النَّبيﷺ.

روى الطبري عن ابن عباس قال: «صعد رسول اللهﷺ ذات يوم الصَّفا فقال: «يا صَبَاحاه» ! فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالَك ؟ قالﷺ أرأيتم إنْ أخبرتكم أنَّ العدوّ مصبّحكم أو ممسّيكم أَمَا كنتم تصدّقونني ؟ قالوا بلى: قالﷺ فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

فنهض أبولهب وقطع عليه كلامه لئلاً تؤثِّر كلماته في قلوب الحاضرين وصاح في وجه النَّبيﷺ قائلاً: «تبّاً لك لهذا دعوتنا ؟»[١] وبهذه الكلمات البذيئة استطاع أن يفرِّق الجموع، ويفسد على النَّبيﷺ دعوته، ولقد جازاه الله تعالى على هذا الإنكار، والعِداء لله ورسوله، اذ أنزل سورة من القرآن في ذمِّه وهي ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب وَتبَّ﴾ إلى آخر السورة.

وفي نصٍّ آخر ينقله المفسِّرون جاء فيه: «... أنَّهﷺ قام على الحِجر فقال: يا معشر قريش، يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله وآمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني، تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونون مُلوكاً في الجنَّة...»[٢].

٣ - ردود أفعال قريش من دعوة النَّبيﷺ

لقد كان لنداء النبيﷺ وكلماته الحكيمة البلغية كبير الأثر في كثير من

---

(١) الطبري، التاريخ: ٢ / ٣١٨ - ٣١٩ (مصدر سابق)، وقارن برواية ابن الأثير في الكامل: ١ / ٤٨٦ .

(٢) الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي (ت ١١١٢ هـ): تفسير نور الثقلين: ٣ / ٣٤، تصحيح وتعليق: هاشم الرسولي المحلاتي، مطبعة الحكمة، تم (د - ت).

الذين استمعوا إليه، وبدأ الحديث ينتشر في مجالس قريش ومحافلهم عن الدين الجديد الذي جاء به محمّد ﷺ، ولقد وجد البعض ممَّن أرهقتهم المظالم، وألهبت ظهورهم سياط الظلم، في هذه الدعوة العادلة الرحيمة نافذة أمل ورجاء في إصلاح أحوالهم ونجاتهم ممَّا كانوا يُقاسون من ألوان الذِّل والحرمان.

ولكن أشراف قريش وزعمائها لم يستجيبوا للدعوة الجديدة، بل صمَّموا على الوقوف في وجهها، ووضع العراقيل أمامها.

ولعلَّ السرّ في استكبار مشركي مكَّة ومحاولتهم إطفاء نور الله تعالى يرجع إلى:

أوّلاً: إنَّهم كانوا يستغلُّون أولئك الفقراء والعبيد والضعفاء في مكَّة وغيرها في مصالحهم، فجاء رسول الله ﷺ يبثُّ في هؤلاء الفقراء روحاً جديدة، وبدأ يؤكِّد لهم مفهوم كرامة الإنسان وحرِّيته، ثمَّ هو يناصرهم ويعيش قضيَّتهم وآلامهم ويفتح أعينهم على واقعهم ويبثُّ فيهم تعاليم الإسلام، وفي مقدِّمتها وجوب تحرُّرهم من سيطرة وغطرسة أُولئك الطُّغاة والمتجبِّرين.

ثانياً: لقد أدركوا ممَّا عرفوه من طبيعة الدَّعوة وأهدافها أنَّهم سوف لن يتمكَّنوا في ظلِّها من الاحتفاظ بتلك الامتيازات الظالمة الَّتي كان أولئك المتجبِّرون يجعلونها لأنفسهم، والتي كان يرفضها النَّبي ﷺ ويؤكِّد على أنَّ الناس كلّهم سواسية أمام عدالة السماء في ميزان الحُكم والقضاء.

ثالثاً: ثمَّ إنَّهم وجدوا في هذا الدين الجديد الذي جاء ليتمِّم مكارم الأخلاق مانعاً لهم من الاستمرار في ممارساتهم اللاَّ أخلاقية واللا إنسانية، والتي لا يراعون فيها القواعد الإنسانية، والاصول الأخلاقية»[١].

---

(١) الصحيح من السيرة: ٣ / ٢٠٤ – ٢٠٥ (مرجع سابق).

رابعاً: ولعلّ تدنِّي المستوى العقلي والفكري في ذلك العصر، كان دخيلاً في عدم تقبُّل البعض من الناس لرسالة الإسلام.

خامساً: كانوا يعتبرون تسفيه النَّبيﷺ وسخريته من أصنامهم ضربة قاسية توجَّه إليهم؛ لأنَّهم كانوا يعتبرون عبادة الأصنام جزءاً ممَّا ورثوه من آبائهم وأجدادهم وهي أمجادهم التي يتفاخرون بها.

سادساً: ثمَّ إنَّ أصحاب المصالح والأموال من المُرابين - الذين يأكلون الرِّبا - كانوا يريدون إبقاء النظام الرَّبوي ليمتصُّوا ما يحلو لهم من دماء الناس الضعفاء.

سابعاً: ما أشارت إليه الآية الكريمة في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[1].

أي انَّهم اعتذروا عن عدم إيمانهم أنَّهم إن آمنوا فإنَّ العرب المشركين لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم، فردَّ عليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. فلا موجب إذن لخوفهم.

هذه هي أهمُّ الأسباب التي دعت قريشاً للوقوف بوجه النَّبيﷺ ودعوته المباركة، بالاضافة إلى ما ذكرناه سابقاً حول قريش وسيادتها وآلهتها وتجارتها التي كانت تسعى جاهدة للمحافظة عليها، والتصدي لكلِّ من يحاول المساس بها.

(١) و (٢) القصص: ٥٧.

٤ - مفاوضات قريش مع النبي

أ - المفاوضات غير المباشرة:

وهكذا لم يستجب أشراف قريش وزعماؤهم للدعوة الجديدة، بل صمَّموا على الوقوف في وجهها ووضع العراقيل أمامها، ولهذا الأمر الذي يهدِّد كيانهم عقدوا جلساتهم في دار ندوتهم وبحثوا فيما يجب اتِّخاذه لمنع هذه المسيرة المباركة من التقدُّم، وقد استقرَّ رأيهم على اتِّخاذ أسلوب المفاوضات غير المباشرة أو المباشرة مع النَّبيﷺ إن اقتضى الأمر ذلك.

وكانت المفاوضات غير المباشرة قد مرَّت بثلاث مراحل انتهت كلّها بالفشل الذَّريع، ويمكن إجمال هذه المراحل الثلاث بمايلي:

الأولى: أنَّه قد ذهب رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب كبير قريش والذي كان بمثابة الوالد للنَّبيﷺ: «فقالوا: يا أبا طالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفَّه عنَّا، وإمَّا أن تُخلِّي بيننا وبينه، فإنَّك على مثل ما نحن عليه من خلافه! فنكفيكه؛ فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه»[(١)].

الثانية: وقد وجد أشراف قريش أنَّ محاولتهم الأولى لم تُثمر فقد مضى محمّدﷺ في نشر رسالته وازداد أعوانه يوماً بعد يوم: «فمشوا إلى أبي طالب مرَّة أخرى وقالوا له: «يا أبا طالب إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهه عنَّا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا مِنْ شَتِم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتَّى تكفَّه عنَّا، أو ننازله وإيَّاكَ في ذلك - أي القتال - حتَّى يهلك أحد الفريقين، ثمَّ انصرفوا عنه»[(٢)].

---

(١) ابن هشام، السيِّرة النبويَّة: ١ / ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٨٤ .

حينئذ دعا أبو طالب محمّداًﷺ وأخبره بمقالة القوم: «فظنَّ رسول اللهﷺ أنَّه قد بَدَا لعمِّه فيه بَدَاء وأ نَّه خاذله ومُسلمه وأ نّه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه، فقال ﷺ: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يَميني والقمرَ في يَساري، على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»، ثمّ استعبر رسول اللهﷺ فبكى ثمّ قام.

فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول اللهﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[١].

الثالثة: ثمَّ إنَّ قريشاً سلكوا طريقاً آخر لمنع أبي طالب من مناصرة محمَّدﷺ وحمايته فمشوا إليه وأخذوا معهم عمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: «يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد انهد - أقوى - فتىً في قريش وأجمله، فخذه فلك عَقلُه ونَصْرُه، واتَّخذه ولداً فهو لك، وأسْلِم إلينا ابن أخيك هذا الذيّ قد اَلف دينَك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله، فإنّما هو رجل برجل !!

فقال أبو طالب: والله لبئس ما تَسومونني ! أتعطوني ابنَكُم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً»[٢].

ب - المفاوضات المباشرة مع النَّبيﷺ:

يتصوَّر البعض أنَّ العِزَّة والمنعة والصلابة في شخصيَّة الإنسان تأتي من خلال المال أو المنصب أو المكانة الاجتماعيَّة أو السِّياسيَّة وأمثال ذلك من أمور الدنيا.

---

(١) و (٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٨٥ .

ولهذا تجدهم يتهافتون على هذه الأمور ويسعون من أجلها، وهذا الفهم نابع من مفهوم جاهلي للعزَّة والمناعة والصَّلابة في شخصية الإنسان، وللإسلام فَهْمٌ آخر يختلف عن هذا الفهم تماماً؛ فالقرآن الكريم يرى أنَّ العزَّة والصلابة في الشخصيَّة لا تأتي من خلال هذه المتع الزائلة، بل على العكس من ذلك فإنَّها قد تكون مصدر ذلَّة وهوان وصغار للإنسان إن انساق الإنسان معها، واتخذ كل الوسائل للاستحواذ عليها، بل العزّة كل العزّة من الله سبحانه ومن كان يريد العزَّة فليبتغِ ذلك من ربِّ العزَّة.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: «من اعتزَّ بغير الله أهلكه العزُّ»[٣].

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «والعزيز بغير الله ذليل»[٤].

وعنه عليه السلام «من أراد عزّاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل عن ذلِّ معصية الله إلى عزِّ طاعته»[٥].

انطلاقاً من الفهم الجاهلي لمفهوم العِزّة، ومصادر العزَّة الزائفة ظنَّ زعماء قريش أنَّهم قد يستطيعون إيقاف النَّبيصلى الله عليه وآله وسلم عن المُضيِّ في دعوته وذلك بإغرائه بالمال أو المُلك، والمنصب؛ ولهذا فقد جاءوا إليه ذات مرَّة وقالوا له: «يا محمّد... إن كنت إنَّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) الآمدي – عبدالواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٩، ط. مكتب الإعلام الإسلامي – قم.

(٤) المجلسي، بحار الانوار: ٧٨ / ١٠ (مصدر سابق).

(٥) المصدر نفسه: ٧٨ / ١٩٢. وانظر كتابنا: مفهوم العزّة في الإسلام.

حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنَّما تطلب به الشَّرَف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد مُلكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ رِئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمُّون التَّابع من الجنِّ رئياً - فربَّما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتَّى نبرئك منه، أو نُعذر فيك! فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتكم رسالات ربِّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منِّي فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1].

ولما رأت قريش أنَّ جميع أساليبهم لم تنفع في كفِّ محمَّدﷺ عن تبليغ رسالته قنعوا واكتفوا منه أن يكفَّ عن شتم آلهتهم ويتركوه وشأنه؛ لذا جاءوا إلى أبي طالب وطلبوا منه أن يبلِّغ محمداًﷺ مقالتهم، فأرسل أبوطالب إلى النَّبيﷺ فلمَّا دخل عليه أخبره باقتراحهم.

فقال النَّبيﷺ: «أي عمّ، أوَ لا أدعوهم إلى ما هوَ خير لهم منها؟ قال: وإلى مَ تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلَّموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم؟

فقال أبو جهل: ما هي وأبيك؟ لنعطينَّكها وعشراً أمثالها؟

قال النبيﷺ: أن تقولوا: لا إله إلاّ الله.

فنفروا وقالوا: سلنا غير هذه؟ فقال رسول اللهﷺ «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»[2].

---

(١) السِّيرة النبويّة: ١ / ٣١٦ . مصدر سابق.

(٢) الطبري: ٢ / ٣٢٤ .

ولمَّا وجد زعماء قريش أنَّ مفاوضاتهم مع النَّبيﷺ لا يمكن أن تؤدِّي إلى نتيجة لصالحهم ولا تجعله يتراجع عن المبدأ والعقيدة التي يدعو إليها، فلا التهديد ولا الوعيد ولا الإغراء المادي يستطيع أن ينال من عزم النبيﷺ وثباته، فقد صمَّموا ان يتَّخذوا قباله موقفاً أشد.

٥ - الدروس والعبر:

تتجلى لنا في هذا المقطع من سيرتهﷺ، وفي المفاوضات التي خاضتها قريش معه، جملة من الدروس والعبر والدلالات لابد لنا من التوقف عندها:

أولا: قِيم الإسلام، وقِيم الجاهلية:

لقد أخذت المفاوضات مع قريش طابعاً فردياً، وطابعاً جماعياً، وكانت تارة بصورة غير مباشرة، وأُخرى مباشرة، وفي كلّ أحوالها برزت فيها شخصية النبيﷺ في كامل عزته واستقامته وثباته وهو يحاور صناديد قريش والذين يمثلون زعامة مكة وقيادتها.

لقد كانت مشركو قريش يتصورون أن دوافع محمدﷺ من دعوته هو طلب المال والسيادة والملك، ولهذا دخلوا في مفاوضاتهم مع النبيﷺ على أساس هذه القضايا التي تمثل القضايا الكبرى بالنسبة إليهم، فعرضوها عليه - بسخاء - لإنهاء المشكلة معه ﷺ.

«وهذه هي قيم الجاهلية التي لا تعرف قيماً في هذه الأرض إلاّ هذه القيم، لأنها في الأصل لا تسعى إلاّ لذاك، وتحسب أن الدعاة إلى الله مثلها قيماً ومبادئ»[١].

---

(١) الغضبان - منير، المنهج الحركي للسيرة النبوية: ٧٧، طبعة دار الوفاء - مصر، الطبعة العاشرة، (١٩٩٨ م).

فما كان من الرسول ﷺ إلاّ أن يجيبهم بذلك الجواب القاطع الذي ليس فيه أي مهادنة أو مجاملة، «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم» فعلموا عندها أن ما جاء به له غايات بعيدة، وأنه لن يتنازل عنها مهما كانت مغرياتهم.

وفي هذا المقطع درس كبير للدعاة إلى الله، إذ إن أساليب الطغاة واحدة في كلّ زمان ومكان، فهم يلجأون إلى الاغراءات والعروض المادية المغرية عندما يرون في المناوئين لهم الصلابة والقوة.

فعلى الداعية أمام هذه المغريات أن يكون عزيزاً في دينه، ثابتاً في موقفه، قوياً في إرادته، مستقيماً في سلوكه، لكي لا يسقط عند تلك المغريات المادية التي تعرض عليه من قبل أعدائه.

ثانياً: أبو طالب، وحماية النبي ﷺ:

لقد كان لأبي طالب عمّ النبي ﷺ دور مفصلي مهم في تثبيت ركائز الإسلام والدعوة الإسلامية في أيامها الأُولى، وبقي على هذا الموقف إلى آخر أيام حياته، فكان رسول الله ﷺ يحظى بحماية عمه ومن موقع زعامته لبني هاشم وبني المطلب.

وهذا الموقف الشجاع النبيل من أبي طالب ان دلّ على شيء فهو يدل بوضوح على عمق إيمانه ورسوخ عقيدته، ولم يكن موقفه هذا من منطلق العصبية الجاهلية أو العزة القبيلية، أو الأنفَة العشائرية كما يحاول أن يصورها بعض الكتّاب. إذ لو كان الأمر كذلك لأقدم أبو لهب على ذلك وهو أيضاً عم النبي ﷺ.

وعندما نعود إلى كلمات أبي طالب مع رسول الله ﷺ بعد آخر لقاء له مع وفد قريش الذي هدد بالحرب والقتال، نسمعه يقول له: «اذهب يا ابن أخي فقل

ما أحببت، فوالله لاأسلمك لشيء أبداً».

وبقي أبو طالب وفياً لعهده الذي قطعه مع رسول الله ﷺ، ووفياً لإسلامه وإيمانه الذي أخفاه لمصلحة الإسلام كما سوف يأتينا ذلك مفصلا إن شاء الله.

ثالثاً: كلمات الرَّسول الخالدة:

اتسمت كلمات وخطب رسول الله ﷺ بالايجاز والاقتضاب من جهة، وعمق المعنى من جهة أُخرى. وعندما نراجع كلماته وخطبه في العهدين المكي والمدني نجدها على نفس الوتيرة ولها نفس خصوصية الايجاز وعمق الدلالة.

والشاهد على هذا الايجاز والعمق كلماته التي قالها في هذا المقطع من دعوته، سواءً الكلمات التي قالها بحضور عشيرته الأقربين منه، أو التي أطلقها على جبل الصفا أو على الحجر...

إلاّ أنّه تبقى لكلمته التي قالها في محضر عمه أبي طالب وقعها الخاص، وتأثيرها المباشر في النفس، فهي كلمة خالدة أطلقها من نفس أبية عزيزة، فتحولت إلى أُنشودة ترددها شفاه المجاهدين والداعين إلى الله، والثابتين على الحق: «والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يَساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

ومن يقرأ هذه الكلمة بعيداً عن سياقها الذي قيلت فيه يتصور أن النبي ﷺ قد قالها وهو يمتلك كل وسائل القوة والملك والجبروت، ولا يتصور انه قد قالها في بداية دعوته ولم يكن معه إلاّ ثلة قليلة من المؤمنين المستضعفين، في مقابل قريش وجبروتها وكبريائها، بل في مقابل الجاهلية بأسرها.

فعلى الداعية أن يستخلص هذا الدرس من سيرته ﷺ فيعيش حالة الاستقامة والعزة، في أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته.

الأسئلة:

١ - ما هي أهم الملاحظات التي يمكن أن يستفيدها المتأمّل في آية (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) ؟ وما هي الوسيلة التي استخدمها النبيﷺ في دعوته العامّة ؟

٢ - ما هي ردود الفعل التي قابل بها أشراف قريش وزعماؤها نداء النبيﷺودعوته العامّة إلى الإسلام والإيمان ؟ وما هي أسباب ذلك ؟

٣ - اتّخذت قريش أُسلوب المفاوضات المباشرة وغير المباشرة مع النبيّﷺللحدِّ من دعوته المباركة، فما هي المراحل التي مرَّت بها المفاوضات غير المباشرة ؟ وماذا كانت نتائجها ؟

٤ - كيف واجه النبيﷺ دعوة قريش له بالكفِّ عن المضيّ في دعوته المباركة من خلال الإغراء بالمال أو المُلك ؟

٥ - ما هو موقف أبي طالب من دعوة النبيﷺ ؟

الدرس السادس عشر
الدَّعوة

«القسم الخامس»
الدعوةُ والعَقَبات

محاور البحث:

١ - الحرب النفسيَّة ضدّ النبيﷺ
٢ - تعذيب المسلمين ونماذج من ذلك
نماذج من الذين عذَّبتهم قريش
٣ - الرسولﷺ يثبّت أصحابه
٤ - إسلام حمزة بن عبدالمطّلب
• الأسئلة

الدعوةُ والعَقَبات

١ - الحرب النفسيَّة ضدّ النبيﷺ

قلنا فيما سبق إنَّ سياسة ردِّ الفعل من قِبَل قريش تمحورت حول مظهرين:

الأوّل: استهدفت النَّيل من شخصيَّة الرَّسولﷺ بالذَّات.

الثاني: استهدفت اضطهاد وتعذيب السَّابقين إلى الإسلام.

وسنتحدَّث عن هذين المحورين بالإضافة إلى محاور أخرى في هذا الدرس إن شاء الله تعالى.

فبعد أن يئس زعماء قريش من إغراء النَّبيﷺ بالأمور الماديَّة والوعود، وفشلت كل المفاوضات المباشرة، سلكوا طريق الأذى والتعذيب، ليصدُّوا النَّاس عن اتِّباع الدين الجديد. وهكذا بدأت مرحلة جديدة في مسيرة الدعوة الإسلاميَّة، مرحلة اتَّصفت بالقسوة والوحشَّية من قِبَل قريش ليمنعوا رسالة الإسلام من التوسُّع والانتشار خوفاً على مصالحهم، وحِفَاظاً على مكانتهم وتسلُّطهم الجائر على أعناق الضعفاء: ولهذا لم يراعوا القواعد الإنسانيَّة والأصول الأخلاقيَّة من أجل الوصول إلى أهدافهم في الحيلولة بين النَّبيﷺ وتبليغ رسالته إلى النَّاس.

وقد استهدفت قريش شخصيَّة القائد المتمثِّلة بشخص رسول اللهﷺ، ثمَّ القاعدة الجماهيريَّة المتمثِّلة بالثلَّة المؤمنة من المسلمين الأوائل. أمَّا بالنِّسبة إلى شخصيَّة القائد فقد استعمل هؤلاء وأتباعهم كل الأساليب اللاَّإنسانية، من تهم رخيصة، وسبّ مقذع، وحصار اقتصادي ومالي، وتعذيب نفسي ضدّ رسول

الله ﷺ. وهنا نشير إلى بعض الأمثلة من ذلك.

قال ابن إسحاق: «ثمّ إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ، ومَن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ، سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكَهانة والجُنون، ورسول الله ﷺ مُظهر لأمر الله لا يستخفي به، مُباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم، وفراقه إيّاهم على كفرهم»(١).

وروي: «بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش وثَمَّ سلى بعير(٢) فقالوا: من يأخذ سلى هذا البعير فيقذفه على ظهره؟ فجاء عقبة بن أبي معيط فقذفه على ظهر النبي ﷺ، وجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك...»(٣).

عن طارق المحاربي قال: «رأيت النبي ﷺ في سوق ذي المجاز بمكة وهو يقول «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا»، ويدعو الناس إلى الإسلام وتوحيد الله، فيما كان أبو لهب يتّبعه ويرميه بالحجارة وقد أدمى رجليه وهو يقول: يا أيها الناس: لا تطيعوه فإنّه كذّاب»(٤).

هذا بالإضافة إلى ألوان أخرى من الأذى الجسدي والنفسي تعرَّض له رسول الله ﷺ، على رغم ما كان يحوطه من حماية بني هاشم فقد كانوا يضعون

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) السلى: وهو الكيس الذي يكون فيه الجنين وهو في بطن أُمّه.

(٣) الطبرسي - أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي، إعلام الورى باعلام الهدى: ٢ / ١٢١، ط. مؤسسة آل البيت - قم، (١٤١٧ هـ).

(٤) ابن شهر آشوب - أبي جعفر رشيد الدين بن محمد بن علي السروي المازندراني، مناقب آل أبي طالب: ١ / ٥٦، ط. المصطفوي - قم.

الشَّوك والقذر في طريقة وكانوا يلقون على رأسه التراب وهو سائر، وخنقه عقبة بن أبي معيط في رجال من قريش حتَّى كادت نفسه تفيض[١]، وسبَّه أبو جهل سبّاً قبيحاً يوم أسلم عمُّه حمزة، وسلَّطت عليه ثقيف سفهاءها وصبيانها يرمونه بالحجارة حتَّى دَمِيَت قدماه، وكذَّبوه وسفَّهوه واستهزؤا به وسخروا منه وقالوا: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، واسمعوه كثيراً من فحش القول وهجر الكلام، وأتمروا به ليقتلوه، ولكن كل ذلك لم يَفُتّ في عضده، ولم يمنعه أن ينهض بأمر ربِّه.

لقد أقدمت قريش على ما أقدمت عليه من أذى لرسول الله ﷺ، وهي تعرف صدقه وأمانته !

يروي ابن إسحاق: «وكان عبد النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة». قال النضر مخاطباً قريشاً: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أُوتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعَقدهم، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكَهنة وتخالجهم.. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها.. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون.. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[٢].

٢ - تعذيب المسلمين ونماذج من ذلك

أما بالنسبة إلى تعذيب المسلمين فنماذج ذلك كثيرة:

لقد رأت زعماء قريش أنَّ نشاط المسلمين يتضاعف يوماً بعد يوم،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣١٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٢٠ .

وتأثيرهم ينتشر كانتشار النور، ولهذا تعاهدت قبائل قريش أن تتكفَّل كل قبيلة:

١ - مراقبة أبنائها ورصد ومتابعة تحركاتهم بشكل دائم ليلاً ونهاراً.

٢ - أن تتولَّى تعذيب المسلمين من أفرادها، لتتجنَّب بذلك خطر الاصطدام مع غيرها إذا تولَّى تعذيبهم غيرها من القبائل.

روى ابن إسحاق: «ثمّ إنهم عَدَوا على مَن أسلمَ، واتبع رسول اللهﷺ من أصحابه، فوثبت كلُّ قبيلة على مَن فيها من المسلمين، فجعلوا يجسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعَطش، وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدّة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلب لهم، ويعصمه الله منهم»[١].

وفي رواية ابن سعد: «لمّا كثر المسلمون وظهر الايمان وتحدّث به، ثارَ ناسٌ كثير من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذّبوهم وسجنوهم واردوا فتنتهم عن دينهم»[٢].

وكان هدفهم من ذلك فصل الأمَّة عن القائد، ومعنى ذلك أنَّهم يريدون أن يفرضوا حصاراً على المسلمين، وعلى الإسلام، ليحدُّوا من نشاط المسلمين، ومن انتشار الإسلام، وليحافظوا على كياناتهم الهزيلة بعزل المجتمع عن الرَّسولﷺ ومن معه من المؤمنين[٣]، وراحت كل قبيلة ترصد تحركات أفرادها، وتتّبع المسلمين منهم فشنَّت القبائل بهذه الطريقة حملة تعذيب لم يشهد المسلمون لها مثيلاً من قبل.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٣٩ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٨ .

(٣) الصيمري - الشيخ مجيد، في ظلال السّيرة المطهَّرة: ٨٢ وما بعدها (بتصرف) ط. دار الزهراء - بيروت، (١٤١٠ هـ).

نماذج من الذين عذَّبتهم قريش:

أ - آل ياسر: ياسر و زوجته سميَّة وولده عمَّار، وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم، فكانوا يُخرجون عماراً وأباه وأمَّه إلى الأبطح إذا حميت الرَّمضاء، يعذِّبونهم بحرِّ الرمضاء، فمرَّ بهم النَّبيﷺ فقال «صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة»(١).

وكان المشرف على تعذيبهم أباجهل بن هشام وكان يتفنَّن في تعذيبهم كيفما لذَّ له وشاء، وهو يرجو بذلك أن ينتزع منهم البراءة من الإسلام والرجوع إلى عبادة الأوثان، فمات ياسر تحت التعذيب، وأغلظت امرأته سميَّة القول لأبي جهل فطعنها بحربة في يديه فماتت، وكانت من الخيِّرات الفاضلات، وهي أول شهيدة في الإسلام(٢)، وشدَّدوا العذاب على عَمّار، بالحرِّ تارة، وبوضع الصَّخر على صدره تارة وبالتغريق تارة أخرى وقالوا: لن نتركك حتَّى تسبَّ محمَّداً، وتقول في اللاَّت والعزَّى خيراً... ! ففعل فتركوه. فأتى النَّبيﷺ يبكي فقال له: ما وراءك؟ قال: شرّ يا رسول الله! كان الأمر كذا وكذا فقالﷺ: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان، قالﷺ: يا عمَّار، إن عادوا فعُد(٣).

فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٤).

ب - بلال: ومن الذين عذَّبتهم قريش أشد التعذيب (بلال بن رباح الحبشي)، وقد كان بلال على جانب كبير من الإيمان والصدق وطهارة النفس وسلامة القلب، آمن برسول اللهﷺ وتحمَّل الكثير من الأذى وصبر على مختلف

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٢ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ١ / ٤٩٥ .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ١ / ٤٩١ .

(٤) النحل: ١٠٦ .

ألوان العذاب، وكان الذي يتولَّى تعذيبه مولاه (أميَّة بن خلف الجمحي)، وكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرَّمضاء على ظهره، ثمَّ يأمر بصخرة عظيمة فتُلقى على صدره ويقول: لا تزال هكذا حتَّى تموت أو تكفر بمحمَّد وتعبد اللاَّت والعزَّى!

فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَد... أَحَد[1].

ج - هذا وقد عذَّب المشركون بالإضافة إلى آل ياسر وبلال عدداً من المسلمين منهم عبدالله بن مسعود، وخباب بن الأرت، ومصعب بن عمير، وصهيب بن سنان الرومي، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة وغيرهم.

ولم يكن تعذيب قريش للمسلمين مقصوراً على الرجال فحسب، بل شمل المسلمات من النساء أيضاً، ومن بينهن - بالإضافة إلى سميَّة التي مرَّ ذكرها-:

لُبينة: جارية مؤمّل بن حبيب، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطَّاب، وكان عمر قد تولَّى بنفسه تعذيبها ليفتنها عن الإسلام ثمَّ يدعها ويقول: إنِّي لم أتركك إلاَّ ملالة، ومعنى ذلك أنَّه كان لا يترك تعذيبها إلاَّ عندما يشعر بالكلل، وكان يقسو عليها فتقول له: كذلك فعل الله بك»[2].

ومنهن **زُنَّيرة**: وكانت لبني عدي، وكان عمر بن الخطَّاب يعذِّبها، وقيل كانت لبني مخزوم وكان أبوجهل يعذِّبها فأُصيب بصرها، فقالت قريش: ما أذهب بَصَرها إلاّ اللاَّت والعزَّى.

فقالت: كَذبوا وبيت الله، ما تضرُّ اللاَّت والعزَّى وما تنفعان فردّ الله بصرها[3].

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤١ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٠ .

وهكذا أسرف المشركون في تعذيب الضُّعفاء من المسلمين، وأرهقوهم إرهاقاً شديداً حتَّى كان منهم من لا يقوى على احتمال العذاب، فيموت في أيديهم، ومنهم من تضطرّه قسوة التعذيب إلى مجاراة المشركين فيرضيهم بظاهر من القول وقلبه مطمئن بالإيمان.

وفي رواية ابن إسحاق المروية عن سعيد بن جبير: «قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضُّر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له؛ اللات والعزّى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إنّ الجُعل ليمرّ بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءً منهم ممّا يبلغون من جَهده»[(١)].

وقد ضرب هؤلاء لنا المثل الأعلى في الصمود والجهاد من أجل المبدأ والعقيدة وهنا يكمن سر عظمتهم وامتيازهم على غيرهم.

أما من كان من المسلمين في منعة وقوة من قومه وعشيرته، فكان في منأى عن التعذيب الجسدي، إلاّ أنّه لا يسلم من الحرب النفسية والاقتصادية، يقول ابن إسحاق: «وكان أبو جهل الفاسق يغري بهم في رجال قريش، إذا سَمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خيرٌ منك! لنُسفهنّ حلمك، ولنفيّلن رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسّدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك، وإن كان ضعيفاً ضَربه وأغرى به»[(٢)].

٣ - الرَّسول ﷺ يثبِّت أصحابه

كان رسول الله ﷺ يتألَّم لأصحابه أشدَّ الألم، ولكنَّه كان يدعوهم إلى

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢.

الصَّبر واحتمال ما يلقون من العذاب والأذى في سبيل الله حتَّى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، وكان يهوّن عليهم شدَّة العذاب بما يذكر لهم من سير المؤمنين في الأمم الَّتي خلت، وما كان قوة احتمالهم، ورسوخ إيمانهم، وصبرهم على ألوان من العذاب أشنع وأقسى ممَّا يلاقون هم، ويؤكِّد لهم أنَّ نصر الله آت لا ريب فيه، وأنَّ رحمة الله قريب من المحسنين.

روى البخاري عن قيس قال: سمعت خبَّاباً يقول: «أتيت النَّبيﷺ وهو متوسِّد بُرده وهو في ظلِّ الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدَّة - فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمّر وجههُ فقالﷺ: «لقد كان قبلكم لُتَمَشطُ بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقُّ اثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ الله هذا الأمر حتَّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلاَّ الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

وهكذا يتحمَّل دعاة الحقِّ الألم والمعاناة ليرسِّخوا للأجيال هذا الكيان الإسلامي الشامخ ويسلِّموه لهم بحرارة ودماء وتضحيات لكي يحسُّوا بعظمته وقدسيته وفاعليته.

٤ - إسلام حمزة بن عبد المطلب

وفي أثناء هذه المرحلة العسيرة من مراحل الدعوة الإسلاميَّة المباركة شاء الله سبحانه أن يُعزَّ الإسلام برجل يُدخل الرُّعب في قلوب المشركين، وكان هذا الرجل هو حمزة بن عبدالمطَّلب عمّ النبيﷺ أسد الله وأسد رسوله.

وقد رُوي أنَّه أسلم في حوالي السَّنة السَّادسة للبعثة - كما يستفاد ذلك من

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ٢٨٨، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النَّبي وأصحابه من المشركين بمكة، الحديث ٣٨٥٢، ط. دار الفكر - بيروت، (١٤١٩ هـ).

ابن هشام في السِّيرة حيث ذكر اسلام حمزة بعد الهجرة إلى الحبشة[١]. وقيل إنَّه أسلم في السنة الثانية للبعثة[٢].

وقد كان إسلام حمزة تطوُّراً جديداً لم يكن قد دخل في حسابات قريش، حيث قَلَب الموازين رأساً على عَقِب، وفتّ في عضد قريش، وزاد من مخاوفها، وكبح من جماحها.

يقول المقدسي: «فلمَّا أسلم حمزة عَزّ به الدين والنَّبيﷺ»[٣] وسُرَّ رسول اللهﷺ بإسلامه كثيراً فشقَّ ذلك على المشركين، وكان حمزة أعزّ فتى في قريش وأشدهم شكيمة، وجاء في قصَّة إسلامه - كما يروي ذلك ابن إسحاق في السِّيرة:

«أنَّ أبا جهل مرَّ برسول الله عند الصَّفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه، والتَّضعيف لأمره، فلم يكلِّمه رسول اللهﷺ وانصرف، وإنَّ مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها عند الَّصفا كانت تسمع ما جرى من أبي جهل، فلمَّا عاد حمزة من الصِّيد، وكانت عادته إذا رجع أن يطوف بالبيت - الكعبة - قبل رجوعه إلى داره فيطوف به ويسلِّم على مَنْ فيه ثم يرجع إلى بيته، وكان أعزّ فتى في قريش وأشد شكيمة، ولكن في هذه المرَّة وقبل وصوله إلى الكعبة أخبرته الجارية بما كان من أبي جهل اتِّجاه الرَّسول الأعظمﷺ، فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالساً مع القوم، فأقبل نحوه حتَّى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها ضربة فشجّه بها شجة منكرة ثمَّ قال: «أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول ؟ فردَّ عليَّ ذلك إن استطعت»، فقام رجال

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣١١ .

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس : ١ / ٢٩٤ .

(٣) المقدسي - المطهر بن طاهر، البدء والتأريخ: ٥ / ٩٨، ط. مكتبة الثقافة الدينية - مصر.

من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا لحمزة: ما نراك إلاً قد صبأت؟ فقال حمزة: وما يمنعني؟ وقد استبان لي منه أنَّه رسول الله والذي يقول الحق؟ فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبوجهل: دعوا أبا عمارة فأنّني قد سببت ابن أخيه سَبَّاً قبيحاً. وتمّ حمزة (رضي الله عنه) على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أنَّ رسول الله ﷺ قد عز وامتنع وأنّ حمزة سيمنعه فكفّوا عمَّا كانوا ينالونه منه، وقال حمزة للنبي ﷺ: فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلّته السماء وإنّي على ديني الأوّل[١].

والذي يبدو من سياق سيرة ابن إسحاق، أن مفاوضات قريش المباشرة مع النبي ﷺ كانت بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب، فيروى عن كعبة القرظيّ قال: «إنّ عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوماً: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأُكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. . .»[٢].

والذي يستفاد من قصَّة إسلام حمزة بن عبدالمطَّلب ما يلي:

أوّلاً: الذي يستفاد من كلام حمزة ولا سيَّما قوله: «وقد استبان لي منه أنَّه رسول الله والذي يقول الحقّ» أنَّه لم يكن في إسلامه مُنطَلِقاً من عاطفته التي أُثيرت فحسب، وإنّما سبقت ذلك قناعة كاملة كوّنها ممَّا شاهده من مواقف وسلوك وسمعه من أقوال النَّبي ﷺ. وليس تعصُّب حمزة للنبي ﷺ من التعصُّب المذموم الذي نهى الإسلام عنه، وإنَّما هو من التعصُّب للحقِّ، ومن الإيمان أن تتعصَّب للحقِّ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنْ كنتم لامحالةَ مُتعصِّبين فتعصَّبوا

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ١ / ٣١١ – ٣١٢، والطبري: ٢ / ٧٢ .

(٢) السِّيرة النبويَّة: ١ / ٣١٣ .

لنُصرة الحقِّ وإغاثةِ الملهُوف»[١].

وليس وقوف حمزة في هذه الواقعة إلى جانب النَّبيﷺ من حميَّة الجاهليَّة، التي نهى الإسلام والقرآن عنها، وإنَّما هي حمية أرادها الله تعالى لعباده المؤمنين من أجل الدفاع عن دينه ونبيِّه وعقيدته.

وقد رُوي في الوسائل في حقِّ حمزة مايلي: «لم يدخل الجنة حميّة غير حمية حمزة بن عبدالمطّلب، وذلك حين أسلم غضباً للنبي ﷺ رضي الله عنها

ثانياً: ويدلّ على قول حمزة «أتشتمه وأنا على دينه» دلالة واضحة على أنَّ إسلامه كان متقدِّماً على ذلك الوقت، ولكنّه كان يتكتم به مراعاةً للظروف، وحفاظاً على الإسلام والمسلمين[٣].

---

(١) غُرر الحكم ودرر الكلم: ٦٩ (مصدر سابق).

(٢) الحر العاملي - الشيخ محمد بن الحسن، وسائل الشيعه: ١٥ / ٣٧٢، حديث ٢٠٧٧٥، ط. مؤسسة آل البيت - قم.

(٣) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٨٠، مرجع سابق.

الأسئلة:

١ - اذكر بعض الأمثلة من الأساليب اللاإنسانية التي استخدمتها قريش في حملتها وحربها النفسية والجسدية ضد رسول الله ﷺ، ولمنع رسالة الإسلام من التوسّع والانتشار.

٢ - استهدفت قريش اضطهاد وتعذيب السابقين إلى الإسلام ممّن آمن بالله وبرسوله ﷺ، فما هي الأساليب التي اتخذتها للحدِّ من نشاط هؤلاء الصفوة من الصحابة ؟

٣ - تحدّث عن نماذج من الصحابة ممّن عذبتهم واضطهدتهم قريش وكيف كانت مواقفهم وهم على تلك الحالة ؟

٤ - تحدّث عن إسلام «حمزة بن عبد المطلب» وهل كان إسلامه منطلقاً من دوافع العاطفة والحمية والتعصّب القبلي ؟ أم أنّه انطلق في إشهار إسلامه عن وعي وقناعة وبصيرة نافذة ؟

الدرس السابع عشر
الدعوة

«القسم السادس»
الدعوةُ والعَقَبات
«الهجرة إلى الحبشة»

محاور البحث:

المدخل

١ - أسباب ودوافع الهجرة إلى الحبشة
٢ - الأسباب الموضوعية لاختيار الحبشة داراً للهجرة
٣ - الهجرة الأُولى إلى الحبشة وعودة المسلمين
٤ - الهجرة الثانية إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب
٥ - قصة الغرانيق الأُسطورية
وقفة عند قصة وأُسطورة الغرانيق
٦ - المستشرقون وقصة الغرانيق
٧ - ردود فعل قريش من هجرة المسلمين إلى الحبشة
٨ - موقف قريش من المسلمين بعد فشلها من إعادة مهاجري الحبشة
٩ - تأملات ودروس وعبر
● الأسئلة

الهجرة إلى الحبشة

المدخل

اشتدَّت قسوة قريش، وازدادت ضراوتهم، وتضاعف ظلمهم وتعذيبهم للمسلمين، وفق الطريقة التي رسمها زعماؤهم، وقد ساء ذلك رسول الله ﷺ كثيراً وأخذ يفكِّر في أمر المسلمين من أجل أن يجد لهم حلا لما حل بهم من محنة وبلاء، إذ إنَّه يجد نفسه في أمان ومنعة من الله تعالى وحماية عمّه أبي طالب، وإنَّه لا يستطيع أن يمنع عنهم ما هم فيه من الأذى والبلاء الذي أوقعته قريش عليهم، ولهذا اختار رسول الله ﷺ لهم الهجرة الى الحبشة.

قال ابن إسحاق: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وإنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها مَلكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة كانت في الإسلام»[١].

١ - أسباب ودوافع الهجرة إلى الحبشة

يمكن إجمال دوافع الهجرة الأولى إلى الحبشة بالأمور التالية:

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٤، والطبري، التاريخ: ٢ / ٧٠ .

أوّلاً: كان لا بدَّ لهؤلاء المعذَّبين من العثور على موضع أمل لهم يساعدهم على تحمُّل المشاق ومواجهة الصِّعاب، ويجعلهم أقدر على مقاومة الضغوط التي يتعرَّضون لها من قِبَل قريش.

ثانياً: كان لا بدَّ من القيام بحركة سياسيَّة الهدف منها ضرب كبرياء قريش وجبروتها ولو نفسيّاً لتُدرِك أنَّ قضية الدين تتجاوز حدود تصوراتها وقدرتها وأنَّ عليها أن تفكِّر بموضوعيَّة وعقلانيَّة أكثر[١].

ثالثاً: ثمّ إن مهمة القيادة الأساسية هي حماية من تقودها من الأخطار المحدقة بها، والتي تهددها في أصل وجودها، أو على الأقل تهددها في عقيدتها التي آمنت بها، فلا يمكن لرسول الله ﷺ في قيادته الحكيمة للمسلمين أن يرى أُولئك الصفوة يتعذبون من دون أن يجد لهم الحلول اللازمة لمحنتهم ولهذا كان اختيار رسول الله ﷺ للمسلمين الهجرة إلى الحبشة لأنها المكان الآمن الذي لا تستطيع قوة المشركين أن تطالهم فيه.

ولم يذكر ابن إسحاق تاريخ خروج المسلمين مهاجرين إلى الحبشة، إلاّ أنّ ابن سعد، وابن الأثير وغيرهما يذكرون أن مخرجهم إلى الحبشة كان في شهر رجب من السنة الخامسة من بعثتهِ[٢].

فكانت أوّل هجرة في الإسلام.

٢ - الأسباب الموضوعية لاختيار الحبشة داراً للهجرة

أ مَّا عن أسباب اختيار الحبشة مهاجراً للمسلمين دون غيرها من البلدان فيمكن إجماله بمايلي:

---

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٤١ - مرجع سابق.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٨، والكامل في التأريخ: ١ / ٤٩٦ .

أوّلاً: الموقع الجغرافي التي تقع فيه الحبشة من محفزات اختيار هذه المنطقة، فقد كانت هذه المنطقة تقع وراء البحر الأحمر ولم تكن قريش قد اعتادت ركوب البحر في تنقُّلاتها وحروبها.

ثانياً: انَّ أرض الحبشة كانت بعيدة عن النُّفوذ السِّياسي الفارسي، والرومي، والقرشي، ولم يكن لقريش نفوذ في الحبشة كالنفوذ الذي لها في بلاد الروم أو الشام.

ثالثاً: ما ذكره النبيﷺ من أنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحد، وهي أرض صدق، وأنَّه يُحسن الجوار، وهكذا كان فقد أحسن النجاشي معاملتهم وجوارهم وشملهم بحسن رعايته.

رابعاً: نستفيد من قولهﷺ عن أرض الحبشة «أنَّها أرض صدق» أنَّها لم يكن فيها من الانحرافات والأفكار والشُّبهات ما كان في بلاد الروم والفرس التي كانت قد لوثتها المفاهيم والنظرات اللاَّإنسانية والأديان المنحرفة إلى حدٍّ بعيد، ولم تتعرَّض بلاد الحبشة لمثل ذلك فكانت أقرب إلى الفطرة والحقّ من غيرها[(١)].

خامساً: ثمَّ إنَّ الهجرة إلى المناطق العربية المجاورة - كاليمن أو بلاد الشام، التى كان سكانها من المشركين والوثنيين - كان أمراً محفوفاً بالمخاطر، فإنَّ المشركين كان سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاء وتعصُّباً لدين الآباء، كما حصل ذلك في هجرة الرّسول إلى الطائف[(٢)].

٣ - الهجرة الأُولى إلى الحبشة

كانت الدفعة الأولى من المهاجرين إلى الحبشة تضمُّ أحد عشر رجلاً وأربع

---

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٤٢ (بتلخيص).

(٢) سبحاني - جعفر، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ٤٥١، بتصرف.

نسوة عليهم عثمان بن مظعون، خرجوا متسلِّلين إلى ساحل البحر الأحمر فوجدوا حين وصولهم سفينتين تجاريتين أقلَّتهم إلى الحبشة، وخرجت قريش في طلبهم فلم تلحق بهم، ولمَّا وصلوا إلى الحبشة أقاموا فيها بحماية النَّجاشي وجواره آمنين على أنفسهم ودينهم فلم ينلهم أذى ولم يُمسُّوا بما يكرهون.

وكان مدَّة إقامتهم في الحبشة شهري شعبان ورمضان، ثمَّ بلغهم أنَّ قريشاً قد أسلمت فعادوا في شهر شوال إلى مكَّة ولمَّا قاربوها علموا أنَّ ما بلغهم من أمر إسلام قريش خبر لا نصيب له من الصِّحة فرجعوا إلى الحبشة ولم يدخل إلى مكَّة منهم إلاَّ من دخلها متخفِّياً أو بجوار.

وقد ذكرت المصادر التاريخية قائمة بأسماء هؤلاء المهاجرين والقبائل التي ينتمون إليها[1].

٤ – الهجرة الثانية إلى الحبشة

إنَّ تقسيم الهجرة إلى الحبشة إلى هجرتين إنَّما يكون بلحاظ رجوع الَّذين هاجروا في أول الأمر حين سمعوا بأنَّ أهل مكَّة قد أسلموا ولمَّا وصلوا إلى مقربة من مكّة واتَّضح لهم كذب الخبر رجعوا إلى الحبشة ثانية باستثناء قليل منهم دخلوا مكة بجوار أو خفية.

ولمَّا رجع المهاجرون ثانية إلى الحبشة لَحِق بهم آخرون من مكَّة بعد أن اشتدَّت ضراوة قريش ضدَّ المسلمين وكان على رأس المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب.

---

(١) انظر: السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٣٤٤، والبداية والنهاية: ٣ / ٥٩ – ٨٨، والوفا بأحوال المصطفى: ١٩٤ – ١٩٥، والطبري: ٢ / ٣٢٩ – ٣٣٠، والبيهقي، دلائل النبوة: ٢ / ٢٩٧، وابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٨ – ٩٩.

يروي ابن سعد، عمّن حدثه عن أُم سلمة: «لما قدم أصحاب النبيﷺ مكة من الهجرة الأُولى اشتد عليهم قومهم وسَطَت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديداً، فأذن لهم رسول اللهﷺ في الخروج إلى الحبشة مرة ثانية.. وكان عدّة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا، ومن النساء إحدى عشرة امرأةً قرشية، وسبع غرائب...»[١].

إلاَّ أنَّ صاحب الصَّحيح من سيرة النَّبيﷺ يرجّح أنَّه لم يكن سوى هجرة واحدة للجميع عليهم جعفر بن أبي طالبعَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لم يكن غيره من بني هاشم، وإن خروجهم كان ارسالاً حفاظاً على عنصر السِّرية؛ وذلك بدليل الرسالة التي وجَّهها الرَّسولﷺإلى مَلِك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري والتي جاء فيها: «قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرهم... الخ»[٢].

وما ذكره صاحب الصحيح ليس بصحيح لأن ابن سعد في الطبقات ذكر أن رسول اللهﷺ قد كتب في شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرته إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أُمية الضمري، فلما قرأ عليه الكتاب أسلم.. وكتب إليه رسول الله أن يزوجه أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان.. وكتب إليه أن يبعث إليه مَن بقي عنده من أصحابه ويحملهم، ففعل وحَملهم في سفينتين مع عمرو بن أُمية الضمري.

وما ذكره ابن أسعد أقرب للواقع، فإنّ رسول اللهﷺ لم يراسل الملوك والأُمراء إلاّ في التاريخ الذي ذكره ابن سعد، ثمّ إنّ رسول اللهﷺ لماذا لم يبعث هذه الرسالة مع جعفر؟ فمن المحتمل أن يكون رسول اللهﷺ بعث برسالة إلى النجاشي مع جعفر

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٩ - ١٠٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٥.

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٤٥.

يوصيه بالمهاجرين علماً بأن اسم عمرو بن أُمية الضمري لم يرو في قائمة المهاجرين إلى الحبشة ذلك لأنّ عمرو الضمري قد أسلم بعد معركة أُحد[١].

٥ - قصّة الغرانيق الأُسطورية

ارتبطت قصة رجوع الدفعة الأُولى من المهاجرين إلى الحبشة بقضية إشاعة إسلام قريش ! التي لم يتبين صحتها فيما بعد ! وهذه الاشاعة منشأها قصة الغرانيق الاسطورية التي سجلها بعض المؤرخين والمفسرين في كتبهم، ولم نكن نريد التعرض إليها لولا ارتباطها بموضوع عودة الدفعة الأُولى من المهاجرين إلى الحبشة وارتباط سببها بهذه القصة بحسب الرواية التاريخية.

قال ابن إسحاق: «وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى إذا دَنوا من مكة بلغهم أنّ ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا، فلم يدخل أحد إلاّ بجوار أو مستخفياً»[٢]. ولم يذكر ابن إسحاق منشأ اشاعة إسلام أهل مكة، وكيف بان لهم كذبها ! إلاّ أن شارح السيرة النبوية «السهيلي» قال: «وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم، فألقى الشيطان في أمنيته - أي في تلاوته - عند ذكر اللات والعزى، وأنهم لهم الغرانقة العلا، وإن شفاعتهم لترتجى. فطار ذلك بمكة، فسر المشركون وقالوا: قد ذكر آلهتنا بخير. فسجد رسول الله ﷺ في آخرها، وسجد المشركون والمسلمون، وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٠، وانظر ترجمة عمرو الضمري في الإصابة لابن حجر: ٢ / ٥٢٤، وللتوسع انظر، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي لمحمد حميد الله: ٤٣ و ٩٩ وما بعدها.

(٢) ابن هشام، السيرة الحلبية: ٢ / ٣ .

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ الآية. فمن هاهنا اتصل بهم في أرض الحبشة أن قريشاً أسلموا. ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق من غير رواية البكائي، وأهل الأُصول يدفعون هذا الحديث بالحجة، ومن صححه قال فيه أقوالا، منها: أن الشيطان قال ذلك وأذاعه، والرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينطق به. وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لمحمد: ما أتيتك بهذا!

ومنها: أن النبي ﷺ قالها من قِبل نفسه، وعنى بها الملائكة أن شفاعتهم لترتجى!

ومنها: أن النبي عليه الصلاة والسلام قاله حاكياً عن الكفرة، وإنهم يقولون ذلك، فقالها متعجباً من كفرهم! والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته، والله أعلم[1].

وروى القصة ابن سعد عن أُستاذه الواقدي ولم يعلّق عليها، إلاّ أنّه ذكر في آخرها: «.. فَشَتْ تلك السجدة في الناس حتى بلغت أرض الحبشة، فبلغ أصحاب رسول الله ﷺ، أنّ أهل مكة قد سجدوا وأسلموا، حتى أن الوليد بن المغيرة، وأبا أُحيحة قد سجدا خلف النبي ﷺ، فقال القوم: فمن بقي في مكة إذا أسلم هؤلاء؟.. فخرجوا راجعين حتى كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا رَكباً من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذَكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ، ثمّ ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا عليه بالشر.. فأْتمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة، ثمّ قالوا: قد بلغنا ندخل فننظر ما فيه قريش، ويحدث عَهداً من أراد باهله ثمّ يرجع».

ثمّ أضاف ابن سعد رواية أُخرى، قال: «دخلوا مكة ولم يدخل أحد منهم إلاّ بجوار، إلاّ ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثمّ رجع إلى أرض الحبشة».

---

(١) السهيلي، الروض الأنف: ٢ / ١٢٦.

وروى أيضاً عن الواقدي: «فكانوا خرجوا في رجب سنة خمس، فأقاموا شعبان وشهر رمضان وكانت السجدة في شهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس»[١].

● **وقفة عند قصة الغرانيق:**

لقد أقحمت قصة الغرانيق - وللأسف الشديد - في كتب الحديث والمسانيد ورواها المؤرخون ودونها المفسرون في تفاسيرهم، وصحح أسانيدها بعض المحدثين! مع ما تحمل هذه القصة من تناقضات كثيرة لا يمكن معالجتها بحسب الطرق العلمية في معالجة الروايات المتناقضة والمتعارضة.

فأغلب روايات هذه القصة من المراسيل التي لا يمكن الاعتماد عليها في الأُمور العقائدية، ثمّ نجد التناقض الواضح في متونها، ثمّ مناقضتها لسياق آيات سورة النجم التي تذم الأصنام والأوثان كما نلاحظ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٢].

فلا ندري كيف ارتضت قريش بكلمتين اقحمتا في وسط هذه الآيات تقول: «تلك الغرانيق[٣] العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ولم تنزعج من كل هذا الذم لأصنامهم ولهم ولآبائهم! وكيف طارت فرحاً وسجدت شكراً لهاتين الكلمتين؟

والأهم من ذلك كلّه أن هذه القصة تتنافى مع ما هو المقطوع به بين كافة

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٨ – ٩٩، وللتوسع انظر: السيرة الحلبية: ١ / ٤٥٨ وما بعدها.

(٢) النجم: ١٩ – ٢٣.

(٣) الغرانيق: جَمعُ غرنوق بكسر أو ضم الغين، طيور الماء طويلة العنق، وشبهت الأصنام بها لارتفاعها وعلوها في السماء ولعلو قدرها! (بزعمهم).

المسلمين من عصمة النبيﷺ عن الخطأ والسهو وخاصة في أمر التبليغ. وهو ما قام عليه إجماع الأُمة الإسلامية.

ولهذا قال الفخر الرازي: «هذه القصة باطلة موضوعة، ولا يجوز القول بها، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١]».

وقد طعن في قصة الغرانيق وحديثها مجموعة من العلماء نقل أقوالهم. صاحب السيرة الحلبية، قال: «هذه القصة طعن في صحتها جمع، وقالوا: إنها باطلة وضعها الزنادقة، ومن ثمّ أسقطها القاضي البيضاوي. ومن جملة المنكرين لها القاضي عياض، فقد قال: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب. وقال البيهقي: «رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم»[٢].

وقال الإمام النووي: «وأما ما رواه الاخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول اللهﷺ وما جرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء، لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل، لأنّ مدح إله غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول اللهﷺ، ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول اللهﷺ، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك، وإلاّ يلزم عدم الوثوق بالوحي»[٣].

وخلاصة الأمر، أن حديث الغرانيق الذي رواه - وللأسف - بعض كتّاب السيرة وبعض المفسرين، حديث متهافت متناقض، يتنافى مع عصمة النبيﷺ في تبليغ رسالة ربّه، ولهذا لم يتردد محمد بن إسحاق حين سئل عنه أن يقول:

(١) النجم: ٣ - ٤.

(٢) و (٣) السيرة الحلبية: ١ / ٤٦١.

«هذا من وضع الزنادقة» وصنّف في تفنيدها كتاباً[١].

أما دعوى عودة المهاجرين إلى الحبشة بعد سماعهم لهذه القصة، فهنالك شك في سياق هذه الدعوى، إذ كيف وصلت لهم أخبار هذه القصة التي يقال إنها وقعت في شهر رمضان وعاد المهاجرون في شوال ! فهل من الممكن أن تصل الأخبار إليهم وهم عبر البحار في بلاد الحبشة بهذه السرعة القياسية في ذلك الزمن ؟

وعلى فرض صحة عودتهم أو بعضهم إلى مكة، فقد يكون السبب غير هذه القصة، كإحساسهم بالغربة هناك أو شوقهم لرسول الله ﷺ أو ما قيل من خروج الحبشة على النجاشي مما يعني عدم وجود الأمن والاستقرار في تلك البلاد، أو غيرها من الأسباب البعيدة عن هذه الاسطورة وملابساتها.

٦ – المستشرقون وقصة الغرانيق

لقد توقف المستشرقون عند هذه القصة طويلا، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة، ووصفوا روايتها بأنها صحيحة وحجة قاطعة، وأن النبي ﷺ قد ركن إلى المشركين وصالحهم فترامى هذا الخبر إلى مسامع المسلمين المهاجرين إلى الحبشة فعادوا إلى مكة على أثرها.

ويعتبر المستشرق الانكليزي وليم موير من أوائل من عمل على هذه الرواية في كتابه: «القرآن: تأليفه وتعاليمه» وكتابه الآخر: «الجدال مع الإسلام» حيث تحامل فيهما على الإسلام بشدة، وقد ناقشه الدكتور هيكل في كتابه «حياة محمد» مناقشة مستفيضة، أثبت فيها بطلان ما استند إليه[٢].

---

(١) حياة محمد لهيكل: ١٦٠ وما بعدها، والبحر المحيط لابن حيان: ٦ / ٣٨١ .

(٢) هيكل، حياة محمد: ١٦٠ وما بعدها، وانظر ترجمة وليم موير في موسوعة المستشرقين لبدوي: ٥٧٨ – ٥٧٩ .

وجاء من بعده المستشرق الألماني كارل بروكلمان[١]، ليقول: «.. ولكنه - أي النبي - على ما يظهر اعترف في السنوات الأُولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله، ولقد أشار إليهنّ في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: «تلك الغرانيق العُلى وإن شفاعتهنّ ترتضى».. ثمّ ما لبث أن أنكره وتبرأ منه في اليوم التالي»[٢].

وجاء مستشرق آخر ليضيف إلى الطنبور نغمة، وهو: «منتجمري وات» في كتابه: «محمد في مكة» فتوقف طويلا لإثبات صحة قصة الغرانيق فعقد الفصل الخامس من كتابه تحت عنوان: «بداية المعارضة والآيات الابليسية» فذكر: «رتّل محمد في وقت من الأوقات الآيات التي أوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن، لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها المسلمون فيما بعد أو دسها غير المسلمين، ثمّ أعلن محمد فيما بعد أن هذه الآيات لا يجب أن تعتبر جزءاً من القرآن ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً في مضمونها.. والحقيقة هي أن توحيده - أي النبي - كان في الأصل - كما كان توحيد معاصريه المثقفين - غامضاً، ولم ير بعد أن قبول هذه المخلوقات الإلهية كان يتعارض مع التوحيد ! لا شك إنه يعتبر اللات والعزى ومناة على أنها كائنات سماوية أقل من الله، كما اعترفت اليهودية والمسيحية بوجود الملائكة !.. إذ كان ذلك فليس من الضروري اكتشاف سبب خاص للآيات الابليسية فهي لا تدل على أي تقهقر واع للتوحيد، بل هي تعبير عن النظريات التي دافع عنها دائماً محمد.

ثمّ يضيف قائلا: «وهكذا فإن قيمة الآيات الإبليسية مهمة، فهل اعترف محمد بصحتها لأنه كان يهمه كسب الأنصار في المدينة والطائف وبين القبائل

(١) انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين لبدوي: ٩٨ - ١٠٥ .

(٢) بروكلمان - كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية: ٣٤ - ٣٥ .

المجاورة ؟ هل كان يحاول التخفيف من تأثير الزعماء القرشيين المعارضين له باكتساب عدد كبير من الأتباع ؟ ذكرُ هذه المعابد دليل على أن نظرته أخذت في الاتساع»[١] .

لم ينطلق أُولئك المستشرقون من فراغ، وإنما - وللأسف - روايات السيرة والتفسير التي روت هذا الخبر بين أيديهم ! وعلى عادتهم في تصيد الشاذ والضعيف من الأخبار، فقد أفسحوا لها مجالا واسعاً في بحوثهم لاثبات صحة هذه الروايات وواقعية ما تحكي عنه، مشككين بذلك بصدق النبيﷺ وصدق رسالته، والتشكيك في عقيدة التوحيد التي انطلقت رسالة الإسلام منها !

ونقولها بمرارة إنّ وجود هذه الأخبار الشاذة في تراثنا التاريخي والروائي والتفسيري تشكل أرضية صلبة للبنية الاستشراقية، فهل آن لنا أن نمحص تراثنا ونشذ به من كلِّ ما علق به من أساطير وخرافات واسرائيليات ؟

٧ - ردود فعل قريش من هجرة المسلمين إلى الحبشة

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش أنّ أصحاب رسول اللهﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين من قريش جَلدين إلى النجاشي، فيردّهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثمّ بعثوهما إليه»[٢] .

فلمّا وصلا إلى بلاد الحبشة دخلا على النجاشي، ودفعا إليه وإلى بطارقته

(١) وات - منتجمري، محمد في مكة: ١٦٦ وما بعدها.

(٢) السِّيرة النبويَّة: ١ / ٣٥٦ - ٣٥٧

الهدايا، فقبلوها منهم ثمَّ اتَّصلا بعد ذلك بالبطارقة يستفزُّونهم ضدَّ المسلمين المهاجرين، وطلبوا منهم أن يساعدوهما على إقناع النجاشي بأمر تسليم المسلمين وإرجاعهم إلى الحجاز دون أن يسمع كلاماً منهم فواعدهم البطارقة بذلك، فلمَّا حضرا عند النجاشي ادَّعيا «أنَّه قد ضَوَى إلى بلدك منَّا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوهُ لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم. . . »[1]، فرفض النجاشي تسليمهم إليهم حتَّى يسألهم عن صحَّة ما جاء به عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، فجاء المسلمون فسألهم النجاشي عن هذا الدِّين الذي فارقوا لأجله قومهم ولم يدخلوا في دينه؟

فأجابه جعفر بن أبي طالب: «أيُّها المَلِك كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف، فكنَّا على ذلك حتَّى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا نعرف نَسَبَه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونعبده ونخلَع ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَة الرَّحم، وحُسن الجِوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المُحْصَنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً وأمرنا بالصَّلاة والزكاة والصِّيام. . . فصدَّقناه وآمنَّا به. . . فعدا علينا قومُنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان. . . وأن نستحلَّ ما كُنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سِواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ان لا نُظلم عندك أيُّها المَلِك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٣٥٨ .

قال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من «كهيعص».

فبكى والله النجاشي حتَّى اخضلّت لحيته، وبكى أساقفتُه حتى اخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمَّ قال لهم النَّجاشي: إنَّ هذا والذي جاءَ به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثمّ التفت النجاشي إلى عمرو وعبدالله وقال لهما: «انطلقا فوالله لا أسلِّمهم إليكما».

إلاَّ أنَّ عمر بن العاص غدا في اليوم التالي ليخبر النجاشي بأنَّ المسلمين يقولون في عيسى قولاً عظيماً!

فأرسل النجاشي خلف المسلمين ولمَّا دخلوا عليه سألهم: «ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبيّناﷺ هو عبدالله ورسولُه ورُوحُه وكَلِمتُه التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثمّ قال: واللهَ ما عدا عيسى بنَ مريم ما قلتَ هذا العود.

ثمّ التفت إلى المسلمين وقال لهم: اذهبوا فأنتم آمنون، من سبّكم غرم، ما أحب ان لي دَبراً من ذهب وانّي آذيت رجلاً منكم»(١).

وبقي المسلمون هنالك مكرَّمين حتَّى هاجر النبيﷺ إلى المدينة ثمَّ رجعوا منصورين بانتصار الإسلام وقيام دولته وكان رجوعهم عند فتح خيبر.

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ١ / ٣٥٨ / ٣٦١ .

٨ - موقف قريش من المسلمين بعد فشلها من إعادة مهاجري الحبشة

لقد كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ضربة قاسية أفقدت قريشاً صوابها وزعزعت وجودها وكيانها، فحاولت أن تتدارك الأمر فلحقت بهم بهدف إرجاعهم وإبقائهم تحت سلطانها، ولكن بعد فوات الأوان فاضطرّت قريش للمَّرة الأولى لمراجعة حساباتها من جديد بعد أن أدركت أنَّ زِمَام المبادرة لم يعد بيدها وذلك لأنَّها كانت ترى:

أوّلاً: إنَّ الاستمرار في تعذيب المسلمين المنتمين إلى مختلف القبائل لم يعد له كبير جدوى إن لم يكن سبباً في إثارة حروب داخلية لها عواقبها السَّيئة والخطيرة على سمعتها وكرامتها.

ثانياً: وإنَّ محمّداًﷺ يريد أن تكون دعوته إنسانيَّة عالميَّة لا تختصُّ بعرب مكَّة والحجاز، وكانت ترى أنَّ هجرة هؤلاء إلى الحبشة لم تكن متمحِّضة في الهروب من التعذيب، لأنَّ الكثير من أولئك المهاجرين لم يكن ممَّن يُعذَّب.

ثالثاً: إنَّ معنى هجرة المسلمين هذه وخروجهم من تحت سلطتها هو أنَّها سوف تكون أمام مواجهة شاملة وأنَّ مصالحها في معرض التَّهديد؛ لأنَّ وجود المسلمين وهم من قريش، وفي منطقة بعيدة عن نفوذ القرشيِّين وسلطانهم، وفي ملجأ أمين ومنطلق مطئمن يُشكِّل أعظم الأخطار على قريش ومصالحها.

هذه الأمور كانت تستوجب من قريش أن تتريَّث وتُحكم التَّدبير كي لا يفلت زِمَام الأمور من يديها، فأرسلت إلى النجاشي ممثِّلين عنها لاسترداد المهاجرين فرجعا إليها بالفشل الذريع كما أسلفنا.

فعادت من جديد على من تبقَّى من المسلمين بالعذاب والتَّنكيل وجعلت تتعرَّض للنَّبيﷺ بالسُّخريَّة والاستهزاء والاتِّهام بالجنون والسِّحر والكهانة وبأنواع مختلفة من الحرب النفسيَّة والأذى[١].

---

(١) العاملي، الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٢٥٨ - ٢٦٠ (بتلخيص).

٩ - تأملات ودروس وعبر

لقد كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة أول هجرة مهدت لهجرة أُخرى إلى يثرب بعد فترة من الزمن، وهي هجرة فريدة نادرة في تاريخ المسلمين الأوائل لابد لنا من التأمل في بعض مفرداتها، واستلهام بعض الدروس والعبر منها:

١ - تأملات في أهداف الهجرة إلى الحبشة:

أولا: لقد استمرت هجرة المسلمين إلى الحبشة إلى ما بعد فتح خيبر، وهي فترة زمنية تنوف على أكثر من عشرة أعوام قضاها أُولئك المسلمون في دار هجرتهم في أرض الحبشة، وليس بين أيدينا من نصوص التاريخ ما يكشف لنا عن كيفية اتصال النبيﷺ بهم، أو كيفية تلقيهم لتعاليم الإسلام وتشريعاته، وماذا كان يعمل أُولئك المسلمون في دار هجرتهم، وهل كان لهم تأثير في ذلك المجتمع المسيحي.. كل هذه الأسئلة وغيرها لا نجد لها أجوبة في كتب التاريخ التي بين أيدينا !!

وليس بين أيدينا سوى رواية أُم سلمة التي يرويها ابن إسحاق في مغازيه، وهي وثيقة مهمة جداً عكست لنا بعض أوضاع المسلمين في دار هجرتهم والحوار الذي جرى مع النجاشي، وقد نقلنا عنها بعض الفقرات في ثنايا درسنا هذا. وبعد هذه الوثيقة وأخبارها، تنقطع عنّا أخبار أُولئك المهاجرين.

نعم يذكر ابن إسحاق خبر عودة بعضهم إلى مكة، بعد حديثه عن خبر صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش، ثمّ بعد انتهائه من الحديث عن غزوة خيبر يذكر قدوم جعفر بن أبي طالب وحديث المهاجرين إلى الحبشة[١].

فمن المؤكد أن النبيﷺ - وبالطرق المتعارفة العادية - كان يتتبع

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٥٧ وما بعدها و ٢ / ٣ وما بعدها، و ٤ / ٣٥٩ وما بعدها.

أخبارهم، ويوصل لهم تعاليم السماء، ويخبرهم بما عليه حال المسلمين في مكة، أو بعد هجرتهم إلى المدينة، . . ولكن المؤرخ سكت عنها، أو أنها دونت تاريخياً ولكن لم تصل إلينا، وما وصل إلينا نزر يسير، لا يشكل مادة تاريخية في أدب الهجرة ومشاقها ومعاناتها والتي كان من الممكن أن يستفيد منها المهاجرون إلى الله في زمن لم تنقطع فيه الهجرة.

ثانياً: كل النصوص التاريخية التي تتحدث عن هذه الهجرة تركز على سبب واحد لها وهو الهروب من بطش قريش والنجاة بأنفسهم من الفتنة، وهو سبب وجيه في نفسه، إلاّ أنّه يمكن أن تكون لهذه الهجرة أهداف وأسباب أُخرى أكثر وجاهة من هذا السبب، إذ ليس الاضطهاد والفتنة هو السبب الأوحد من بين الأسباب الأُخرى التي يمكن تصورها، بل إن ربط الهجرة بالاضطهاد والتعذيب والفتنة لا ينطبق على كثير من المهاجرين ممن ينتمون إلى قبائل قريش من أمثال جعفر بن أبي طالب وغيره ممن لهم عصبة عشائرية قوية، بالاضافة إلى وجود مجموعة من النساء القرشيات من أمثال أُم حبيبة بنت أبي سفيان، زعيم الجاهلية، وفي نفس الوقت نجد مجموعة من المستضعفين المعذبين من أمثال بلال الحبشي وأمثاله، لم يهاجروا وهم أقل جاهاً وقوة ومنعة من المهاجرين.

فلابد إذن من وجود أكثر من هدف آخر لهذه الهجرة قد خطط لها النبي ﷺ بحكمته العالية، ونظرته المستقبلية للأُمور، تضاف إلى هدف حماية المسلمين من الاضطهاد والتعذيب.

ويمكننا الاشارة إلى هدفين منها:

أولهما: إيجاد قاعدة آمنة للدعوة خارج مكة:

فالنبي توجهت أنظاره إلى الحبشة داراً لهجرة المسلمين للخصوصيات التي يتمتع بها هذا البلد، فنجحت هذه الهجرة، ثمّ توجهت أنظاره اتجاه الطائف

فهاجر إليها بمفرده ولكنهﷺ سرعان ما عاد إلى مكة لعدم استجابة أهل الطائف له، وبعدها توجهت أنظاره اتجاه يثرب بعد أن أراد الله بأهلها خيراً فمهدت بيعتا العقبة الأُولى والثانية لهذه الهجرة ثمّ هاجر إليها مع جميع المسلمين باستثناء بعض المستضعفين، فأقام فيها الدولة الإسلامية وشيّد أركانها بالتضحيات الكبيرة.

كلّ هذه الخطوات إنّ دلت على شيء فإنها تدل على أنّ النبيﷺ: «كان يبحث عن قاعدة أُخرى غير مكة، قاعدة آمنة تحمي العقيدة وتكفل الحرية، ويتاح لها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة.. وهذا في تقديري هو السبب الأهم للهجرة»[١].

فمثلت الهجرة إلى الحبشة أول الخطوات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة آمنة للدعوة الجديدة، تحميها من الأخطار المحدقة بها.

ومما يؤيد واقعية هذا الهدف أن النبيﷺ لم يبعث في طلب المهاجرين إلى الحبشة بعد هجرته إلى المدينة، إلاّ بعد صلح الحديبية وفتح خيبر، وهم عديد كبير من المسلمين والأحداث والغزوات والسرايا كانت تشدد الحاجة إليهم، إلاّ أنّ النبيﷺ لم يدعُهُم إلاّ بعد أن اطمأن إلى انتهاء الخطر عن الدعوة، وبعد اندحار فلول قريش حيث قال النبيﷺ قولته المشهورة: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[٢] بعد هذا كلّه بعث النبيﷺ في طلب المهاجرين من الحبشة، لأنه آمن سلامة الدعوة في يثرب فلا حاجة للبحث عن مكان آخر لها.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ١ / ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٥٤ .

ثانيها: إحداث هزة اجتماعية في وسط قبائل قريش:

لقد أشرنا سابقاً إلى الخارطة الاجتماعية للمسلمين الأوائل في المرحلة السرية من الدعوة، وقلنا إن المسلمين في هذه المرحلة قد توزعت انتماءاتهم القبلية لتشمل كل فروع قريش، حيث لا تكاد تخلو عشيرة في مكة إلاّ ويوجد من بينها من انتمى إلى الدعوة الإسلامية. ومن المؤكد أن اعداد أُولئك المسلمين قد ازداد بعد انتهاء المرحلة السريّة.

فمما لا شك فيه أن هجرة هذا العدد الكبير من المسلمين إلى الحبشة، فراراً بدينهم وعقيدتهم تاركين وراءهم كل وشائج القربى، وفي بيئة قبلية متماسكة متقاربة الأعراق والجذور.. قد أثارت هزة عنيفة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش، وخاصة عندما يكون بين المهاجرين نساءٌ ينتمين إلى أشرف بيوتات مكة، وأزواج حملوا معهم زوجاتهم، وشباب في مقتبل العمر لم يخوضوا تجربة الهجرة والغربة قبل ذلك.

ولهذا هزت هذه الهجرة قريشاً هزة عنيفةً ولم تلتفت إلى هَول ما حل بها إلاّ بعد فوات الأوان، وأرادت أن تستدرك الأمر من خلال محاولة اعادتهم إلى مكة، ولكن محاولتها باءت بالفشل لأنها لم تسلك الطريق الصحيح لذلك من خلال ارضاء هؤلاء المهاجرين أو اعطاءهم الأمان أو كسب ودهم، وإنما أرادتهم أن يعودوا إلى مكة صاغرين للتنكيل بهم وإذلالهم وتعذيبهم مرة أُخرى، وهذا ما لا يمكنهم القبول به، بعد أن أنجاهم الله منه.

ومن المنطقي أن يكون رسول الله ﷺ قد أراد إحداث هذه الهزة الاجتماعية في أوساط قريش لعلّها تعود إلى رشدها وتقبل بالأمر الواقع، إلاّ أنّها قريش وخيلاؤها وتجبرها وتعنتها الذي أسكت فيها صوت العقل والعاطفة والمحبة!

٢ - دروس وعبر من الهجرة إلى الحبشة:

أما الدروس والعبر والعظات من هذه الهجرة، فعلى الرغم من شحة أخبارها، فهي كثير ومهمة جداً، لأنها ترسم لنا معالم شخصيه الداعية في الاستقامة، وتحمل المشاق والمعاناة في سبيل الله. ولهذا نتوقف عند بعضها:

أولا: الهجرة ومعاناتها وآلامها:

لقد اعتبر القرآن الكريم الهجرة من الفضائل الكبيرة التي لها وزنها في دنيا الفضائل، فحث عليها وأثنى على المهاجرين في سبيل الله، وفي أكثر من آية وفي عدة مناسبات، كذلك ذمّ الذين تقاعسوا عنها[١]، إلاّ أنّ الهجرة إلى الحبشة كانت لها خصوصياتها وظروفها الموضوعية. فهؤلاء الفتية المهاجرون كانوا جديدي عهد بالإسلام، والهجرة تعني بعدهم عن أهلهم وذويهم ووطنهم وقطع كل الوشائج التي تربطهم بها. إلاّ أنهم استجابوا لله ولرسوله بمجرد أن عرض عليهم رسول الله ﷺ فكرة الهجرة إلى الحبشة، بما تحمله هذه الهجرة إلى الحبشة بالذات من معاناة.

وهذا إنّ دل على شيء فهو يدلّ على عمق إيمانهم ورسوخ عقيدتهم، فآثروا رضى الله ورسوله على كلّ شيء يشدهم إلى أهلهم ووطنهم.

ثانياً: جعفر بن أبي طالب، رجل الحوار الإسلامي:

لقد أحكمت قريش خطتها لاسترجاع المسلمين من الحبشة، فاختارت أحد دهاتها لذلك، وزودته بالهدايا الكثيرة للنجاشي وبطارقته، وأصروا على أن يسلّمهم النجاشي أُولئك المهاجرين من دون أن يسمع منهم شيئاً!

إلاّ أنّ خطّتهم باءت بالفشل والخيبة، نتيجة رفض النجاشي تسليم

---

(١) انظر الآيات: النساء: ٩٧ وما بعدها، والبقرة: ٢١٨، وآل عمران: ١٩٥ .

المسلمين قبل أن يسمع منهم، وهذا يدل على عظمة شخصيته، وعدله في الحكم، وطيب أخلاقه، فكان عند حسن ظن النبيﷺ والمسلمين.

أما السبب الآخر والأهم في فشل وفد قريش في مهمتها هو اختيار المسلمين لجعفر بن أبي طالب ليكون الناطق الرسمي عنهم، فلا يقطع أحد منهم برأي ولا ينفرد عن الآخرين بقول، وأوكلوا الأمر لجعفر ونِعم ما فعلوا.

وقد أظهر جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) عبقرية فائقة في الحوار مع الملوك وحملة الديانات الأُخرى، وقدم لنا وثيقة مهمة تصلح أن تكون أساساً لحوار الأديان والمذاهب التي كثر الكلام عنها في زماننا لحاجة البشرية إليها.

وقد ذكرنا طرفاً من هذا الحوار في ثنايا الدرس ولا نريد أن نعيد ما ذكرناه، إلاّ أن الخطوط العامة لهذا الحوار، والتي تشكل بدورها نقاط ارتكاز في كل حوار أو لقاء مع حملة الأديان. يمكن تلخيصها بما يلي:

١ - تفنيد عيوب الجاهلية وبيان مساوئها، وهي الجهة المعادية للمسلمين.

٢ - عرض المبادئ والأُسس العامة للإسلام، التي يقوم عليها البناء بعد هدم المفاهيم الجاهلية السابقة.

٣ - عرض جوانب الظلم والاضطهاد التي يعانيها حملة المبادئ من الطواغيت والظالمين.

٤ - عرض الأمل الكبير المنوط بالجهة المفاوضة في رفع الظلم والحيف في ثناء حصيف متزن.

٥ - اغفال نقاط الخلاف والإثارة التي يمكن أن تفسد الجو بين السياسي المسلم، والجهة المفاوضة.

ثمّ كان ختام المفاوضات في تلاوة صدر سورة مريم بطلب من النجاشي..

لا شيء أحب على قلب النجاشي من أن يسمع صدر سورة مريم العذراء البتول، فبكى النجاشي وبكت بطارقته، فأصدر حكمه النهائي بعد هذا كله: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى من مشكاة واحدة اذهبوا فأنتم آمنون..»[١].

إن شخصية جعفر بن أبي طالب، ومن معه في دار هجرتهم الحبشة تمثل النماذج الإسلامية الواعية التي ينبغي للداعية أن يتخذ منها مثلا يحتذى به في أُسلوب الدعوة والحوار وقيادة المجتمع.

وفي هذه الواقعة وتفاصيلها تأملات ودروس وعبر كثيرة لا يمكن لنا استيعابها كلها، ونكتفي بما سجلناه من تأملات ودروس منها.

---

(١) الغضبان - منير، المنهج الحركي للسيرة النبوية: ٧٠ - ٧١ (بتصرف وتلخيص).

الأسئلة:

١ - ما هي أسباب ودوافع هجرة المسلمين الأُولى إلى الحبشة ؟ وما هو السر وراء اختيار الحبشة مَهجَراً للمسلمين دون غيرها من البلدان ؟

٢ - كم كان عدد المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية ؟ وما هو الدَّور المهم الذي أوكله رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالب ؟ وكيف كان أداؤه لهذا الدور؟

٣ - اتسمت معاملة النجاشي للمهاجرين إليه من أرض الإسلام بحسن الجوار وطيب المعامله وحسن الرعاية، فما هي الأسباب التي دفعته إلى ذلك ؟

٤ - كيف كانت مواقف قريش من ظاهرة الهجرة والمهاجرين إلى الحبشة ؟ وهل اضطرت قريش بعد ذلك إلى مراجعة أساليبها اتّجاه رسول الله ﷺ والمسلمين ؟ وما هي أسباب ذلك ؟

الدرس الثامن عشر

الدعوة

«القسم السابع»

الدعوةُ والعَقَبات

محاور البحث:

١ - اشتداد المواجهة وعزم قريش على قتل رسول الله ﷺ
٢ - صحيفة المقاطعة وبنودها وأسبابها
٣ - مدة الحصار في شعب أبي طالب وآثاره السلبية والايجابية
٤ - المسلمون في شعب أبي طالب وقصة نقض الصحيفة
٥ - تأملات ودروس وعبر
• الأسئلة

الدعوةُ والعَقَبات

١ - اشتداد المواجهة وعزم قريش على قتل رسول الله ﷺ

تشير الروايات التاريخية إلى اشتداد المواجهة بين قريش والنبي ﷺ فبعد أن فشلت قريش في إغراء رسول الله ﷺ للكف عن دعوته، اتخذت أُسلوب الدعاية المضادة كالسخرية والاستهزاء والاتهام بالجنون.. قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ إذ تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزأون به: قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول، وفي آذننا وَقر، لا نسمع ما تقول، ومن بيننا وبينك حجاب، وقد حال بيننا وبينك..»[1] وقد حكى لنا القرآن الكريم أقوالهم هذه وغيرها في آيات قرآنية كثيرة.

وتصاعدت وتيرة المواجهة بين رسول الله ﷺ وقريش إلى حد التهديد بالقتل أو العزم عليه من قبل قريش، في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يستوعب أذى قريش بصبر وسعة صدر، وإعراض، عملا بما أمره الله تعالى به في قرآنه المنزل، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[2].

إلاّ أنّ رواية ابن إسحاق المروية عن عروة بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٣٨.

(٢) سورة ص: ١٧، الحجر: ٩٥.

العاص، تدل بظاهرها على أنّ رسول الله ﷺ هو الذي هدد قريشاً بالقتل! يقول: «.. فبينا هم – أي قريش – في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثمّ مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه[١] ببعض القول، قال – الراوي –: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال: ثمّ مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها.. ثمّ مرّ الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثمّ قال: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذَّبح»، قال – الراوي –: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجلٌ إلاّ كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إنّ أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك لَيرفَؤُه[٢]، بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: «انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا»[٣].

ولا ندري مدى صحة هذه الرواية التي تتنافى مع سلوك النبي ﷺ وحرصه على هداية قومه بأحسن القول والحكمة والموعظة الحسنة، إذ لا نجد صدور مثل هذه الكلمة منه في أشد حالات المواجهة مع قريش! فكيف تصدر بعد أن أمره الله بالصبر وترك أذاهم، والإعراض عنهم! فلابد من تأويلها بحمل كلمة «الذبح» على المعنى المجازي فتكون تعبيراً عن الهلاك، وليس ذلك ببعيد، وله أمثاله في كلمات رسول الله ﷺ حيث روي عنه في حديث القضاء قوله ﷺ: «من جُعل قاضياً بين الناس، فقد ذبح بغير سكين». وفي رواية الترمذي: «مَنْ وُلِّيَ القضاءَ، أو جُعل قاضياً بين الناس، فقد ذُبح بغير سِكِّين»[٤].

في مقابل هذا نجد الروايات تنص على أن قريشاً قد أجمعت على قتل رسول الله ﷺ، فينقل ابن إسحاق وغيره أكثر من رواية تنص على ذلك.

---

(١) غمزوه: أي طعنوا به.

(٢) يرفأه: يهدئه ويسكنه ويرفق به ويدعو له (النهاية).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٠٩.

(٤) ابن الأثير، جامع الأُصول في أحاديث الرسول: ٨ / ١٢٩ – ١٣٠.

قال ابن إسحاق: «فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: «يا معشر قريش، إنّ محمداً قد أبى إلاّ ما تَرون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أُعاهد الله لأجلسنّ غداً بحَجَر ما أُطيق حَمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم؛ قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد» فقام أبو جهل بما عزم عليه إلاّ أن الله سبحانه قد أنجى نبيه ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في الرواية»[1].

وفي رواية موسى بن عقبة عن الزهري والتي يرويها البيهقي في الدلائل:

قال: «إنهم - أي قريش - أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني عبد المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فمنهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعل ذلك إيماناً ويقيناً. . . »[2].

وفي رواية طويلة يذكرها ابن سعد في الطبقات، أن قريشاً جاءت إلى أبي طالب وعرضت عليه أن يعطيهم رسول الله ﷺ ليقتلوه ويعطونه بدله عمارة بن الوليد. . وفرفضَ أبو طالب ذلك بشدة، ثمّ بعث أبو طالب خلف النبي ﷺ ليسمع من قريش ويكلمهم، فلما جاءهم قالوا له: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك. . فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العَرب، ودانَت لكم بها العَجم ؟ فقال أبو جهل: إنّ هذه كلمة مريحة، نَعم وأبيك لنقولنّها وعشر أمثالها، قال: «قولوا لا إله إلاّ الله» فاشمأزوا ونَفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم، إنّ هذا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ٢ / ٣١١ .

شيء يراد، وقالوا: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن يغتال محمد»[١].

والذي يبدو أن قريشاً جادة في عزمها على قتل رسول الله، وحمل أبو طالب تهديدهم على موضع الجد وفي نفس رواية ابن سعد إضافة مهمة تؤكد هذا المعنى، قال: «فلمّا كان مساءَ تلك الليلة فُقد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ثمّ قال: ليأخذ كلّ واحد منكم حديدة صارمة ثمّ ليتّبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كلّ فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية، يعني أبا جهل، فإنّه لم يغب عن شرٍّ إن كان محمّد قد قُتل، فقال الفتيان: نفعل. فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد أحسست ابن أخي ؟ قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب: لا أَدخل بيتي أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصّفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخَبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي أين كنت ؟ أكنت في خير ؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله ﷺ، فلمّا أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ، فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش، ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به ؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عمّا في أيديكم، فكشفوا، فإذا كلّ رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال: «والله لو قتلتموه ما بقَّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم» فانكسر القوم، وكان أشدّهم انكساراً أبو جهل»[٢].

هذه التتمة من رواية ابن سعد، والروايات التي قبلها ترسم لنا صورة واضحة عن أجواء الشد والمواجهة بين قريش والنبي ﷺ ورهطه. فبعد أن رأت قريش أن كل مفاوضاتها مع النبي ﷺ لم تسفر عن نتيجة، وأن أبا طالب ومن معه

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٩٧ .

من بني هاشم وبني عبد المطلب يتبنون حماية رسول الله ﷺ اتخذت موقفاً آخر للمواجهة من خلال تصميمهم على اغتيال النبي ﷺ واعلنوا موقفهم هذا علانية.

ومن جهة أُخرى عند ما رآى أبو طالب هذا التصميم من قريش أقدم على خطوة حاسمه لدفع خطر القتل عن النبي ﷺ فدعا بني هاشم وبني عبد المطلب ليحملوا مسؤوليتهم كاملة في حماية رسول الله ﷺ ومن موقع زعامته لبني هاشم وبني عبد المطلب استجاب له الجميع ما عدا أبا لهب الذي وقف إلى جانب قريش.

والنتيجة التي نستخلصها من هذه الروايات أن دخول النبي ﷺ مع أبي طالب ومن معه من بني هاشم وبني عبد المطلب، إلى شعب أبي طالب، وتحصنهم فيه، كان سببه حماية النبي ﷺ من الاغتيال، وليس بسبب صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش بعد ذلك، فإن هذه الصحيفة قد كتبت بعد الدخول إلى الشعب، وأقدمت قريش على كتابتها كأُسلوب جديد في العقاب الجماعي بعد أن فشلت في ثني رسول الله ﷺ عن عزمه، أو قتله، وبعد فشل محاولاتهم مع أبي طالب لكي يسلمهم النبي ﷺ ليقتلوه.

ومما يؤيد أن عزم قريش على اغتيال رسول الله ﷺ هو سبب الدخول إلى شعب أبي طالب، أننا نجد بعض الروايات التي تتحدث عن أن مخاوف أبي طالب على النبي ﷺ لم تنتهِ حتى بعد دخولهم إلى الشعب، ولهذا كان يسهر الليل على حمايته، ويضع ولده علياً في فراشه، ويكلف من يقوم بحراسة ثغور الشعب خشية أن تقوم قريش بمباغتهم فيه، أو إرسال من يقوم باغتيال رسول الله ﷺ في جوف الليل. وسوف تأتينا طرفاً من هذه الروايات في ثنايا الدرس.

٢ – صحيفة المقاطعة وبنودها وسببها

تعتبر صحيفة المقاطعة القرشية ضد رسول الله والمسلمين، وضد من وفر لهم الحماية من بني هاشم وبني عبد المطلب، من الوثائق التي دوّنها المؤرخون

في كتبهم، لأنها تمثل مقطعاً تاريخياً مهماً من تاريخ السيرة النبوية، وتحكي عن أُسلوب جديد من المواجهة، وسلاح جديد ارتأت قريش أن تستخدمه في ملاحقتها للمسلمين، بعد أن فشلت محاولاتها السابقة بكل ألوانها وأشكالها.

وقد ذكر ابن إسحاق خبر الصحيفة ونقضها في موضعين من مغازيه، تحدث في الموضع الأول عن الصحيفة وبنودها وملابسات أحداثها، وفي الموضع الثاني تحدث عن نقض الصحيفة والأسباب التي دعت إلى ذلك، فقال:

«فلما رأت قريش أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنّ النجاشي قد منع مَن لجأ إليه منهم، وأنّ عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يَفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه: [باسمك اللهم] على بني هاشم وبني عبد المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكِحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم [ولا يعاملوهم حتى يدفعوا إليهم محمداً فيقتلوه]، فلما اجتمعوا على ذلك كتبوه في صحيفة، ثمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة. . ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فشُلَّ بعض أصابعه».

قال ابن إسحاق: «فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شِعبه[١] واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، إلى قريش فظاهرهم. .»[٢].

وأضاف صاحب الوثائق السياسية: «ثمّ إنّ قريشاً دعوا حلفاءهم من كنانة

---

(١) الشِعبُ: بالكسر، ما انفرج بين جبلين. . والجمع شِعاب (لسان العرب). وشِعب أبي طالب موضع معروف في مكة سمّاه الحموي «شعب أبي يوسف». (الحموي معجم البلدان).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(وهم الأحابيش) ليشتركوا معهم في نفس العقد، فتعاقدوا في خيف بني كنانة قريب من مسجد منى.

كما أن هنالك بنداً آخر يضاف إلى بنود صحيفة المقاطعة بحسب رواية البلاذري في الأنساب يقول: «ولا يخالطوهم في شيء ولا يكلموهم»(١).

والذي يتلخص لنا من أسباب كتابة صحيفة المقاطعة من قبل قريش بحسب رواية ابن إسحاق:

أولا: هجرة المسلمين إلى الحبشة ونزولهم في مكان آمن.

ثانياً: اسلام عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب.

ثالثاً: انتشار الإسلام في القبائل.

وفيما ذكره ابن إسحاق مجال واسع للمناقشة؛ فهجرة المسلمين إلى الحبشة وبهذا العدد الكبير لم يكن ليخفى على قريش؛ فأُولئك المهاجرون من قبائلها، وفيهم أبناؤها ونساؤها، إلاّ أنها غضت النظر عن هجرتهم في بداية الأمر ثمّ حاولت استدراك ذلك باستردادهم فلم تفلح في ذلك.

وكذلك إسلام عمر وحمزة لم يمنع من تمادي قريش في تصعيد مواجهتها للنبي والمسلمين، وما يقال من أن إسلام فلان قد منع قريشاً من التعرض للمسلمين تكذبه الأحداث المتلاحقة وتصاعد وتيرة المواجهة بين قريش والمسلمين.

أما دعوى تفشي الإسلام في القبائل، فليس لدينا أي نص تاريخي يؤيد ذلك، وكانت القبائل المتحالفة مع قريش كقبيلة كنانة قد وقَّعت على نفس صحيفة المقاطعة، والقبائل الأُخرى كانت تبعاً لقريش كما سوف يأتينا الحديث عن ذلك في العهد المدني، وفي عام وفود القبائل على المدينة تحديداً. نعم

(١) حميد الله، مجموعة الوثائق: ٤٤ - ٤٥، كما أن الفقرات المقوسة في رواية ابن إسحاق عن هذا المرجع.

أسلم في هذه الفترة رجلان من قبيلتين متجاورتين، وهما: أبو ذر الغفاري من قبيلة غفار، وعمرو بن عنبسة السلمي، من بني سلمة، وخرجا إلى قبيلتيهما ولا ندري عدد من أسلم من القبيلتين في هذه الفترة.

إلاّ أنّه يمكن توجيه كلام ابن إسحاق إن كان يقصد من تلك القبائل التي انتشر فيها الإسلام، نفس قبيلة قريش بفروعها المختلفة كبني هاشم، وبني أُمية، وبني المخزوم.. إلاّ أن من أسلم من تلك القبائل بعض أفرادها، وهي فروع لقبيلة واحدة، فلا يمكن أن نقول أن الإسلام انتشر بين القبائل!

والذي نعتقده أن السبب الرئيسي للجوء أبي طالب مع النبيﷺ والهاشميين والطالبيين إلى الشعب وتحصنهم فيه هو محاولة قريش قتل النبيﷺ كما تنص على ذلك الروايات التي ذكرناها سابقاً وخاصة رواية موسى بن عقبة التي تقول: «.. واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول اللهﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول اللهﷺ شِعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله.. فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول اللهﷺ.. اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول اللهﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق، لا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم به] هكذا [رأفة حتى يسلموه للقتل..»[1].

والنتيجة التي نستخلصها من هذه الرواية أن حماية رسول اللهﷺ من القتل بأيدي قريش هو الذي دعا أبا طالب للجوء إلى الشعب، أما كتابة الصحيفة فكانت بمثابة ردّة فعل من قريش لهذه الحماية، أو أُسلوب جديد من أساليب المواجهة الشاملة تفتقت عنها عقلية مشركي قريش.

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٢ / ٣١١ – ٣١٢، وابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ١٠٥ .

٣ - مدة الحصار في شعب أبي طالب وآثاره السلبية والايجابية

لقد امتدت محنة المحاصرين إلى فترة زمنية طويلة نسبياً، وكان لهذا الحصار آثار سلبية وآثار إيجابية.

أما الفترة الزمنية للحصار:

فالنص التاريخي لا يحدد بدقة تاريخ بداية الحصار في شعب أبي طالب ومدته، ففي رواية ابن عقبة: «فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين»[١] وذكر بعض المحققين يقول: «كان هذا العقد والحصار لبني هاشم وبني عبد المطلب في ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة، وظلوا محاصرين إلى السنة العاشرة، وقيل: بل إلى السنة التاسعة»[٢].

وفي رواية ابن سعد: «وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع.. فأقاموا في الشعب ثلاث سنين».

وفي رواية أُخرى عن محمد بن علي الباقرعليه السلام: «مكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله في الشعب سنتين، وقال الحكم: مكثوا سنين»[٣].

هذه الروايات وأمثالها تعطينا فكرة تقريبية عن الفترة الزمنية لهذا الحصار.

الآثار السلبية للحصار:

ومهما يكن من أمر، فإن قريشاً قد عولت كثيراً على هذا الأُسلوب الجديد في العقاب الجماعي الشامل، واتخذت أساليب وتدابير كثيرة لتشديد الحصار على بني هاشم وبني عبد المطلب الذين تحصنوا في الشعب، ولم تفرق بين من

---

(١) ابن عقبة، المغازي النبوية : ١٩٠ .

(٢) البيهقي، دلائل النبوة : ٢ / ٣١٢ (المتن والهامش).

(٣) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٠ - ١٠١ .

أسلم منهم وبين من بقي على شركه، وكان هدفهم أن يتنازل هؤلاء عن حماية رسول الله ﷺ ويسلموه لقريش لقتله، بعد أن تنهار مقاومتهم، أمام آلام الجوع والعري والعزلة الاقتصادية والاجتماعية.

وقد نقل المؤرخون في رواياتهم بعض هذه الأساليب التي اتخذتها قريش وآثارها السلبية على المحاصرين.

ففي رواية ابن عقبة: «. . فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاءُ والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركوا طعاماً يَقدمُ مكة ولا بيعاً إلاّ بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ . . »(١).

وفي رواية ابن إسحاق: «فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، حتى جُهدوا، لا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً مستخفياً به مَن أراد صِلتهم من قريش. . وقد كان أبو جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشِعب، فتعلّق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكّة. فجاءه أبو البختري ابن هشام فقال له: طعامٌ كان لعمّته عنده فبعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خلِّ سبيل الرجل؛ فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجّه، ووطئه وطأً شديداً»(٢).

وفي رواية أُخرى له: «وكان هشام بن عمرو بن ربيعة. . يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو عبد المطّلب في الشعب ليلا، قد أوقرهُ طعاماً، حتى إذا أقبل به فَمَ الشعب خلع خطامه من رأسه، ثمّ ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثمّ

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٢ / ٣١٢ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٧٩ .

يأتي به أوقره بزّاً - أو براً - فيفعل به مثل ذلك»[١].

وفي رواية ابن سعد: «.. وقطعوا عنهم الميرة والمادة، فكانوا لا يخرجون إلاّ من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فمن قريش من سرّه ذلك ومن من ساءه»[٢]. وسوف نعود إلى عبارته الأخيرة بعد قليل.

وينقل لنا السهيلي صورة مؤلمة عن معاناة أُولئك المحاصرين في الشعب، فيقول: «.. ويحكى أن المؤمنين جهدوا من ضيق الحصار، حتى أنهم كانوا يأكلون الخبط، وورق السمر.. وكانوا إذا قدمت العِير مكة، وأتى أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله يقوم أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المسلمون ومن معهم جوعاً وعرياً»[٣].

هذه الروايات بمجملها تعكس لنا حجم المعاناة والجهد الذي تحمَّله أُولئك المتحصنون في شعب أبي طالب إذ لم تقتصر المعاناة عليهم فقط وإنما شملت نساءهم وأطفالهم والطاعنين بالسن منهم، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية تعكس لنا هذه الروايات مدى وحشية وقساوة المشركين من قريش وخاصة طبقة الأشراف منهم، إذ كانوا يتشددون في محاصرة من في

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ١٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٠.

(٣) السهيلي، الروض الأنف: ٢ / ١٢٧ - ١٢٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٧ (الهامش).

الشعب، ويمنعون عنهم أبسط مقومات الحياة، وتملأ آذانهم أصوات الصبية والأطفال وهم يتضاغون من الجوع، فلا تتحرك فيهم أي مشاعر إنسانية أو عاطفية اتجاههم.

لقد كانت صحيفة المقاطعة القرشية «صحيفة ظالمة فاجرة» كما يقول المؤرخون[١]، والشروط التي تضمنتها شروط قاسية جداً، فبالإضافة إلى تعرضهم للجوع والعري والحصار الاقتصادي، نجد العزلة الاجتماعية التي فرضت عليهم لمنع تأثير المسلمين في ذلك الوسط الاجتماعي، والعزلة الاجتماعية لا تقل قسوة عن العزلة والحصار الاقتصادي، إذ الإنسان اجتماعي بطبعه يألف ويُؤلف ويخالط الآخرين، فإذا عزلته عن محيطه وضربت عليه الحصار الاجتماعي فقد حكمت عليه بالموت.

الآثار الإيجابيَّة للحصار:

رغم الظروف القاسية الَّتي مرَّبها المسلمون في حصارهم، ورغم المعاناة الكبيرة، إلاَّ أنَّه كانت هنالك آثار إيجابيَّة، ومكاسب كبيرة، حقَّقتها الدعوة الإسلامية في هذه الفترة الحرجة من عُمرها المبارك.

ويمكن ايجاز أهم هذه الآثار الإيجابية بما يلي:

١ - إيجاد جوٍّ من التكافل الاجتماعي بين المسلمين وهم في داخل الشِّعب.

وهو أمر طبيعي في مثل تلك الأجواء الضاغطة والحصار المطبق، والعزلة الاجتماعية، إلاّ أنّ المصادر التاريخية لا تعكس لنا شيئاً عن ذلك.

٢ - تحويل السُّلوك الاجتماعي للمجتمع المكِّي من مسار الحقد والعداوة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٢ / ١٠٥ .

ضدَّ المسلمين إلى الرَّحمة والتعاطف معهم، وذلك لما أثاره احتجازهم وتجويعهم من سخط في صفوف الناس على زعماء قريش، إذ لم يكن كل قريش راضية عن هذه المقاطعة، «فمن قريش من سره ذلك، ومنهم من ساءه» بحسب رواية ابن سعد السابقة.

٣ - تمرير المسلمين بتجربة من شأنها أن ترفع من معنويَّاتهم وتعوِّدهم على الصُّمود والتحمُّل والمعاناة، وتمحصهم في مسارهم الطويل، وتعمِّق الإيمان في نفوسهم، وتدرِّبهم على المواجهة والاستمرار في صراعهم مع الباطل.

وهكذا تحمَّل النبيﷺ والمسلمون في مسيرتهم الرِّسالية الجوع والعري والملاحقة والتعذيب والاضطهاد والحصار والتشريد؛ تحمَّلوا كل ذلك طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى.

وقد لا نستغرب من موقف المسلمين في هذه المحنة وصبرهم وتحملهم للآلام والجوع، فوجود العقيدة الراسخة، ومبدأ الأجر والثواب يوم القيامة، ونعيم الجنة بعدها، كفيلان باستمرار المسلمين على خط الاستقامة والثبات على محنتهم وابتلائهم.

إلاّ أنّ العجيب ثبات غير المسلمين ممن دخل معهم في شعب أبي طالب، فتحملوا مع المسلمين العذاب والجوع والعزلة الاجتماعية، فمن أجل ماذا ثبت هؤلاء ؟ أفمن أجل الاسلام والعقيدة وهم لا زالوا على شركهم؟ أم أنها حمية القبيلة والأنفة العشائرية ؟ وإذا كان هذا هو السبب فلماذا لم تحمل هذه الحمية والأنفة غيرهم من أمثال أبي لهب على القيام بما قاموا به؟

هذا الأمر يكشف لنا حقيقة مهمة وهي: أن الكثير من أُولئك الذين تصفهم الروايات بالمشركين، كانوا من المسلمين المؤمنين، ولكنهم كانوا يخفون إسلامهم لمصلحة معينة وعلى رأس أُولئك أبو طالب عم النبيﷺ كما سوف يأتينا لاحقاً.

والبعض القليل ممن بقي على شركه، وتحمل مع المسلمين ما تحملوا، قد تكون دوافعه محبة النبيﷺ ونفوذ شخصيته التي كان يتمتع بها، «ولو لم يكن رسول اللهﷺ على أعلى مستوى من التقدير والاحترام والتعظيم لما غامر البطنان الكبيران - بنو هاشم وبنو المطلب - في خوض حرب من أجله»[(١)].

٤ - المسلمون في شِعْب أبي طالب

لقد استمرَّت هذه المحنة بالمسلمين ما يقرب من ثلاث سنين أو أقل أو أكثر بحسب الروايات وكان عليٌّ أمير المؤمنينعليه السلام أثناءها يأتيهم بالطعام سرًّاً من مكَّة من حيث يمكن ولو أنَّهم ظفروا به لم يبقوا عليه كما يقول الإسكافي وغيره[(٢)].

وكان أبوطالب (رضي الله عنه) كثيراً ما يخاف على النَّبيﷺ فلهذا اتَّخذ التدابير اللاَّزِمة خوفاً من أن يُؤخَذ النبيﷺ غيلة وغدراً، ومن التدابير التي اتَّخذها أنَّه حصَّن الشِّعب وفرض عليه حراسة شديدة وجدَّ في حماية النَّبيﷺ بحرص شديد، فكان إذا جنَّ عليه اللَّيل وأخذ الناس مضاجعهم واضطجع النَّبيﷺعلى فراشه بحيث يراه جميع مَنْ في الشِّعب، فإذا نام الناس جاء وأقامه واضجع ابنه عليّاً مكانه[(٣)].

حديث نقض الصَّحيفة:

تحت هذا العنوان ذكر ابن إسحاق رواية مطولة في قصة نقض صحيفة المقاطعة التي تعاقدت عليها قريش، وأضاف ابن هشام رواية ثانية لهذه القصة أسندها إلى بعض أهل العلم.

---

(١) الغضبان، المنهج الحركي للسيرة: ٨٤ . (مرجع سابق)

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٥٦ .

(٣) المصدر نفسه: ١٣ / ٢٥٦ وما بعدها، والبداية والنهاية: ٣ / ٨٤ .

أما رواية ابن إسحاق والتي ذكرها ابن هشام أولا، فقد عزى فيها سبب نقض الصحيفة إلى: «نفر من قريش» وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة الذي يقول عنه ابن إسحاق: «ولم يُبلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام.. وكان هشام لبني هاشم واصلا» وهذا الرجل كان له دور مشرف في ايصال الطعام إلى داخل شعب أبي طالب كما ذكرنا سابقاً.

وخلاصة ما قام به هذا الرجل من جهود لنقض الصحيفة: «إنه مشى إلى زهير بن أبي أُمية.. وكانت أُمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم.. ثمّ ذهب إلى مُطعم بن عدي.. قال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنّهم إليها منكم سراعاً، ثم ذهب إلى أبي البختري بن هشام.. وزمعة بن الأسود فكلمهما وذكر لهما قرابتهم وحقّهم.. فاتّعدوا خَطم الحجون[1] ليلا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا - وتعاهدوا - على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها.. فلما أصبحوا غَدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير.. فطاف بالبيت سبعاً ثمّ أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد، كذبت والله لا تُشقّ؛ قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت؛ قال أبو البختري: صدق زَمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقرّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كُتب فيها، قال هشام بن عمرو

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة، وخطمه: مقدمه.

نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تشوورَ فيه بغير هذا المكان، قال: وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلاّ «باسمك اللّهم»(١).

وبعد أن انتهى ابن هشام من رواية ابن إسحاق، قال: وذكر بعض أهل العلم: «إنّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم، إنّ ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تَدع فيها اسماً هو لله إلاّ أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربُّك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثمّ خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمّا فيها، وإن كان كاذباً دفعتُ إليكم ابن أخي، فقال القوم: رَضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثمّ نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرّاً. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا»(٢).

وفي الكامل لابن الأثير: وقال أبو طالب في أمر الصحيفة وأكل الأرضة ما فيها من ظلم وقطيعة رحم أبياتاً منها:

وقد كان في أمر الصحيفةِ عبرةٌ ... متى ما يُخبَّر غائبُ القومِ يَعجبُ
محا اللهُ منهم كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من ناطق الحق مُعربُ
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلا ... مَن يختلق ما ليس بالحقِّ يكذبُ(٣)

والذي يبدو أنّ رواية ابن هشام والتي رواها ابن سعد(٤) وغيره هي الأقرب

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٦ - ١٧ .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١ / ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٠ - ١٠١ .

إلى الواقع وتنسجم مع سياق القصة وتتابع أحداثها، بالاضافة إلى وجود ما يوهن رواية ابن إسحاق وهو قوله في آخرها: «وأبو طالب جالس في ناحية المسجد» فكيف ترك أبو طالب الشعب وجاء إلى المسجد؟ ولماذا لم يشترك مع أُولئك النفر في مجادلتهم لأبي جهل؟

ومهما يكن من أمر، فإن ما أخبر به النبي ﷺ في قصة الصحيفة من دلائل نبوته، وقد ساعد على نقض الصحيفة بالاضافة إلى ما حصل لها، هو الجو الاجتماعي الساخط على قريش من قبل أُولئك الرهط، وهو ما يشاركهم فيه جمع آخر من قريش، إذ لم يكن التعاهد على هذه الصحيفة مع ما فيها من ظلم وقطيعة مورد اجماع من قريش، «فمن قريش من سرّه ذلك ومنهم من ساءه»[١].

وهكذا انتقضت صحيفة المقاطعة الظالمة وخرج من شعب أبي طالب من كان متحصناً فيها.

وبحسب رواية ابن سعد: «وكان خروجهم من الشّعب في السنة العاشرة»[٢].

٥ – تأملات ودروس وعبر

لقد كان أبو طالب صادقاً في أبياته الشعرية حيث قال: «وقد كان في أمر الصحيفة عِبرةٌ..» نعم في قصته محنة المسلمين في صراعهم مع مشركي قريش وما تمخض عن ذلك الصراع، دروس وعبر كثيرة، نتوقف عند بعضها باختصار:

أولا: التخطيط للمواجهة المضادة:

لقد مثلت صحيفة المقاطعة فصلا مؤلماً من فصول المواجهة العنيفة التي

---

(١) و (٢) المصدر نفسه: ١ / ١٠٠ .

خاضتها الدعوة الإسلامية في عهدها الملكي، والذي لم يكن فيه قتال أو مواجهات مسلحة لأنّ الله سبحانه لم يأمر نبيهﷺ بذلك، وأسباب ذلك واضحة جليّة لا تحتاج إلى مزيد من التأمل، إلاّ أنّ مواجهة قريش للدعوة في هذه المرحلة كانت شديدة وقاسية، وقد تكون في بعض فصولها أشد من المواجهة القتالية، ومثلت صحيفة المقاطعة أحد فصول هذه المواجهة إذ إنها شملت كلّ أوجه التعامل بين الناس، فشملت المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومصادرة الحريات. .

وضمن بنود مدروسة محكمة لم تدع أي ثغرة يمكن للمسلمين والمحاصرين والنفاذ من خلالها.

وهذا يعني لنا كدعاة إلى الله سبحانه أن لا نستهين بقدرات عدونا وما تتفتق عنه عقليته وفطنته وذكاءه في محاربة الدعوة والدعاة، فينبغي أن نأخذ للأمر أهبته واستعداده حتى لا نأخذ على حين غرة منا، فأعداء الدعوة لهم عقول ومستشارون ويخططون للمواجهة، فهل نحن في مستوى المواجهة المضادة لهم؟

ثانياً: ضبط النفس عند الشدائد:

في الوقت الذي أجمعت فيه قريش على مواجهة المسلمين وسدّ كلّ ما يمكن أن ينفذوا من خلاله إلى أوساط المجتمع المكي، نجد في المقابل حالة فريدة في التربية وضبط النفس تحلى بها المسلمون في هذه المواجهة، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يوم واحد فقط، بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس»[(١)].

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على التربية الروحية العالية التي تلقاها

(١) الصلابي – علي محمد، النسيرة النبوية: ١ / ٣٢٤ .

أُولئك الصفوة وخلال تلك الفترة اليسيرة التي عايشوا فيها رسول الله ﷺ وتلقوا منه تعاليم الإسلام والدين الحنيف في الصبر وضبط النفس وسعة الصدر والتعالي بالنفس إلى مراتب العزة والاستقامة والثبات، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى دلّت هذه المفردة من الحدث على عظمة الرسول ﷺ القيادية لأصحابه من المسلمين، بل وحتى لغير المسلمين! ممن كان معه في شعب أبي طالب، فلم تصدر من الجميع أي ردود فعل مقابل استفزاز قريش لهم، إذ كان قريش تريد ذلك لإشعال حرب شاملة ضد المسلمين، ففوت رسول الله ﷺ بتربيته لأصحابه، وبحكمته وحنكة قيادته - عليهم هذه الفرصة.

ثالثاً: العنصر الفاعل والمتحرك في المواجهة:

لقد وجدنا في قضية صحيفة المقاطعة بعض الشخصيات التي كان لها دورها السلبي أو الايجابي في هذه القضية، فنجد ظاهرة أبي لهب الذي كان له دور المتابعة الشديدة لتنفيذ بنود المقاطعة، فكان يلاحق كلّ من يحاول التمرد على بنودها.. وفي المقابل نجد الدور الايجابي الذي قام به أُولئك النفر من قريش لنقض الصحيفة، فكان لهم ما أرادوا رغم أنهم لم يكونوا قد أسلموا بعد.

إلاّ إنه يبقى الدور الأكبر في هذه المواجهة لأبي طالب إذ وفّر الحماية اللازمة لرسول الله ﷺ بعد أن جهرت قريش بقتله، ثمَّ نجده يخوض حرباً اعلامية سياسية لكسب الرأي العام لصالح رسول الله ﷺ ودعوته وتأليبها ضد قريش وصحيفتها الظالمة.

ومن أشهر ما سجل له في هذا المجال قصيدته اللاّمية المشهورة التي يقول في بعض أبياتها:

ولما رأيتُ القوم لاودّ فيهمُ وقد قطعوا كلّ العُرى والوسائل

وقد حالفوا قوماً علينا أظنّةً يعضّون غيظاً خلفنا بالأنامل

صبرتُ لهم نفسي بسمراء سمحة وأبيض عضب من تراث المقاولِ

ومن أبيات هذه القصيدة، الأبيات التي يمدح فيها رسول الله ﷺ ويعلن فيها إيمانه برسالته:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل
يلوذُ به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذّرا والكلاكل
فأيّده ربّ العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل

وهي قصيدة جليلة معبرة نقلها ابن إسحاق في سيرته[١]، «وكان لها أثر خطير زلزل أوضاع مكة، واستطاعت ان تحرّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشم، حيث ائتمروا سرّاً، ودعوا إلى نقض الصحيفة»[٢].

ولا ينبغي أن ننسى دور أموال خديجة (رضوان الله عليها) في هذه المحاصرة كعنصر متحرك آخر في المواجهة وسوف نستوفي الحديث عن هذا الدور في الدرس القادم إن شاء الله.

(١) ابن هشام، السرية النبوية: ١ / ٢٩١ وما بعدها.

(٢) الصلابي، السيرة النبوية: ١ / ٣٢٣ - ٣٢٤.

الأسئلة:

١ - ما هي الشروط التي تعاقدت عليها رؤساء قريش في صحيفتهم التي كتبوها ؟ وما هي الأسباب التي دعتهم إلى كتابة الصحيفة ؟

٢ - كانت للصحيفة التي كتبها رؤساء قريش وما تضمّنته من شروط قاسية آثار سلبية على المسلمين من جهة وآثار إيجابية من جهة أُخرى، فما هي أهم هذه الآثار السلبية والايجابية لهذه الصحيفة ؟

٣ - ما هو سبب دخول النبي وأبي طالب وبني هاشم وبني عبد المطلب إلى شعب أبي طالب ؟

٤ - كم استمرّت محنة حصار المسلمين في شعب أبي طالب ؟ وكيف انتهت هذه المحنة ؟ وما هو الدور الذي قام به عمُّ النبي ﷺ أبو طالب في هذه القضية ؟

٥ - اذكر باختصار أهم الدروس والعبر في قضية صحيفة المقاطعة.

الدرس التاسع عشر

الدعوة

«القسم الثامن»

الدعوة والقوى الثلاث

محاور البحث:

١ - ما هي القوى الثلاث ؟

٢ - أبوطالب (رضي الله عنه) ودوره في حماية الدعوة

٣ - الأدلّة على إيمان أبي طالب (رضي الله عنه)

• الأسئلة

الدعوة والقوى الثلاث

١ - ما هي القوى الثلاث ؟

من أهم الأسباب والعوامل الموضوعية التي ساعدت النبيﷺ في دعوته هي: وقوف ثلاث شخصيَّات، تحمل مؤهَّلات اجتماعية، واقتصادية، وإيمانية، إلى جانب دعوته وكان لها دور كبير في حفظ الدعوة وانتصارها وانتشارها.

وهذه الشَّخصيات الثلاث شكَّلت قوى ثلاثاً، ودعائم أساسيَّة، في حركة النبيﷺ المباركة وتمثَّلت في أبي طالب شيخ الأبطح، وعلي بن أبي طالبعليه السلام، وخديجة بنت خويلد زوج النَّبيﷺ.

إلاّ أنَّنا وقبل الدخول في توضيح دور كل واحد من هذه الشخصيات الثلاث ننبِّه إلى نقطة مهمَّة جدّاً وهي: أنَّ توفُّر مثل هذه الشخصيات، والظروف المساعدة الأخرى للنَّبيﷺ لا تعني أنَّ ظهور الإسلام ونجاح الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية كان أمراً طبيعياً بحيث لو توفَّرت هذه العوامل لأيِّ دعوة أخرى فإنَّها تستطيع أن تحقِّق نفس النتائج التي حقَّقها الإسلام.

بل قد يكون الأمر على العكس من ذلك تماماً؛ فإنَّ ظهور الإسلام وانتصاره في هذه المنطقة هو بذاته معجزة له، ودليل على حقَّانية الإسلام، وذلك؛ لأنَّ اليهوديَّة قد كانت موجودة وكانت هذه الظروف الموضوعيَّة موجودة أيضاً ولكنَّها لم تستطع أن تؤثِّر أثراً يُذكر في عقليَّة الإنسان العربي ولا في سلوكه وتصرُّفاته، وكذلك الحال بالنِّسبة إلى النصرانيَّة التي كانت تهتمُّ في تنصير كلّ من تقدر على تنصيره، وهكذا بالنِّسبة إلى غيرها من الأديان.

وهذا إنْ دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على أنَّ لنفس المبدأ والرِّسالة والقائد دوراً هاماً جدّاً في عملية التَّغيير، وفي النجاح، وفي استمراره، ومن دون ذلك فإنَّ كل نجاح – لو كان – لسوف يكون محدوداً جداً ولظروف معيَّنة، ولسوف ينتهي بمجرد انتهاء تلك الظروف.

وقد رأينا الإسلام يزداد قوَّة وفعاليَّة على مرِّ الزمن وفي مختلف الظروف والأحوال ولم يؤثِّر فقدان تلك الظروف والعوامل في الإسلام ولا في فاعليَّته.

والذي يُفسِّر لنا هذه الظاهرة هو أنَّ الإسلام يستطيع أن يستوعب طاقات الإنسان ويحوِّلها ويطوِّرها في مصلحة الرسالة والحقِّ، كما أنَّه يستطيع أن يتلائم مع الظروف المختلفة، فهو يملك لكلِّ مشكلة حلاًّ، ولكل ظرف ما يناسبه، وينسجم مع فطرة وإنسانية الإنسان على عكس غيره من الدَّعوات الجامدة والمحددة، والتي تناولتها يد التحريف بالحذف والإضافة والتَّشويه.

ولذلك فإنَّ الإسلام عندما نجح في الجزيرة العربية، وإن كان قد استفاد من بعض الظروف الذاتية والموضوعيَّة، وحوَّل وطوَّر الأوضاع السَّائدة في شبه الجزيرة العربية لصالحه، إلاَّ أنَّه كان في نفس الوقت لا يجد في هذه المنطقة من المميِّزات الهامَّة الَّتي من شأنها أن تساعده في مهمَّته، فالأوضاع السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة السَّيئة للجزيرة العربية في ذلك الوقت لم تكن مشجِّعة لانبثاق تعاليم الإسلام الحنيف، ولو أنَّ هذه الأوضاع السِّيئة قد واجهت أي دعوة أخرى لما استطاعت أن تنجح.

ولكن سوء هذه الأوضاع لم يؤثِّر على الإسلام، كما أنَّ امتلاك أعدائه لها لم يؤثِّر عليه أيضاً، وهذا هو أحد أسرار عظمة الإسلام وسمُّوه[١].

---

(١) للتوسع: انظر: الصَّحيح من سيرة النَّبي: ٢ / ١٣٣ - ١٣٥ .

٢ - أبوطالب ودوره حماية الدعوة

لقد أشرنا في دروس سابقة إلى قصّة زوج النَّبيﷺ أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد(رضي الله عنه) حيث وفَّرت للنبَّيﷺ العامل الاقتصادي والنَّفسي في دعوته المباركة، ووقفت إلى جنبهﷺ في تلك الظروف الحرجة التي مرَّت بالمسلمين إبان اضطهادقريش وحصارها الاقتصادي لهم.

وسوف يأتي الحديث عن الدَّور الرِّسالي الذي قام به وصي وأخو النَّبيﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في ثنايا الدروس القادمة وخاصة في العهد المدني منها.

إلاَّ أنَّنا هنا نريد أن نبحث عن الدَّور الذي اضطلع به أبو طالب شيخ الأبطحعليه السلام، الذي ظلمه بعض كتّاب السِّيرة والتأريخ وبعض الأقلام المأجورة.

يقول السيِّد الحسني: «في عقيدتي أنَّ التأريخ ما ظَلَم أحداً كما ظلم أباطالب، وما أساء المسلمون باساءة أفحش وأعظم من إسائتهم لمحمّدﷺفي عمّه أبي طالب، لقد تعهَّد أبوطالب محمّداً وهو في الثامنة من عمره وضمَّه إلى أولاده يرعاه ويحرسه في ليله ونهاره فإذا اضطر أن يخرج من مكَّة تولَّته زوجته فاطمة بنت أسد بالرِّعاية». فما أحسَّ بفقد الآباء والأمَّهات، وظلَّ يرعاه ويحرسه ولا يفكِّر بأحد سواه حتَّى بعد أن شبَّ وتزوَّج.

ولمَّا بعثه الله نبيّاً كان أوّل من صدَّق به ودعا أولاده إلى متابعته وتصديقه، فلقد رآه مرَّة يُصلِّي وليس معه أحد من الناس سوى علي وخديجة فذهب مسرعاً إلى بيت أخيه العباس وولده جعفر في كفالته فدعاه وأخذ بيده إلى المكان الذي يصلِّي فيه النَّبيﷺ وقال له: «صِل جناح ابن عمِّك يا ولدي» ومضى يدعو إليه ويهيِّيء له الأنصار والأتباع، ولم يرد في تأريخه الطويل أنَّه عاتب محمّداً على موقفه من آلهة قريش أو دعاه إلى مهادنتها والسكوت عن عيبها، بل كان يأمر بني

هاشم ويدعوهم إلى متابعته ونصرته.

فقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أنَّ أباطالب لمَّا حضرته الوفاة دعا بني عبدالمطلب وقال لهم: «لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمَّد واتَّبعتم أمره فاتَّبعوه وأعينوه ترشدوا»، وروى هذه الوصيَّة كل من ابن الجوزي في تذكرة الخواص، والنسائي في الخصائص، وصاحب السِّيرة الحلبيَّة في سيرته، وغيرهم من المحدِّثين»[١].

فهل يمكن، أو يتصوَّر في حقّ أحد من الناس، أن يتبنَّى فكرة، او مبدأ أو يتَّخذ ديناً، ويناصر في الوقت ذاته أعداء فكرته ودينه ومبدأه بكل ما لديه من حول وطول ويدعو الناس إلى ترك ما يؤمن به في قرارة نفسه؟

وحينما نستعرض تأريخ أبي طالب من الدعوة الإسلاميَّة منذ مطلعها إلى السَّنة التي تُوفِّي فيها، نجده قد جسَّد بمواقفه وتضحياته الجسام كل معاني الإيمان والتصديق والتسليم بالله ونبيِّه ﷺ فالتأريخ يحدِّثنا أنَّ أباطالب كان على استعداد لأن:

١ - يتخلَّى عن مكانته ومركزه الاجتماعي في قومه إلى الاتِّجاه المعادي لهم، ولا يستسلم للضغوط المتنوعة التي يتعرَّض لها.

٢ - وأن يرضى بتحمُّل الجوع والفقر والمحاصرة الاقتصادية ومن معه في الشَّعبِ اضطرَّتهم إلى أكل الأعشاب وورق الأشجار في سبيل ابن أخيه ودعوته.

٣ - وأن يوطِّن نفسه على خوض حرب طاحنة ربَّما تنتهي بإِبادةِ الهاشميِّين وأعدائهم إذا لزم الأمر.

٤ - وأن يضحِّي حتَّى بولده الأصغر سناً علي عليه السلام ويتحمَّل آثار غربة وَلَده

---

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى : ٢٠٦ - ٢٠٧ .

الآخر جعفر المهاجر إلى الحبشة.

٥ - وأن يجاهد بيده ولسانه ويستخدم كل ما لديه من إمكانات مادِّية ومعنوية ولايبالي بكافَّة الصِّعاب والمشاق وهو يدافع عن هذا الدين ويحوطه بالرِّعاية والعناية ما وجد إلى ذلك سبيلاً[(١)].

ولا يمكن أن تكون كل هذه التضحيات قد صدرت بدافع عاطفي أو نابعة عن حميَّة النَّسب والقبيلة، لأنّه إن كان محمّد ﷺ ابن أخيه فإنَّ عليّاً ولده، فإذا كانت العاطفة النَّسبية هي الدَّافع فلماذا يضحِّي بولده دون ابن أخيه؟ ولماذا لم تدفع الحميَّة القبليَّة والرابطة النسبيَّة أبالهب؛ لأن يقف موقف أبي طالب إن كانت هي السَّبب في موقف أبي طالب؟

وهكذا يتَّضح أنَّنا لا يمكن أن نفسّر مواقف أبي طالب تلك إلاَّ على أنّها بدافع عقيدي وإيماني راسخ يدفع الإنسان للبذل والعطاء بكلِّ ما يملك في سبيل دينه وعقيدته[(٢)].

٣ - الأدلَّة على إيمان أبي طالب عليه السلام

بعد هذه التضحيات الجِسام من قِبَل أبي طالب في سبيل الدَّعوة الإسلاميَّة ومن أجل حامل الدَّعوة النَّبي المرسل ﷺ، تفاجئنا بعض الرِّوايات وبعض الأقوال التي تذهب إلى أنّه مات مُشركاً على دين قريش، وأنَّه في ضَحْضَاح من النار!

يقول السيِّد الحسني: «وإنِّي أستبعد على أيِّ باحث يتحرَّى الحقّ أينما كان إذا استعرض تأريخ أبي طالب مع الدَّعوة الإسلاميَّة منذ مطلعها إلى السَّنة التي

---

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٣٥٥، بتلخيص.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٣٥٥ وما بعدها.

تُوفِّي فيها، استبعد عليه أن ينتهي إلى القول بأنّه مات مشركاً على دين قريش، إلاّ أن يكون أموياً أو ذَنَباً لمشركي الأمويِّين الذين أرادوا أن يغطُّوا شركهم أو شرك آبائهم بنسبة الشِّرك إلى أبي طالب الذي أسلم بقلبه ولسانه وأعماله منذ الشهور الأولى لبعثة النبيﷺ كما سنثبت ذلك من خلال حديثنا عن إسلامه ومواقفه في نصرة الإسلام»[١]، ثمَّ أورد الأدلَّة الدَّامغة على إسلام أبي طالب والأدلَّة على إيمانه، وهي كثيرة.

وقد أُلِّف في إثبات إيمانه الكثير من الكتب من السُّنَّة والشِّيعة على حدٍّ سواء، وقد أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كتاباً ومنها كتاب (أبوطالب مؤمن قريش) للأستاذ عبدالله الخنيزي[٢].

ونحن نذكر أهم الأدلَّة على ذلك متوخِّين الاختصار قدر الإمكان، ونحيل من أراد التوسُّع في المطلب إلى المطولات[٣] فنقول:

من الأُمور الواضحة أنَّ إسلام أي شخص أو عدمه إنَّما يستفاد من أمور أربعة:

١ - إمَّا من مواقفه العمليَّة: ومواقف أبي طالب قد بلغت الغاية في الوضوح والدلالة على إخلاصه وتفانيه في الدفاع عن هذا الدين.

٢ - وإمَّا من إقراراته اللِّسانية: ويكفينا ما سنشير إليه من القدر الكثير في شعره في المناسبات المختلفة.

٣ - وإمَّا من موقف ممثِّل الإسلام ورائد الحقّ النبي الأعظمﷺ منه:

---

(١) سيرة المصطفى: ٢٠٨ .

(٢) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ٩ وما بعدها.

(٣) للتوسّع: انظر الغدير للعلامة الأميني، المجلدين السابع والثامن.

والموقف الرضي أيضاً ثابت منهﷺ تجاه أبي طالب على أكمل وجه.

٤ - وإمَّا من أخبار المطَّلعين على أحواله عن قُرب وعن حس كأهل بيته ومن يعيشون معه وسيتبيَّن لنا أنَّهم مُجمعون على ذلك.

بل إنَّ نفس القائلين بكفره لَمَّا لم يستطيعوا إنكار مواقفه العمليَّة ولا الطَّعن بتصريحاته اللِّسانية، حاولوا أن يُشبِّهوا على العامَّة بكلام مُبهم لا معنى له فقالوا: «إنّه كان عنده تصديق بالنبيﷺ، ولكن عنده عدم انقياد واستسلام، فلم ينفعه تصديقه»[١].

وفيما يلي - وباختصار - شواهد على هذه الأمور الأربعة آنفة الذِّكر تثبت لنا بوضوح لا لَبس فيه عمق إيمان هذا الرجل:

الدليل الأوّل: الإجماع، فإنَّ أهل البيت وشيعتهم قد أجمعوا على إسلامه، بل في بعض الأحاديث: أنَّه من الأوصياء، والأحاديث الدالَّة على إيمانه والواردة عن أهل بيت العصمة كثيرة، وقد جمعها العلماء في كتب مفردة[٢].

وقد نصَّ على ذلك بعض المؤرِّخين والعلماء من أهل السُّنَّة.

يقول ابن الأثير: وما أسلم من أعمام النبيﷺ غير حمزة والعباس وأبي طالب عند أهل البيت[٣].

وقد نقل الأميني في (الغدير) عن جماعة من أهل السُّنَّة: أنَّهم ذهبوا إلى ذلك أيضاً وألَّف عدد منهم وكتبوا الكتب والبحوث في إثبات ذلك... بل قد حكم عدد

---

(١) زيني دحلان، السيرة النبوية: ١ / ٧٧، وابن حجر، الإصابة: ٤ / ١١٥ - ١١٩.

(٢) انظر الشيخ الطبسي، منية الراغب في إيمان أبي طالب. والغدير، للأميني: ٧ / ٥١٦ - ٥٤٢، ط. مركز الغدير.

(٣) الأميني، الغدير: ٧ / ٤٩٥ نقلا عن جامع الأُصول لابن الأثير.

منهم بأنَّ مَنْ أبغض أباطالب فقد كفر أو من يذكره بمكروه فهو كافر[١].

الدليل الثاني: ما تقدَّم من مناصرته للنبيﷺ وتحمُّله تلك المشاق والصِّعاب العظيمة وتضحيته بمكانته في قومه، فلو كان كافراً – كما قيل – فلماذا يتحمَّل كل ذلك؟ ولماذا لم ينقل عنه ولو كلمة عتاب أو تذمُّر للنَّبيﷺ؟

الدليل الثالث: تصريحاته وأقواله الكثيرة جدّاً فإنَّها كلَّها ناطقة بإيمانه وإسلامه، ويكفي أن نذكر نموذجاً من أشعاره التي عبَّر عنها ابن أبي الحديد المعتزلي بقوله: «إنَّ كل هذه الأشعار قد جاءت مجيء التَّواتر من حيث مجموعها الذي يدلُّ على تصديق أبي طالب لمحمَّدﷺ»[٢].

وهذه بعض الشَّواهد من شعره:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسى خُطّ في أوّل الكتب

❁ ❁ ❁

نبيٌّ أتاه الوحي من عند ربّه ومن قال لا يقرعْ بها سنّ نادم

❁ ❁ ❁

يا شاهد الله علي فاشهدِ انّي على دين النبي أحمد
من ضلّ في الحقّ فانّي مهتد

❁ ❁ ❁

وأبيضُ يُستسقى الغمام بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
يطيف به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

فإنّ هذا الأسلوب من الشِّعر إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على إيمانه العميق الصَّادق.

---

(١) الغدير: ٧ / ٥١٣، ط. مركز الغدير.

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ٣ / ٢١٤ .

الدليل الرابع: مواقفه العمليَّة في دعوة الآخرين إلى الإسلام، فقد نصَّ المؤرِّخون أنَّه قد دعا مَلِك الحبشة إلى الإسلام، وهو الذي دعا ولده جعفراً وأمره أن يصل جناح ابن عمِّه في الصَّلاة، وهو أيضاً دعا زوجته فاطمة بنت أسد إلى الإسلام، وأمر حمزة بالثبات على هذا الدين وأظهر سروره بإسلامه، إلى غير ذلك ممَّا يجده المتتبّع لكلامه ومواقفه في المناسبات المختلفة.

الدليل الخامس: ترحُّم النَّبيﷺ واستغفاره له باستمرار وجزعه عليه عند موته كما سوف يأتينا عند ذكر وفاته[١]. ومن الواضح أنَّه لا يصح الترحُّم إلاَّ على المسلم.

الدليل السادس: الأحاديث المروية عن النَّبيﷺ وأهل البيت عليهم السلام والتي تنصُّ بصريح القول على إسلامه وعمق إيمانه وهذه بعض النماذج منها:

١ - عن العبّاس بن عبدالمطلب. أنَّه سأل رسول اللهﷺ فقال: ما ترجو لأبي طالب؟ قالﷺ: «كل الخير أرجو من ربِّي عزَّوجلَّ»[٢].

٢ - وعنهﷺ: «لوقمت المقام المحمود لشفعت في أبي وأمي وعمِّي أبي طالب وأخ كان لي في الجاهلية»[٣].

٣ - وسُئل الإمام السجاد عن إيمان أبي طالب فقال: «واعجباً إنَّ الله نهى رسوله أن يقرَّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السَّابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتَّى مات»[٤].

---

(١) الغدير: ٧ / ٥٣٧ .

(٢) المرجع نفسه عن الدرجات الرفيعة: ٤٨ .

(٣) تفسير علي ابن إبراهيم: ٢ / ٢٥، ١٤٢، تفسير البرهان: ٣ / ٢٣ .

(٤) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٦٩ .

٤ – جاء عن أبان بن محمود أنَّه قال للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام :

جعلت فداك، إنِّي شككت في إسلام أبي طالب؟ فكتب إليه : ﴿وَمَنْ يُشَاقق الرَّسُولَ مِنْ بَعدِ ما تبيّنَ لهُ الهُدى ويتّبع غَيرَ سَبيل المُؤمِنينَ﴾[١]، ثمّ قال عليه السلام : «إنَّك إن لم تقرّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار»[٢].

٥ – وروى الكليني في الكافي بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

«إنَّ الله عزَّوجلَّ قال له على لسان جبرئيل : قد حُرِّمت النار على صُلب أنزلك، وبطن حملك، وحِجر كفلك، فالصُلب صُلب أبيه عبدالله، والبطن الذي حملك آمنة بنت وهب، وأمَّا حجر كفلك فحجر ابي طالب وزاد في رواية : «وفاطمة بنت أسد»[٣].

هذه الأمثلة والشَّواهد والرِّوايات والمواقف العمليَّة كلّها ناطقة بإسلام أبي طالب وهي شذرات من أدلَّة كثيرة موجودة في المصادر الإسلاميَّة[٤].

(١) النساء : ١١٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٤ / ٦٨ .

(٣) الكافي : ١ / ٤٤٦، روضة الواعظين : ١ / ١٣٩، معاني الأخبار : ١٣٦ / ١ .

(٤) اقتبسنا هذا البحث والأدلة ممَّا كتبه السيد جعفر مرتضى العاملي في كتابه الصَّحيح من سيرة النبي : ٤ / ٧ وما بعدها (بتصرف وتلخيص). وللتوسع انظر : الغدير : ٧ / ٤٤٦ – ٥٤٢، ط. قم – مركز الغدير. وأبو طالب – مؤمن قريش – للخنيزي.

الأسئلة:

١ - ما هي القوى الثلاث التي وقفت إلى جانب النبيﷺ ودعوته ؟

٢ - ماذا يجسّد لنا دور أبي طالب في دنيا الإسلام من خلال المعطيات التأريخية التي تنصُّ على ذلك ؟

٣ - ما هي أهم الأدلّة العقلية والنقلية والعملية التي تثبت لنا إيمان أبي طالب ؟

الدرس العشرون

الدعوة

«القسم التاسع»

الدعوة والقوى الثلاث

(شبهات حول إيمان أبي طالب)

محاور البحث:

١ - حديث الضَحْضَاح

٢ - ارث عقيل لأبي طالب

٣ - آية «وهم ينهون عنه وينأون عنه»

٤ - آية النهي عن الاستغفار للمشركين

٥ - سرّية إيمان أبي طالب عليه السلام

٦ - سبب الافتراء على أبي طالب

● الأسئلة

الدعوة والقوى الثلاث

شبهات حول إيمان أبي طالب

بعد أن استعرضنا في الدَّرس السَّابق الأدلَّة على إيمان أبي طالب(رضي الله عنه)، وموقفه المتين من الدَّعوة الإسلاميَّة، ودعمه المنقطع النَّظير وتضحياته الجِسَام، ومواقفه البطوليَّة في نُصرة الحقِّ وحامل راية الحقِّ النَّبي الأكرمﷺ نأتي هنا لنستعرض بعض الأدلَّة الروائية، وبعض أوجه التأويل للآيات القرآنية والَّتي استدلَّ بها بعض القائلين بكفر أبي طالب.

الرِّوايات التي استدلَّ بها:

ونكتفي بذكر روايتين فقط:

١ - الرِّواية الأولى: حديث الضَّحْضَاح[١]

جاء في صحيح البخاري عن مسدد: حدَّثنا يحيى عن سفيان... حدَّثنا العباس بن عبدالمطَّلب: قال للنَّبيﷺ: «ماأغنيت عن عمّك، فإنَّه كان يحوطك ويغضب لك؟ قالﷺ: هو في ضَحْضَاح من النار ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار»[٢]، وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري: «أ نّه سمع

---

(١) الضَّحضاح: معناه الماء اليسير أو الماء القريب القعر.

(٢) صحيح البخاري: ٤ / ٢٩٨، كتاب مناقب الأنصار باب قصَّة أبي طالب، حديث رقم: ٣٨٨٣. وانظر: الغدير: ٨ / ٣٧، ط. مركز الغدير.

النبيﷺ وذُكر عنده عمّه فقالﷺ: «لَعلَّه تنفعُهُ شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي مِنه دماغه»[١].

وقد رُوِي هذا الحديث في مصادر أُخرى وبألفاظ أخرى متقاربة من حيث المعنى[٢].

مناقشة الحديث:

أوّلاً: المناقشة السَّندية: لقد ناقش كل من الأميني في الغدير والخنيزي في كتابه «أبوطالب مؤمن قريش» أسانيد هذه الرِّواية وبيَّنا وَهْنَها وضعفها وتناقض نصوصها. يقول الخنيزي: – بعد أن استعرض رواة الحديث – «هذه الجولة التي قُمنا بها في صفوف رواة الحديث، لم تُبقِ فينا مكاناً لثقة، لنتقبَّل ما يروي هؤلاء، فإنَّنا وجدنا في كلٍّ سند حفنة من الكَذَبة والضُّعفاء والخبثاء بل المجهولين والذين لم نقف عنهم على أثرا! . . . على أنَّ هنالك جوانب أخرى تدعنا أن لا نطمئن لهذا الحديث، وأن نضرب به عَرض الجدار حتَّى لو كان رواته من الثِّقاة، وكيف بهم وهم من المجاهيل الكذبة والحديث من البواطيل»[٣].

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج نقلاً عن الإماميَّة والزيديَّة: «قالوا وأمَّا حديث الضَّحضاح فإنَّما يرويه الناس كلّهم عن رجل واحد وهو المغيرة بن

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٢٩٩ حديث رقم ٣٨٨٥، وصحيح مسلم بشرح النووي: ٣ / ٨٤ – ٨٦ كتاب الايمان باب شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي طالب، والتخفيف عنه بسببه.

(٢) للتوسع: انظر الغدير للأميني: ٨ / ٣٧ وما بعدها، وكتاب أبو طالب مؤمن قريش لعبد الله الخنيزي: ٣٧٧ وما بعدها. طبعة دار مكتبة الحياة – بيروت، الطبعة الثانية، أُفست الطبعة الأُولى، (١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م).

(٣) الأميني : ٨ / ٣٨ – ٣٩، والخنيزي – عبدالله، أبوطالب مؤمن قريش: ٣٩٠ .

شعبة»[(١)].

إلاَّ أنَّنا نجدهم يروونه عن غير المغيرة أيضاً كما في البخاري ومسلم وغيره، وهذا يدلُّ على أنَّ رواية الحديث عن طريق آخر قد حدثت في وقت متأخّر.

ثانياً: مناقشة متن الحديث: عندما نتأمَّل في متن الحديث بعباراته المختلفة نجد هناك تضارباً يختلف به المعنى، ففي بعض الرِّوايات نجد الجواب المزعوم عن الرَّسولﷺ هو: نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار.

وتفيدنا هذه الصورة أنَّ شفاعة الرَّسولﷺ معجلة له وأنّها قد وقعت فعلاً، ويتَّضح ذلك أكثر في حديث ثان جاء فيه: نعم وجدته في غمرات النار فأخرجته إلى الضَّحضاح.

ولا ندري لماذا لم يتمّ الرَّسولﷺ نعمته على عمِّه فيخرجه من النار بعد أن كانت له القوَّة والنفوذ على إخراجه من غمرات النار فيدعه في هذا الضَّحضاح دون أن يتمَّ نعمته[(٢)].

ثمَّ هل تكون الشفاعة في الدنيا؟

أمَّا بعض الصور الأخرى للحديث فهي: «لعلَّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة»، وهذه الصُّورة لا تحمل سوى الدُّعاء، فلعلَّ كما يعبِّر النحويُّون تحمل معنى الترجيِّ فهو يرجو له الشَّفاعة فقد تناله وقد لا تناله وإن قُدِّر له أن تناله فهي مؤجَّلة له إلى يوم القيامة!

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٧٠ .

(٢) الخنيزي، أبو طالب مؤمن قريش: ٣٩١ .

وفي بعضها الآخر أنّه «أهون أهل النار عذاباً وهو مُنْتَعِل بنعلين يغلي منهما دماغه حتَّى يسيل - أي دماغه - على قدميه».

وهذه لا تشير إلى أنّه كان أخف أهل النار عذاباً من أجل شفيع شفع له، أو لأنّه أقلّ المعذَّبين استحقاقاً للعذاب، ثمَّ كيف يجوز أن يكون الكافر أهون أهل النار عذاباً؟

فهل الكافر أهون ذنباً من العاصي أو المذنب حتَّى يكون ذاك أهون عذاباً من هذا؟ ثمَّ هل هذا هو أهون عذاب أهل النار؟ وماذا فيه من الراحة والتخفيف بعد سيلان الدماغ على القدمين!

وقد علَّل بعضهم هذا العذاب بأنَّ الله سلَّط العذاب على قدميه خاصَّة لتثبيته إيَّاهما على تلك الملَّة فيكون من مشاكلة الجزاء للعمل[١]!

فإن يكن العذاب على القدمين خاصَّة فما بال دماغه يغلي؟ ولِمَ يسيل حتَّى يتدفَّق أو يتدفَّق حتَّى يسيل؟ وهل الدَّماغ عين لا تنضب كلَّما فاضت بما يتدفَّق منها نبع من الأعماق ما لا يجف[٢]؟

ثمَّ إنَّ ما يروونه من أنّه ﷺ طلب منه حين وفاته أن يقول كلمة (لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله) يستحلّ بها الشفاعة يوم القيامة فلم يعطه إيَّاها، يدلُّ على أنّه ﷺ قد أناط مطلق الشفاعة بكلمة لا إله الاّ الله، فلماذا استحلَّ هذه الشفاعة مع أنَّه لم يعط كلمة التوحيد التي توجب حلِّية الشفاعة[٣] كما يدعون ؟

وما الذي دفع الرَّسول ﷺ لأن يشفع لعمّه فيتخفَّف عنه العذاب - إن كان كافراً - وهنالك آيات تنصُّ على أنَّ الكافر مخلَّد في النار لا ترجى له رحمة الله

---

(١) السهيلي، الروض الأنف: ٢ / ١٧٠، وانظر: السيرة النبوية لدحلان: ١ / ٧٥ .

(٢) أبوطالب مؤمن قريش: ٣٩٢ .

(٣) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ٣٥ .

كما في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[١] وغيرها من الآيات التي تنصُّ كلّها على تخليد الكافرين في العذاب المهين ولا تنفعهم شفاعة الشَّافعين[٢].

ثمَّ كيف لا تصل شفاعة الرَّسول ﷺ لعمّه بأن يأخذ بيده من ضحضاح النار إلى ظلال الجنَّة، بعد أن أخذ بيده من غمرات النار إلى الضَّحضاح كما يفترون، فيتم نعمته وهو القادر على التمام؟ في الوقت الَّذي نجد حديثاً في فضائل عثمان يقول: «لَيدخلنَّ بشفاعة عثمان سبعون ألفاً - كلهم قد استوجبوا النار - الجنَّة بغير حساب»[٣].

فهل الخليفة أكرم عندالله من الرَّسول محمّد ﷺ ؟ أليس للرَّسول ﷺ من قيمة عند الله تساوي واحداً من سبعين ألفاً من الكرامة والقيمة التي للخليفة الثالث عند الله[٤]؟

بعد هذه الجولة السَّريعة في ثنايا هذا الحديث يتبيَّن لنا سقوطه وأنَّ الباعث على وضعه هو البغض والحقد لهذا الرجل العظيم والذي أسدى للرَّسول ﷺ الأيادي الجِسَام التي طوق بها عنق كل مسلم.

وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عمَّا يقوله الناس أنَّ أبا طالب في ضحضاح من نار، فقال عليه السلام: «لو وضع إيمان أبي طالب في كفَّة ميزان، وإيمان هذا الخلق في كفَّة أخرى لرجح إيمانه»[٥].

---

(١) البقرة: ١٦٢ .

(٢) أبوطالب مؤمن قريش: ٣٩٢ . وتراجع الآيات البقرة: ٨٦، الأنعام: ٧٠، النحل: ٨٥ .

(٣) الهيثمي - أحمد بن حجر، الصواعق المحرقة: ١٠٩، الحديث التاسع عشر في فضائل عثمان، ط. مكتبة القاهرة - مصر، (١٩٦٥م).

(٤) الخنيزي، أبو طالب مؤمن قريش: ٤٠٣ .

(٥) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٥ / ١١٢ .

٢ - الرواية الثانية: إرث عقيل لأبي طالب

ومن بين الروايات التي استدلَّ بها قولهم: بأنَّ علياً وجعفراً لم يأخذا من تَرِكَة أبيهما شيئاً لأنّهما مسلمان وأباهما كافر. . . ، فهما من ملَّتين مختلفتين وأهل ملَّتين لا يتوارثان !

جاء في طبقات ابن سعد: «إنّ أبا طالب توفي في عهد رسول الله ﷺ، فلم يرثه جعفر ولا عليّ وورثه طالب وعقيل، وذلك بأ نّه لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم»(١).

ويُردُّ على هذه الرِّواية: «أنها لا تنسجم مع أحكام الميراث عند المسلمين، مما يدل على أنها لم يضعها غير جاهل بشروط الميراث عند المسلمين، فكل مالديهم من العلم هو حديث «لا توارث بين ملَّتين» ونحن نقول بصحَّة الحديث؛ ولكن معناه أنَّ الكافر لا يرث المسلم، وليس مانعاً أن يرث المسلم كافراً؛ لأنَّ الإسلام يرفع المسلم، كما أشارت لذلك الأحاديث المتَّصلة بهذا الموضوع كقوله ﷺ: «الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه»(٢).

وقد ذهب فقهاء مذهب أهل البيت عليهم السلام إلى أنَّ المسلم يرث الكافر ولا يرث الكافر المسلم، بل قد رُوي عن عمر قوله: «أهل الشِّرك نرثهم ولا يرثونا، وقد حكم كثير من العلماء بأنَّ ميراث المرتدّ للمسلمين، وقالوا: «نرثهم ولا يرثونا»(٣).

فلو سلّمنا بهذه الرواية - وليس لنا أن نسلِّم بها بعد أن رأينا الأصل

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ٥٩ .

(٢) أبوطالب مؤمن قريش: ٣٧٦ .

(٣) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ٣٨ .

الإسلامي ينقضها - فما هي بدليل على كُفر شيخ الأبطح؛ إذ لعلي وجعفر «المسلمَين» اللَّذين لا يُشكُّ في إسلامهما أن يرثا أباهما حتَّى لو كان كافراً - كما يزعم المفترون - تمشَّياً مع الأصل والنصّ الإسلامي[١].

ومن هنا يتَّضح لنا أنَّ واضع هذه الرواية جاهل بالإسلام وقوانينه.

ونكتفي بهاتين الرِّوايتين والمناقشات التي أوردناها حولهما لنشير إلى بعض الآيات التي ادُّعي أنّها نزلت في أبي طالب.

٣ - الآية الأولى: «وهم ينهون عنه وينأون عنه»

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْءَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

فقد أخرج الطبري وغيره، عن طريق سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عمَّن سمع ابن عبَّاس أنّه قال: إنَّها نزلت في أبي طالب، ينهى عن أذى رسول الله ﷺ أن يؤذى - وينأى - أي يبتعد أن يدخل في الإسلام[٣].

المناقشة:

أوّلاً: هذه الرِّواية عندما نتأمَّل في رجال سندها نجد فيها سفيان الثوري، وقد كان يُدَلِّس عن الضُّعفاء، ويكتب عن الكذَّابين، ويروي عن الضعفاء، كما نصَّ على ذلك علماء الرِّجال في ترجمته، كذلك حبيب بن ثابت فهو لا يقلُّ درجة عن صاحبه، ثمَّ إنَّ الرِّواية مُرْسَلَة عن ابن عباس ولم يذكر الراوي الذي رواها عنه، والإرسال في الحديث من عيوب الرَّاوي والرِّواية كما نصَّ على ذلك

(١) أبوطالب مؤمن قريش: ٣٧٧.

(٢) الأنعام: ٢٦.

(٣) الغدير: ٨ / ١١، ط. مركز الغدير، تفسير الطبري: ٧ / ١١٠.

المؤلِّفون في عِلم دِرَاية الحديث من السُّنَّة والشِّيعة[١].

ثانياً: إنَّنا نجد هذه الآية لا تنطبق على أبي طالب بأيِّ وجه وذلك بالتأمُّل في الآية الَّتي سبقتها والآية الَّتي تلتها والتي تُشكِّل بسياقها وحدة غرض، ووحدة موضوع، حيث تتناول عرض عمل بعض المشركين والمصير الذي سيؤول إليه أمرهم، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، فضمائر الجمع ككلمة «هم»، وفاعل ينهون وينأون، كلّها ترجع إلى من ذكرهم الله في تلك الآية وهم المشركون الَّذين إن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها، ويجادلون الرَّسول في هذه الآيات ويصفونها من عنادهم بأنّها ليست سوى أساطير الأوَّلين ولا يقف عنادهم عند هذا وحسب بل يتجاوز إلى أنّهم ينهون الناس عن الاستماع للنَّبيﷺ، كما أنَّهم هم أنفسهم يبتعدون عنه.

وهذه الصفات كلّها لا تنطبق على أبي طالب الذي لم ينأ عن النَّبيﷺ طرفة عين، فمتى كان النأي؟ أفي نصرته وحياطته، والقرب منه، والتشجيع له، ولدِينه، والدفاع عنه، وعن اتِّباع دينه؟ فكيف تجتمع هذه الأعمال منه مع نأيه عنه؟

ثالثاً: إنَّ جملة من المفسِّرين قد فهموا من الآية عمومها لجميع الكفَّار، منهم الفخر الرازي في تفسيره، وابن كثير، والزمخشري في الكشاف، وغيرهم، وهذا هو المروي عن ابن عباس، وابن الحنفية، وقتادة، ومجاهد...[٣].

---

(١) سيرة المصطفى: ٢١٦. وانظر الغدير: ٨ / ١٢ - ١٨.

(٢) الأنعام: ٢٥ - ٢٧.

(٣) سيرة المصطفى: ٢١٦. وانظر: الغدير: ٨ / ١٢ وما بعدها.

الآية الثانية: آية النهي عن الاستغفار للمشركين

وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

هذه الآية من جملة الآيات التي تشبّث بها بعضهم لاثبات كفر أبي طالب؛ فقد روى نزولها في أبي طالب كلٌّ من البخاري، ومسلم في صحيحيهما، عن ابن اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه أنّه قال: لمَّا حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أميّة بن المغيرة، فقال: «أي عمّ، قل: لا إله إلاّ الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله»، فقال أبوجهل وعبد الله بن أبي أُمية ترغب عن ملَّة عبدالمطَّلب؟ فلم يزل الرَّسول ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتَّى قال أبوطالب آخر شيء كلَّمهم به: على ملَّة عبدالمطَّلب؟ وأبى أن يقول لا إله إلاَّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لاستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنه»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وأُنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(٢).

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم: «انَّ أبا طالب قال: لولا أن تعيِّرني قريش يقولون: إنَّما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك»(٣).

المناقشة:

قبل الدخول في تأويل هاتين الآيتين الكريمتين، وتحريفهما من قِبَل القوم عمَّا أنزل الله إلى جهة أخرى، وهي النَّيل من أبي طالب، نشير إلى الرِّوايات

---

(١) التوبة: ١١٣ .

(٢) القصص: ٥٦ .

(٣) البخاري: ٤/٢٩٨ - ٢٩٩، حديث رقم ٣٨٨٤، وصحيح مسلم بشرح النووي: ١/٢١٣، ٢١٥ - ٢١٦ .

المرويَّة من قِبَل القوم في تفسيرها، ولا نريد أن نبحث كثيراً في سند هذه الروايات وغيرها من الروايات الَّتي تتَّفق معها من حيث المضمون، ويكفينا أن نُلقي نظرة عابرة على سندها لنجد فيها المجهول والوضَّاع والكذوب والضَّعيف والرَّاوي للمناكير، وَنلتقي كذلك بالزهري الذي يروي حديثاً أن علياً والعباس من أهل النار وأنهما يموتان على غير ملَّة الرَّسول[١].

فما عسانا ننتظر منه أن يقول عن أبي طالب غير ما قال، بعد أن قال في عليٍّ مثل هذا القول النابي، والتَّهمة الفاحشة، أليس يكفي أن يكون أبوطالب أباً لعلي ليقول فيه أشدَّ ممَّا قال[٢]؟

وهكذا الكلام في ابن المسيب الذي سلكه ابن أبي الحديد في عِداد المنحرفين عن عليٍّ والمبغضين له، هذا بالإضافة إلى أنَّ هذه الروايات مقطوعة السَّند.

لكن نلفت الانتباه إلى النقاط التالية:

أوّلاً: إنَّ آية النَّهي عن الاستغفار للمشركين قد وردت في سورة براءة وهي آخر ما نزل من القرآن في المدينة بعد فتح مكَّة[٣]، فبين وفاة أبي طالب ونزول هذه الآية أكثر من عشر سنوات، فهل من المعقول أن تكون هذه الآية قد بقيت أكثر من عشر سنوات منفردة والقرآن ينزل حتَّى نزلت سورة براءة فأضيفت إليها؟

وكيف بقي النَّبيﷺ يستغفر لأبي طالب طيلة هذه المدَّة ويترحَّم عليه مع أنَّ ذلك من أوضح مصاديق المودَّة للكافر؟

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٥٨ .

(٢) أبوطالب مؤمن قريش: ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) الشوكاني، فتح القدير : ١ / ٣٣١ .

هذا بالإضافة إلى نزول آيات زاجرة تنهى النَّبيﷺ والمؤمنين أن يوادُّوا المشركين، أو يستغفروا لهم، أو يوالوا أعداء الله قبل نزول هذه الآية بأمد طويل؟

يقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾[١]، فهذه الآية من سورة المجادلة نزلت في المدينة، وعلى جميع أقوال المفسِّرين في تأريخ نزولها فإنَّها بلا شكٍّ قد نزلت قبل براءة بسنين عديدة.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وسورة النساء كان نزولها قبل سورة براءة - وهي ذات آية الاستغفار - بإحدى وعشرين سورة كما نصّ على ذلك السيوطي في الإتقان[٣].

ويقول تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقد ذكروا أنَّ هذه الآية نزلت يوم الأحزاب وهو العام الخامس للهجرة، وأنَّ سورة آل عمران قد نزلت قبل سورة براءة بأربع وعشرين سورة[٥].

إلى غير ذلك من الآيات الناهية عن موالاة المشركين، والاستغفار لهم، والمودَّة لهم مَمّا لا مجال لتتبُّعها.

فهل يجوز من الرَّسول ﷺ أن يستغفر لعمِّه - لو كان مشركاً - ولديه وفرة من الآيات وكلّها ناهية زاجرة، فلا يأبه لها، ولا يمتنع عمَّا تنهاه، ولا يُقلِع عن

(١) المجادلة: ٢٢ .

(٢) النساء: ١٤٤ .

(٣) السيوطي - جلال الدين عبدالرحمن، الإتقان في علوم القرآن: ١ / ١٢، ط. أوفسيت الشريف الرضي - قم.

(٤) آل عمران: ٢٨ .

(٥) المصدر نفسه: ١ / ١٧ .

عمله إلاً عندما همس الوحي إليه بهذه الآية من سورة التوبة؟ وهل يجوز لنا نحن المسلمين أن ننسب للرّسولﷺ عملاً ينهاه عنه الذي أرسله بالحقّ؟

ثانياً: قال تعالى في سورة المنافقين، الَّتي نزلت في غزوة بني المُصطلق سنة ست على ما هو مشهور، ونزلت قبل سورة براءة على كلِّ حال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾[١]، فإذا كان النَّبيﷺ يعرف أنّ الله لن يغفر لهم سواء استغفر لهم أم لا، فلماذا يُتعب نفسه في أمر لا نتيجة له؟ فإنَّ ذلك أمر لا يقرُّه العقلُ والعُقلاء كما هو واضح[٢].

ثالثاً: ثمّ إنّ في قبال هذه الروايات التي تتحدث عن أسباب نزول آية استغفار النبيﷺ توجد روايات وأقوال تنقض هذه الأحاديث التي أتينا عليها في وجه نزول الآية الكريمة وليس لنا إلاَّ أن نوقف القارىء الكريم على جانب منها:

عن الإمام عليعليه السلام قال: «سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أوَلَم يستغفر إبراهيم؟ فذكرت ذلك للنَّبيﷺفنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن . . .﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[٣]، وهذا يدلّنا على أنَّ النَّهي عن الاستغفار للمشركين معروف بين المسلمين، ولولا ذلك لَمَا كان الإمام بالَّذي يعترض على هذا المُستغفِر لأبويه؛ إذ ليس له أن يستنكر منه عملاً لم يعرف فيه النهي، واستنكار عليٍّعليه السلام لهذا المُستغفِر لا يتَّفق واستغفار الرّسولﷺ لعمّه مع الزّعم بشركه!

ولو كان كذلك لوجدنا جواب الرجل لعليٍّ غير هذا الجواب، ولكنَّا نراه

(١) المنافقون: ٦ .

(٢) الصَّحيح من سيَّرة النبي: ٤ / ٤٥ - ٤٦ .

(٣) التوبة: ١١٣ - ١١٤ .

يحتجُّ على عليٍّ عليه السلام باستغفار الرَّسول لعمّه تبريراً لعمله، ولكنّه احتجَّ عليه باستغفار إبراهيم لأبيه، فنزلت الآية لتوضيح الغاية من استغفار إبراهيم له.

على أنَّ استغفار إبراهيم لأبيه وهو على قيد الحياة يرجو منه الهداية والإيمان، أمَّا استغفار الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم لعمِّه فهذا ما لا يجوز بحال لو لم يكن أبوطالب مؤمناً؛ لأنَّ الاستغفار والدعاء - بعد الموت - دليل على الإيمان وليس فيه ما يحمل على طلب الهداية والتوجيه نحو الإقرار بالرِّسالة.

رابعاً: أَمَّا آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، فهنالك من وضع الأحاديث، وخصّها بهذه الآية؛ ففي رواية السيوطي في الدُّر المنثور عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية في أبي طالب ألحَّ عليه النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُسلم فأبى فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1].

فمع غضِّ النظر عن حال سند هذه الرِّواية، فإنَّها تتعارض مع أقوال قِيلتْ في سبب نزول هذه الآية، فقيل في سبب نزولها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضُرِبَ بحربة في خدِّه في يوم أحد فسقط إلى الأرض وقد انكسرت رباعيَّته والدَّم يسيل على وجهه فمسح وجهه ثمَّ قال: اللّهمَّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون، فأنزل الله الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وقيل إنَّها نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبدمناف، وقد كانت عند الرَّسول رغبة في إسلامه، بل ادُّعي الإجماع على ذلك.

وهنالك أقوال أخرى قِيلتْ في سبب نزولها، فمن أين حُرِّفت لأبي طالب[2]؟

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: ٦ / ٣٨١.

(٢) أبو طالب مؤمن قريش: ٣٦٧ - ٣٦٩.

هذا باختصار ما يمكن مناقشته للشُّبهات الَّتي قيلت في إيمان أبي طالب، وإنّنا وإن أطلنا بعض الشَّيء في ردّ هذه الشُّبهات إلاّ أنَّ ذلك مُنبثِق من موالاتنا لرسول الله ﷺ وأهل بيته الطَّاهرين؛ إذ تتصادم هذه الأقوال والشُّبهات مع القرآن الكريم الذي أثبت لنا طهارة نسب النبي ﷺ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1] وطهارة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]، كما أنَّها تَنالُ من قدسيَّة الرَّسول ﷺ[3].

٥ – سرّية إيمان أبي طالب وضرورة ذلك

واجهت الدعوة الإسلاميَّة في سنيٍّ عمرها موجة عارمة من المجابهة بالرَّفض والتحدِّي، سواء في مكَّة أو في المدينة، وذلك من قِبَل عُتاة قريش، وكان غرضهم من ذلك المحافظة على الموروث الاجتماعي من تأثير مفاهيم الإسلام وحَمَلَتِهِ على التغيير، ولمواجهة التَّيار الانقلابي الجديد الذي انبثق في الوسط الاجتماعي.

ولو لم يتسلَّح القيّمون على الرَّسالة بالحِكمة، وبُعد النَّظر، وقوَّة الإرادة، والصَّبر على الأذى، فمن الصعب أن يُكتَب لهم النجاحَ في مهمَّتهم، ومن أولى مقتضيات الحِكْمة أن يبقى العمل التغييري وعلاقاته وأفراده ومهمَّاته وخُططه وكل ما تفرض المصلحة كتمانه، في منأى عن معرفة الخصوم، وإلاَّ سهُل القضاء على المحاولة في مهدها.

وقد حرص الأنبياء توسُّلاً لبلوغ أهدافهم على إحاطة كثير من مخطَّطاتهم

(١) الشعراء: ٢١٩ .

(٢) الأحزاب: ٣٣ .

(٣) للتوسع في بيان هذه الشبهات والردّ عليها انظر: الغدير للأميني: ٧/ ٤٤٤ – ٥٥٠ و ٨/ ١١– ٣٧ .

وتحرُّكاتهم بالكتمان وغالباً ما أدّى إخلال إتباعهم بحفظ الأسرار إلى إعاقة مسيرتهم بل واستشهادهم.

رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1] «والله ما قتلوهم بأيديهم، ولا ضربوهم بأسيافهم، ولكنَّهم سمعوا أحاديثهم فأَذاعوها، فأخذوا عليها فقتلوا»[2].

وبقي نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله يُمارس دعوته طيلة السنوات الثلاث الأولى في إطار من السرِّية الكاملة، وهكذا في المراحل الأخرى وبدرجات متفاوته، وذلك لضرورة توفير المناخ المناسب لنموِّ الإسلام وانتشاره في وسط الأُمَّة دون أن يُمكَّن أعداء الإسلام والمتربِّصين له مع وفرتهم وقسوة أساليب قمعهم وتضييقهم، من شلِّ قُدرة حَمَلة الإسلام وإبادتهم.

ونحن إذا تتبَّعنا مواقف أبي طالب خلال مسيرة الدعوة المباركة في سنيِّ عمرها الأولى نجد أنّه كان بادىء الأمر يكتم إيمانه تماماً، مثله مثل مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه لظروف موضوعيَّة استوجبت الكتمان، والظاهر أنّه قد استمرَّ يظهر إيمانه تارة ويخفيه أخرى إلى أن حُوصر مع بني هاشم في الشِّعب، فصار يُكثِر من إظهار إيمانه بالقول تارةً، وبالمواقف العمليَّة تارة أخرى.

وعندما نتأمَّل في الرِّوايات المعلِّلة للأسباب الَّتي دفعت أباطالب إلى كتمان إيمانه تتَّضح لنا ضرورة ذلك في تلك المرحلة الحرجة وذلك المضيق الذي كانت تمرُّ به دعوة الإسلام المباركة.

ففي رواية عن الشعبي يرفعه عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

---

(١) البقرة: ٦١ .

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ٧٥ / ٨٦ .

«كان والله أبوطالب بن عبدمناف بن عبدالمطَّلب مؤمناً مسلماً يكتم إيمانه مخافةً على بني هاشم أن تنابذهم قريش»[١].

فقد كان أبوطالب شخصيَّة قويَّة وذا مركز اجتماعي مرموق، فهو السيِّد الأوّل في قومه والزعيم المهاب، والرئيس المطاع، ويمتلك الخصائص النفسيَّة القياديَّة والتي أهَّلته لفرض زعامته لا ينازعه في ذلك أحد، وقد أحاط رسول الله ﷺ بحمايته وكفالته، ومنع عنه سفهاء قريش وعتاتهم، مستفيداً من مركزه الاجتماعي هذا، ولكنَّه لم يجهر بإيمانه لاعتبارات تقتضيها الحكمة، وتدعو إليها الظروف السِّياسيَّة آنذاك، فإنَّه لو جهر بإيمانه في بدء البعثة وفَجْر الدعوة لانقلبت عليه قريش بجملتها وأسقطته من حالق مجده، وحينئذ يعجز عن ردِّ الأذى عن ابن أخيه وهو لا يزال ضعيفاً، وهذا الذي جعله يكتم ما في نفسه من الإيمان، وظاهر أعماله وقصائده وخُطَبه تظهره بأجلى بيان؛ إذ رأيناه يدافع عن المصطفى ﷺ بنفوذه وجاهه، ويمدحه بقصائده وخُطَبه حتَّى آخر لحظة من حياته[٢].

ولهذا رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «ما زالت قريش كاعّين - أي جبناء - حتَّى مات عمِّي أبوطالب»[٣].

وهذا الإمام العسكري عليه السلام يقول في حديث يسنده لآبائه الأطهار: «إنَّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى رسوله أنّي قد أيّدتك بشيعتين، شيعة تنصرك سرّاً، وشيعة تنصرك علانية؛ فأمَّا الَّتي تنصرك سرّاً فسيِّدهم وأفضلهم عمّك أبوطالب، وأمَّا التي تنصرك علانية فسيِّدهم وأفضلهم ابنه علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ

---

(١) الغدير: ٧ / ٥٢٢.

(٢) أبو طالب مؤمن قريش: ٢٧٥.

(٣) الغدير: ٧ / ٥٠٦.

قال: وإنَّ أباطالب كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه»[١].

يقول: إنَّ الله نصر الرَّسول بشيعتين، وإنَّ أحدهما لا تقوم بالمهمَّة إلاَّ في الخفاء ما دام الجهر يتعذَّر عليها، ولا تستطيع القيام بها إلاّ في السرِّ لأمور تحتِّم ذلك كنصرة أبي طالب الفعَّالة وكانت في السرِّ ما دام يكتم إيمانه فإنَّ النُّصرة لم تكن لتتأتَّى له لولا هذا الكتمان، وإنَّ مَثَله كَمَثَل مؤمن آل فرعون الذي نقرأ قصَّته فيما نتلوه من القرآن العظيم[٢] فإنَّه لولا كتمانه الإيمان لكان قد نفذت الفراعنة ما التزمته من قتل كليم الله موسى، ولكنَّه وقف موقفه الفعَّال ذاك وقومه لا يعرفون عنه مؤمناً وإنَّما يظنُّونه مثلهم ولم يُلقِ إليهم بهذه النصائح إلاّ لأنّه متَّفق معهم على المبدأ، وكذلك كان موقف أبي طالب من دعوة الرَّسول ﷺ وإلى هذا يُشير الإمام فيما قصَّه من حديث أسنده عن آبائه الأطهار إلى جدِّه الرَّسول ﷺ.

كذلك مَثَل أبي طالب كَمَثَل أصحاب الكهف أسرُّوا الإيمان وأظهروا الشِّرك، فآتاهم الله أجرهم مرَّتين كما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام[٣].

٦ - سبب الافتراء على أبي طالب

بعد تلك الأدلَّة الواضحة على إيمان أبي طالب نتساءل عن سبب الافتراء على هذا الرجل العظيم؟

وهو تساؤل منطقي، فأقوال أبي طالب تشهد له بالإيمان، ويتبعها ذلك العمل الصَّالح، والجهاد في الله حقَّ جهاده، ويتبع هذا وذلك سيل من شهادات

(١) الغدير: ٧ / ٥٣٢ نقلا عن كتاب: الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب.

(٢) غافر: الآيات ٢٨ - ٣٩ - ٤٦ .

(٣) أبوطالب مؤمن قريش: ٢٦٦ - ٢٦٧، وانظر: أمالي الشيخ الصدوق: ٣٦٦، وروضة الواعظين: ١ / ١٤٠ .

الرَّسولﷺ والأئمّة من آل محمّد عليهم السلام وشهادة كبار علماء الإسلام وتأليفاتهم في هذا الموضوع، حتَّى أنَّ بعض علماء الحنفية قال: إنَّ بغض أبي طالب كفر، و من أبغض أباطالب فهو كافر؛ لأنَّ في ذكر أبي طالب بمكروه أذيَّة للنَّبيِّﷺ ومؤذي النَّبيﷺ كافر والكافر يُقتل[١].

بعد هذا كلّه يأتي من يقول بكُفره، فلا بدَّ أن يكون هنالك سبب لذلك!

والذي نعتقده ومن خلال مجريات أحداث التاريخ أن سبب الافتراء على أبي طالب والإصرار على القول بكفره قد خلقتها يد السياسة الأموية للنيل من علي عليه السلام، وسُخر لهذا الأمر مجموعة من الرواة والمحدثين الذين لم يكونوا يتورعون في وضع الأحاديث في مقابل أحاديث فضائل علي عليه السلام.

ولا نريد أن نتوسع كثيراً في هذا الحديث بعد أن كفانا مؤنة الحديث عنه بعض المحققين[٢].

---

(١) أبوطالب مؤمن قريش: ٤١٥ - ٤١٦. وانظر: الغدير: ٧ / ٥١٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢٢.

الأسئلة:

١ - حاول البعض أن ينال من شخصية أبي طالب من خلال طرح بعض الشبهات حول إسلامه وإيمانه بالرسالة والرسولﷺ واستدلّ على ذلك بحديث «الضّحضاح» المروي في كتبهم كيف يمكن لنا مناقشة هذا الحديث سنداً ودلالة؟

٢ - هل يمكن الاستدلال بالآية القرآنية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لإثبات عدم إيمان أبي طالب وذلك من خلال الاستناد إلى بعض الروايات التي تتحدّث عن أسباب نزول الآية المباركة ؟ وأين يكمن الوهن في هذا الاستدلال ؟

٣ - ما هي الأسباب والضرورات التي دعت أبا طالب إلى كتمان إيمانه ؟

٤ - ما هي أسباب الافتراء والكذب ونسبة الكُفر إلى أبي طالب، بعد كل تلك الأدلّة الواضحة الدالّة على إيمانه العميق ؟

الدرس الحادي والعشرون

أحداث سبقت الهجرة

«القسم الأوّل»

الإسراء والمعراج

محاور البحث:

١ - معنى الإسراء والمعراج
٢ - الإسراء والمعراج في القرآن
٣ - زمان و مكان الإسراء والمعراج
٤ - الإسراء والمعراج في اليقظة أم في المنام؟ بالروح أم بالجسد؟
٥ - التَّشكيك في الإسراء والمعراج
٦ - من أهداف الإسراء والمعراج
● الأسئلة

الإسراء والمعراج

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[2].

١ - معنى الإسراء والمعراج

الإسراء: الإسراء والسُّرَى: «هو السَّير باللَّيل، يُقال: سرى، وأسرى، أي سار ليلاً، وسرى وأُسري به أي سار به ليلاً، والسَّير يختصُّ بالنَّهار أو يعمّه واللَّيل». هذا ما يمكن استفادته من معنى الإسراءِ لغةً.

أمّا معناه عند المؤرِّخين والمفسِّرين فهو: السَّير بالنبّي محمّد ﷺ ليلاً من مكَّة إلى بيت المقدس، وبسرعة فائقة عظيمة خارجة على حدود المألوف عند الناس.

والمِعْرَاج: «هو ذهابٌ في صُعُود يقال: و عَرجَ عُرُوجاً وعرجاناً: أي

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) النجم: ١٢ - ١٨.

ذهب في صُعُود» هكذا نص أهل اللّغة[١].

والمُراد به اصطلاحاً: هو الصُّعود برسول الله محمّدﷺ إلى السماوات العُلى، وبلوغ المكان الذي لا يمكن أن يبلغه أحد من البشر إلاّ بإذن الله[٢].

٢ - الإسراء والمعراج في القرآن الكريم

الإسراء والمعراج حدثان لا يزال المسلمون في أخذ وردٍّ فيهما، وهذا الأخذ والردّ ليس في وقوعهما وعدمهما، إذ إنَّ المسلمين متّفقون على ذلك وليس لأحد منهم أن ينفي أو يشكك في وقوعهما بعد أن نصَّ القرآن على ذلك، وإنَّما وقع الخلاف في زمان ومكان وقعوهما، وكذلك في كيفيَّة إسراء النَّبيﷺ إلى المسجد الأقصى وهل هو بالرُّوح فقط أم أنّه بالروح والجسد، أو بالتفصيل، وهذا ما يأتي بيانه في هذا البحث.

أمَّا بالنسبة إلى الإسراء فنحن نؤمن بوقوعه استناداً إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ والذي بيّنته هذه الآية هو الإسراء فقط.

وأمَّا المعراج فإنّه وإن لم يذكر في القرآن صراحة إلاّ ما جاء في تفسير آيات سورة النَّجم في قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[٣].

إذا قلنا إنَّ الضمير فيها يرجع إلى النَّبيﷺ لا إلى - ذي مرّة - الذي هو

(١) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادَّة: سرى وعَرجَ، وانظر: المعجم الوسيط.

(٢) الموسوي - السيِّد هاشم، سيرة محمّد رسول الله: ٥١، ط. إيران.

(٣) النجم: ٦ - ١١ .

جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في الروايات المفسرة للآية[١]. ويدل على ذلك أيضاً ويفسّره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[٢].

إلاّ أنّ كثرة الأخبار الواردة في شأن عروج النّبيﷺ وتواترها القطعي، لايُبقي مجالاً للشَّك في حصول المعراج، فنحن نؤمن به أيضاً استناداً إلى ذلك.

ولكن قد يقال بوجود تعارض بين آية سورة الإسراء، وبين الرِّوايات الدالَّة على المعراج، على اعتبار أنَّ الآية تدلُّ على انتهاء السَّير كان بالمسجد الأقصى ولم يكن بعده سير، وروايات المعراج تدلُّ على أنّه عُرِجَ به من هناك إلى السماء. إلاَّ أنَّ القول بالتَّعارض غير صحيح؛ لأنَّ هنالك في الحقيقة رحلتين مختلفين من حيث الكيفيَّة والقصد، وكان انتهاء الرحلة الأولى بالمسجد الأقصى، ولم يتعلَّق غرض في الآية ببيان المرحلة الثانية أصلاً وإنَّما أشار إليها القرآن في آيات سورة النَّجم[٣].

٣ - زمان ومكان الإسراء والمعراج

كان من المناسب جدّاً لمثل هذه المعجزة العجيبة أن تُضبط بدقَّة ومن جميع جهاتها، إلاَّ أنّنا نجد أنَّ الخلاف قد وقع فيها من جهات متعدِّدة، وواحدة من جهات الاختلاف هذه، الاختلاف في تاريخ وقوعهما؛ فلقد اختلف المؤرِّخون والمحدِّثون في هذا على أقوال متعدِّدة منها:

١ - نصّ ابن إسحاق على أنّها وقعت في السنة العاشرة من البعثة[٤].

---

(١) انظر: السيوطي، الدر المنثور: ٧ / ٥٦٧.

(٢) التكوير: ٢٣.

(٣) السُّبحاني - الشيخ جعفر، سيرة سيِّد المرسلين: ١/ ٥٤٠، والصَّحيح من سيرة النبي: ٣/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٤) سيرة بن إسحاق: ٢٩٧، تحقيق الدكتور: سهيل زكار.

٢ – ونصّ البيهقي على أنّها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة[١].

٣ – وذهب بعضهم – من أجل الجمع بين هذه الأقوال – إلى تعدُّد وقوع هذه الحادثة[٢].

٤ – ورجح الشيخ جعفر السبحاني في كتابه قول ابن اسحاق الذي ينصُّ على وقوع هذه الحادثة في السنة العاشرة من بعثته، مستدلاً على ذلك بما ورد في الرِّوايات من كون تشريع الصلاة حصل في هذه الرحلة[٣].

٥ – وذهب السيِّد جعفر مرتضى إلى وقوع هذه الحادثة في السنة الثالثة من المبعث الشريف، وفي المرحلة السرية، واستدل على ذلك بجملة من الروايات والأدلة[٤].

وهنالك أقوال أخرى مضطربة في تأريخ وقوع هذه الحادثة استقصاها الحافظ مغلطاي في كتابه[٥].

أمَّا بالنِّسبة إلى المكان الذي تمَّ منه الإسراء فإنَّ صريح القرآن يقول: إنَّ الإسراء كان من المسجد الحرام، في حين أنَّ أكثر الروايات تنصُّ على أنّه كان ليلة الإسراء في بيت «أمِّ هاني»، فقد جاء في كتب السِّيرة أنَّ أمَّ هاني بنت أبي طالب كانت تقول: ما أُسري برسول الله ﷺ إلاّ وهو في بيتي، نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلّى العشاء الآخرة ثمَّ نام ونمنا، فلمَّا كان قُبُيلَ الفجر أهبَّنا فلمّا

---

(١) البيهقي – أحمد بن الحسن، دلائل النبوة: ٢ / ٢٥٤ .

(٢) سيِّد المرسلين: ١ / ٥٤١ .

(٣) المرجع نفسه: ١ / ٥٤١ .

(٤) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ٩٣ – ٩٤ وما بعدها.

(٥) مغلطاي بن قليج، الاشارة إلى سيرة المصطفى: ١٣٥ وما بعدها، تحقيق: محمد نظام الدين، طبعة دار العلم – دمشق، والدار الشامية – بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م).

صلّى الصُّبح وصلَّينا معه قال يا أمَّ هاني: لقد صلَّيت معكم العشاء الآخرة ثمَّ جئت إلى بيت المقدس فصلَّيت فيه[١].

وهنالك قول ثالث ينصّ على أنّه أُسري به من شعب أبي طالب.

وقد رجَّح السيِّد الطباطبائي[٢] أن يكون الإسراء حصل مرَّتين، فيكون أحد الإسراءين من المسجد الحرام والآخر من بيت أمِّ هاني، وقد استفاد السيِّد هذا المعنى من الرِّوايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

إلاَّ أنَّه يحتمل التجوز في استعمال لفظة المسجد حيث أريد من المسجد الحرام - مكَّة - وهو إطلاق متعارف قال تعالى: «هَدْياً بَالِغَ الكعبة» فإنّ من المُتعارف أن يُطلق على المكان الذي فيه شيء معروف اسم ذلك الشيء[٣].

٤ - الإسراء والمعراج في اليقظة أم في المنام؟ بالروح أم بالجسد؟

ووقع الخلاف أيضاً في كيفيَّة إسراء النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد الأقصى، وعروجه من هناك إلى السَّماء، وفي ذلك أربعة آراء:

الرأي الأوّل: أنَّ الإسراء والمعراج كانا بروح النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم دون جسده، ويستند الذين يقولون بهذا الرأي إلى حديث أمِّ هاني، وإلى ما كانت تقوله عائشة: «ما فُقد جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن الله أسرى بروحه».

ولكن هذا الرأي باطل؛ لأنَّه يُردّ عليه بما يلي:

أوّلاً: ما أورده القسطلاني بقوله: وأجيب: «بأنَّ عائشة لم تحدِّث بهذا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٤٣.

(٢) الطباطبائي - السيِّد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٣١، ط. الأعلمي - بيروت.

(٣) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٠٢.

الحديث مشاهدة؛ لأنّها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سنٍّ من يضبط، أو لم تكن قد وُلِدَت بعد، على الخلاف في الإسراء متى كان»(١).

ثانياً: إنَّ ظاهر آية سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وكذلك آيات سورة النجم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ والنصوص الَّتي تعرَّضت لذلك، كل هذه يستفاد منها أنَّه كان بالجسد لا بالروح وحدها، وذلك لأنّ كلمة - عبده - الَّتي وردت في الآيتين تعني بظاهرها الإنسان بروحه وجسده، وجميع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أريد منها الإنسان بمادَّته وصورته(٢).

ثالثاً: على أنَّ الإسراء والمعراج بالروح فقط ليس فيه ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، ذلك لأنّه بمعنى إشراق الرُّوح في حالة النوم على غير عَالَمها، وهذا ليس بإعجاز فريد من نوعه ليُخبِر به على أنّه آية من آيات نبوَّته، لجواز أن يحدث ذلك مع كلِّ إنسان.

والذي يؤسَف له هو أن يتبنَّى هذا الرأي بعض الكُتَّاب المصريِّين من أمثال فريد وجدي في دائرة المعارف ومحمَّد حسين هيكل في حياة محمَّدﷺ(٣).

الرأي الثاني: انَّ الإسراء والمعراج مجرَّد رؤيا صالحة رآها النَّبيﷺ في المنام، وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سُئل عن مَسْرى رسول اللهﷺ قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقةً(٤)، وهم يشهدون إلى جانب ذلك كله بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٥).

---

(١) القسطلاني، المواقف اللدنية: ٢ / ٢ .

(٢) الصحيح من السيرة: ٣ / ١٠٢ وما بعدها.

(٣) وجدي - فريد: دائرة معارف القرن العشرين: ٧ / ٣٢٩ مادَّة: عَرَجَ. وانظر: حياة محمد: محمّد حسين هيكل: ١٩٦ .

(٤) السيرة النبوية: ٢ / ٤١ .

(٥) الإسراء: ٦٠ .

وهذا الرأي لا يختلف عن الرأي الأول الذي تبنته السيدة عائشة، ولهذا جمع ابن إسحاق بين الرأيين بقوله: «فلم ينكر ذلك من قولهما، لقول الحسن - ابن أبي الحسن البصري - إنّ هذه الآية نزلت في ذلك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ولقوله تعالى في الخبر عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال لابنه: (يا بُنَيَّ إِنِّي أرى فِي الْمَنام أَنِّي أَذْبَحُكَ) ثمّ مضى على ذلك، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً»(١).

والذي يبدو أن ابن إسحاق يتبنى نفس الرأي ولهذا نجده يدافع عنه ويعززه بالآيات القرآنية.

إلاّ أنّ هذا الرأي كسابقه في البطلان أيضاً؛ لأ نّه يردُّ عليه:

أوّلاً: إن معاوية بن أبي سفيان حاله معلوم لمن تتبّع أقواله وأفعاله، فهو لم يكن قد دخل الإسلام بَعد! ومهما اختلف المؤرخون في تاريخ الاسراء والمعراج إلاّ أنهم لا يختلفون في وقوعها في العهد المكي، في الوقت الذي كان فيه معاوية مشركاً.

ثانياً: إنَّها لو كانت مجرَّد رؤيا رآها النَّبيﷺ في المنام فلا يبقى فيها إعجاز، ولَمَا أحدث ردَّة الفعل العنيفة لدى قريش، ولَما ارتدَّ أُناس ممَّن كان أسلم؛ لأنَّ كل الذي حدث ليس إلاَّ مجرد رؤيا، وكل الأمور المحالة، وغير الممكنة، والمُستبعَدة ممكن للإنسان أن يشاهدها في عالم الرؤيا.

ثالثاً: إنَّ الرؤيا التي رآها النَّبيﷺ بحسب بعض الروايات التفسيرية للآية المباركة لا صلة لها بالمقام؛ فقد رأىﷺ في نومه أنَّ بني أميَّة ينزون على منبره

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٤١ .

نَزوَ القردة فساءَهُ ذلك فأنزل الله عليه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ﴾[١]، ورواه عمر بن الخطَّاب عن النَّبيﷺ، وجاء في حديث عمر بن الخطَّاب أنّه قال: والله لقد سمعتُ رسول الله يقول: لَيصعدنَّ بنو أميَّة منبري ولقد رأيتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة وفيهم أنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

ولمحمد بن جرير الطبري تحقيق شيق في تفسير الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ قال: اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هو رؤيا عين، وهي ما رأى النبيﷺ لما أُسري به من مكة إلى بيت المقدس.. عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ الآية، قال: هي رؤيا عين أُريها رسول اللهﷺ ليلة أُسري به، وليست برؤيا منام» ثمّ ينقل روايات كثيرة تعزز هذا الرأي.

ثـمّ يقـول: «وقـال آخرون: هي رؤيـاه التي رأى أنه يـدخـل مكـة.. وقـال آخرون ممن قال: هي رؤيا منام: إنما كان رسول اللهﷺ رأى في منامه قوماً يعلون منبره».

ثمّ يرجح القول الأول فيقول: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عني به رؤيا رسول اللهﷺ من الآيات والعبر في طريقه إليه بيت المقدس، وبيت المقدس ليلة أُسري به.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لاجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك وإياه عنى الله عزّ وجل بها..»[٢].

وما ذكره الطبري يفند ما قاله أصحاب هذا الرأي من أن الإسراء والمعراج مجرد رؤيا صالحة رآها النبيﷺ في منامه. إلاّ أن ما رجحه من قول في المسألة

---

(١) انظر السيوطي، الدر المنثور: ٥ / ٢٧١، وسيرة المصطفى: ٢٣٩ .

(٢) الطبري – محمد بن جرير، تفسير الطبري: ١٥ / ١٢٧ وما بعدها.

مستنداً فيه إلى الاجماع.. محل تأمل، فمن أين حصل هذا الاجماع مع وجود هذه الآراء المختلفة حول القضية؟ ثمّ إنّ الروايات المفسرة للآية والتي تنص على أن رسول الله ﷺ رأى في المنام أن بني أُمية يعلون منبره.. فساءه ذلك، فأنزل الله الآية، مروية عن كبار الصحابة، وبالدرجة الأُولى مروية عن أهل البيت عليهم السلام وخاصة الإمام علي والإمام الحسين عليه السلام، فلماذا نرجح قول غيرهم عليهم.

الرأي الثالث: إنَّ الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالجسد، والمعراج من المسجد الأقصى إلى السماء بالروح:

واستدلَّ أصحاب هذا القول على ما ذكره رسول الله ﷺ ممَّا شاهده في بداية رحلته أثناء مسراه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فبعد أن أخبر رسول الله ﷺ الناس برحلته هذه: «عجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمّد؟ فإنَّا لم نسمع بمثل هذا قطُّ، قال: آية ذلك أنِّي مررت بِعِير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرهم حسّ الدابّة، فندَّلهم بعيرٌ فدللتهم عليه وأنا موجِّه إلى الشام»[١].

ويستبعد أصحاب هذا الرأي أن يكون المعراج بالجسد، ويذهبون إلى أنّه معراج روحي، «والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبُّر في مخلوقات الله ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحقِّ والتفكُّر فيه، وبالتالي التخلُّص من القيود والأغلال المادِّية والعلائق الدنيويَّة، والعبور من المراتب الإِمكانيَّة إلى المراحل الباطنيَّة والقلبية الَّتي يحصل بعد طيّها نوع من القُرب الخاص الذي لا يمكن وصفه.

فإذا كان المراد من المعراج الروحي هو التفكُّر في عظمة الحقِّ و...، فلا شكَّ أنَّ هذا ليس من مختصَّات رسول الإسلام ﷺ، بل كان الأنبياء، وكثير من

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٤٤.

الأولياء من ذوي البصائر القويَّة الطَّاهرة يمتلكون هذه المرتبة، على حين أن القرآن الكريم يعتبر المعراج من خصائص رسول الله ﷺ ويذكر على أنَّه نوع من الامتياز الخاص به ﷺ.

إنَّ ما دفع بهذا الفريق إلى اتِّخاذ مثل هذا الموقف من المعراج، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف (بطليموس) التي كانت سائدة في الأوساط العلميَّة في الشَّرق والغرب طيلة ألف سنة بالكامل، والتي أُلِّف حولها مئات الكُتب، وكانت تعدُّ حتَّى حين من المسلَّمات في مجال العلوم الطبيعيَّة، وهي على نحو الإجمال كالتالي:

إنّ الأجسام في هذا العَالَم على نوعين: أجسام عنصريَّة، وأجسام فلكيَّة، والأجسام العنصرية هي العناصر الأربعة المعروفة: «الماء، والتراب، والهواء، والنار».

وأوّل كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركز العَالَم، ثمَّ تليها كرة الماء، ثمَّ كرة الهواء وتأتي بعد كل هذه الثلاث كرة النار، وكل من هذه الكرات محيطة بالأخرى، وهنا (أي وعند كرة النار) تنتهي الكرات، وتبدأ الأجسام الفلكيَّة. والمقصود من الأجسام الفلكيَّة هي الأفلاك التِّسعة التي تقع الواحدة فوق الأخرى وتحيط الواحدة بالأخرى على هيئة قشور البصل، وهي متَّصلة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاختراق والالتئام والفصل والوصل، ولا يستطيع أيّ شيء من اختراقها، والتحرُّك فيها بصورة مستقلَّة؛ لأنَّ ذلك يستلزم انفصام أجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النَّبي ﷺ من مركز العَالَم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عَابِراً الكرات العنصريَّة الأربع، ومخترقاً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخر، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثمَّ إلتئامها حسب نظرية بطليموس وفرضيَّته الفلكيَّة.

وعلى هذا لا مناص من أن نعتقد بأنَّ المعراج النَّبوي كان معراجاً روحياً،

أي أنَّ روحه ﷺ هي التي عرجت حتَّى لا يمنع أيّ جسم من عبورها وسيرها وصعودها إلى النقطة المطلوبة والغاية المرسومة»[١].

والجواب المختصر على هذا الرأي والنظرية الَّتي بُني عليها هذا الرأي هو: أنّ هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عندما كانت هيئة بطليموس وفرضيَّته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الأوساط العلميَّة وكان هنالك من يعتقد بها علمياً.

ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التَّلاعب بالحقائق القرآنيَّة وتأويل صريح القرآن ونصوص الرِّوايات بحسب تلك النظرية.

أمّا الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيَّات قيمتها وظهر للجميع بُطلانها، ولم يعد أحد يتحدَّث عنها إلاَّ من باب ما يُسمَّى بتأريخ العلوم.

فاليوم وبالنظر إلى كل هذه الأجهزة الفلكية، والآلات الفضائية الدقيقة، والتلسكوبات العملاقة وهبوط المركبات الفضائية المتعدِّدة على سطح القمر والمريخ، فلا يعتبر العلماء المحقِّقون فكرة العناصر الأربعة والفلك المتَّصل كقشرة البصل إلاَّ من الأساطير.

فإذا انهارت هذه النظرية انهارت معها كل ما بُني عليها من آراء ونظريات، وفقدت قيمتها العلميَّة.

الرأي الرابع: إنَّ الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد.

وهذا الرأي الأخير هو الرأي الذي تتبنَّاه الإماميَّة وقد نقل الطبرسي في تفسيره أن علماء الشيعة الإمامية يقطعون بذلك[٢].

---

(١) سبحاني، جعفر، سيِّد المرسلين: ٥٤٥ - ٥٤٦، والله خالق الكون، للمؤلِّف نفسه: ٦٠٤. (بتصرف).

(٢) الطبرسي، تفسير مجمع البيان: ٦ / ٢١٥.

قال المجلسي في (بحار الأنوار): «واعلم أنَّ عروجه إلى بيت المقدس ثمَّ منه إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشَّريف ممَّا دلَّت عليه الآيات والأخبار المتواترة عن طريق الخاصَّة والعامَّة، وإنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحي أو كونها رؤيا رآها في النوم ينشأ إمَّا من قلَّة التديُّن وضعف اليقين، أو من تشكيكات المتفلسفين».

ثمَّ أضاف إلى ذلك: «أنَّ الأخبار الواردة في هذا المطلب لا أظنُّ أنَّ مثلها ورد في شيء من أصول المذهب»(١).

٥ – التّشكيك في الإسراء والمعراج

وقد حاول بعض المشكِّكين والمُلحدين إثارة الشُّكوك حول المعراج حيث قالوا إنَّ قضية المعراج تواجه مشاكل متعدِّدة منها مشكلة الحرارة العالية في طبقات الجوّ، ومنها مشكلة التخلُّص من الجاذبية، ومنها مشكلة انعدام الوزن، ومنها مشكلة تخطِّي الغلاف الجوي، ومنها مشكلة التخلُّص من الشُّهب، ومنها مشكلة انعدام الأوكسجين. . . وغيرها من المشاكل المطروحة.

إلاّ أنَّ «التَّشكيك بعد تواتر الحديث والنصّ القرآني لا مبرّر له؛ لأنّه لم يدَّعِ أحد من المسلمين وقوعهما من النَّبيﷺ بإمكانيَّاته العلميَّة أو بطاقاته البشريَّة، بل كان منه ذلك بقدرة الله سبحانه الَّتي لا تحدّها العقول ولا تحيط بها الأفهام والمقاييس العلميَّة والفلسفيَّة، وإذا أردنا أن نستعمل هذا الأسلوب ونطبِّق المقاييس العلميَّة على الخوارق الَّتي وقعت على أيدي الأنبياء كعصا موسى التي صيَّرها الله أفعى. . . وانشقاق البحر ووقوف الماء بشكل عمودي حتَّى أصبح كل فِرْق كالطَّود العظيم، وما صنعه عيسى من إحياء الموتى، وغير ذلك ممَّا نصَّ عليه القرآن الكريم وبقيَّة الكُتب السَّماوية ممَّا لا يستطيعه الإنسان مهما بَلَغ من العِلم، فيجب أن لا نقرَّ منها شيئاً، وبالتالي فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى التشكيك في

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ٧٧ / ٢١ – ٣١ و ١٨ / ٢٨٢ .

جميع النّبوّات والرِّسالات»[١].

فاستبعاد الإسراء والمعراج بهذه التصوُّرات والتَّشكيكات الواهية ليس في محلِّه وخاصَّة في عصرنا هذا، فقد أصبح التَّصديق بالإسراء أكثر سهولة والاقتناع به أقرب منالاً ولا سيَّما بعد أن تمكَّن هذا الإنسان العاجز المحدود من أن يصنع ما يمكنه من قَطعْ المسافات الطويلة في ثوان، ولربَّما يتضاعف ذلك عدَّة مرَّات في المستقبل، كما أنَّه قد اكتشف أنَّ سرعة الضوء هي حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، بل يعتقد بعض العلماء أنَّ الموجات غير المرئيَّة للجاذبية تستطيع أن تقطع العَالَم بلحظة واحدة من دون حاجة إلى الزمان.

وبعد كل هذا فإنَّه إذا كان قَطْع المسافات البعيدة بهذه السُّرعة المذهلة ليس مستحيلاً على هذا الإنسان المحدود، فهل يستحيل على خَالِق الإنسان والكون ومُبدعه أن يسري بعبده الذي اصطفاه رسولاً للبشرية جمعاء ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وإلى ملكوت السَّماوات ثمَّ يعيده إلى مكانه الأوّل[٢]؟

ومجمل القول أنَّ الإسراء والمعراج آية من آيات الله على نبوّة محمّد ﷺ التي حدثت بقدرة الله سبحانه، فقدرته لا تحيط بها العقول والأفهام، والمعجز لا بدَّ وأن يكون فوق مستوى العلم والعقل، وإذا أمكن إدراك حقيقته وكان بإمكان العلم أن يتوصَّل إلى أسراره يصبح داخلاً في إمكانيَّات الإنسان، ومع ذلك لا يكون معجزاً ولا من دلائل النبوَّة.

وخُلاصة البحث في هذه النقطة أنّه بعد نصِّ القرآن على الإسراء، ونصّ الحديث الصَّحيح عليهما معاً، فالبحث في كيفيَّتهما وإمكانهما وعدمه لا مبرِّر له.

هذا وقد تعرَّضت كُتب الحديث والسِّيرة إلى وصف تلك الرحلة والأمور

---

(١) الحسني، سيرة المصطفى: ٢٤٣ .

(٢) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٢١ .

الَّتي شاهدها النَّبيﷺ وهي لا تخلو بمجملها من الحشو والمبالغة ولا يجب التصديق بكل ما جاء فيها ما لم يثبت لنا بالنصِّ الصَّحيح الصَّادر عن النَّبيﷺ أو أحد الأئمّة الأطهار عليهم السلام[(١)].

٦ - من أهداف الإسراء والمعراج:

يمكن تلخيص الأهداف والحِكَم ووجه الإعجاز والتأثير العميق لمعجزة الإسراء والمعراج بالنقاط التالية:

١ - قد بيَّن الله سبحانه الهدف من هذه الجولة الكونيَّة فقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُ مِن آياتِنَا﴾، فالمقصود هو أن يشاهد الرَّسولﷺ بعض آثار عظمة الله تعالى في عمليَّة تربويَّة رائعة، وتعميق وترسيخ للطَّاقة الإيمانيَّة فيه، وليعدَّه لمواجهة التَّحديات الكُبرى الَّتي تنتظره، وتحمُّل المشاق والمصاعب والأذى في سبيل الرِّسالة السَّماوية.

سُئلَ الإمام الرضا عليه السلام عن علَّة المعراج فأجاب: «إنَّ الله لا يُوصف بمكان، ولا يجري على زمان، ولكنَّه عزَّوجلَّ أراد أن يُشرِّف به ملائكته، وسُكَّان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يُخبِر به بعد هبوطه»[(٢)].

٢ - إنّ الإسراء والمعراج من شأنهما أن يفتحا قلب النَّبيﷺ وعقله ليكون أرحب من هذا الكون، ويمنحه الرؤية الواضحة والوعي الأعمق في تعامله مع الأمور ومعالجته للمشكلات، ولا سيَّما إذا كان لا بدَّ وأن يتحمَّل مسؤولية قيادة الأمَّة والعَالَم بأسره.

٣ - لقد كان الإنسان العربي في شبه الجزيرة العربية يعيش في نطاق

---

(١) الحسني، سيرة المصطفى: ٢٤١ .

(٢) البحراني - هاشم، البرهان في تفسير القرآن: ٣ / ٤٠٠، ط. إسماعيليان - قم.

محدود وذهنية محدودة ولا يستطيع أن يتصوَّر أكثر من الأمور الحسِّية، فكان لابدَّ من فتح عيني هذا الإنسان على الكون الأرحب الذي استخلفه الله فيه ليطرح على نفسه الكثير من التساؤلات عن الكون وخالق الكون والتعرُّف عليه واستكشاف أسراره.

٤ - إنّ الإسراء والمعراج معجزة كبرى خالدة لرسول الله ﷺ، ولسوف يبقى البشر عاجزين عن مجاراتها، ولعلَّ إعجازها هذا أصبح أكثر وضوحاً في هذا القرن بعد أن تعرَّف الإنسان على بعض أسرار الكون وعجائبه.

٥ - أن يدرك هذا الإنسان عظمة الله سبحانه ويُدرك بديع صنعه وعظيم قدرته، ومن أجل أن يثق بنفسه ودينه ويطمئن إلى أنّه بإيمانه بالله إنَّما يكون قد التجأ إلى رُكن وثيق لا يختار له إلاَّ الأصلح ولا يريد له إلاَّ الخير، قادر على كلِّ شيء، ومحيط بكلِّ الموجودات[١].

هذا وقد أحدث الإسراء والمعراج في حينها ردود فعل سلبيَّة في نفوس البعض ممَّن أسلموا لعدم استيعابهم هذين الأمرين حتَّى ارتدَّ أفراد وارتاب آخرون[٢]، وهذا ليس بالأمر الغريب؛ إذ إنَّ شأن كل حركة اجتماعية أن يصيب بعض أفرادها الخمول وينشط آخرون ويسقط بعضهم ويدخل غيرهم وتنتكس أو تتعثَّر أحياناً وتنشط وتسير بسرعة في عملها أحياناً أخرى.

ورسول الله ﷺ كقائد لهذه الأمَّة وكزعيم لحركتها الدينيَّة والاجتماعيَّة والسَّياسيَّة ليس بدعاً من غيره فيما لو تعرَّض أو دعوته لمثل تلك المعيقات، أو أصيبت حركته بمثل هذه الانتكاسات، والأصل في العمل الإسلامي هو استجابة لأمر الله طلباً لمرضاته، سواء حقَّق العمل أهدافه الاستراتيجيَّة أم لم يحقِّقها.

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٣ / ١٢٢ وما بعدها، بتلخيص وتصرّف.

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس : ١ / ٣٠٨ و ٣١٥ .

الأسئلة:

١ – ما هو المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلّ من: «الإسراء والمعراج ؟» وما هي الأدلّة القرآنية والروائية على وقوعهما ؟

٢ – اختلف المؤرّخون والمحدّثون في تحديد زمان ومكان الإسراء والمعراج على أقوال متعدّدة، فما هي أهم هذه الأقوال ؟ وما هو القول الراجح منها ؟

٣ – وقع الاختلاف بين الأعلام حول كيفية إسراء النبي ﷺ وعروجه، وذكروا لذلك أربعة آراء، فما هي هذه الآراء ؟ وما هو الرأي الراجح منها ؟

٤ – كيف نواجه شبهات المشكّكين في الإسراء والمعراج ؟ وهل تصطدم هذه الحقيقة القرآنية مع معطيات العلم الحديث ؟

٥ – ما هي الأهداف والحِكَم ووجوه الإعجاز في معجزة الإسراء والمعراج؟

الدرس الثاني والعشرون
أحداث سبقت الهجرة

«القسم الثاني»
(عام الحزن والهجرة إلى الطَّائف)

محاور البحث:

١ - عام الحزن
٢ - الرَّسولﷺ يخطّط لايجاد موقع آخر للدعوة
٣ - الهجرة إلى الطائف
٤ - أسباب امتناع أهل الطائف عن قبول دعوة النبيﷺ
٤ - العِبَر والعِظَات
● الأسئلة

عام الحزن والهجرة إلى الطَّائف

١ - عام الحزن

بعد شهرين من فكِّ الحِصَار الاقتصادي والاجتماعي الذي ضُرب على المسلمين في شِعْب أبي طالب، وقبل ثلاث سنوات من هجرتهﷺ إلى المدينة[١]، توفّي أبوطالب(رضي الله عنه)، وبعده بثلاثة أيام تُوفِّيت خديجة (رضي الله عنها)، وذلك في شهر رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبويَّة[٢].

وكان أبوطالب قد تخطَّى الثَّمانين من عمره حين أدركته المنيَّة، أمَّا خديجة فكانت قد تجاوزت الخامسة والستين من العمر، ودُفِنَا في «الحجُون» من مكَّة.

وبموت أبي طالب وخديجة(رضي الله عنهما) اجتمعت على رسول اللهﷺ مصيبتان عظيمتان: فقد النَّصير، وفقد الُمجير، فاشتدَّ به الحزن وبلغ منه كل مَبلَغ حتَّى لقد سمّي هذا العام بـ«عام الحزن»، وجعل ذلك مصاباً للأُمة بأسرها حيث قال: «اجتمعت على هذه الأمَّة في هذه الأيَّام مصيبتان لا أدري بأيِّهما أنا أشد

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٥٧، والمسعودي، التنبيه والاشراف: ٢٠٠، والحلبي، السَّيرة الحلبية: ١ / ٤٨٨ .

(٢) وقيل تُوفِّي أبوطالب للنصف من شوال في السنة العاشرة وتوفيت خديجة بعده بشهر وخمسة أيام - كما نص على ذلك ابن سعد وابن كثير وغيرهما من المؤرخين، وقيل تُوفي أوّل ذي القعدة، وقال الزرقاني في شرح المواهب: [١ / ٢٩١] مات بعد خروجهم من الشِّعب في الثامن عشر من رمضان سنة عشر، يقول الأميني: وهذا الاختلاف موجود في تآليف الشيعة أيضاً: انظر الغدير: ٧ / ٥٠٠، مرجع سابق.

جزعاً»[١].

نعم كان موت أبي طالب مصيبة عظيمة، فقد أصبح رسول الله ﷺ أمام عدوِّه وجهاً لوجه، وتحقَّقت بذلك لقريش أمنية طالما تمنَّتها وتطلَّعت إليها، وهي أن تنفرد برسول الله ﷺ وأن تبلغ من أذاه ما يشفي غليلها ويُرضي نزعة الحقد الكمين في صدرها، ولله في ذلك حكمة هو مقدِّرها، وأمر هو بالغه.

«لقد كان أبوطالب حصناً حصيناً يحيط رسول الله ﷺ من جميع نواحيه ويدفع عنه كثيراً من الأذى والضر، وكانت خديجة مسكنه الذي يأوي إليه ويستجير به كُلَّما كَرَبه الهمُّ وضاق صدره بما يَلقى من عناد القوم، فيجد عندها الفرج والراحة والعزاء»[٢].

وقد صوَّر ابن سعد في الطبقات هذه الحادثة المؤلمة والأجواء التي عاشها رسول الله ﷺ بقوله: «لمَّا تُوفِّي أبوطالب وخديجة اجتمعت على رسول الله مصيبتان فلزم بيته وأقلّ الخروج ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به»[٣].

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن مقدار الأسى والحزن والأسف لفقد أبي طالب كما روي عنه ﷺ: «مازالت قريش كاعّين عنِّي حتَّى مات أبوطالب»[٤].

وفعلاً كان الأمر كذلك فقد تعرَّض رسول الله ﷺ ومن معه لأشدِّ وأقسى وأشنع الأذى كما صوَّر ذلك المؤرِّخون وأصحاب السِّير، يقول ابن إسحاق: ثمّ إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول

---

(١) اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح، تأريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٥ .

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ١٨٨، مرجع سابق.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ٨٩ .

(٤) سيرة ابن إسحاق: ٢٣٩، تحقيق الدكتور: سهيل زكار.

اللهﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام، وبهلك عمّه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعةً وناصراً على قومه، فلمّا هلك أبوطالب نالت قريشٌ من رسول اللهﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتّى اعترضه سفيه من سُفهاء قريش نثر على رأسه التراب، . . . فدخلﷺ بيته والترابُ على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله يقول لها: «لا تبكي يابنيَّة فإنّ الله مانع أباك».

وكان ﷺ يقول: «ما نالت منِّي قريش شيئاً أكرهه حتَّى مات أبوطالب»[(١)] «ولمّا رأى قريشاً تهجّموا على أذيتهِ قال: «يا عم ما أسرع ما وجدت فقدك»[(٢)].

ويروي اليعقوبي: «ولمّا قيل لرسول اللهﷺ إنّ أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه، واشتد له جزعه، ثمّ دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرّات، وجبينه الأيسر ثلاث مرّات ثمّ قال: يا عمّ ربّيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً، فجزاك الله عنّي خيراً، ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم وجزيت خيراً، وقال: اجتمعت على هذه الأُمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأ يّهما أنا أشدّ جزعاً، يعني مصيبة خديجة وأبي طالب»[(٣)].

وكذلك كان موت خديجة مصيبة أخرى، فقد تركت في حياة رسول اللهﷺ فراغاً هائلاً أحسَّ به احساساً قويّاً، وحزن بسببه حزناً شديداً، لقد وقفت خديجة(رضي الله عنه) إلى جنب رجل قد حمل على كاهله أثقل مهمَّة يستطيع أن ينهض بها بشر، وكانت بحقٍّ وزير صدق والنفس المخلصة، وحملت مع رسول

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية : ٢ / ٥٧ - ٥٨ .

(٢) دَحْلان - أحمد زيني، السِّيرة النبويَّة: ١ / ٢٢٧ .

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٥ .

الله ﷺ أثقاله وشاركته آلامه وآماله وتمثَّلت بها كل معاني الوفاء والصِّدق، فكانت الزوجة الوفيَّة التي آمنت به حين كفر الناس، وصدَّقته حين كذَّبه الناس، وأغنته بمالها وآزرته في محنته بعزيمتها.

يقول اليعقوبي: «وتوفيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستون سنة، ودخل عليها رسول الله ﷺ وهي تجود بنفسها، فقال: «بالكره منّي ما أرى، ولعلّ الله أن يجعل في الكرهِ خيراً كثيراً» ولما توفّيت خديجة جعلت فاطمة(عليها السلام) تتعلّق برسول الله ﷺ وهي تبكي وتقول: أين أمّي؟ فنزل عليه جبرئيل فقال: قل لفاطمة إنَّ الله تعالى بنى لأمِّك بيتاً في الجنَّة من قصب لا نصب فيه ولا صخب»[1].

٢ - الرسول ﷺ يخطِّط لإيجاد موقع آخر للدعوة

اشتدَّ أذى قريش وازدادت وحشيتها ضدَّ رسول الله ﷺ وصحبه ودعوته بعد وفاة عمِّه أبي طالب ونالت منه ما لم تكن تناله منه في حياته.

«ورأى ﷺ أنَّ الدعوة الإسلاميَّة تتعرَّض لضغوط قويَّة تمنع من انتشارها ومن دخول الآخرين فيها، ومن هنا فقد كان لابدَّ من تحرُّك جديد يُعطي للدعوة دفعة جديدة، ويجعلها أكثر حيويَّة وأكثر قدرة على مواجهة الأخطار المحتملة.

وإذا كان بقاؤه ﷺ في مكَّة معناه جمود دعوته و تحجيمها وشلّ حركتها فمن الطبيعي أن يبحث عن مكان آخر، تتوفَّر فيه حريَّة الحركة والدَّعوة إلى الله بعيداً عن أذى قريش ومكائدها، ويتوفَّر فيه الأرضيَّة المناسبة لنشر الدَّعوة، ويكون فيه متنفَّس لهؤلاء المسلمين الَّذين تنالهم قريش بمختلف أنواع العذاب والتَّنكيل قبل أن يدبَّ اليأس إلى نفوسهم وينهاروا أمام تلك الضغوط الَّتي

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٣٥، وسيرة ابن اسحاق: ٢٤٣ من دون ذكر اسم فاطمة عليها السلام.

يتعرَّضون لها باستمرار»[١]، فكان كل ذلك وسواه دافعاً إلى التخطيط لإيجاد الموقع الآخر لنقل الدَّعوة إلى ذلك الموقع لتتمكَّن بذلك من توسيع نشاطها المطلوب، ولتصل إلى مرحلة تتمكَّن فيها من إسماع صوت الإسلام إلى البشرية كافَّة، فعزم النَّبيﷺعلى أن يتوجَّه بدعوته إلى الطائف.

٣ – الهجرة إلى الطائف

في أواخر شهر شوال من سنة عشر من البعثة هاجر رسول اللهﷺ متخفِّياً من مكَّة إلى الطَّائف ومعه علي بن أبي طالب، وفي رواية أخرى: زيد بن حارثة، أوهما معاً وعلى قول ابن هشام أنّه خرج بمفرده[٢].

وكانت قبيلة «ثقيف» بالطَّائف أوّل مَنْ فكَّر رسول اللهﷺ في دعوتهم إلى الإسلام بعد قريش، وكانت لهﷺبثقيف صلات من الرَّحم تدعوه إلى أن يتوجَّه إليهم بدعوته، فقد استُرضعﷺ في بادية بني سعد، وبادية بني سعد جزء من بادية الطائف، فأهل الطائف من هذه الناحية يُعتَبرون أخوال رسول اللهﷺمن الرضاعة، فهم أقرب القبائل رَحِماً إليهﷺ بعد قريش.

والمسافة بين مكَّة والطَّائف تزيد على مائة وعشرين ميلاً يقطعها الراكب في ذلك الزمان في نحو أربعة أيَّام بين جبال وَعِرَة ووهاد مقفرة.

وكانت الطَّائف في ذلك الحين مقر عبادة(اللاَّت) واللاَّت صنم كانت تعبده ثقيف وتعظِّمه وتحتفل به احتفال قريش بأصنامها، وقد بنت له بيتاً، وجعلت له سدنة[٣].

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ٧٢ - ٧٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠، والطبري: ٢ / ٣٤٤، والحلبي، السيرة الحلبية: ١ / ٤٩٨، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ١٢٨ و ١٤ / ٩٦.

(٣) ابن سائب الكلبي، الأصنام: ١٦، تحقيق: أحمد زكي باشا.

إلاّ أنَّ ثقيفاً لم تستجب لدعوة الرَّسول ﷺ ولم تُحسن لقاءه، فقد أقام ﷺ بينهم عشرة أيَّام لا يدع أحداً من أشرافهم إلاَّ كلَّمه وعرض عليه الإسلام وطلب إليه أن يمنعه وينصره حتَّى يبلِّغ عن ربِّه، ولكنَّ أحداً منهم لم يجب دعوته، لا رجلاً ولا امرأة، ولا حرّاً ولا عبداً، ولا شريفاً ولا وضيعاً، وكان أشدّ ما لقي رسول الله ﷺ من أشراف ثقيف ما لقيه من أبناء (عمرو بن عمير بن عوف) وهم عبد ياليل وأخواه (مسعود وحبيب)؛ فقد ذهب ﷺ إليهم وهم يومئذ سادات قومهم وعَرَض عليهم دعوته، وطلب إليهم أن يمنعوه حتَّى يُبلِّغ عن ربِّه، فلم يجد عندهم رغبة فيما دعاهم إليه، بل لم يجد منهم نخوة أهل المروءة، ولا بشاشة أهل الكرم، فقد استقبلوه جميعاً في ارتياب وشك، وردُّوا عليه في استهزاء وسُخرية[١].

يقول ابن إسحاق: «لمَّا انتهى رسول الله إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف... فدعاهم إلى الله، وكلَّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه قومه، فقال أحدهم: هو يمرط[٢] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!! وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك!! وقال الثالث: والله لا أكلِّمك أبداً، لئن كُنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنتَ أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلامَ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلِّمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلَّغَ قومه عنه... فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به»[٣].

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢٠١ - ٢٠٢ (مرجع سابق).

(٢) يمرطه: أي ينزعه ويرمي به.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠، ٦١، والطبري - محمد بن جرير، تأريخ الأمم والملوك: ٢/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

وكرهت ثقيف مقام رسول الله بينها، وخشيت عواقبه، وخافت أن يصيبها ما أصاب قريشاً من اضطراب الأمر فقالوا له: يا محمَّد أخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض فإنَّا نخاف على أحداثنا وضعفائنا أن تفتنهم! فلم يجد رسول الله ﷺ بُدّاً من أن ينصرف عنهم دون أن يستجيب له أحد منهم[1].

فخرج رسول الله ﷺ من الطائف وهو يعاني معاملة أهلها وقد أرهقه المسير والمطاردة والأذى، وأدميت قدماه حتَّى وصل بستاناً لعُتبة وشيبة ابني ربيعة فاحتمى به، فرجع السُّفهاء عنه، وجلس إلى ظلِّ شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدَّة الكرب، فلما اطمأنَّ رفع رأسه إلى السَّماء متضرِّعاً إلى الله تعالى: «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَنْ تَكِلُني! إلى بعيد يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملّكته امري ؟ إن لم يكن بكَ عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُلمات، وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتبى حتَّى ترضى، لا حول ولا قوَّة إلاَّ بك»[2].

وفي هذه المناجاة تأمُّلات واسعة لمن أراد أن يتأمَّل فيها، فرسول الله ﷺ، وعلى رغم ما عانى من أذى وتعذيب واستهزاء فقد كان راضياً مطمئنّاً مادام عمله وجهاده ودعوته ترضي الله تعالى، فهو لا يخاف الأذى والملاحقة والاستهزاء إنَّما يخاف غضب الله وعدم رضاه. ومادام قد اطمأنَّ إلى ذلك فهو يُناجي ربَّه ويُعبِّر عمَّا في نفسه بقوله: «إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي».

وأثارَ هذا المنظر المُحزن والموقف الغريب شفقة وتعاطف صاحبي البستان

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢٠٢ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦١ - ٦٢، وتأريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٥، والطبري: ٢ / ٣٤٥ .

فتحرَّكت نفساهما رحمة له وإشفاقاً من سُوء ما لَقِيَ «فدعوا له غلاماً لهما نصرانياً، يقال له «عَدّاس» فقالا له: خذ قطفاً[١] من هذا العنب وضعه في ذلك الطَّبق ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل فقل له يأكل منه، ففعل عدَّاس، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلمَّا وضع رسول الله ﷺ يده، قال: «بسم الله»، ثمَّ أكل فأثارت الكلمة استغراب عدّاس، أثارته بمالها من معان عقائديَّة وتعبير سلوكي خاص وارتباط يعبِّر عن روح وتفكير إيماني ربَّاني غريب على عقيدة أهل الطائف وتفكيرهم، ولهذا نظر عدَّاس إلى وجهه ﷺ ثم قال: والله إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، قال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أيِّ البلاد أنتَ يا عدَّاس؟

وما دينك؟»

قال: نصراني وأنا رجل من أهل نِينوى.

فقال له ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يُونس بن مَتّى ؟

فاستغرب عدّاس من هذا القول وسأل الرَّسول مندهشاً: وما يُدريك ما يونسُ ابن متّى ؟ قال رسول الله: ذاك أخي كان نبيّاً وأنا نبي.

فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه، وعتبة وشيبة يرقبان الحوار ويرصدان المواقف، فقال أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامك فقد أفسده عليك، فلمَّا جاءهما عدّاس قالا له: ويلكَ يا عدّاس مالك تُقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيّدي ما في هذه الأرض خيرٌ من هذا ! لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلاَّ نبيٌ، فقالا له: ويحك يا عدّاس! لا يصرفنَّك عن دينك فإنَّ دينك خير من دينه»[٢].

وهكذا انتهت هذه الرِّحلة المُضنية لرسول الله ﷺ وعاد إلى مكَّة ولم يؤمن

(١) القطف: اسم العنقود، وأصله اسم لكل ما يقطف.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٦٢ - ٦٣، والطبري، تأريخ الأمم والملوك: ٢ / ٣٤٦ .

من أهل الطائف أحد غير عدّاس، عاد وهو أشد عزيمة، وأقوى مضاء لا تهوله المواقف الشداد، ولاتحول بينه وبين رسالته العوائق.

عاد من الطائف وقد ثَبَّت أروع درس في تأريخ الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه.

٤- أسباب امتناع أهل الطائف عن قبول دعوة النبي:

بعد هذه الجولة في تفاصيل هجرة الرَّسولﷺ إلى الطائف لنا أن نتساءل عن الأسباب التي دعت أهل الطائف إلى أن يكونوا بهذه الشدَّة والعنف في مواجهة النَّبيﷺ والحرص على إخراجه من بينهم بسرعة؟

لعلَّ أسباب ذلك ترجع إلى ما يلي:

١ - الحِرْص على العلاقات والمصالح المتبادلة بينها وبين قريش:

فقد كان أهل الطائف مرتبطين اقتصادياً بأهل مكَّة ومَنْ حولهم، وكانوا يصدِّرون محاصيلهم الزراعيَّة إلى مكَّة وغيرها من الأطراف المحيطة بهم، فمصيرهم مرتبط اقتصادياً واجتماعياً بغيرهم وهم بحاجة إلى التقرُّب والتزلُّف إلى ذلك الغير واستجلاب محبَّتهم ورضاهم حتَّى لا يتعرَّضوا للضغط الاجتماعي أو إلى الحصار الاقتصادي كما جرى لبني هاشم.

٢ - الحرص على المركز الديني بين العرب:

فقد كانت الطائف في ذلك الحين مقرّاً لعباده اللاَّت، وكانت تعبده وتحتفل به احتفال قريش بأصنامها، وقد بنت له بيتاً، وجعلت له سدنة وكسوة، وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهون به الكعبة، ويحرسون واديه، وكانت قريش وجميع العرب يعظِّمون اللاَّت كما كانوا يعظِّمون «هُبَل» أعظم أصنام الكعبة، فإذا آمنت ثقيف بالله وتابعت محمّداً، فإنّها تحطّم مكانة صنمها، وتضرب عقيدتها التي توارثتها عن الآباء والأجداد في الصميم.

٣ - الحرص على رضى قريش:

فقد كانت ثقيف تحرص على رضا قريش وتريد ألاَّ تقطع ما بينها وبين قريش من صِلاَت، فهي لا تريد أن تدخل - بسبب مناصرتها لرسول الله ﷺ - في خصومة وصراع مع قريش هي في غِنَى عنها[١].

٥ - العِبَر والعِظَات

إذا تأمَّلنا في هذه الهجرة الَّتي قام بها النَّبيﷺ وما انطوت عليها من ملابسات ومواجهات واجهها النَّبيﷺ ثمَّ في شكل عودته إلى مكَّة، نستخلص ما يلي:

أوّلاً: إنَّ ما كان يلاقيه النَّبيﷺ من مختلف ألوان الأذى، ولا سيَّما في رحلته هذه إلى الطائف، إنّما كان من جملة أعماله التبليغيَّة، وتحمَّلﷺ أنواع المحن في سبيل الدعوة إلى الله، ليقول بلسان حاله لجميع الدُّعاة من بعده «اصبروا كما رأيتموني أصبر» وليبيِّن لهم أنَّ الصبر ومصارعة الشدائد، من أهم مبادىء الإسلام الَّتي بُعثَ بها إلى الناس كافة، وليعلِّمنا وبالوسيلة التطبيقيَّة كيفيَّة تطبيق مفهوم الصبر والمصابرة اللّذين أمرنا الله بهما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[٢].

ثانياً: إنَّ ألفاظ وصيغة الدعاء الذي دعا به رسول اللهﷺ لا تدلُّ على الضَّجر أو الملل من طول المحاولة الَّتي لم تأتِ بنتيجة إلاَّ الأذى والعذاب؛ إذ إنَّ الشكوى إلى الله تعبُّد، والضراعة له والتذلُّل على بابه تقرُّب وطاعة، وللمحن والمصائب حِكم من أهمِّها أنّها تسوق صاحبها إلى باب الله تعالى، وتلبسه

---

(١) الصحيح من سيرة النبي: ٤ / ٨١ (بتلخيص).

(٢) آل عمران: ٢٠٠ .

جلباب العبوديَّة له، فليس إذن بين الصَّبر على المكاره والشَّكوى إلى الله تعالى أي تعارض، بل الواقع أنَّ رسول الله ﷺ كان يعلِّمنا في حياته كلا الأمرين، فكان بصبره الشديد على المحن يعلِّمنا وظيفة العبوديَّة ومقتضياتها.

ثالثاً: إنَّ فيما كان يفعله علي بن أبي طالب عليه السلام أو زيد بن حارثة من وقاية للرَّسول بنفسه من حجارة السُّفهاء حتَّى انَّه شجَّ في رأسه عدَّة شجاج، نموذج لما ينبغي أن يكون عليه المسلم بالنسبة لقائد الدعوة من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته.

رابعاً: إنَّ الذي رآه النَّبي ﷺ وعاناه في الطَّائف بعد القسوة والعذاب اللَّذين رآهما في مكَّة لم يكن له أي تأثير على ثقته بالله تعالى، أو على قوة العزيمة الإيجابيَّة في نفسه.

والفائدة التعليميَّة المهمَّة لنا من هذه الهجرة هي: أن لا تصدَّنا المِحَن والعقبات الَّتي تكون في طريق الدَّعوة الإسلاميَّة عن السَّير، وأن لاتبث فينا روح الدعة والكسل ما دمنا نسير على هدى الإيمان بالله وتوفيقه، فمن استمدَّ القوَّة من الله جدير به أن لا يَعرِف لليأس والكسل معنى؛ إذ مادام هو الآمر فلا شكَّ أنّه هو الناصر أيضاً.

وإنَّما يأتي التَّخاذُل والكسل واليأس بسبب العقبات والمِحَن الَّتي تعترض السُّبُل والمبادىء الأخرى الَّتي لم يأمر بها الله عزَّوجلَّ؛ إذ في مثل هذه الحال يركن العاملون إلى قوَّتهم الخاصَّة بهم، وجهودهم الَّتي يستقلّون بها، ومعلوم أنَّ كلَّ ذلك محدود بنطاق بشري معيَّن، فمن الطبيعي أن ينقلب كل من القوة والتصميم بسبب طول المعاناة والآلام والمِحَن إلى يأس وتَخاذُل نظراً لمقياس القوَّة البشريَّة المحدودة(١).

(١) اقتبسنا هذه العِبَر والعِظَات من كتاب فقه السِّيرة للبوطي: ١٣٤ - ١٤٥، بتلخيص وتصرّف.

الأسئلة:

١ - في أي سنة توفّي أبو طالب وخديجة عليهما السلام ؟ ولماذا سمّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك العام بـ (عام الحزن) ؟ وما هي الآلام التي واجهها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد فقدهما؟

٢ - ما هي الأسباب الموضوعية التي دعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة إلى الطائف ؟

٣ - ما هي الأسباب التي دعت أهل الطائف إلى عدم الإيمان ومواجهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشدّة وعنف وإخراجه من بينهم ؟

٤ - ما هي العِبر والعظات التي نستفيدها من خلال تأملنا في ظروف وملابسات هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف ؟

الدرس الثالث والعشرون
أحداث سبقت الهجرة

«القسم الثالث»
(الرَّسولﷺ يعرض الإسلام على القبائل)

محاور البحث:

١ - الرسولﷺ يعرض الإسلام على القبائل
٢ - قريش واستراتيجيَّة المواجهة
٣ - نماذج من الذين التقى بهم رسول اللهﷺ
٤ - العِبَر والعِظَات
- الأسئلة

الرَّسولﷺ يعرض الإسلام على القبائل

١ - الرَّسولﷺ يعرض الإسلام على القبائل

قلنا فيما سبق أنَّ رسول اللهﷺ بعد أن اشتدَّ أذى قريش عليه بعد وفاة عمّه أبي طالب، وأصبح بقاؤهُ في مكَّة محفوفاً بالمخاطر، عزم على التماس قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته، ويستطيع أن يجد في بلدهم الأرضيَّة الخصبة لنشر تعاليم الإسلام الحنيف وتعبيد الناس لله تعالى، فانطلق إلى الطائف لاعتبارات قد ذكرناها فيما سبق، ودعا فريقاً من أشرافهم إلى وحدانيَّة الله، ولكنَّه لم يلق منهم أذناً مُصغية بل قابلوا دعوته بالاستهزاء وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به، حتَّى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى بستان، فعاد إلى مكَّة ولم يتمكَّن من دخولها فطلب الرَّسولﷺ حماية مطعم بن عدي فتسلَّح مع بنيه ودخلوا مع الرَّسولﷺ مكة[1].

وهكذا نجد أنَّ رسول اللهﷺ قد جوبهت دعوته بالصدِّ والرفض، سواءً في مكَّة أو الطائف، فهل ضعفت عزيمتهﷺ أو تراجع عن دعوته؟ وهل انهار أمام هذه المعارضة الشديدة والمعاناة الطويلة؟ كلاّ، وإنَّما واجه هذه المصائب والمحن بنفس مطمئنَّة وبعزيمة قويَّة، وبصبر لا ينفد، ولا يثنيه كل ذلك عن الاستمرار في تبليغ رسالة ربِّه، بل كان واثقاً من النَّصر الإلهي الَّذي وعده به الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[2].

---

(١) الطبري، تأريخ الأمم والملوك: ٢ / ٣٤٨.

(٢) سورة محمّد: ٧.

ولهذا كان جواب رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة عندما سأل رسول الله ﷺ وهم على مشارف مكَّة بعد رجوعهما من الطائف: «كيف تدخل عليهم - يعني قريشاً - وهم أخرجوك؟ فقال ﷺ: «يا زيد إنَّ الله جاعل لِمَا ترى فرجاً ومخرجاً وإنَّ الله ناصر دينه ومُظهر نبيِّه»(١).

ولعلَّ زيداً ظنَّ أنَّ رسول الله لن يعود إلى قريش بعد أن يئس من إيمانهم وبعد أن لقي ما لقي منهم، لكن رسول الله ﷺ كان على يقين بنصر الله عزَّوجلَّ.

وعلى ضوء تلك الضمانات الإلهية المؤكدة، والمواعيد الموثوقة كان النَّبي ﷺ بعد عودته من الطَّائف يخطِّط لاستراتيجيَّة عمل جديدة، ولفِضِّ الحصار الاجتماعي الذي ضربته عليه قريش للحؤول بينه وبين الاتّصال بقبائل العرب.

فكان العزم على معاودة نشر الإسلام بين قبائل العرب، وكان كل اعتماده في نشر الدعوة على موسم الحجِّ، وحضر موسم الحجّ وأقبلت قبائل العرب على البيت الحرام من كلِّ فجٍّ لتؤدِّي مناسك الحج.

قال ابن هشام في السِّيرة النبويَّة: «ثمَّ قَدِم رسول الله ﷺ مكَّة، وقومهُ أشدّ ما كانوا عليه من خِلافه وفراق دينه، إلاَّ قليلاً مستضعفين، ممَّن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يَعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنّه نبيٌّ مُرْسَلٌ، ويسألهم أن يصدِّقوه حتَّى يبيِّنَ لهم»(٢).

وكان رسول الله ﷺ يبتغي أماكن تجمُّع هذه القبائل ويقصدها، فكان يذهب إليهم في أحيائهم ومنازلهم يبلِّغ دعوة الإسلام، ويدعوهم إلى الهدى والصلاح، ويبشِّرهم بخير الدنيا والآخرة، وجعلت قريش تتابع رسول الله ﷺ أينما ذهب فكلَّما ذهب إلى قبيلة من القبائل يعرض عليها دعوته، وقف عليه رجل من قريش

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١٠٢، مرجع سابق.

(٢) ابن هشام، السيِّرة النبويَّة: ٢ / ٦٤ .

يحذِّرها من سحره ومكره، ويتَّهمه عندها بالجنون تارةً وبالكذب تارةً، وبالسِّحر تارةً أخرى، وكان لقريش مكانتها في نفوس العرب فكان لقولهم أثره في إعراضهم عن رسول الله ﷺ وعدم استجابتهم لما يدعو إليه من الحقِّ الواضح والنور المبين(١).

روى ابن هشام عن ابن إسحاق في السِّيرة عن ربيعة بن عبّاد الدؤلي أنّه قال: «إنِّي لغلام شاب مع أبي بمِنَى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان، إنِّي رسول الله إليكم، آمركم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وان تَخْلَعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وإن تؤمنوا بي، وتصدِّقوا بي، وتمنعوني حتَّى أبين عن الله ما بعثني به قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان، وعليه حُلَّة عَدَنِيَّه، فإذا فرغ رسول الله من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إنَّ هذا إنَّما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللاَّت والعزَّى من أعناقكم وحلفاءكم من الجنِّ من بني مالك بن أُقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضَّلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الذي يتَّبعه ويردّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمّه عبدالعزَّى بن عبدالمطلب، أبولهب»(٢).

٢ - قريش واستراتيجيَّة المواجهة

وكان تحرُّك قريش، ومتابعة رسول الله ﷺ في تحرُّكاته على قبائل العرب تنطلق من خطَّة قد أعدَّتها قبل موسم الحجّ، بعد أن عرفت ما عزم عليه رسول الله ﷺ من عرض دعوته على القبائل، وأجمعت رأيها على أن تشوِّه هذه الدعوة عند قبائل العرب وأن تحذِّرها من سحر محمّد ﷺ وما ينجم عنه من الفِرْقَة

(١) صور من حياة الرسول: ٢١٠ .

(٢) ابن هشام، السِّيرة النبويّة: ٢ / ٦٤ - ٦٥ .

والخِلاف بين الأهل والعشيرة، وقد أعدَّت لذلك مثلاً، ما أصابها من فِرْقَة وشِقَاق بسبب دعوته[(١)] .

روى ابن إسحاق قال: «إنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال: يا معشر [قريش] إنَّه قد حضر الموسم، وإنَّ وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضاً، ويردّ قول بعضكم بعضاً، فقالوا: فأنت يا أبا شمس فقل وأقم لنا رأياً نقوم به، فقال: بل أنتم قولوا اسمع، فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه. فقالوا: نقول مجنون فقال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه. . . فقالوا نقول: شاعر، فقال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشِّعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشِّعر؟ قالوا: فنقول: ساحر قال: ما هو بساحر، قد رأينا السحَّار وسحرهم، ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لعذق، وإنَّ فرعه لجناً[(٢)]، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاَّ عُرف أنّه باطل، وإنَّ أقرب القول أن تقولوا: ساحر، فقولوا ساحر يُفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرَّقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون يسألون الناس حين قدموا الموسم لا يمرُّبهم أحد إلاَّ حذَّروه إيَّاه وذكروا لهم أمره»[(٣)] .

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢١١ .

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف: ٢ / ٢١، هو استعارة من النخلة التي ثبتَ أصلها وقوي وطابَ فرعها إذا جنى، والنخلة هي العذق.

(٣) السيرة النبوية: ١ / ٢٨٨ - ٢٨٩، وسيرة ابن إسحاق: ١٥١ .

وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾[1].

٣ - نماذج من الَّذين التقى بهم رسول الله ﷺ

وكان من عادة العرب كلَّما حضروا إلى مكَّة في موسم الحجّ أن ينتهزوا فرصة الأشهر الحرم في ذلك الموسم فيعرضوا بضائعهم في أسواق مكَّة، وكان أشهر هذه الأسواق ثلاثة: (عُكَاظ، ومجنة، وذوالمجاز). وكان رسول الله ﷺ قد عقد العزم على أن يغشى هذه الأسواق ليعرض نفسه على القبائل الَّتي حضرت الموسم يدعوهم إلى الله عزَّوجلَّ.

وروى ابن إسحاق عن طارق قال: «رأيت رسول الله ﷺ مرَّتين، رأيته بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمرَّ وعليه حلَّة حمراء، فسمعته يقول: أيَّها الناس، قولوا لا إله إلاَّ الله تُفلِحوا، ورجل يتَّبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وهو يقول: يا أيُّها الناس لاتطيعوا هذا فإنَّه كذَّاب، فقلت من هذا؟

فقيل غلام من بني عبدالمطلب، فقلت ومن هذا الذي يرميه بالحجارة؟ فقيل عمّه عبدالعُزَّى أبو لهب. . . الخ[2].

وقد تأثَّرت القبائل بسعي قريش أيَّما تأثير، فما من قبيلة إلاَّ وأعرضت عن رسول الله ﷺ، وردَّت عليه دعوته في ذلك الموسم، وإن كانت طريقة الردّ تختلف باختلاف القبائل فمن القبائل من كان يغلظ له الرَّدَّ، ومنها من كان يساومه في الثمن، ومنها من كان يسخر منه ويستهزئ بدعوته، ومنها من كان يتأنَّى بالردِّ حتَّى يفكِّر في الأمر وينظر في العواقب.

(١) المدثِّر: ١١ - ٢٦ .

(٢) راجع بقية القصة في سيرة ابن إسحاق: ٢٣٢ .

روى ابن كثير في (البداية والنهاية) عن ابن إسحاق عن الزهري: «أنه ﷺ أتى كندة في منازلهم وفيهم سيِّد لهم يقال له مُليح، فدعاهم إلى الله عزَّوجلَّ، وعرض عليهم نفسه، فأبوا أن يقبلوا منه... وأتى كلباً في منازلهم وعرض عليهم نفسه... فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، وأتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يك أحد من العرب أقبح ردّاً عليه منهم.

وأتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال لهَ بَيْحَرة بن فِرَاس: والله لو أنّي أخذت هذا الفتى من قُريش لأكلتُ به العرب، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثمَّ أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: «الأمر الى الله يضعه حيث يشاء»، فقال له: أفنُهْدِف نحورنا للعرب دونك. - أي نعرِّض أنفسنا للقتل من أجلك - فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لاحاجة لنا بأمرك!! فأبوا عليه.

فلمَّا صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كان أدرك السِّن حتَّى لا يقدر أن يُوافي معهم الموسمَ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدَّثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلمَّا قدِموا عليه ذلك العام سألهم عمَّا كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثمَّ أحد بني عبدالمطلب، يزعم أنّه نبي، يدعونا إلى أن نَمنَعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخ يدهِ على رأسه ثمَّ قال: يا بَني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لذُنَاباهَا من مَطلب(١)؟ والذي نفس فلان بيده، ما تقَوَّلها إسماعيليٌّ قطُّ، وإنَّها الحق، فأين رأيكم كان عنكم»(٢)؟

---

(١) مثل يضرب لما فات، وأصله من «ذنابي الطائر» إذا أفْلتَ من الحبالة.

(٢) ابن كثير - أبي الفداء إسماعيل، البداية والنهاية: ٣/ ١٧٠ - ١٧١، وانظر: ابن هشام: ٢/ ٦٦. وقوله: ما تَقوَّلها إسماعيلي قط: أي ما ادَّعى النبّوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

٤ - العِبَر والعِظَات

بعد هذه الجولة السَّريعة لتحرُّك النبيِّ ﷺ وكيفيَّة عرض الدعوة الإسلاميَّة على القبائل العربية الوافدة لحجِّ بيت الله الحرام، لا بدَّ لنا من استخلاص العِبَر والعِظَات المُستفادة من ذلك:

أوّلاً: لقد وجدنا في شخصيَّة رسول الله ﷺ وهو يُعاني من حياة لا راحة فيها ولا استقرار، ويواجه المِحَن والشدائد، تلك الشخصيَّة الصَّابرة المجدَّة في حمل الأمانة وتبليغ الرسالة، ودعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، لا تأخذه في الله لومة لائم، شأنه شأن من سبقه من الأنبياء والرُّسل الَّذين وصفهم القرآن ذلك الوصف الرائع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[١].

ثانياً: ولقد تعلَّمنا من حَامِل الدعوة الأول رسول الله ﷺ فائدة تعليميَّة أخرى وهي الاهتمام بالأُسلوب في دعوة الناس إلى الله، وهذه مسألة مهمَّة جدّاً في حياة الدُّعاة؛ إذ على حامل الدعوة أن يهتم بالأُسلوب اهتماماً كبيراً، وينظر إليه نظرة صحيحة، ويدرسه دراسة عميقة مُستنيرة؛ فالأُسلوب ليس شيئاً رخيصاً، ولا شيئاً ممتهناً، بل يجب على حامل الدعوة أن يتقن الأُسلوب كلّ الإتقان فبه تنشر الدعوة، وتوضح الطريقة، وبحسن استخدامه تُقَاد الأُمَّة، وبنجاح تنفيذه تبلغ الغاية القصوى[٢].

ثالثاً: ولقد تعلَّمنا من رسول الله ﷺ وهو يعرض الإسلام على القبائل فائدة أخرى مهمَّة وهي، أن لا نتعجَّل النتائج عندما ننطلق إلى الأمَّة حاملين تعاليم الدِّين الحنيف، فرسول الله ﷺ وعلى رغم رفض القبائل الَّتي دعاها جميعاً في

---

(١) الأحزاب: ٣٩ .

(٢) الزين - سميح عاطف، صفات الداعية وكيفيَّة حمل الدعوة: ٧٢، دار الكتاب اللبناني.

ذلك الموسم، إلاَّ أنّهﷺ كان واثقاً من النتائج المستقبليّة لدعوته هذه، وقد أفادت تحرُّكاته مستقبلاً، بعد أن ذهبت شوكة قريش وخمد عنفوانها، وأينع الصبر، وبدأ الجهد يُثمر واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوي على سوق ليعطي النتيجة والِّثمار.

رابعاً: رغم كل ما واجهه رسول اللهﷺ في تحرُّكه على القبائل الوافدة إلى بيت الله الحرام من قِبَل قريش، وسعيها لدى القبائل في تشويه دعوته وتمويه الحقّ بالباطل واتِّهامه بالجنون والكذب والسِّحر. . .، إلاَّ أنّه كان موقناً أنَّ الغلبة للحقّ وإن طال الزمن، فقد صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول اللهﷺ وانتشرت دعوته في بلاد العرب كلّها، وكانت مبالغة قريش في التحذير منه سبباً في لفت الأنظار إليه، وإلى ما يدعو إليه من هذا الدين الذي تحذر منه قريش.

وفي هذه النقطة درس نافع لمن يسير على خُطى الأنبياء والمرسلين، عندما تواجه الأشاعات والتهم والمعوقات، والتي تلازم كل دعوة إصلاحية تنبثق في وسط الأمَّة، فلا بدَّ من تبديد هذه الاشاعات والتُّهم من خلال العمل الميداني، والحكمة، واستقامة الطَّريقة، بعيداً عن ردود الفعل المرتجلة، ولا يمكن معالجتها بالهروب منها لأنّها قد تتعمَّق في نفوس من لايعرفون عن صاحب الدعوة شيئاً.

خامساً: وفي تحرُّك النبيﷺ وعرضه دين الله على القبائل وهجراته المتعدِّدة في سبيله إدانة للمنطق القائل إنَّ على صاحب الدعوة أن يجلس في بيته ولا يتحرك وعلى الناس أن يقصدوه ويسألوهُ عمَّا يهمهم ويحتاجون إليه.

سادساً: وهنالك درس تعليمي مهم يمكن أن نستلهمه من الحوار الَّذي جرى بين رسول اللهﷺ وبين بعض رؤساء القبائل حيث عرض عليهم نفسه، فبعد أن طلب هذا الرجل من رسول اللهﷺ وَعُوداً مُسْبَقة بأن يكون لهم الأمر من بعده أجابهﷺ بأنَّ الأمر لله يضعه حيث يشاء.

فرسول الله ﷺ لم يعطِ هؤلاء وعداً بما طلبوه منه، لأنّه لا يمكن أن يَعِد بما لا يعلم قدرته على الوفاء به، تماماً وعلى العكس من سلوك ومنطق سماسرة السِّياسة العلمانيَّة الَّذين لا يتورَّعون عن إغداق الوعود المعسولة على الناس، حتَّى إذا وصلوا إلى غاياتهم وجلسوا على كرسيِّ الزَّعامة فإنَّهم ينسون كل ما قالوه وما وعدوا به.

كذلك في جواب النَّبي ﷺ لهم بقوله: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» تأييد لما يذهب إليه أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من أنَّ خلافة النُّبوة ليست من المناصب التي يرجع البتُّ فيها إلى الناس بل هي منصب إلهي والأمر لله فيها، يضعه حيث يشاء[١].

وفي ختام درسنا هذا لا بدَّ أن نشير إلى كيد قريش لدعوة الرسول ﷺ لم يكن شرّاً مطلقاً على الدَّعوة، بل شرّاً يحمل الخير في ثناياه، فقد ذاعت بسببه أنباؤها في جميع بلاد العرب، كما كان هذا الكيد سبباً في إيمان الأنصار من الأوس والخزرج - فيما بعد - وكان سبباً في انتقال الدعوة إلى المدينة، ثمَّ في انتشارها في بلاد العرب كلّها، ثمَّ فيما شاء الله بعد ذلك من أقطار الأرض «والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون»[٢].

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ٩٢ بتصرف وتلخيص.

(٢) دويدار، صور من حياة الرَّسول: ٢١٧ .

الأسئلة:

١ - هل ضعفت عزيمة رسول الله ﷺ أو تراجع عن دعوته إلى دين الله بعد تلك المعارضة الشديدة التي لقيها من سفره إلى الطائف ؟

٢ - ما هي الطريقة التي اتّبعها رسول الله ﷺ كأُسلوب عمل لنشر الإسلام بين أهل مكة والقبائل الوافدة إليها، ولفضِّ الحصار الاجتماعي الذي ضربته عليه قريش ؟

٣ - كيف واجهت قريش تحرّك رسول الله ﷺ على القبائل العربية الوافدة إلى مكة في موسم الحج ؟

٤ - ما هي أهم العبر والعظات التي يستفيدها المتأمل في طريقة تحرّك النبي ﷺ وعرضه للإسلام على القبائل في موسم الحج المبارك ؟

الدرس الرابع والعشرون
أحداثٌ سَبَقتْ الهِجْرة
«القسم الرابع»
بيعة العقبة الأُولى

محاور البحث:

١ - المراحل التي دخل بها الإسلام إلى يثرب
٢ - إسلام نفر من الخزرج
٣ - المفهوم القرآني للبيعة
٤ - حيثيات بيعة العقبة الأُولى
• الأسئلة

بيعة العقبة الأُولى

المقدِّمة

قلنا في الدَّرس السَّابق إنَّ قريشاً على الرغم مما بذلت من جهود لتشويه دعوة الرَّسولﷺ، وتحذير الناس منه،لم تستطع أن تَحُول بين الدعوة وبين الظهور والانتشار؛ فقد انتشر اسم رسول اللهﷺ في بلاد العرب كلِّها.

ومن جملة البلاد التي دخلها ذِكْرُ رسول اللهﷺ هي يثرب. فكيف دخل الإسلام إلى يثرب؟ ومتى؟ ومَن أوّل مَن أسلم؟ وما هي الظروف الموضوعيَّة الَّتي جعلت نفوس العرب في يثرب تتهيَّأ لقبول دعوة الإسلام؟

هذه مجموعة من الإثارات نطرحها للبحث، ويتَّضح الإجابة عنها خلال محاور هذا الدرس والدرس القادم إن شاء الله فنقول: رغم المتاعب والِمحَن الَّتي واجهها رسول اللهﷺ وهو يتحرَّك على القبائل الوافدة إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحجِّ، لدعوتهم إلى الإسلام، وتوحيد الله سبحانه، ونبذ الشِّرك والأوثان، إلاَّ أنَّ هذه المتاعب والِمحَن لم تُثنِ من عَزمِه، ولم يتوقَّف عن ذلك، بل واصل تحرُّكه بين الناس في أكبر تجمُّعاتهم وأكثرها شمولاً وهو موسم الحجّ، «فكان رسول اللهﷺ على ذلك من أمره كلَّما اجتمع له الناسُ بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى وإلى الإسلام، ويَعْرِض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرَّحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكَّة من العرب له اسم وشرف إلاَّ تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده»(١).

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢/ ٦٧.

١ - المراحل التي دخل بها الإسلام إلى يثرب

أمَّا قصَّة دخول الإسلام إلى يثرب فقد ذكر المؤرِّخون في هذا المجال روايات متعدِّدة يمكن أن نستخلص منها المراحل التي دخل بها الإسلام إلى هذا البلد.

المرحلة الأولى: عن طريق الوفد الذي أرسلته الأوس في السنة العاشرة من البعثة، والذي جاء يلتمس من قريش الحِلْف على قومهم من الخزرج، وانتهز الرَّسولﷺ فرصة وجودهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلم أحدهم وأعرض الآخرون[١].

روى ابن إسحاق عن محمود بن لبيد قال: «لمَّا قدم أبوالحيسر أنس بن رافع مكَّة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول اللهﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً وأنزل عليَّ الكتاب، ثمَّ ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال، فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حَدَثاً: أي قوم، هذا والله خير ممَّا جئتم له، فأخذ أبو الحيسر (أنس بن رافع)، حَفْنة من تراب البطحاء فضرب به وجه إياس بن مُعاذ وقال: دعنا منك فَلَعَمري لقد جئنا لغير هذا.

قال الرَّاوي: فصمت إياس، وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث[٢] بين الأوس والخزرج.

---

(١) حسن - الدكتور حسن إبراهيم، تأريخ الإسلام السِّياسي والديني والثقافي والاجتماعي: ١/ ٩٢، ط. دار الأندلس - بيروت.

(٢) بُعاث: موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

قال: ثمّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هَلَك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند موته: أنّهم لم يزالوا يسمعونه يُهلِّل الله تعالى، ويكبِّره، ويحمده، ويسبِّحه، حتَّى مات، فما كانوا يشكُّون أنَّه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حيث سمع من رسول الله ﷺ ما سمع»[١].

٢ - إسلام نفر من الخزرج

المرحلة الثانية: لقاء النَّبي ﷺ بوفد من الخزرج عند العَقَبة.

في سنة إحدى عشرة من النبوَّة خرج النَّبي ﷺ في الموسم يعرض على القبائل دعوته، ويطلب منهم نصرته، فالتقى على العَقَبة بِرَهْط من الخزرج، وقد نقل المؤرِّخون تفاصيل هذا اللِّقاء، يقول ابن إسحاق:

«فلمَّا أراد الله عزَّوجلَّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ، وانجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الَّذي لقيه فيه النَّفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كلِّ موسم، فبينما هو عند العَقَبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: «لمَّا لَقِيَهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج... قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزَّوجلَّ، وعرض عليهم الإسلام وتَلا عليهم القرآن. قال: وكان ممَّا صنع الله لهم به في الإسلام أنَّ يهود، كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهلَ كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إنَّ نبيّاً مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانه، نتَّبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٦٩ - ٧٠ .

فلمَّا كلَّم رسول اللهﷺ أولئك النَّفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنَّه النَّبي الذي توعَّدكم به اليهود فلا يستبقَنَّكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم، من العدواة والشَّر مابينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك.

ثمَّ انصرفوا عن رسول اللهﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا»[١].

ثمَّ ذكر ابن إسحاق عدد هؤلاء الذين التقى بهم رسول الله وحدَّدهم بستة نفر من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبدالله.

فلمَّا قَدِموا المدينةَ إلى قومهم، ذكروا لهم رسول اللهﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتَّى فشا فيهم فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلاَّ وفيها ذكر من رسول الله»[٢].

٣ – المفهوم القرآني للبيعة

وقبل الدخول في تفاصيل بيعة العَقَبة الأولى، وهذا المنعطف التأريخي في حياة الرِّسالة، نرى من الضَّروري أن نتحدَّث عن البيعة كمفهوم قرآني؛ لكي تتَّضح لنا خلفيَّات ما أراده النَّبيﷺ من هذه البيعة فنقول:

الجَذْر اللُّغوي الَّذي تنتسب إليه كلمة البيعة هو: (ب – ي – ع) ومنه جاءت كلمات باع، وبايع، والمبايعة، وما إلى ذلك.

---

(١) السِّيرة النبويَّة، ابن هشام: ٢ / ٧٠ – ٧١ .

(٢) المصدر نفسه: ٧١ – ٧٣ .

والمُبَايعة في الأصل، مبادلة المال بالمال، مأخوذة من البيع، ثمَّ استُخدِمَت في المعاهدة من حيث هي تبادل في الحقوق، وأكثر ما استُخدِمَت المبايعة في القرآن الكريم كانت في المبادلات غير المالية أيّ المعاهدات:

يقول الله تعالى في سورة التوبة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

ويقول تعالى في سورة الفتح:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

كما قال تعالى في نفس السورة:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3].

فالمبايعة في هذه الآيات الكريمة هي المعاهدة، وبخاصَّة في الآية الثانية حيث كان التَّصريح بأمرين:

الأوَّل: إنَّ الَّذين يبايعون النَّبيﷺ إنَّما يُبايعون الله في الحقيقة فيد الله فوق أيديهم حين المبايعة، وهذا إنَّما يعني في الحقيقة تأكيد المبايعة - أيّ المعاهدة

(١) التوبة: ١١١ .

(٢) الفتح: ١٠ .

(٣) الفتح: ١٨ .

من حيث أنَّها مبايعة مع الله.

الثاني: إنَّ الوفاء هنا إنَّما هو وفاء بما عاهدوا الله عليه، وفاءً جزاؤهُ من الله الأجر والثواب العظيم، أمَّا الَّذي ينكث فإنَّما ينكُث على نفسه من حيث إنَّ جزاءه سوف يكون العذاب العظيم لأنّه خان الله والرَّسول.

وقد كانت البيعة أو البيعات التي أشار القرآن الكريم إليها هي: بيعة العَقَبة الأولى، حيث دخل نَفَر من الأوس والخزرج في الإسلام، وبيعة العقبة الثانية والتي هي في حقيقتها سنخ معاهدة بين الأوس والخزرج والنَّبيﷺ كما سوف يأتينا في تفاصيلها.

وبعد استقرار النبيﷺ في مدينة يثرب، واتِّخاذه منها مستقراً له، ومنطلقاً لدعوته، طلب إليه القرآن الكريم أن يقبل البيعة من النساء المؤمنات المهاجرات، على أساس من العمل في ميدان التغيُّرات الَّتي تتناول الكثير من الآراء والمعتقدات، ومن التقاليد والعادات التي كان المجتمع الجاهلي يمارس حياته على أساس فهمها، وبذلك أضيف هدف جديد إلى أهداف البيعة وهو المشاركة في العمليَّة التي تساعد في تكوين المجتمع الجديد على أساس من القِيَم الجديدة[١].

والقرآن الكريم يبيِّن لنا ملابسات قبول البيعة من النساء المؤمنات في سورة الممتحنة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

(١) خلف الله - د. محمد أحمد، مفاهيم قرآنية: (عالم المعرفة: العدد ٧٩ / شوال ١٤٠٤ هـ).
(٢) الممتحنة: ١٢.

ثمَّ إنَّ هنالك بيعة أخرى تحدَّث القرآن عنها أيضاً وأَثْنى على القائمين بها، وهي بيعة الرِّضوان والمعروفة ببيعة الشجرة إذ قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١].

لقد كانت هذه البيعات تعني أمرين:

الأوّل: الدخول في الإسلام، وممارسة الحياة على أساس من القِيَم الدينيَّة الجديدة خضوعاً في ذلك لله وطاعة لرسوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٢]﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٣].

الثاني: حماية رسول الله ﷺ من أذى قريش، وقبول رسول الله ﷺ ومن صدَّقه وآمن به مهاجرين أو لاجئين في يثرب، ولهم ما لليثربيين من حقوق في هذا المهجر.

فالمعنى المرتكز إسلاميَّاً وشيعيَّاً في ذهن المتشرِّعة من وجوب إطاعة النَّبي أو الإمام على الإطلاق لا تعني وجوب البيعة معه كي تجب إطاعته، بل يرى رأساً وجوب إطاعة المعصوم حتَّى قبل البيعة.

على أنَّ أكثر ما كان عليه في بيعة النساء مع النَّبي ﷺ كما يظهر من مراجعة الآية، هي أحكام واجبة إلهياً بيَّنها الرَّسول كمبلِّغ لا كمجرَّد ولي أمر، وذلك من قبيل ترك الشِّرك بالله والسَّرقة والقتل والزِّنا، ولا إشكال في عدم توقُّف وجوب هذه الأمور على البيعة[٤].

---

(١) الفتح: ١٨ .

(٢) النساء : ٨٠ .

(٣) النساء: ٦٤ .

(٤) الحائري - السيد كاظم، أساس الحكومة الإسلاميّة: ٢٥١ (ملحق رقم ٩).

كذلك البيعة مع النَّبيﷺ أو الإمام المعصوم عليه السلام لا تعني بحال من الأحوال ثبوت النبوَّة أو الإمامة بالبيعة؛ لأنَّ النبوَّة والإمامة ليستا من الأمور الَّتي يُترك حقّ الاختيار فيهما إلى الناس كي يختاروا من أرادوا ويتركوا من لم يريدوا، وإنَّما مرجع الاختيار إلى الله سبحانه، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[١].

كذلك البيعة مع النَّبي والإمام المعصوم لم تكن شرطاً لتماميَّة الولاية، بل كانت تعهُّداً بالعمل بما هو الواجب من إطاعتهم عليهم السلام، ممَّا يُوجِب تأكيداً في تحرُّك الضمير نحو الانصياع للقائد[٢].

بعد هذه اللَّمحة المُوجَزة عن المفهوم القرآني للبيعة ننقل ما قاله مؤرِّخو السِّيرة النَّبويَّة من نبأ بيعتي العَقَبة الأولى والثانية، ونترك الكلام عن بيعة النساء وبيعة الرِّضوان إلى محلِّها من الدروس القادمة في العهد المدني.

٤ – حيثيات بيعة العقبة الأولى

في شهر ذي الحجَّة من السنة الثانية عشرة من البعثة وافى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار؛ عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، واجتمعوا بالنَّبيِّﷺ عند العَقَبة الكُبرى[٣]، فعرض عليهم دعوة الإسلام وطلب إليهم أن يبايعوه عليها، فبايعوه، وسُمِّيت تلك البيعة «بيعة العقبة الأولى» أو «بيعة النساء» أيّ على نمطها في البنود الَّتي بايع النساء عليها، أيّ أنَّه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد[٤].

---

(١) القصص: ٦٨ .

(٢) المرجع نفسه: ٢٥١ .

(٣) العقبة: هي المكان الذي ترمى فيه الجمار أيّام الحجّ، وهي ثلاث عقبات: الكبرى، والوسطى والصغرى.

(٤) انظر السهيلي، الروض الأنف: ٢ / ١٩٥ .

روى ابن إسحاق، عن عُبادة بن الصامت كيفيَّة هذه البيعة إذ قال: «كنت فيمن حضر العَقَبة الأولى، وكُنَّا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وَفَّيتم فلكم الجنَّة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزَّوجلَّ إن شاء عذَّب وإن شاء غفر»[١].

إرسال الرسول مصعباً مع وفد العقبة إلى المدينة:

فلَّما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هشام، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقِّههم في الدِّين، فكان يُسمَّى المُقرِئ بالمدينة وكان منزله على أسعد بن زرارة. وفي رواة عاصم بن عُمر: أنه كان يصلّي بهم»[٢].

استقرَّ مصعب بن عمير في يثرب، وأخذ يُقرؤهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، فكان أوّل معلِّم في الإسلام، وكانوا يسمُّونه المُقرىء، وبدخول مصعب إلى يثرب انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً وحدث تغيُّر عظيم في هذه البلدة المباركة، تغيُّر في العقيدة، والأخلاق، والسُّلوك، والعلاقات بين الناس، وفق مبادىء الإسلام التي بايعوا رسول الله ﷺ عليها.

وكان أسعد بن زرارة من الذين أسلموا من الخزرج يوم عرض عليهم رسول الله ﷺ دعوته ومن الذين حضروا بيعة العَقَبة الاولى والثانية، وجعل أسعد ومصعب يتعاونان على الدعوة إلى الله ويجتهدان اجتهاداً شديداً في الترغيب في الإسلام[٣].

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويّة: ٢ / ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٧٦ .

(٣) صور من حياة الرسول: ٢٣٢ .

وكان لدخول بعض الشَّخصيات الكبيرة في المدينة إلى الإسلام تأثير قوي على مجتمع المدينة؛ فقد دخل اثنان من زعماء المدينة إلى الإسلام وهما أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ.

وقد نقل ابن إسحاق قصَّة إسلامهما عن عمرو بن حزم فقال: «إنَّ أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبدالأشهل ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً - بستاناً - من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجل ممَّن أسلم وسعد بن معاذ وأُسيد بن حضير يومئذ سيِّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرِك على دين قومه، فلمَّا سَمِعَا به، قال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللَّذين قد أتيا دارَيْنا ليسفِّها ضعفاءنا فازجرهما وانهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أنَّ أسعد بن زرارة منِّي حيث علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أُسيد بن حضير حربته ثمَّ أقبل إليهما، فلَّما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيِّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يَجلس أكلِّمه. فوقف عليهما متشمتاً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تَجْلسُ فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفتَ، ثمّ رَكَز حَرْبَته وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا - والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهّله.

ثمّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأجملَه ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل وتطهِّر ثوبيك ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ ثمَّ تصلِّي - ففعل ذلك وأسلم - ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً إن اتَّبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن - سعد بن معاذ.، ثمَّ أخذ حَرْبَته وانصرف إلى سعد وقومه

وهم جلوس في ناديهم.

فلمّا نظر إليه سَعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حَدّثتُ أنَّ بني الحارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنّهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك.. فقام سعد مُغضباً مبادراً، تخوُّفاً للذي ذُكِر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثمَّ قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثمَّ خرج إليهما، فلمَّا رآهما سعد مطمئنِّين، عرف أنَّ أسيداً إنَّما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما... وعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن فأسلم.

ثمَّ أقبل سعد إلى قومه فلمَّا رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمَّا وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً، قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتَّى تؤمنوا بالله وبرسوله، قال الرَّاوي: فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلاَّ مسلماً ومسلمة»[١].

ولم يزل مصعب وأسعد يدعوان إلى الإسلام حتَّى لم تبق دار من دور الأنصار إلاَّ وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات.

وهكذا اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون يثرب هي المنطلق للمدِّ الإسلامي في أرجاء الأرض كلِّها، وأن يحقِّق لنبيِّه ﷺ وللمؤمنين ما وَعَدَهم من النَّصر والعِزَّة والكرامة.

---

(١) السِّيرة النبويَّة، ابن هشام: ٢ / ٧٨ - ٨٠ بتلخيص.

الأسئلة:

١ – ما هي المراحل التي دخل بها الإسلام إلى يثرب ؟

٢ – ما هو المفهوم اللغوي والاصطلاحي والقرآني للبيعة ؟ وهل أنّ طاعة النبيﷺ تتوقف على البيعة، أم أنّها طاعة مطلقة ؟

٣ – متى وقعت بيعة العقبة الأُولى ؟ ولمذا سميت بهذا الاسم ؟ وهل لها اسم آخر ؟ وكم كان عدد المبايعين فيها ؟

٤ – ما هو الدور الذي قام به «مصعب بن عُمير» بعد أن أوفده رسول اللهﷺإلى يثرب ؟

٥ – ما هي الشخصيات الكبيرة التي أسلمت ؟ وعلى يَدي مَنْ ؟

٦ – ما هو أثر إسلام تلك الشخصيات على قبائلهم ؟

الدرس الخامس والعشرون
أحداث سبقت الهجرة

«القسم الخامس»
بيعة العَقَبة الثانية

محاور البحث:

١ - بين بيعة العقبة الأولى والثانية
٢ - كيفيَّة البيعة وبنودها
٣ - الظروف الموضوعيَّة الَّتي جعلت نفوس العرب في يثرب تتهيَّأ لقبول الإسلام
٤ - الدروس والعبر
● الأسئلة

بيعة العَقَبة الثانية

١ - بين بيعة العَقَبة الأُولى والثانية

في السنة الثالثة عشرة من البعثة كانت هذه البيعة، والتي أَطلق عليها المؤرِّخون اسم بيعة العقبة الثانية، وهي المرحلة الثالثة لدخول الإسلام يثرب.

وما بين بيعة العقبة الاولى والثانية فاصل زمني لا يتجاوز السنة، ولكنَّها فترة زمنيَّة - على قِصَرها - حافلة بتطوُّرات الأحداث، فهذه يثرب قد انتشر فيها الإسلام، وكَثُر فيها الأنصار، بعد أن افتقدت الدَّعوة أنصارها في مكَّة إلاَّ قليلاً مستضعفاً، ولم تجد لها في قبائل العرب ناصراً ولا مُعيناً.

وبهذه البيعة انفتحت أمام المسلمين أبواب الآمال واسعة، وأحسُّوا بعدها بما يحسُّ به المكروب إذا وجد الفرج بعد الضيق، والأمل بعد اليأس، والأمن بعد الخوف، فكانت بحقٍّ أخطر بيعة في تأريخ الدعوة الإسلاميَّة[١].

فبعد سنة من العمل التَّغييري الناجح عاد مصعب بن عمير إلى مكَّة[٢] ليعرض على رسول الله ﷺ النتائج الباهرة التي حقَّقها الإسلام في ربوع يثرب،

---

(١) صور من حياة الرسول: ٤٢٩، مرجع سابق.

(٢) يظهر من ابن إسحاق، والطبري، والمقريزي، وابن حزم، وابن الأثير، أنَّ مصعباً قد سبق أهل يثرب إلى مكّة، إلاّ أنَّ ابن سعد في الطبقات: ١ / ١٠٦ يصرّح بخروجه مع الأنصار في موسم الحجّ.

وخرج معه من أهل يثرب ممَّن آمن وأسلم مجموعة كبيرة ليتمَّ اللِّقاء برسول الله ﷺ عند العقبة أيَّام التَّشريق.

روى ابن إسحاق قال:

«ثمَّ إنَّ مصعب بن عمير رجع إلى مكَّة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشِّرك، حتَّى قَدِموا مكَّة، فواعدوا رسول الله ﷺ العَقَبة من أوسط أيَّام التَّشريق، حيث أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشِّرك وأهله»(١).

وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يتمَّ هذا اللِّقاء، وتتمّ هذه البيعة بسرِّية تامَّة بعيداً عن عيون قريش، ولكي لاتتسرَّب الأنباء، فقد اتَّخذ التدابير اللأَزمة لذلك ضمن تعليمات أبلغت إلى هؤلاء النَّفر من الذين التقى بهم عند العقبة، وسجَّل لنا التأريخ بدقَّة هذه المواقف الحكيمة لرسول الله ﷺ؛ فقد أوصاهم رسول الله ﷺ أن يكتموا هذا الأمر على من معهم من المشركين، وأن يأتوا إليه متفرِّقين إذا مضى ثُلُث اللَّيل الأوّل، وأن لا ينتظروا غائباً ولا يوقظوا نائماً(٢).

ويحدِّثنا كعب بن مالك عن كيفيَّة وقوع هذه البيعة كما يروي ذلك ابن إسحاق فيقول: «وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيَّام التَّشريق قال: فلمَّا فرغنا من الحجِّ، وكانت اللَّيلة الَّتي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فَنِمْنا تلك اللَّيلة مع قومنا في رَحْلِنا، حتَّى مضى ثُلُث اللَّيل خَرَجنا من رَحْلِنا لميعاد رسول الله ﷺ نَتَسلَّل تَسلُّل القطا مستخفين، حتَّى اجتمعنا في الشِّعب عند العَقَبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، امّ عمارة، إحدى

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٨١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١٠٦، والمقريزي، إمتاع الأسماع: ١ / ٥٣.

نساء بني مازن، وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بني سلمة، وهي أم مَنيع»[١].

٢ - كيفيَّة البيعة وبنودها

قال - كعب - «فاجتمعنا في الشِّعْب ننتظر رسول الله ﷺ حتَّى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلاَّ أنَّه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويوثق له، فلمّا جلس كان أوّل متكلِّم العباس بن عبدالمطَّلب فقال: يا معشر الخزرج - وكان العرب إنَّما يُسمُّون هذا الحي من الأنصار (الخزرج)، خزرجها وأوسها .: إنَّ محمّداً منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممَّن هو على مِثْل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وانَّه قد أبى إلاَّ الانحياز إليكم واللُّحوق بكم، فإن كنتم ترون أنَّكم وافون له بما دعوتموهُ إليه، ومانعوه مِمَّن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنَّكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فَدَعُوه، فإنَّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

قال الرَّاوي: فقلنا له: قد سَمِعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربِّك ما أحببت.

قال: فتكلَّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تَمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والَّذي بعثك بالحقِّ نبيّاً لنمنعنك ممَّا نمنع منه أُزُرنَا[٢]، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة - السِّلاح - ورثناها كَابِراً عن كَابِر.

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٨٤، بتلخيص.

(٢) أزرنا : أي نساءنا، والمرأة قد يكنَّى عنها بالأزار، كما يكنّى أيضاً بالأزار عن النفس، وعلى هذا يصحّ أن يُحمل قول البراء على إرادة المعنيين معاً.

قال الرَّواي: فاعترض القول - والبراء يكلِّم رسول اللهﷺ - أبو الهيثم بن التَّيهان فقال: يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً وإنَّا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسَّم رسولُ اللهﷺ ثمَّ قال: بل الدَّم الدَّم، والهَدم الهَدْم[١] أنا منكم وأنتم منِّي، أحارب مَنْ حاربتم، وأُسالم مَن سالمتم».

ثمَّ إنَّ رسول اللهﷺ قال: اخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأَخْرَجُوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[٢].

وقد ذكر ابن هشام وابن إسحاق أسماء النقباء الاثني عشر، مع وجود اختلاف يسير في كون هذا الشخص من عدادهم أو شخص آخر، كما أن كعب بن مالك يذكرهم في شعره الذي يذكره ابن هشام[٣].

قال ابن إسحاق عمَّن حدَّثه: إنَّ رسول اللهﷺ قال للنُّقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء، كَكَفالة الحواريِّين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي- يعني المسلمين .، قالوا: نعم»[٤].

وفي أثناء هذا الحوار بين رسول اللهﷺ والأنصار وقبل أن يأخذ البيعة منهم، تكلَّم العباس بن عبادة الأنصاري في الخزرج، بما نقله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر قال: إنَّ القوم لمَّا أتمُّوا لبيعة رسول اللهﷺ قال العباس بن عبادة:

---

(١) وهذا مثل تضربه العرب عند عقد الحلف أو الجوار. أيّ ذمّتي ذمتكم، وحُرمتي حرمتكم.

(٢) ابن هشام، السِّيرة النبويّة: ٢ / ٨٤ - ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٨٦ - ٨٧ .

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٨٨ - ٨٩، بتلخيص.

يا معشر الخزرج هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قال: إنَّكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تَرَون أنَّكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنَّكم وافُون له بما دعوتموه إليه على نَهكة الأموال[١]، وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنَّا نأخذه على مُصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال ﷺ: الجنَّة.

قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

يقول الرَّواي: والله ما قال ذلك العبَّاس إلاَّ ليشدّ العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم.

وقد اختلفت الرِّوايات فيمن كان أوّل من ضرب على يد رسول الله ﷺ مبايعاً، فقد قال بعضهم إنَّه أسعد بن زرارة، وقال آخرون إنَّه أبو الهيثم التيهان، وفي قول ثالث إنَّه البراء بن معرور[٢].

شروط البيعة في العَقَبة الثانية:

قال ابن إسحاق عمَّن حدَّثه عن عبادة بن الصامت - وكان أحد النُّقباء - قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعةَ الحرب على السَّمع والطَّاعة، في عُسرنا ويُسرِنا

---

(١) نهكة الأموال: نقصها.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٨٨ - ٨٩، بتلخيص.

ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وان لاننازع الأمرَ أهلَهُ، وأن نقول الحقَّ أينما كنَّا، لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

ولابن إسحاق قائمة طويلة: «في أسماء من شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها من الأوس والخزرج، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين»، ونجد في هذه القائمة معلومات جيدة في ضبط أسمائهم وعشائرهم التي ينتسبون إليها، ومن شهد بدراً منهم، ومن استشهد في أحد أو غيرها من الغزوات، ومن طال به العمر حتى أدرك عصر الخلفاء. . .»(٢).

ردود فعل قريش:

هذه باختصار وقائع بيعة العَقَبة الثانية، وهي – كما قلنا – أخطر بيعة في تأريخ الدَّعوة الإسلاميَّة، وكانت هذه البيعة صدمة عنيفة للمشركين؛ إذ طاشت أحلامهم واضطرب تفكيرهم، فانقلبوا يلاحقون الأنصار من الأوس والخزرج في كلِّ طريق يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البيعة الخطيرة.

يروي كعب بن مالك كيفيَّة انصرافهم إلى مضاجعهم وسماع قريش للخبر وملاحقتهم لهم، قال: «ثمَّ قال رسول الله ﷺ: ارفَضُوا – أي تفرقوا – الى رِحَالِكم، فقال له العباس بن عُبادة: والله الذي بعثك بالحقِّ: إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: لم نُؤْمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رِحَالِكم قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فَنِمْنا عليها حتَّى أصبحنا. فلمَّا أصبحنا غدت علينا جلَّة قريش حتَّى جاؤونا إلى منازلنا.

فقالوا: يا معشر الخَزْرَج، إنَّه قد بلغنا أنَّكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه، على حربنا، وانَّه والله ما من حي من

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٩٧ – ١١٠ .

العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وقد صدقوا، لم يَعلموه، وبعضنا ينظر إلى بعض»[(١)].

إلاَّ أنَّ سرعان ما تيقَّنت قريش الخبر بعد أن رجع الناس من مِنَى، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة، فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه، ثمَّ أقبلوا به حتَّى دخلوا مكَّة يضربونه ويجذبونه من شعر رأسه، وانهالوا عليه ضرباً ولكماً، حتَّى خلَّصه بعض من كان يجير لهم في المدينة[(٢)].

٣ - الظروف الموضوعيَّة الَّتي جعلت نفوس العرب في يثرب تتهيَّأ لقبول الإسلام

بعد هذه الجولة التأريخيَّة في ثنايا الواقع التأريخي لبيعتي العَقَبة نطرح بين يدي البحث سؤالاً مهمَّاً ملتمسين جوابه من النُّصوص التأريخيَّة، والسُّؤال المطروح هو: ما هي الظروف الموضوعيَّة التي هيَّأت أهل يثرب لقبول هذا الدين؟

عندما نستعرض الواقع التأريخي لسكَّان يثرب تتجلَّى لنا العناصر الأساسيَّة الَّتي جعلت أهل يثرب مُهَيّأين نفسيَّاً لقبول الدِّين الَّذي بُعِثَ به رسول الله ﷺ، ويمكننا إجمال ذلك في النقاط التالية:

١ - الحروب الدَّائمة بين الأوس والخزرج:

كانت العناصر السُّكَّانية ليثرب في ذلك الوقت تتكوَّن من عنصرين متميِّزين؛ عنصر يهودي يتكوَّن من ثلاث قبائل: بني النَّضير، وبني قُريظة، وبني

---

(١) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٩١ - ٩٣، بتلخيص وتصرف.

قينقاع، وعنصر عربي يتألفَّ من قبيلتين هما: الأوس، والخزرج.

وكان اليهود يرَوْن في هؤلاء العرب مزاحماً لهم، ومنازعاً لهم في ملكهم وسيادتهم، فلجأوا إلى الحيلة للتَّفريق والوقيعة بينهم، وجعلوا يدسُّون بين الأوس والخزرج ويستثيرون فيما بينهم أسباب العداوة، فحلَّ الخصام محلَّ الوئام، واستحكمت العداوة بين الحيَّين، فقامت بينهما حروب طاحنة كان لها في حياتهم تأريخ طويل، وكانت لهم في ذلك أيَّام مشهورة ووقائع مذكورة، يتحدَّث الرُّواة بشناعة ما كان فيها من فعال، حتَّى كان آخرها يوم «بعاث» قبل الهجرة بسنوات قليلة، وقد شعرت الأوس والخزرج جميعاً بعد هذا اليوم بسوء ما يصنع بعضهم ببعض، فسعى العقلاء منهم لإصلاح ذات بينهم وفكَّروا أن يَنصبوا عليهم زعيماً واحداً منهم، ولكنَّ الله أراد بهم خيراً ممَّا أرادوا بأنفسهم فهداهم إلى دينه القيِّم، وجعلهم أنصاراً لرسوله[1].

٢ - إخبارات أهل الكتاب:

وكان اليهود أهل كتاب وعِلْم، وكان الأوس والخزرج أمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون، وكانوا كذلك أهل شرك وأوثان، يعبدون الأصنام كما يعبدها سائر العرب، وكان اليهود يعيِّرونهم بذلك، ويحقِّرونهم ويعيبون عليهم جهلهم، ويتطاولون عليهم بعلمهم وكتابهم، وكلَّما رأوا منهم تمرُّداً قالوا لهم: إنَّ نبيّاً سيُبعث الآن قد أظلّ زمانه، نتَّبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

من أجل ذلك كان الأوس والخزرج يترقَّبون ظهور هذا النَّبي، ويتمنَّون لو سبقوا اليهود إليه فاتَّبعوهُ وآمنوا به واستنصروا به عليهم.

٣ - تعاليم الشَّريعة السَّمحاء:

إنَّ تعاليم الإسلام لهي التعاليم الموافقة للفطرة السَّليمة، وبلا تعقيد أو إبهام

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢٢٠ . (مرجع سابق).

فيها، فهي بسيطة وسهلة ولا تحتاج لإدراك حقَّانيتها إلى تفكير عميق أو إجهاد في إدراك مراميها، ولذلك نجد أهل المدينة يُسارعون إلى قبول الدَّعوة بمجرَّد سماعهم لأهدافها ومبادئها.

٤ – شخصيَّة النَّبي الأكرمﷺ:

إنَّ شخصية الرَّسولﷺ العظيمة، وأخلاقه الكريمة، وكونه من أرفع بيت في قريش والعرب، وكذلك رابطة القُربى الَّتي كانت تربطه ببني النَّجار الخزرجيِّين عن طريق آمنة بنت وهب، كل ذلك وسواه ممَّا تقدَّم قد أسهم في إقبال أهل المدينة على الإسلام وتقبُّل دعوته والتَّضحية في سبيله[١].

هذه جملة من الظروف الموضوعيَّة الَّتي كان لها الدور الكبير في انفتاح نفوس أهل المدينة على الإسلام والنَّبي الأكرمﷺ.

بيعة العقبة الثانية وحدّها الفاصل بين عهدين:

لقد كانت هذه البيعة حدّاً فاصلاً بين عهدين من عهود الدَّعوة، كان أوَّلها عهد ابتلاء واختبار، وهو العهد الَّذي قضاه المسلمون بمكَّة؛ فقد عاشوا فيه قِلَّة مُستضعفين بين عدوٍّ قاهر جبَّار يسومهم سوء العذاب ويذيقهم من صنوف الأذى ما لا يمكن أن يطاق ولا أن يحتمله بشر من الناس، إلاَّ أن يكون له مدد قوي من الإيمان الصادق واليقين الثَّابت، وكأنَّما كان ذلك امتحاناً من الله لهم أراد به تمحيصهم وإعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة الصَّالحة التي أراد لهم أن ينشروها في الأرض، فلمَّا تأكَّد نجاحهم في الامتحان، وتبيَّن صدق إيمانهم، وقوَّة عزمهم أدركهم هد المكافأة والجزاء على الصَّبر، فاستنقذهم الله من هذا العذاب وهيَّأ لهم هذه المدينة الآمنة فهاجروا إليها بعد هذه البيعة المباركة، وقيَّض لهم

(١) الصَّحيح من سيرة النبي: ٤ / ١٢٠ وما بعدها (بتلخيص وتصرف).

هؤلاء الإخوة الُمخلِصين من أهلها، فآووهم ونصروهم وقاسموا أموالهم وديارهم وآثروهم على أنفسهم بكثير من الطَّيبات وفتح الله لهم أبواب رحمته، فبدَّل خوفهم أمناً وذُلَّهم عزّاً وهوانهم كرامة.

ولقد منَّ الله عليهم بهذه النَّعمة إذ يقول سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

٤ – الدروس والعبر

هنالك مجموعة من الدروس والعبر يمكن أن نستفيدها من خلال بيعتي العقبة، نشير إلى بعضها باختصار:

أولا: الحفاظ على سرّية الدعوة:

لقد كان الطابع العام للمرحلة المكية من سنيّ الدعوة الإسلامية السرّية في تفاصيلها، لأنّ الدعوة كانت محاصرة من قبل قريش، وكانت ترصد كلّ تحرك يقوم به رسول الله ﷺ ومن آمن معه من المسلمين في هذه المرحلة. ولهذا نجد رسول الله ﷺ حريصاً جداً على أن تبقى كلّ اتصالاته وتحركاته على الأشخاص والقبائل بعيدة عن عيون قريش ورصدها. ولهذا نجده ﷺ وبعد أن رفض سادة ثقيف الاستجابة لدعوته ونصرته طلب منهم «كتمان الأمر» لأنّ في افشاء سرّ هذه السفرة مضاعفات خطيرة في مكة وفي أوساط قريش إذ تشدد في قبضتها على المسلمين لمنعهم من أي تحرك خارج مكة.

ونجد أمر الحفاظ على السريّة بوضوح في كلّ تفاصيل بيعتي العقبة بحسب ما حكته الروايات التاريخية والتي استعرضنا طرفاً منها.

---

(١) الأنفال: ٢٦ .

والدعوة الإسلامية في مواجهتها وتحركاتها ينبغي لها أن تأخذ بهذا المبدأ في حدود ما يضمن لها أمنها من الأعداء المتربصين بها.

إلاّ أنه ينبغي عدم الافراط في التمسك بهذا المبدأ كي لا تتحول الدعوة الإسلامية إلى منظمة سرية، أو شبيهة بالحركات الباطنية التي تخفي تعاليمها وتحركاتها عن أقرب المقربين منها، فإن ذلك يجر إلى الريبة والشك وعدم الثقة من قبل الأُمة بالدعوة.

ثانياً: اعتماد الأُسس الصحيحة في التفاوض والتحالف مع الآخرين:

لقد اعتمد النبيّ الأكرمﷺ مبدأ التفاوض مع القبائل التي وفدت إلى مكة في موسم الحج، ودخل في مفاوضات مع بعض هذه القبائل حتى وصل الأمر إلى النفر القليل من الأوس والخزرج والذي تكلَّل بنجاح باهر في بيعتي العقبة.

ومن المؤكد أن مبدأ السرّية الذي اعتمده النبيﷺ في تحركه قد حجب عنا الكثير من المعلومات عن تفاصيل هذه المفاوضات! إلاّ أنّ ما نقل لنا من شذرات يسيرة منها، تصلح أن تكون بمثابة الأُسس في العمل السياسي والدعوي. ومن أهم هذه الأُسس أساس: عدم الابتزاز السياسي، وعدم المساومة على المبادئ وهذا ما لاحظناه جلياً في حوارهﷺ مع ذلك الرجل من بني عامر بن صعصعة حينما قال لرسول اللهﷺ: أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابهﷺ بشكل قاطع: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»[(١)].

إذ حاول هذا الرجل أن ينتزع من رسول اللهﷺ تعهداً واحداً، فنجد الرسولﷺ وهو على تلك الحالة من قلة الناصر - يرفض ولا يخضع لهذا الابتزاز ولا يساوم على المبادئ.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦٦ .

وقد تكرر هذا الرفض منهﷺ في مواطن أُخرى من العهد المدني كما سوف يأتينا في محله.

والذي نستفيده من خلال أجواء هذه القضية أن العمل السياسي قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى الدخول في مفاوضات وتحالفات مع أطراف أُخرى قد لا نلتقي معها في كثير من المبادئ التي نلتزم بها، إلاّ أن الظروف السياسية والموضوعية قد تستوجب مثل هكذا مفاوضات وتحالفات، إلاّ أنّه ينبغي أن تكون هذه التحالفات بعيدة عن روح الابتزاز السياسي، أو انتزاع التعهدات المستقبلية التي قد لا تكون الدعوة الإسلامية قادرة على الوفاء بها في حينها.

ثالثاً: اعتماد المرحلية وعدم استعجال النتائج:

لقد تحدثنا عن المرحلية وضرورتها في بداية هذه الدروس، وقلنا إن الرسولﷺ قد اتخذ هذا الأُسلوب العقلائي في دعوته كمبدأ أساسي في تحركه.

وعندما استعرضنا كيفية دخول الإسلام إلى يثرب نجد أن هذا الأمر قد اتخذ طابعاً مرحلياً من خلال نفر قليل من أهل المدينة ممن أراد الله بهم خيراً، ثمّ مضت سنة كاملة أثمرت عن لقاء أوسع وبيعة تاريخية مهمة، ثمّ بعد سنة أُخرى تتسع الدائرة لتتوج بيعة العقبة الثانية ومن ثمّ هجرة الرسول إلى المدينة.

فالنبي الأكرمﷺ في الوقت الذي كان حريصاً على عامل الزمن في دعوته، إلاّ أنّه لم يكن يستعجل النتائج من خلال حرق المراحل أو القفز عليها، وإنما عمل بصبر وأناة وحكمة عالية لتهيئة المناخات اللازمة في المدينة لهجرته إليها واتخاذه منها دولة للإسلام، وهذا ما تحقق بفضل الله تعالى.

ولهذا ينبغي للداعية أن يتخذ من هذا الهدي النبوي مناراً له في طريق الدعوة إلى الله سبحانه، فيتخذ من المرحلية منهجاً له في عمله الدعوتي، ويتخذ المقدمات والوسائل المدروسة للوصول إلى النتائج المرجوة، ولا يستعجل هذه النتائج قبل أوانها.

الأسئلة:

١ - في أي سنة وقعت بيعة العقبة الثانية ؟ وما هي الفاصلة الزمنية بين البيعتين ؟

٢ - كيف تمّت بيعة العقبة الأُولى ؟ وما هي البنود القانونية التي تضمّنتها ؟

٣ - كيف كانت ردود فعل قريش بعد أن تناهى إلى مسامعها وقوع هذه البيعة ؟

٤ - ما هي الظروف الموضوعية التي جعلت نفوس العرب في يثرب تتهيّأ لقبول الإسلام والإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

٥ - اذكر باختصار الدروس والعبر من بيعتي العقبة.

الدرس السادس والعشرون
الهجرة

«القسم الاول»
هجرة المسلمين إلى المدينة

محاور البحث:

١ - الإذن بالهجرة إلى المدينة
٢ - مع المهاجرين إلى المدينة
٣ - مؤامرة قريش
٤ - مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم
٥ - قريش في طلب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم
٦ - النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في غار ثور
• الأسئلة

هجرة المسلمين إلى المدينة

١ - الإذن بالهجرة إلى المدينة

تُعتبر بيعة العَقَبة الثانية أخطر بيعة في تأريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ونقطة تحوُّل في حياة الأمَّة الإسلاميَّة، حيث أيقن معها المسلمون بقرب نصر الله، والخروج من مرحلة الضيق والمحاصرة الَّتي فرضتها عليهم قريش في مكَّة مدَّة ثلاثة عشر عاماً.

فبعد الجهود المُضنية الَّتي بذلتها قريش للصدِّ عن الله ورسولهﷺ، والحيلولة دون انتشار الهدى ودين الحقِّ إلى ما وراء حدود مكَّة، قيَّض الله تعالى لرسولهﷺ هذه الفئة المؤمنة من أهل المدينة فآمنت برسوله، وصدَّقت بما جاء به من البِّينات والهدى، وعاهدته على أن تُدافع عنه بالأنفس والأموال، وأن تجاهد في سبيل الله كل عدو مهما كان لونه ومهما كانت مكانته.

قال ابن إسحاق:

«فلمَّا أَذن الله تعالى لهﷺ في الحرب وبايعه هذا الحيُّ من الأنصار على الإسلام والنُّصرة له ولِمَن اتَّبعه، وأوى إليهم من المُسلمينَ، أمر رسول اللهﷺ أصحابه من المهاجرينَ من قومه، ومن معه بمكَّة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللُّحوق بإخوانهم من الأنصار، وقالﷺ: «إنَّ الله عزَّوجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

فخرجوا أرْسالاً - أي جماعة إثر جماعة - وقام رسول اللهﷺ بمكَّة ينتظر

أن يأذن له ربُّهُ في الخروج من مكَّة، والهجرة إلى المدينة»[١].

والذي يفهم من كلام ابن إسحاق أن القتال قد شرع قبل هجرة النبيﷺ إلى المدينة، عند بيعة العقبة الثانية، مع أن المروي إنّ أول آية نزلت في إذن الله تعالى لرسوله في الحرب هي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٢] في سورة الحج التي نزلت في المدينة بحسب رواية ابن عباس[٣].

وعندما نعود إلى النص التاريخي لبيعة العقبة الثانية، لا نجد فيها ما يدل على مشروعية القتال في تلك الساعة، وإنما أخذ عهد القتال والجهاد في سبيل الله كعهد مستقبلي، بل إننا نجد في النص التاريخي ما هو صريح في عدم الاذن بالقتال في حينها، فعندما قال العباس بن عبادة لرسول اللهﷺ بعد بيعة العقبة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا». فقال رسول اللهﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[٤].

٢ – مع المهاجرين إلى المدينة

بعد أن أذِنَ رسول اللهﷺ لأصحابه بالهجرة إلى إخوانهم الأنصار، جعلوا يتسلَّلون إلى المدينة، ويهاجرون إليها واحداً بعد واحد، وجماعة إِثر جماعة، تاركين وراءهم كل ما يُثْقلهم من مال ومتاع، وأهل وعشيرة.

فلما رأت قريش ذلك، وأحسَّت بخطر هذه الهجرة جعلت تحول بينهم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١١١ .

(٢) الحج: ٣٩ .

(٣) السيوطي، الدر المنثور: ٦ / ٥٠، ٥٥ .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٩٠، وللتوسع انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية: ١١٤ .

وبينها، وتمنع من تستطيع أن تمنعه منهم، لكنَّها لم تستطع أن تمنع إلاَّ قليلاً من المستضعفين، أمَّا الأقوياء فقد استطاعوا أن يخرجوا على رغم قريش.

ويروي الرُّواة وعلماء السِّيرة في هجرة أصحاب النَّبيﷺ قصصاً كثيرة مؤثرة، تدلُّ على شدَّة ما كانوا يُلاقون من الأذى من رجال قريش، وعظم ما كانوا يقومون به من تضحيات في سبيل الله.

وفيمايلي نماذج ممَّا يرويه رُواة السِّيرة ومحدِّثوها من قصص حول هجرة أصحاب رسول اللهﷺ:

يُروى أنَّ أبا سلمة - وهو أوَّل من هاجر الى المدينة من أصحاب رسول اللهﷺ - لَمَّا أقبل مهاجراً إلى المدينة، وقفت دونه قريش، وحالت بينه وبين ولده وزَوْجِه، فآثر أن يتركهما ويفرَّ بدينه إلى الله، حتَّى ردَّهما الله عليه فهاجرا إليه بعد سنة من فراقهما[1].

وروى ابن هشام، عن أبي عثمان النهدي فيما روى عن قصَّة صُهيب بن سِنَان لمَّا أراد الهجرة، أن قال: «بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفَّار قريش، أتيتنا صُعلوكاً حقيراً، فَكُثر مَالُك عندنا، وبلغت الَّذي بلغت، ثمَّ تريد أن تخرج بَمالِك ونفسك، والله لا يكون ذلك!

فقال لهم صُهيب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أَتُخلُّون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإنِّي جعلتُ لكم مالي.

وترك ماله وهاجر بنفسه إلى المدينة.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١١٢ - ١١٣ (بتلخيص).

فلمَّا بلغ ذلك رسول اللهﷺ قال: رَبِحَ صُهيب! رَبِحَ صهيب»[١] !

ولم تكتفِ قريش بمقاومة من يريد الهجرة من مكَّة من المسلمين، بل تجاوز الأمر ذلك إلى محاولتهم إرجاع من وصل المدينة من المهاجرين.

كما يروي ذلك ابن هشام في قصَّة (عيَّاش بن أبي ربيعة) لمَّا هاجر مع عمر بن الخطاب إلى المدينة ونزلا في بني عمرو بن عوف بقُباء «خرجَ إليه أبو جهل بن هشام وأخوه الحارث بن هشام - وكان عيَّاش ابن عمِّهما وأخاهما لأُمهما، وكان أصغر ولد أمه - فكلَّماه وقالا له: إن أُمَّك قد نذرت أن لا يَمَسَّ رأسها مشط حتَّى تراكَ، ولا تستظلَّ من شمس حتَّى تراك، فرقَّ لها... وصدَّقهما، فخرج معهما فلمَّا كانوا ببعض الطريق عَدَوا عليه، وأوثقاه وثاقاً، ثمَّ دخلا به مكَّة نهاراً وهو في وثاقه، ثمَّ قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا»[٢].

إلاّ أنّ محاولات قريش لمنع المسلمين من الهجرة لم تقف دون هجرتهم وواصل المسلمون هجرتهم من مكَّة الى المدينة، حتَّى خَلَت منهم الدِّيار، وبقيت تصفق الرِّياح أبوابها، وكان من هذه الدُّور، دار بني جحش، ودار بني مظعون، ودار بني البُكير.. هجرها سكَّانها رجالاً ونساءً، وكباراً وصغاراً.

ذكر ابن إسحاق: «إنَّ عُقبة بن ربيعة، والعباس بن عبدالمطلب، وأبا جهل بن هشام مرُّوا وهم مصعدونَ الى أعلى مكَّة، بدار بني جحش، فنظر إليها عُتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً، ليس فيها ساكن، فلمَّا رآها كذلك تَنَفَّسَ الصُّعداء، ثمَّ قال:

وكلُّ دار وإن طَالتْ سلامتُها يوماً ستدركها النَّكْبَاءُ والحوبُ»[٣]

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١١٥ .

وما زال المسلمون يتلاحقون بالمدينة، حتَّى لم يبقَ في مكَّة إلاَّ رسول الله ﷺ وأبوبكر وعلي عليه السلام، وبعض المسلمين ممن لم يجد إلى الهجرة سبيلا من مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج، وهم المستضعفون الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1].

ونزل المهاجرون من أهل مكة على إخوانهم من أهل المدينة، فآووهم وآسوهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة الأهل والعشيرة.

وتوزَّعَ الأنصار فيما بينهم إخوانَهُم المُهاجرينَ، فنزل أصحاب الأُسَرِ منهم على اصحاب الأُسر، ونزل الأعْزاب على سعد بن خثيمة، لانَّه كان عازباً[2].

أمَّا رسول الله ﷺ، فقد بقي بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤذَن له في الهجرة، ولا تعرف قريش وجهة رسول الله ﷺ، أَهوُ عازم على الهجرة أم قرَّر الإقامة؟ إذلا يستكشف من هجرة المسلمين الى المدينة عزمُهُ ﷺ على الهجرة إليها، لأنَّهم سبق أن رأوهُ من قبل قد أَذِن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة وبقي هو في مكَّة يدعو أهلها إلى الإسلام[3].

٣ - مؤامرة قريش

وتوجَّست قريش خِيفةً من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة فقد صار أصحابه فيها كثرة يحسب حسابها، وكان لابدَّ لها من عمل سريع حاسم، تقضي

---

(١) النساء: ٩٨ - ٩٩ .

(٢) انظر: ابن هشام: ٢ / ١٢٣، وصور من حياة الرسول، أمين دويدار: ٢٣٧ مرجع سابق.

(٣) الصيمري - مجيد، في ظِلال السِّيرة: ١٧٦ مرجع سابق.

به على أسباب هذا الخوف الذي يقضُّ مضجعها، فأخذوا يفكِّرون في طريق للخلاص من محمدﷺ.

قال ابن إسحاق:

«ولمَّا رأت قريش أنَّ رسول اللهﷺ قد صارت له شيعةٌ وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عَرَفوا أنَّهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعَةً، فَحذِروا خروج رسول اللهﷺ إليهم، وعرفوا أنَّه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار النَّدوة يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول اللهﷺ حين خافوه»[١].

فلمَّا اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم، ليتَّخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر، وأهم ما طُرح من آراء في هذا الاجتماع كمايلي:

الرأي الأول: أن يحبسوه عندهم، ثمَّ يتربَّصون به ما أصاب أشباهه من الشُّعراء! ولكنَّ هذا الرأي لم يلقَ سميعاً، فقد خافوا أن يأتي إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار، فيخلِّصوهُ من بين أيديهم.

الرأي الثاني: أن يُخرجوه من ديارهم، ثمَّ يتركونه يذهب حيث يشاء! ولكنَّ هذا الرأي كذلك لم يلق سميعاً، فقد خافوا حلاوة منطقه، وسحر بيانه، وقدرته على اجتذاب القلوب، أن تجعل له أنصاراً في كلِّ مكان يذهب إليه، فينتشر أمره ويشتد ساعده، ثمَّ يكون هو ومن يناصره قوَّة تهدِّد أمنهم وطمأنينتهم.

الرأي الثالث: أن يقتلوهُ! ولكن كيف يقتلونه وقد أحاطه بنو عبدمناف من جميع النَّواحى؟ ومن أي قبيلة يمكن أن يكون هذا القاتل؟ وأي قبيلة تستطيع أن تتصدَّى لعداء بني عبد مناف؟

---

(١) ابن هشام: ٢ / ١٢٤ .

ومازالوا يقدِّرون ويُدبرِّون، ويتبادلون وجوه الرأي فيما بينهم حتَّى اتَّفقوا على الرأي الثالث، وهو: أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة[١].

روى ابن إسحاق: «فقال أبوجهل بن هشام: والله إنَّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثمَّ نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد. فيقتلوه، فنستريح منه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك تَفرَّقَ دمه في القبائل جميعاً، فلم تقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعَقْل[٢]، فَعقلْنَاهُ لهم. فتفرَّق القوم على ذلك وهم مُجمِعون له»[٣].

ورضي المُؤتَمِرون بهذا الحل للمشكلة الَّتي حيَّرتهم، وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه، وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٤].

٤ – مَبِيتُ الإمام عليعليه السلام في فراش النَّبيصلى الله عليه وآله وسلم

يتابع ابن إسحاق روايته في ذكر تفاصيل ما أجمعت قريش على القيام به من اغتيال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وكيف نجاة الله سبحانه منهم بعد مبيت الإمام علي بن أبي طالب في فراشه، فيقول: «فأتى جبرئيل عليه السلام رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فقال: لا تَبِت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيتُ عليه. قال: فلمّا كانت عَتمَة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٢٤ – ١٢٦، وصور من حياة الرسول: ٢٣٨ مرجع سابق.

(٢) العقل: أي الدية.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٢٦ .

(٤) الأنفال: ٣٠ . وانظر السيوطي، تفسير الدر المنثور: ٤ / ٤٧، وفقه السِّيرة: للغزالي: ١٥٨ .

الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم..».

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده.. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو الآيات من يس: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من الآيات، ولم يبق رجل إلاّ وقد وضع على رأسه تراباً، ثمّ انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثمّ ما ترك منكم رجلا إلاّ وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثمّ جعلوا يتطّلعون فيرون عليّاً على الفراش متسجّياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائماً، عليه بردهُ. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام علي (رضي الله عنه) عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا».

ونجد هذه الرواية عند الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل، كذلك رواها ابن سعد في الطبقات عن مجموعة من الصحابة إلاّ أن رواية ابن سعد تخلو من عبارة: «فإنّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» التي وردت في رواية ابن إسحاق عن النبي ﷺ عندما طلب من علي أن يبيت في فراشه[١].

إلاّ أنّ رواية الشيخ الطوسي تقول: إنَّ أولئك القوم الَّذين انتدبتهم قريش، اجتمعوا على بابِ النّبي ﷺ يرصدونه، يريدون بياته، فأمر ﷺ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بالمبيت على فراشه، بعد أن أخبره بمكر قريش... ثمّ قال ﷺ لعلي: فما أنت قائل وصانع؟ فقال عليٌّ عليه السلام: أَوَ تَسْلم بمبيتي هناك يا نبيَّ الله؟ قال: نعم.

فتبسّم عليٌّ عليه السلام ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لله، لما

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٢٦ – ١٢٧، والطبري: ٢ / ٣٧٢ – ٣٧٣، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١ / ٥١٦ – ٥١٧، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٩ – ١١٠.

أنبأه ﷺ بسلامته. فقال له النَّبيّ ﷺ: فارقد على فراشي واشتمل بِبُردي الحضرمي... ثمَّ خرجَ النَّبي ﷺ في فحمة العِشاء الآخرة، والرَّصد من قريش قد طافوا بداره ينتظرون أن تنتصف الليل وتنام الأعين، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

وأقبل القوم على علي قذفاً بالحجارة ولا يشكّون أنّه رسول الله ﷺ، حتى إذا برق الفجر وأشفقوا أن يفضحهم الصبح هجموا على علي، فلمَّا بَصرَ بهم عليٌ عليه السلام قد انتضوا السُّيوف، وأقْبَلَوا عليه بها، يقدمهم خالد بن الوليد... وثب له عليٌّ عليه السلام، فختله، فهمز يده، فجعل خالد يقمص قماص البكر، وأخذ منه السَّيف، وشدَّ عليهم بسيف خالد فأجفلوا أمامه إجفالَ النِعَم الى ظاهر الدار، وتبصَّروه، فإذا هو علي، قالوا: وإنَّكَ لعلي؟ قال: انا عليٌّ، قالوا: فإنَّا لم نُردك، فما فعل صاحبك؟ قالَ: لا عِلَم لي به»[2].

وجاء في تأريخ اليعقوبي: «إنَّ الله عزَّوجلَّ، أوحى في تلك اللَّيلة إلى جبريل وميكائيل أنِّي قضيت على أحدكما بالموت فأيّكما يواسي صاحبه؟ فاختار الحياة كلاهما، فأوحى الله اليهما: هلاَّ كنتما كعليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، آخيت بينه وبين محمَّد، وجعلتُ عُمْر أحدهما أكثر من الآخر، فاختار عليٌّ الموت، وآثر محمّداً بالبقاء ونام في مضجعهِ، اهبطا فاحفظاهُ من عدوِّه، فهبط جبريل وميكائيل فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، يحرسانه من عدوِّه، ويصرفان عنه الحجارة، وجبريل يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب مَن مِثلُك يُباهي الله بك ملائكة سبع سماوات»[3].

---

(١) يس: ٩.

(٢) الطوسي - محمد بن الحسن، أمالي الطوسي: ١ / ٦٩٠ - ٦٩٢، تحقيق: الجعفري والغفاري، طبعة دار الكتب الإسلامية - طهران، (١٣٨٠ هـ. ش).

(٣) اليعقوبي، تأريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٩.

وبهذه المناسبة أنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١] كما نصَّ على ذلك الفخر الرازي في تفسيره[٢] في أحد أقوال أسباب نزول الآية، ونص على ذلك غيره من المفسِّرين[٣].

يقول الإسكافي المعتزلي: «وقد روى المفسِّرون كُلُّهم: أنَّ قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ نزلت في عليٍّ ليلة المبيت على الفراش[٤].

محاولات صرف فضيلة المبيت عن علي عليه السلام:

وفي قصَّة مَبيْت عليٍّ عليه السلام في فراش النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم تتجلَّى لنا أروع صور الفداء والتَّضحية، حيث تحمَّل عليه السَّلام ذلك حِرْصاً منه على سلامة النَّبيِّ القائد صلى الله عليه وآله وسلم، مسجِّلاً بذلك ما لم يُعرَف من أحد في تأريخ البطولات والتَّضحيات في سبيل المبدأ والعقيدة.

وليس ذلك غريباً على عليٍّ عليه السلام وأبيه من قَبل، فإنَّ مَنْ يستعرض تأريخ أبي طالب وولده علي عليه السلام ومواقفهما الحازمة في نُصرة الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام لا يستطيع أن يفضِّل موقفاً على موقف، فجميع مواقفهما تأتي في القِمَّة بين مواقف الأبطال والمضحِّين في سبيل الله وخير الإنسانيَّة[٥].

---

(١) البقرة: ٢٠٧ .

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٥ / ٢٢٣ .

(٣) القرطبي - محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ٣ / ١٦، والطبرسي - علي بن الفضل، مجمع البيان: ٢ / ٥٧ .

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٦٢ .

(٥) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٢٥٣ .

«إلاّ أن الّذي يدعو الى الدهشة والاستغراب أنَّ الّذين كتبوا التأريخ الإسلامي والسِّيرة النَّبويَّة وأحصوا الحوادث، الَّتي رافقت سيرة الرسولﷺ لم يغفلوا عن شيء من تلك الحوادث ومع ذلك لانجدهم يعطون الأهميَّة الكافية لهذا الموقف الكريم من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بل حاول البعض أن يَصْرِف هذه الفضيلة عن عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويَصرِف الآية عن سبب نزولها، كما فعل ذلك (فضل بن روزبهان) حيث ذَكَر أنَّ أكثر المفسِّرين يقولون: إنَّ الآية قد نزلت في الزبير والمقداد، حيث أرسلهما النَّبيﷺ إلى مكَّة لِيُنزلا «خبيب بن عدي» عن الخشبة الَّتي صُلِب عليها»[(١)] مع أنَّ المفسرين لم يذكروا ذلك، حتَّى السِّيوطي والرازي والزمخشري، مع أنَّ الرازي قد جمع في تفسيره، كل أقوالهم، والسِّيوطي جمع عامَّة رواياتهم.

كذلك أنكر (ابن تيمية) نزول الآية في أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال: «إنَّ حديث حراسة جبرائيل و ميكائيل له، و نزول الآية فيه كذب باتِّفاق أهل العِلْم بالحديث والسِّير، وأيضاً قد حصلت له الطّمأنينة بقول الصَّادق له: (لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم) فلم يكن فيه فداء بالنَّفس، ولا إيثار بالحياة، والآية المذكورة في سورة البقرة، وهي مدنيَّة باتِّفاق، وقد قيل: إنَّها نزلت في صُهيب لَمَّا هاجر»[(٢)].

ولكنْ قد مرَّ بنا سابقاً قولُ الإسكافي: روى المفسِّرون كلُّهم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية أنزلت في عليٍّ عليه السَّلام ليلة المبيت على الفراش.

(١) انظر: المظفر - محمد حسن، دلائل الصدق: ٤ / ٣٩٥، طبعة مؤسسة آل البيت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٣ هـ).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ٧ / ١١٠ وما بعدها، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة، الطبعة الأُولى، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

أمَّا الدَّعوى الَّتي قالها ابن تيمية وهي دعوى الجاحظ من قَبْل - من أنَّ النَّبيﷺ قال لعليٍّ عليه السلام: «نَمْ فَلَنْ يخلُصَ إليك شيٌ تكرهه» - فقد أجابَ عنها الإسكافي بقوله: «هذا هو الكذب الصِّراح، والتَّحريف والادخال في الرِّواية ما ليس منها والمعروف أنَّهﷺ قال له: «اذْهَب فاضطجع في مضجعي، وتَغَشَّ بِبُردي الحضرمي، فإنَّ القوم يفقدوني، ولا يشهدون مضجعي، فلعلَّهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتَّى يُصبحوا فإذا أصبحت فاغدُ في أداء أمانتي».

ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنَّما وَلَّدَه[1] أبوبكر الأصم، وأخذه الجاحظ، ولا أصل له ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتِّفاق على انَّه ضُرب ورُمي بالحجارة...»[2].

ودعوى ابن تيمية الحرَّاني، من جملة الدَّعاوى الكثيرة الَّتي تبنَّاها وحاول من خلالها أن يدفع عن عليٍّ وولده فضائلهم الكثيرة، ولا نجد أحداً غيره قد صرَّح بكذب هذه الرِّواية سواه.

بل قد صحح الحاكم والذَّهبي هذا الحديث، ورواه طائفة كبيرة من كبار العلماء والحُفَّاظ، من دون أن يطعنوا في الحديث أو في رواته[3].

ونقل الحلبي كلام ابن تيمية وأجاب عنه بقوله: «...لكنَّه في الإمتاع لم يذكر أنَّهﷺ قال لعلي عليه السلام ما ذُكر، فيكون فداؤه بنفسه واضحاً...»[4].

---

(١) وَلَّدهُ: بمعنى اختلقهُ ووضعه.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٦٣ وما بعدها.

(٣) انظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٣ / ٤، الذهبي، ومسند أحمد: ١ / ٣٣١، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ١ / ٢٧٤، وإحياء علوم الدين للغزالي: ٤ / ٣٧، وامتاع الأسماع للمقريزي: ١ / ٥٧ .

(٤) السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٣٧، وامتاع الأسماع: ١ / ٥٧ .

بالإضافة إلى ذلك فإنّنا لانجد هذه العبارة في مؤلّفات عُلماء الشيعة ممَّن كتبوا في قصَّة هجرة النَّبيِّ ﷺ كالشيخ الطُّوسي في أماليه حيث نقل لنا قصَّة الهجرة بشكل مفصَّل ودقيق[١]، كذلك لم ينقلها بعض أرباب السِّيرة والتأريخ من أمثال ابن سعد صاحب الطَّبقات، والمقريزي صاحب إمتاع الأسماع.

نعم ذكر الشيخ الطوسي العبارة المذكورة مع تغيير بسيط في بعض ألفاظها في قضية وواقعة أُخرى شبيهة بقضية ليلة المبيت في فراش النبي فقال: «وأمهل علي صلوات الله عليه حتى إذا اعتمّ من الليلة القابلة انطلق هو و(هند بن أبي هالة) حتَّى دخلا على رسول الله في الغار، فأمر رسول الله ﷺ هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين.. وأمر علياً بحفظ ذمّته وأداء أمانته، وقال له النبي ﷺ: «إنَّهم لن يَصِلُوا مِن الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتَّى تقدم عَلَيَّ»[٢].

وهذه الجملة تشبه الجملة الَّتي ذكرها ابن هشام في سيرتهِ وأخذها عنه كلٌّ من الطبري وابن الأثير ومن تأخَّر عنه، ولكنَّ النَّبي ﷺ قالها لعليٍّ مطمئناً إيَّاه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون.

«فلا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الَّذي تدلُّ قرائن كثيرة على خطئه، ويحتمل، احتمالا قويَّاً، بأنَّ اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن إسحاق، وحيث أنَّه قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النُّطق بها لعدم أهميَّة زمن النطق بها، وأنَّها قيلت في اللَّيلة

---

(١) انظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٢ / ٥٧ - ٥٨، وابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢ / ٧٦ - ٧٧، وتفسير فرات: ١ / ٦٥، الحديث ٣١ - ٣٣، والأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ١ / ٣١٠، وتفسير الصافي: ١ / ٢٤١، والمجلسي، بحار الأنوار: ٣٨ / ٢٩٠ وما بعدها، و ١٦ / ٢٠٧ وما بعدها من الطبعة الحديثة لدار التعارف. بالاضافة إلى أمالي الشيخ الطوسي الذي أشرنا إليه سابقاً.

(٢) الطوسي، الأمالي: ٦٩٣.

الثانية أو الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحو يُوهِم بأنَّ جميع هذه الأمور وقعت في ليلة واحدة»[١].

بالاضافة الى ذلك نجد الإمام علياً عليه السلام يذكر مبيته في فراش النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ويعدُّ ذلك نموذجاً لتفانيه في سبيل الحقِّ، كما يتَّضح ذلك في أشعاره المرويَّة عنه حيث يقول:

وَقَيتُ بنفسي خيرَ مَنْ وَطَأ الحصى ومَنْ طافَ بالبيتِ العتيق وبالحِجْرِ
محمدٌ لما خافَ أن يمكُروا به وَقاهُ ربي ذُوالجلالِ مِنَ المَكْرِ
وَبِتُّ أراعي مِنهم ما يسوؤني قَد وطَّنْتُ نفسي على القتلِ والأسرِ
وباتَ رَسوُلُ اللهِ في الغار آمِنا هناكَ وفي حفظِ الاله وفي السترِ[٢]

فلو صحَّ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال له «لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه منهم» لم يكن معنى للافتخار بموقفه ذاك!!

بل إنَّنا نجد الإمام عليه السلام يذكر هذه القصَّة ويُشهِد الأصحاب على ذلك فيقرُّون به من دون نكير، فقد رُوي في البحار عنه عليه السلام قوله: «وأمرني أن اضطجع في مضجعه، وأَقِيه بنفسي، فأسرعتُ الى ذلك مُطيعاً له، مسروراً لِنَفسي بأن أُقتَل دُونَه، فمضى صلى الله عليه وآله وسلم لوجهه واضطجعتُ في مضجعه، وأقبلتْ رجالات قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فلمَّا استوى بي وبهم البيت الَّذي أنا فيه نَاهَضتهم بسيفي، فدفعتهم عن نفسي بما قد علم الله والناس. ثمَّ أقبل على أصحابه، فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين»[٣]

---

(١) السُّبحاني، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ٦٠٠ .

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٣ / ٤ والأبيات برواية علي بن الحسين عليه السلام، وديوان الإمام علي: ٥٧ جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ونقلها المجلسي في البحار: ٣٨ / ٢٩٢ عن العكبري في فضائل الصحابة.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ١٩ / ٤٧ و ٨ / ٥١٨ من الطبعة الحديثة، نقلا عن الشيخ الصدوق في الخصال: ٣٦٦، الباب ٧، الحديث ٥٩ .

ورُوي عن أنس قوله: «أنَّه عليه السلام كان موطِّناً نفسه على القتل»[١].

والخلاصة: أنَّ حديث مبيت علي عليه السلام على فراش الرَّسول صلى الله عليه وآله ليَقِيه بنفسه ويفديه بروحه، قد أثبتها كبار العلماء والمحدِّثين في كتبهم، بل ذهب أبو جعفر الإسكافي المعتزلي إلى أنَّ: «حديث الفراش قد ثبت بالتَّواتر، فلا يجحده إلاَّ مجنون أو غير مخالط لأهل المِلَّة، وقد روى المفسِّرونَ كلّهم أنَّ قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي. . .﴾ الآية: نزلت في عليٍّ ليلة المبيت على الفراش»[٢].

وفي شعر حسّان بن ثابت إشارة إلى حديث مبيت علي عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول:

مَن ذا بخاتمِهِ تصدّق راكعاً وأسرّها في نفسهِ إسرارا
مَن كان باتَ على فراش محمد ومحمدٌ أسرى يؤُمُّ الغارا
مَن كان في القرآن سُمّي مؤمناً في تسع آيات تُلين غزارا[٣]

ورحم الله الشاعر الحاج هاشم الكعبي حيث يصف مفاداة الإمام علي عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله ومبيته على فراشه ليلة الهجرة فيقول:

ومواقف لك دونَ أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش مبيتُ ليلك والعدى تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدتَ مثلوجَ الفؤاد كأنما يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت مفدياً بالنفس لا فشلا ولا رِعْدِيدا
واستصبحوا فرأوا دوين مرادهم جبلا أشمَّ وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أو ما دروا كنز الهدى مرصودا[٤]

(١) المصدر نفسه: ١٩ / ٥٥.

(٢) الأميني، الغدير: ٢ / ٨٥ نقلاً عن شرح النهج: ١٣ / ٢٣٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢ / ٨٤.

(٤) شبر - السيّد جواد، أدب الطف أو شعراء الغري: ٦ / ٢١٩.

٥ - قريش في طلب النَّبيِّ ﷺ

لقد تعلَّقت مشيئة الله تعالى وإرادته أن ينجو رسول الله ﷺ من المؤامرة الدَّنيئة الَّتي اعدَّتها قريش لقتله ﷺ في فراشه، وأن يخرج من باب البيت دون أن يشعر به رصد قريش المكلَّفون بقتله.

هنا اصيبت قريش في كبريائها حيث نجا محمدٌ ﷺ وفشلت مؤامرتها الَّتي أعدَّت لها عدَّتها وعددها، «فَجُنَّ جنون القوم وطار صوابهم، وأحدقوا بـ«عليٍّ» يتجاذبونه و يسألونه عن «محمَّد» أين ذهب، وأين اختفى؟ فيقول عليٌّ في هدوء: لا عِلْم لي به أجعلتموني عليه رقيباً؟ فلمَّا استيأسوا منه تركوه، وتفَرَّقوا يبحثون في كلِّ مكان، وينقبون في كلِّ فجٍّ، ويسألون كل غاد ورائح، وخرجَ الغضب والغيظ بهم عن أطوارهم فجلعوا يتخبَّطون فيما يفعلون»[١].

وحيث إنَّ قريشاً تعلم بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يمكنه الخروج عن حدود مكَّة في هذه المدَّة القصيرة، لذلك أقدموا على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

روى ابن إسحاق: «لمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكَّة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردَّه عليهم»[٢] وبادرت إلى بثِّ العيون في طُرَقات مكَّة، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شديدة.

وكان رسول الله ﷺ يعلم جيداً أنَّ قريشاً سوف لن تتركه يغادر مكَّة بسهولة، وستبحث عنه في كلِّ مكان، وسَتفتِّش سُهُول مكَّة وجبالها وودیانها وهضابها، وفي كلِّ ما حولها وماجاورها فإذا مايئست من العثور عليه فسترصده، في كلِّ منفذ إلى خارج مكَّة، لهذا كلّه اتَّخذ ﷺ كل الاحتياطات الَّلازمة للنَّجاة من مكرهم، مقدِّراً بذلك دقَّة الظَّرف وخطورة الموقف.

---

(١) أمين دويدار، صور من حياة الرسول: ٢٤١ .

(٢) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣٤، وابن الأثير، الكامل في التأريخ: ١ / ٥١٧ .

والَّذي يتأمَّل في قصَّة هجرة النَّبيِّ ﷺ وما اتَّخذه ﷺ من احتياطات لازمة، يجد أنَّ نجاة النَّبيِّ ﷺ كانت نتيجة الإجراءات الاحترازيَّة، والتَّدابير الحكيمة الَّتي اتَّخذها ﷺ، وأنَّ إرادة الله تعلَّقت بأن ينجي نبيَّه الكريم ﷺ عن طريق الأسباب العادية المألوفة، وليس عن طريق التدخُّل الغيبي وإعمال قدرته تعالى الغيبيَّة، وليس كما ذهب جلّ من أَرَّخ لهذه الواقعة حيث أسبغوا عليها صبغة الإعجاز والكرامة(١).

٦ - النَّبي ﷺ في غار ثور

وكان ما خطَّط له النَّبي ﷺ لضمان سلامته من كيد قريش هو الخروج ليلاً إلى غار (ثور) والاختفاء فيه، وغار ثور كهف بأعلى جبل «ثور»، على ثلاثة أميال من مكَّة في الطريق المُنحَدِر منها إلى اليمن، ويُعرف بغار (ثور) نسبة لثور ابن عبد مناة لأنَّه وُلِد عنده، وهو كهف ضيِّق لا تزيد مساحته على مترين ونصف المتر، ولازالت معالمه موجودة إلى الآن، وكان النَّبيُّ ﷺ أراد بذلك أن يعمي على قريش فلا يتَّبِعوا أثره.

ومن المُسلَّم به تأريخيَّاً أنَّ رسول الله ﷺ أمضى هو وابوبكر ليلة الهجرة وليلتين أخريين بعدهما في غار ثور.

أمَّا كيف تمَّت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا؟ فإنَّ هذه المسألة من القضايا التأريخيَّة الغامضة(٢)؟ والرَّوايات التأريخيَّة متضاربة وغير متَّفقه على زمن هذه الصّحبة.

ففي رواية الطبري: وكان أبوبكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في

(١) السبحاني، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ٥٨٦ - ٥٨٧، بتصرف.

(٢) المصدر نفسه.

الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل، لعلَّ الله أن يجعل لك صاحباً، فطمع أبوبكر أن يكونه...[١].

وفي رواية ثانية له: أنَّ رسول الله ﷺ قال لعليٍّ عليه السلام بعد أن أمره أن ينام على فراشه ويتَّشح ببُرده الحضرمي. «إن أتاك ابن أبي قُحَافة فأخبره أنِّي توجَّهت إلى ثور، فمرُهُ فليلحقَ بي»[٢].

وفي رواية ثالثة له: أنَّ أبابكر أتى عليّاً فسأله عن النَّبيِّ ﷺ فأخبره أنَّه لَحِق بالغار من ثور، وقال: إن كان لك فيه حاجة فالحقه فخرج أبوبكر مسرعاً، فلحق بنبي الله ﷺ في الطَّريق، فسمع رسول الله ﷺ جَرَسَ أبي بكر في ظلمة اللَّيل، فحسبه من المشركين فأسرع رسولُ الله ﷺ المشي..

وفي رواية رابعة له: أنَّ رسول الله ﷺ قصد بيت ابي بكر في اليوم الَّذي أذن الله فيه لرسوله بالهجرة، وأخبره بأنَّ الله عزَّوجلَّ قد أذن له بالخروج والهجرة، فقال أبوبكر: الصُّحبة يا رسول الله، قال: الصُّحبة.

وفي تتمَّة الرِّواية السَّابقة يقول الطَّبري: فلمَّا أجمعَ رسول الله ﷺ للخروج أتى أبابكر ابن أبي قُحَافة، فخرجا من خَوْخَة لابي بكر في ظهر بيتِهِ ثَمْ عَمَدا إلى غار بَثْور جبل بأسفل مكَّة، فدخلاه.

وذكر ابن سعد في الطَّبقات الرِّواية الرابعة الَّتي ذكرها الطَّبري[٣] ولا يختلف الأمر عند ابن هشام حيث ذكر الرّواية الأولى في موضعين من كتابه ثمَّ ذكر الرِّواية الرابعة[٤].

---

(١) الطبري، تأريخ الأمم والملوك: ٢ / ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٧٢ وما بعدها.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٠ .

(٤) انظر: السِّيرة النبويَّة لابن هشام: ٢ / ١٢٤ و ١٢٨ و ١٢٩ .

ولا يختلف الأمر كثيراً عند ابن الأثير في الكامل، وابن كثير في البداية والنِّهاية، والحلبي في سيرته[١].

اما مصادر الشِّيعة فتذكر: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أمر أبابكر وهند بن أبي هالة: «أن ينتظرا في طريقه إلى الغار بمكان عيَّنه لهما»[٢] وعن الراوندي في الخرائج والجرائح قال: «.. ومضى وهم لايرونه، فرأى أبابكر قد خرج في اللَّيل يتجسَّس عن خبره، - وقد كان وقف على تدبير قريش من جهتهم - فأخرجه معه إلى الغار»[٣].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الكثير من المؤرِّخين وكُتَّاب السِّيرة يَعدُّون هذه المُصَاحبة من مفاخر الخليفة ومناقبه، ويذكرونها كفضيلة كُبرى ويتحدَّثون عنها بكثير من الإسهاب والإطناب، وبمزيد من الإكبار والإعجاب[٤].

في حين يناقش جمع من المؤرخين وكتاب السيرة في تلك الصحبة ولا يعدها فضيلة من الفضائل[٥].

وقد جاء في كُتب السِّيرة أنَّه بعد دخول النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر الغار قضت مشيئة الله سبحانه بأن تنسج العنكبوت على بابه، وأن تلتجيء إلى باب الغار حمامتان برِّيتان.

ومضت قريش جادَّة في طلبه ومعها أهل الخبرة بالقيافة وتتبُّع الأثر، فمضى

---

(١) الكامل في التأريخ: ١ / ٥١٧، والبداية والنهاية: ٣ / ٢١٨، والسِّيرة الحلَبيَّة: ٢ / ٣٨ - ٣٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٦٩١، وانظر: البحار: ١٩ / ٦١.

(٣) الراوندي - قطب الدين، الخرائج والجرائح: ١ / ١٤٤، طبعة مؤسسة الإمام المهدي - قم، (١٤٠٩ هـ).

(٤) السبحاني، سيرة سيِّد المرسلين: ١ / ٥٩٢، والحسني، سيرة المصطفى: ٢٥٣.

(٥) انظر: ابن أبي الحديد، في شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٦٣.

هؤلاء يتَّبعون أثره إلى أن بلغوا الغار، فانقطع الأثر عنهم، فنظروا إلى الغار فرأوا العنكبوت قد غطَّت بابه بنسيجها، ونظروا الى الحمامتين في جانب من جوانب بابه فقال بعضهم: «إنَّ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد فانصرفوا»[١].

وعن قصة الغار هذه يحدثنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وفي اللَّيلة الثَّانية جاء عليٌّ عليه السلام وهند بن أبي هالة فدخلا عليهما الغار، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين، فقال له أبوبكر: قد أعددتُ لي ولك يا رسول الله بعيرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنِّي لا آخذهما ولا أحدهما إلاَّ بالثَّمن قال فهما لك بذلك، وأمر عليّاً عليه السلام فأقبضه الثَّمن»[٣].

وفي سيرة ابن هشام: «أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنِّي لا أركب بعيراً ليس لي فأخذه بالثَّمن الَّذي ابتاعه به»[٤].

ثمَّ إنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أوصى عليّاً عليه السلام بحفظ ذِمتَّه، وأداء أمانته، وأمره بأن يقيم منادياً بالأبطح غدوة وعشيّاً ينادي: أَلاَ من كانت له قِبلَ محمَّد أمانة فليأت لتؤدَّى إليه أمانته، وأوصاهُ أن يَقدُم عليه مع ابنته فاطمة (عليها السلام) وغيرها من النِّسوة إذا

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٠ .

(٢) التوبة: ٤٠ . وانظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٥ / ٥٧ .

(٣) الطوسي، الأمالي: ٦٩٣، والبحار: ١٩ / ٦١ - ٦٢ و ٨ / ٥٢٥ من الطبعة الحديثة.

(٤) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣١ .

فرغ من المهمَّات الَّتي كلَّفه بها[١].

وفي سيرة ابن هشام: «أمَّا علي، فإنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف بعده بمكَّة، حتَّى يؤدِّي عن رسول الله ﷺ الودائع، الَّتي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكَّة أحدٌ عنده شيء يُخشى عليه إلاَّ وضعه عنده، لِمَا يعلم من صدقه وأمانته ﷺ[٢].

وجاء في كُتب السِّيرة أنَّهما أقاما في الغار ثلاثة أيَّام وخلا لهما قد استأجرا دليلاً ليقطع بهما المسافة إلى يثرب على غير الطريق العام مخافة أن يدركهما طلب قريش، وكان الدَّليل (عبدالله بن أريقط اللَّيثي) وهو لا يزال على شِرْكِه ولكنَّ النبي ﷺ قد وثق به وآمن من غدره، فلمَّا حان موعد خروجهما من الغار أتاهما الدَّليل ببعيريهما، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بطعامها في جراب ونسيت أن تجعل له عصاماً، فلمَّا أرادا أن يرتحلا ذهبت لتعلِّق السفرة فإذا ليس فيها عصام، فحلَّت نطاقها فجعلت منه عصاماً للسفرة وذهبت بالباقي فسُمِّيت ذات النِّطاقين، ثمَّ ارتحلا ومعهما غلام لأبي بكر يُدعى عامر بن فهيرة أردفه أبوبكر خلفه، وأخذ بهم الدَّليل على طريق السَّاحل[٣].

---

(١) انظر: السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٤٧ .

(٢) السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٢٩ .

(٣) انظر: السيرة الحلبية: ٢ / ٤٤ - ٤٥، والحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٢٥٦ .

الأسئلة:

١ - ما هي أهم العوامل التي دعت رسول الله ﷺ لكي يأذن لأصحابه بالهجرة إلى يثرب ؟

٢ - ما هي الدروس التي نستفيدها من قصص هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب؟

٣ - كيف خطّطت رجالات قريش لمنع النبي الأكرم ﷺ من الهجرة إلى يثرب ؟ وما هي أهم الآراء التي طرحت لتنفيذ خطّتهم ؟ وما هو الرأي الذي اتفقوا عليه ؟ ولماذا ؟

٤ - ما هي قصّة مبيت أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ ؟ وما هي الدروس المستفادة منها ؟

٥ - ما هي الآية القرآنية التي نزلت بحقّ علي عليه السلام ليلة مبيته على فراش النبي ﷺ ؟ وكيف حاول البعض صرفها عن سبب نزولها وتأويلها بشكل آخر؟

٦ - لماذا لم يهاجر الإمام علي عليه السلام مع النبي ﷺ إلى يثرب ؟ وما هي المهام التي أُوكلت إليه عليه السلام بعد غياب النبي ﷺ عن مكة ؟

الدرس السابع والعشرون
الهجرة

«القسم الثاني»
«هجرة النَّبيﷺ إلى المدينة»

محاور البحث:

١ - الخروج من مكة، «دعاء وابتهال»

٢ - في الطريق إلى المدينة «كرامات النُّبوَّة»

٣ - سراقة بن مالك في أثر النبيﷺ

٤ - النبيﷺ في خيمة أُم معبد

٥ - الأنصار يترقبون مقدم النَّبيﷺ

٦ - نزول الرَّسولﷺ في قبا «مسجد أُسِّسَ على التقوى»

٧ - هجرة أمير المؤمنينعليه السلام إلى المدينة «مع الفواطم»

٨ - دخول الرَّسولﷺ إلى المدينة «طَلَع البدرُ علينا»

٩ - العِبرُ والعِظَات المُستَفَادة من هجرة الرَّسولﷺ

• الأسئلة

هجرة النَّبيﷺ إلى المدينة

١ - الخروج من مكَّة

بعد أن أمضى النَّبيُّ الأكرمﷺ ثلاثة أيَّام في غار (ثور)، وبعد تهيئة الرَّواحل ومتاع السَّفر، انطلق بهم الدَّليل (عبدالله بن أُريقط) من أسفل مكَّة قاصدين إلى (يثرب) سالكين إلى ذلك الخطَّ السَّاحلي، مارِّين بمنازل لم تكن تسلكها قوافل قريش في سفرها إلى يثرب[١].

(وكان خروج رسولﷺ، من الغار ليلة الإثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول[٢] وقَدِمَ رسول اللهﷺ المدينة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل)[٣].

دعاء وابتهال:

رُوى أنَّ رسول اللهﷺ لمَّا خرج من مكَّة مُهاجراً إلى الله يريد المدينة قال: «الحمدُ لله الَّذي خلقني ولم أكُ شيئاً، اللَّهم أعنِّي على هول الدنيا وبوائق الدَّهر ومصائب اللَّيالي والأيام، اللَّهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك

---

(١) انظر: ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣٦ حيث ذكر المَنَازِل الَّتي مرَّ بها رَكْب النَّبيِّﷺ مفصلاً.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٢ .

(٣) ابن الجوزي، الوفا بأحول المصطفى: ٢٤١، تحقيق مصطفى عبدالقادر، ط. بيروت - دار الكتب العلمية، وانظر: البيهقي، دلائل النبوَّة: ٢ / ٥١١ برواية عاصم بن عدي.

لي فيما رزقتني، ولك فذلِّلني، وعلى صالح خُلقي فقوِّمني، وإليك ربِّ فحبِّبني، وإلى الناس فلا تَكِلني، رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذُ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السَّموات والأرض، وكُشفت به الظلمات، وصلح عليه امر الأوَّلين والآخرين أن تحل علي غضبك، وتُنزل بي سخطك، لك العُتبى عندي خير ما استطعت، ولاحول ولاقوَّة إلاَّ بك»[١].

وإلى توجُّههﷺ الى المدينة أشار صاحب الهمزيَّة بقوله:

ونحا المصطفى المدينة واشتا قتْ إليه من مكَّة الأنحاءُ

أي وقصدﷺ المدينة واشتاقت اليه الجهات والنَّواحي من مكَّة.

وقد جاء في بعض الرَّوايات أنَّه لمَّا خرجَﷺ من مكَّة إلى المدينة مهاجراً وبلغ الجحفة اشتاق إلى مكَّة، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾أي إلى مكَّة[٢].

ورُوي أنَّهﷺ إلتفت الى جهت مكَّة حين خرج مهاجراً وقال: «واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله! ولولا أنِّي أُخرجتُ منك ما خرجتُ».

وروى عنهﷺ مخاطباً مكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك»[٣].

٢ - في الطريق إلى المدينة

روى ابن إسحاق: «لما خرج رسول اللهﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٢١٩ .

(٢) القصص: ٢٨، وانظر السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٥٨ .

(٣) المتقي الهندي - علاء الدين، كنز العمال: ١٢ / ٩١ .

جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم»[١].

وقد وصف جغرافيُو العرب الأرض الَّتي بين مكَّة والمدينة بأنَّها وَعِرَة مُوحِشَة لايُصادِف فيها المسافر ما يخفِّف عنه السَّفر من زرع وماء، ويتخلَّلها طريقان: أحدهما شرقي مُحاذ لبلاد نجد، والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر، وقد اختار الدَّليل الطريق الثاني؛ بَيْدَ أنَّه لم يسلك جادَّة هذا الطريق المألوفة تماماً بل كان يتلوَّى هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفو أثرهم من القرشيِّين مَنْ كان يطمع في الحصول على الجائزة الَّتي قرَّرتها قريش لِمَن يأتي بالرَّسولﷺ[٢]. إلاَّ أنَّ الذي كان يخشاه الدَّليل قد وقع فعلاً فقد لَحِق بالنَّبيِّﷺ ومَن معه مَنْ يبتغي جائزة قريش.

٣ - سُراقة بن مالك في أثر النَّبيِّﷺ

روى ابن اسحاق: عن سُراقة بن مالك بن جُعشم قال: «لمَّا خرجَ رسولُ الله من مكَّة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم. قال: فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجلٌ منَّا، حتَّى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكَبة ثلاثة مرُّوا عليَّ آنفاً، إنِّي لأراهم محمداً وأصحابه.

قال: فأومأتُ إليه بعيني: أن اسكت، ثمَّ قلت: إنَّما هم بنو فلان، يبتغون ضالَّة لهم، قال: لعلَّه، ثمَّ سكت. قال: فمكثت قليلاً، ثمَّ قمت فدخلت بيتي، ثمَّ أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأُخرج لي من دُبُر حجرتي. . . ثمَّ انطلقت فلبستُ لامتي[٣]. . . قال: وكنت أرجو أن أردَّه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٣٤ .

(٢) حسن - إبراهيم حسن، تأريخ الإسلام: ١ / ٩٩ .

(٣) اللامة: الدرع والسلاح.

على قريش فآخذ المائة ناقة. قال فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتدُّ بي عثر بي فسقطت عنه فقلتُ: ما هذا؟ . . . فأبيت إلاَّ أن أتَّبعه، فلمَّا بدالي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطتُ عنه، ثمَّ انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار، قال: فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنَّه قد مُنع منِّي، وأنَّه ظاهر.

قال: فناديتُ القوم فقلتُ: أنا سُراقة بن جُعْشُم: انظروني أكلِّمكم، فوالله لاأريبكم، ولا يأتيكم منِّي شيء تكرهونه.

قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منَّا؟ قال: فقال ذلك أبوبكر قال: قلتُ: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك قال: اكتب له يا أبابكر.

قال: فكتب لي كتاباً في عَظْم، أو في رقعة، أو في خَزَفة، ثمَّ ألقاه إليَّ، فاخذته فجعلته في كنانتي ثمَّ رجعت. . . »[١].

وفي رواية، قال سُراقة: خرجتُ وأنا أحب الناس في تحصيلها، ورجعتُ وأنا أحب في أن لايعلم بهم أحد.

والَّذي يُستفاد من بعض النُّصوص التأريخيَّة أنَّه قد وقع في نفس سُراقة أنَّ الرسول ﷺ حقٌّ فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له، وعرض عليهما الزَّاد والمتاع فقالا: لا حاجة لنا، ولكن عَمِّ عنَّا الطلب، فقال: قد كفيتم، ثم رجع فوجد الناس جادِّين في البحث عن محمد ﷺ وصاحبه، فجعل لا يلقى أحداً من الطلب إلاَ ردَّه وهو يقول: كفيتم هذا الوجه[٢].

---

(١) ابن هشام: ٢ / ١٣٤ - ١٣٥ . ولقصَّة سُراقة مع النَّبيِّ(صلى الله عليه وآله) تَتِمَّة طويلة ممتعة ومفصَّلة، انظر: المصدر نفسه، والسِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٥٨ وما بعدها.

(٢) السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٤٦ .

«أصبح أوَّل النهار جاهداً عليهما، وأمسى آخره حارساً لهما...»[١].

ويُحكى أنَّ أباجهل لاَمَ سُراقة حين رجع بلا شيء، فقال سُراقة:

أباحكم واللهِ لو كنتَ شاهداً ... لأَمْرِ جَوادي إذ تَسوخُ قوائمُهُ
علمتَ ولم تشك بأن محمداً ... رسولٌ بِبرهَان فمن ذا يُقاوِمهُ
عليكَ بكفِّ القومَ عنه فإنَّني ... أرى أمره يَوماً سَتَبْدو مَعالمهُ
بأمر يودُ النَاس فيه بأسرهم ... وإن جميع الناسِ طُرّاً يسالمه[٢]

٤ - النبيﷺ في خيمة أُمِّ مَعْبَد الخُزاعيَّة

ومن حوادث الطريق التي ذكرها أكثر عُلماء السِّيرة، مرور النَّبيِّﷺ بخيمة أمِّ مَعْبد الخُزاعيَّة.

حيث انطلق رَكْب رسول اللهﷺ يسير إلى غايته، وكلَّما أرهقهم السَّير نزلوا منزلاً فاستراحوا، حتَّى مرّوا في طريقهم بـ (أمِّ مَعْبَد الخزاعيَّة) وهي أعرابية كريمة، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرَّجال، فَتُطعِم وتَسقي من يمرُّ بها من السَّيارة.

نقل ابن سعد رواية عن أبي مَعْبَد الخزاعي قال: «إنَّ رسول الله لمَّا هاجر من مكَّة إلى المدينة هو وأبوبكر، وعامر بن فهيرة، ودليلهم عبدالله بن أريقط، فمرُّوا بِخَيمَتي أُمِّ مَعْبَد الخُزاعيَّة وكانت امرأة جَلْدة بَرْزة[٣] تحتبي وتقعد بفناء الخيمة. ثمَّ تَسقِي وتُطعِم.

فسألوها تمراً ولحماً يشترون فَلم يُصيبوا عندها شيئاً من ذلك، فإذا القوم

---

(١) الغزالي، فقه السِّيرة: ١٦٥ .

(٢) انظر: الرَّوض الأُنف: ٢ / ٢٣٣، والبداية والنهاية: ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣) البرزة: الكبيرة.

مُرَمَلون[١] مُسنِتُون[٢]، فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أَعوزَكُم القِرى.

فنظر رسول الله ﷺ الى شاة في كِسْر الخيمة فقال: «وما هَذِهِ الشَّاةُ يا أُمَّ معبد»؟ فقالت: هذه شاةٌ خَلَّفها الجَهْدُ[٣] عن الغنم.

فقال ﷺ: «هل بها من لبن ؟». قَالتْ: هي أجْهَدُ من ذلك.

قال ﷺ: أتأذنينَ لي أن أَحلِبهَا ؟ قالت: نعم بأبي أنتَ وأمِّي إن كان رأيتَ بها حَلْباً!

فدعا رسولُ الله ﷺ بالشَّاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال: اللَّهُمَّ بَارِكَ لها في شاتِها.

قالت: فتفاجّت[٤] وَدَرَّتْ واجترت، فدعا بإناء لها يُربضُ الرهط[٥] فَحلب به ثجاً حتَّى علاهُ ثُمالُ[٦].

فسقاها فشربت حتَّى رَويت، وسقى أصحابه حتَّى رَوَوْا، وشرب ﷺ آخِرَهُم وقال ﷺ: «ساقِي القومِ آخرُهُم» فَشربوا جميعاً عَلاً بعد نَهل[٧] حتَّى رَوَوْا.

ثمَّ حَلَب فيه ثانيةً عوداً على بدء، فغادره عندها ثمَّ ارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثْ أن جاء زوجها أبو معبد يسوقُ أعنزاً حُيّلاً عجافاً... فلمَّا رأى

---

(١) مُرملون: الذين نفد زادهم.

(٢) مسنتون: من السَّنةِ وهي الجَدب.

(٣) الجَهد: المشقة.

(٤) تفاجَّت: فتحت ما بين رجليها لتحلب.

(٥) يربض الرهط: يثقلهم فيربضوا.

(٦) الثمال: الرغوة.

(٧) علا بعد نهل: مرة بعد أخرى.

اللَّبن عجب وقال: من أين لكم هذا والشَّاةُ عازبة[١] ولا حَلُوبة في البيت؟

قالت: لا والله إلاَّ أنَّهُ مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كَيْتَ وكَيْتَ.

قال واللهِ إنِّي لاراهُ صاحبَ قريش الَّذي تطلب، صِفِيهِ لي يا أمَّ معبد.

قالتْ: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة، متبلِّج[٢] الوجهِ، حسن الخَلْق، لَمْ تَعْبهِ ثُجلة، وَلَمْ تُزْر به صُعلَة[٣]، وسيمٌ قسيم، في عينيه دَعج[٤]، وفي اشفارهِ وطَفٌ[٥]، وفي صوتهِ صَحَل[٦]، أحْوَر[٧]، أكْحَل، أزجُّ، أقرن، شديد سواد الشَّعر، في عُنقهِ سَطعٌ[٨]، وفي لحيته كثافة، إذا صمتَ فعليهِ الوقار، واذا تكلَّم سَما وعلاهُ البهاء، كأنَّ منطقهُ خرزات نَظْم يتحدَّرنَ، حُلو المنطق، فَصل لانزْر ولاهَذَر، أجهَر الناس وأجملهُ من بعيد، وأحلاهُ وأحسنه من قريب، ربعة لاتشنؤه من طول، ولاتقتحُمُهُ عين من قِصر، غُصن بينَ غُضين، فهو أبْهى الثلاثة منظراً، واحْسَنُهم قدراً، له رفقاء يحفّونَ به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمرهِ، محفودٌ مَحْشُود، لاعابث ولامفند.

قال: هذا والله صاحب قريش الَّذي ذُكر لنا من أمره ما ذُكر، ولوكنتُ وافيتهُ يا أمَّ معبد لالتمستُ أن أصحبه، ولافعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[٩].

---

(١) العازب: البعيد في المرعى.

(٢) المتبلج: المشرق.

(٣) الصُعلة: صغر الرأس.

(٤) الدَّعج: سواد العين.

(٥) الوطف: الطول.

(٦) الصحل: البحة.

(٧) الاحور: الشديدُ سواد اصول الأهداب خلقة.

(٨) السَّطَع: الطول.

(٩) طبقات ابن سعد: ١ / ١١٠ .

روى ابن الجوزي في الوفا: «وبقيت الشَّاة الَّتي لمس رسول الله ﷺ ضرعها، حتَّى كان عام الرمادة زمن عمر، وهي سنة ثماني عشرة من الهجرة» قالت. أمُّ معبد - وكنا نحلبها صَبوحاً وغَبُوقاً، وما في الأرض قليل ولا كثير»(١).

وفي رواية الحلبي، والسِّيرة النَّبويَّه، أنَّ أمَّ مَعْبَد هذه اسمها «عاتكة بنت خالد بنت كعب، امرأة من كَعْب، من خُزاعة» ورُوي أنَّ أمَّ معبد هاجرت وأسلمت وكذا زوجها هاجر وأسلم. . »(٢).

وفي قصَّة أمِّ معبد مع رسول الله ﷺ مواطن للعِبْرة والعِظَة تأتي الإشارة إليها في نهاية الدرس.

٥ - الأنصار يترقَّبون مقدم النَّبي ﷺ

وكان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج رسول الله ﷺ مِنْ مكَّة فكانوا يتحرَّقون شوقاً إلى لقائهِ، ويخرجون في صبح كلِّ يوم يترقَّبونه في بعض الطريق، حتَّى يؤذيهم الحرُّ وتحرقهم الشمس، فيعودوا إلى منازلهم.

روى ابن إسحاق، عن عبدالرحمن بن عُويمر قال: حدَّثني رجال من قومي من اصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «لَمَّا سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكَّة، وتوكّفنا(٣) قدومه، كُنَّا نخرج إذا صلَّينا الصُّبح، الى ظاهر حَرَّتنا ننتظر رسول الله ﷺ، فواللهِ ما نبرح حتَّى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال، فإذا لم نجد ظِلاً

---

(١) والوفا باحوال المصطفى: ٢٤٥ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٦٥، وانظر: السِّيرة النبويَّة وهامشها: ٢ / ١٣٢ . وحديث أُم معبد أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣ / ٩ - ١٠، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢ / ٤٩١ - ٤٩٦، وابن عساكر في تأريخه: ٤ / ٢٥٦ - ٢٥٧، وابن كثير: ٣ / ٢٣٣، وابن هشام: ٢ / ١٣٢، والمقريزي في امتاع الأسماع: ١ / ٦١، وأبو نعيم في دلائل النبوة: ٢ / ٣٣٧ .

(٣) توكفنا قدومه : استشعرناه وانتظرناهُ.

دخلنا، وذلك في أيّام حارّة، حتّى إذا كان اليوم الّذي قَدِم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنّا نجلس، حتّى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا، وقَدِم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أوّل من رآه رجلٌ من اليهود، وقد رأى ما كنّا نَصنَع، وأنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخَ بأعلى صوته: يا بني قَيْلةَ[1]، هذا جدُّكُمُ[2]. قد جاءَ. قال: فخرجنا الى رسول ﷺ وهو في ظلّ نخلة»[3].

والّذي يبدو من خلال رواة السِّيرة أنَّ رسول الله ﷺ لم يدخل المدينة بادي الأمر وإنّما انحاز إلى قبا. ونزل على كلثوم بن الهدم.

روى ابن سعد - وهو يَصِف الطُّرق الّتي سلكها رسول الله ﷺ في طريقه إلى المدينة.: «. . . حتّى انتهى إلى الجثجاثة فقال ﷺ: مَنْ يَدُلَنا على الطريق إلى بني عمرو بن عوف فلا يقرب المدينةَ؟ فسلكَ على طريق الظبي حتّى خرجَ على العُصبة، وكان المهاجرون قد استبطأوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظهر حرَّة العصبة فيتحيّنون قدومه في اوّل النهار، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم، فلمّا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ وهو يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ويقال لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول»[4]. ثمَّ ذكر بقيّة الرِّواية الّتي ذكرها ابن إسحاق.

وفي رواية أخرى يذكرها ابن سعد عن أنس بن مالك قال: «قَدِم رسول الله ﷺ فنزل في عُلوِّ المدينة في حيّ يُقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام أربع عشرة ليلة، ثمَّ أرسل الى الملأ من بني النَّجار، فجاؤوه متقلِّدين سيوفهم»[5].

---

(١) بنو قَيلة: هم الأنصار، وقيلة: اسم جدة كانت لهم.

(٢) جَدُّكم: أي حظكم وطالعكم.

(٣) السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣٧ .

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ١١٢ .

(٥) المصدر نفسه: ١ / ١١٣: وابن كثير، البداية والنهاية: ٣ / ٢٦١ .

والَّذي يبدو – ومن خلال كُتب السِّيرة – أنَّه «قد كان في المدينة دُورٌ كثيرة. . . ، كل دار مَحَلَّةٌ مستقلَّة بمساكِنها ونخيلها وزروعها وأهلها، وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلَّتهم فهي كالقرى المتلاصقة»[١].

والَّذي يُستفاد من هذه الرِّوايات أنَّ رسول اللهﷺ قد دخل المدينة في الثاني أو الثاني عشر من ربيع الأول – حسب اختلاف الرِّوايات – ونزل بضاحية من ضواحيها. وهي المعروفة بـ (قبا) وكانت مساكن «بني عمرو بن عوف» ومركزهم.

٦ – نزول الرَّسولﷺ في قبا

رُوي: أنَّ رسول اللهﷺ عندما بلغ المدينة توجَّه إلى قَباء، فنزل على «كلثوم بن هِدْم» أخي بني عمرو بن عوف، وأنَّهﷺ أقام بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء ويوم الخميس، ثمَّ خرج في ضُحى يوم الجمعة إلى المدينة فأدركت رسول اللهﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاَّها في المسجد الَّذي في بطن الوادي، (وادي رانوناء) فكانت أول جمعة صلاَّها بالمدينة[٢].

وقُباء اوتباء، ضاحية في جنوب المدينة على بُعد ثلاثة أميال منها، وكانت مساكن بني عمرو بن عوف ومركزهم.

وكان أوَّل عمل قام به رسول اللهﷺ في قباء، أن أسَّس مسجداً هناكَ، فكان أوَّل مسجد بُنيَ في الاسلام، وقد عمل فيهﷺ بيده، وشارك أصحابه في حَمْل الحجارة والصُّخور، حتَّى كان يبدو عليه الجَهْد، وقد رغب

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٤٨ .

(٢) ابن هشام، السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣٧ – ١٣٩ .

إليه ﷺ الصَّحابه أن يكفُوه ذلك بأنفسهم، فأبى إلاَّ أن يكون واحداً منهم.

روى الطَّبراني بسنده، عن الشُّمُوس بنت النعمان. قالت: «نظرتُ إلى رسول الله ﷺ حين قَدِم، فنزل وأسَّس المسجد، مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر والصَّخرة حتَّى يُصهرهُ الحجر، فيأتي الرجل من اصحابه فيقول: يا رسول الله بأبي أنت وأمي تعطيني أكفِك فيقول: لا خذ مثله»(١).

ويقول كثير من المفسِّرين: إنَّ في هذا المسجد نزل قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(٢).

٧ - هجرة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المدينة

بقي رسول الله ﷺ في قبا ينتظر مَقدَم عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن كتب له كتاباً أرسله مع (أبي واقد الَّليثي) يحثُّهُ على المسير إليه مع الفواطم ومن بقي من مستضعفي المسلمين في مكَّة.

وكان البعض ممَّن رافق رسول الله ﷺ يصرُّ عليه أن يُسارع في الدُّخول إلى المدينة، ولكنَّ رسول الله ﷺ كان يصرُّ على الانتظار ويقول: فما أنا بداخلها حتَّى يقدم ابن أمِّي وابنتي يعني عليّاً وفاطمة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(٣).

روى ابن إسحاق: «وأقام عليُّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بمكَّة ثلاث ليال وأيَّامها، حتَّى ادَّى عن رسول الله ﷺ الودائع الَّتي كانت عنده للناس، حتَّى إذا

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢٥١ - ٢٥٢ نقلا عن الطبراني.

(٢) التوبة: ١٠٨، وانظر: الدر المنثور عند تفسير الآية، ووفاء الوفا: ١ / ٢٥٠، والسِّيرة الحلبيَّة: ٢/ ٥٥.

(٣) الطوسي، الأمالي: ٦٩٤. وانظر: الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٣٥.

فرغ منها لَحِق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن هدم»[١].

وكان علي عليه السلام في كلِّ يوم يقف على مرتفع في مكَّة ويُنادي قائلاً: «مَنْ كان لَهُ قِبلَ محمد أمانةٌ او وديعة فليأتِ فلنُؤدِّ إليه أمانته».

فكان يأتيه من له أمانة أو وديعة عند رسول الله ﷺ ويذكر علامتها ويأخذها.

فلمَّا فرغ عليه السَّلام من أداء الأمانات والودائع، ابتاع ركائب لمن معه من النسوة وتهيَّأ للخروج، وأمر من كان قد بقي في مكَّة من ضعفاء المؤمنين أن يتسلَّلوا ليلاً إلى ذي طوى، وخرج عليٌّ عليه السلام بالفواطم وهُنَّ:

١ - فاطمة الزهراء عليها السَّلام ابنة رسول الله ﷺ.

٢ - فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب عليه السَّلام.

٣ - فاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب.

وتبعتهم أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، وأبو واقد الَّليثي، وآخرون ممَّن لم يكن قد هاجر من مكَّة حتَّى تلك السَّاعة، وتوجَّه بهم نحو المدينة ليلاً سالكاً بهم طريقاً في «ذي طوى».

ويُروى: أنَّ أبا واقد الَّليثي، جعل يسوق الرواحل فاعنف بهم، فقال عليٌّ عليه السلام: «ارفق بالنسوة أبا واقد إنهنَّ من الضعفاء»[٢].

قال: إنِّي أخاف أن يدركنا الطلب.

فقال عليٌّ عليه السَّلام: اربع عليك، فإنَّ رسول الله ﷺ قال لي: «يا علي

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٣٨، وانظر: الطبري: ٢ / ٣٨٢.

(٢) انظر: أمالي الطوسي: ٦٩٣ - ٦٩٥، والبحار: ١٩ / ٦٥.

إنَّهم لن يصلوا من الآن إليك بأمر تكرهه». ثمَّ جعل علي يسوق بهنَّ سوقاً رفيقاً وهو يقول:

لَيسَ إلاّ اللهُ فَارفَعْ ضَنَّكا يَكفيكَ ربُّ الناس ما أَهَمَّكا

فلما شارف (ضجنان)[١] أدركه الطلب حيث لحقهُ سبعة فوارس من قريش مُلثَّمين، وثامنهم مولى الحارث بن أميَّة يُدعى جناحاً، فأقبل عليٌّ عليه السلام على «أيمن» و «أبي واقد» وقد تراءى القوم فقال لهما: أنيخا الإبل واعقلاها، وتقدما حتَّى أنزل النِّسوة.

ودنا القوم فاستقبلهم عليٌّ عليه السلام منتضياً سيفه، فأقبلوا عليه وقالوا: ظننت أنَّك ياغدار ناج بالنسوة، ارجع لا ابا لك، قال: فإن لم أفعل؟ قالوا: لترجعنَّ راغماً أو لنرجعنَّ بأكثرك شعراً، وأهون بك من هالك!

ودنا الفوارس من النِّسوة والمطايا ليثوروها، فحال عليٌّ عليه السَّلام بينهم وبينها، فأهوى له جناح بسيفه، فراغ علي عليه السَّلام عن ضربته، وتختّله عليه السَّلام فضربه على عاتقه فأسرع السيف مضياً فيه حتَّى مسَّ كتف فرسه.

فكان عليٌّ عليه السَّلام، يشدُّ على قدمه كشدِّ الفارس على فرس، فشدَّ عليهم بسيفه وهو يقول:

خلّوا سبيلَ الجَاهد الُمجاهد آليتُ لا أعبد غير الواحد

فتصدع القوم عنه وقالوا: احبس نفسك عنَّا يا ابن أبي طالب، فقال لهم: إنِّي مُنطلِق الى أخي وابن عمِّي رسول الله صلى الله عليه وآله بيثرب، فمن سرَّه أن أفري لحمه وأريق دمه فَلْيَدنُ منِّي..»[٢].

---

(١) ضجنان: جُبيل على بريد من مكة (معجم البلدان).

(٢) انظر: أمالي الطوسي: ٦٩٣ - ٦٩٥، وبحار الأنوار: ١٩ / ٦٥ - ٦٦، ومناقب آل أبي طالب: ٢ / ٥٩.

وسار عليٌّ عليه السَّلام ظافراً قاهراً حتَّى نزل (ضجنان) فلبث بها يومه وليلته، ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين، وبات ليلته تلك هو والفواطم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتَّى طلع الفجر، فلمَّا صلُّوا صلاة الفجر سَارَ بِهم حتَّى قَدِموا المدينة.

وقد نزل الوحي على النَّبيِّ ﷺ بما كان من شأنهم بقوله تعالى كما جاء في بعض الرِّوايات: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . . . إلى قوله تعالى، وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾[(١)].

وجاء في السِّيرة الحلبيَّة:

«لمَّا قَدِم عليٌّ من مكَّة كان يسير الَّليل ويكمن النَّهار حتَّى تفطَّرت قدماه فاعتنقهُ النَّبيُّ ﷺ وبكى رحمة لِمَا بقدميه من الورم وتفل في يديه وأمرَّهما على قدميه، فلم يشكهما بعد ذلك»[(٢)].

وحدَّث في أُسْدِ الغابة: «أنَّ عليّاً خرجَ بالنِّسوةِ يمشي الَّليل ويكمن النهار حتَّى قَدِم المدينة، فلمَّا بلغ النَّبيﷺ قدومه، قالﷺ ادعوا لي عليّاً، فقيل له: يا رسول اللهﷺ إنَّه لا يستطيع أن يمشي، فأتاهُ النَّبيُّ فلما رآهُ إعتنقه وبكى رحمة لِمَا به، وكانت قدماه تقطران دماً، فتفل النَّبيُّ في يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية، فلم يعد يشتكي منهما حتَّى استُشهدِ»[(٣)].

---

(١) آل عمران: ١٩٠ – ١٩٥. وانظر: روايات أسباب النزول في الميزان: ٤ / ٩١، والصافي: ١ / ٢٧٩، ونور الثقلين ١ / ٤١٣، وأمالي الشيخ الطوسي: ٦٩٨.

(٢) السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٧٣.

(٣) ابن الأثير، أسْد الغابة في معرفة الصحابة: ٤ / ١٠٥، والكامل في التأريخ: ١ / ٥١٩.

٨ - دخول الرَّسول ﷺ إلى المدينة

أقام رسول الله ﷺ في قباء وأسس مسجده هناك، ثمّ التحق به الإمام علي عليه السلام في ذلك الشهر نفسه. وبعد أن اجتمع شَمْل رسول الله ﷺ بأهل بيت علي وفاطمة عليهما السلام. أعلن ﷺ عندها عن عزمه على دخول المدينة.

وكان يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة يوماً حافلاً، لم تر المدينة يوماً أشد فرحاً وابتهاجاً منه، فقد ازدانت المدينة وأشرقت جوانبها بالبهجة والسُّرور، فرحاً واستبشاراً بقدومه ﷺ.

روى ابن سعد: «أقام رسول الله ﷺ ببني عوف أربع عشرة ليلة، فلمّا كان يوم الجمعة لعله عند ارتفاع النّهار دعا براحلته وحشد المسلمون و تلبّسوا بالسِّلاح، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، والناس معه عن يمينه وشماله فاعترضه الأنصار لا يمرّ بدار من دورهم إلاَّ قالوا: هلمَّ يا نبيَّ الله إلى القوَّة والمنعة والثروة فيقول لهم خيراً ويدعو لهم ويقول: «إنّها مأمُورَةٌ فَخَلُّوا سَبِيلَها» فلمَّا أتى مسجد بني سالم جَمَّعَ بمن كان معه من المسلمين وهم مائة.

ثمَّ ركب رسول الله ﷺ ناقته وأخذ عن يمين الطريق حتَّى جاء (بَلْحُبْلى) ثمَّ مضى حتَّى انتهى إلى المسجد فَبَرَكَتْ عند مسجد رسول الله ﷺ، فجعل الناس يُكلِّمون رسول الله ﷺ في النُّزول عليهم، وجاء أبو أيوب خالد بن زيد، فحطَّ رحله فأدخله منزله، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المَرءُ مَعَ رَحْلِهِ» وجاء أسعد ابن زُرارة فأخذ بِزِمَام راحلة رسول الله ﷺ فكانت عنده»[(١)].

وفي بعض كُتب السِّيرة أنَّ رسول الله ﷺ عندما دخل المدينة من ناحية (ثنية الوداع) وهي منعطف قبل المدينة كانوا يُودِّعون عندها المسافرين، خرج أهل

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١١٤ . وقارن برواية المقريزي في امتاع الأسماع: ١ / ٦٥ - ٦٦ .

المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، الله اكبر. . . الله أكبر . . . جاء محمَّد، الله أكبر جاء رسول الله . . . وجعل النساء والصبيان والولائد يَقُلنَ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَداعِ
وجَبَ الشُّكر عَلَينا مادَعا للهِ داع
أيُّها المَبعوثُ فِينا جِئتَ بالأمرِ المُطاعِ[(١)]

روى الحلبي: «أنَّ رسول الله بعد أن بَرَكَتْ به ناقتهُ في مكان مسجدهِ قال: «رَبِّ أنزلني مُنزلاً مباركاً وأنتَ خيرُ المُنْزِلينَ» قال ذلك أربع مرَّات، وأخذه الَّذي كان يأخذه من الوحي فَلمَّا سُرّي عنه قالﷺ: «هذا إن شاء الله يكون المنزل» ثمَّ قال: «أيّ بيوت أهلنا أقرب»؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله، هذه داري، وهذا بابي، فقالﷺ: «اذهب فَهي لنا مَقيلاً» فذهب فهيَّأهُ ثمَّ جاء فقال: يا رسول الله، قد هيَّأتُ مقيلاً، فَقُم على بركة الله»[(٢)].

وأقام رسول اللهﷺ في دار أبي أيوب سبعة أشهر، وقيل نحو سنة، حتَّى بنى مسجده ومساكنه، وجعلت الهدايا من الطعام والشراب تتوارد على رسول اللهﷺ وهو في دار أبي أيوب وكان أبو أيوب الأنصاري يقوم بواجب الضيافة لرسول اللهﷺ أحسن قيام، كما تروي لنا ذلك كُتب السِّيرة.

روى ابن هشام: عن أبي أيوب الأنصاري قال: «لَمَّا نزل عليَّ رسولُ الله في بيتي. نزل في السُّفل، وأنا وأم أيوب في العلّو، فقلت له يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمِّي، إنِّي لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر انت فكن في العُلو، وننزل نحن فنكون في السُّفل، فقالﷺ: يا أبا أيوب، إنَّ أرفق بنا وبمن

---

(١) صور من حياة الرسول: ٢٥٢ - ٢٥٣ . وانظر: الوفا بأحوال المصطفى: ٢٥١ و ٢٥٤، والسِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٥٧ .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة: ٢ / ٨٣ - ٨٦ .

يغشانا أن نكون في سُفل البيت.

قال: فكان رسول الله ﷺ في سُفله، وكنَّا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حِبّ لنا فيه ماء، فَقُمتُ أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها ننشِّفُ بها الماء تخوُّفاً أن يقطُر على رسول الله ﷺ منه شيءٌ يؤذيه.

قال: وكنَّا نَضَعُ له العشاء ثمَّ نبعث به إليه، فإذا ردَّ علينا فضله تيمَّمتُ أنا وأم أيوب موضعَ يدهِ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة»[1].

أقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية ونزل معه الامام علي عليه السَّلام وأسامة بن زيد. ولم ينتقل ﷺ من هذه الدار إلاَّ بعد أن أتمَّ بناء المسجد ومنازله. وتمَّ لرسول الله خلال هذه المدَّة إسلام أهل المحلَّة التي نزل فيها «فلم يبقَ دار من دور الأنصار إلاَّ أسلم أهلها، إلاَّ ما كان من خَطمة وواقف ووائل وأميَّة، وتلك أوس الله، وهم حيٌّ من الأوس، فإنَّهم أقاموا على شركهم»[2].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يرتِّب في المدينة شؤونه وشؤون أصحابه، ويُنشىء المجتمع المثالي الفاضل، على قواعد من الحبِّ والإخاء، والعدل والمساواة، والتكافل والتعاون، والتضحية والإيثار، وهي المبادئ الَّتي وضعها الإسلام للمجتمع الصالح، ليعيش الناس في كلِّ زمان ومكان إخوة متعاونين، يسودهم الوئام، ويُظلِّلهم الأمن والسَّلام[3].

٩ - الدروس والعبر والعظات من قصَّة هجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب

عندما نتأمَّل في فصول قصَّة هجرته ﷺ وما جرى فيها من أحداث ووقائع

---

(١) السِّيرة النبويَّة: ٢ / ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٤٦ .

(٣) صور من حياة الرسول: ٢٥٥، مرجع سابق.

- والتي اختصرناها في الدرسين السَّابقين - تتجلَّى لنا صورٌ رائعة فيها الكثير من مواطن العِبَر والعِظَات والدَّلالات الَّتي لا يستغني عنها الإنسان المسلم الَّذي اتَّخذ من رسولﷺ قدوة وأُسوة له في حياته الإيمانيَّة، وفي سيره التكاملي إلى الله سبحانه.

وفيما يلي بعض المحطَّات القصيرة من هذه العِبرِ والعِظَات:

أوَّلاً: الَّذي نلاحظه في مبدأ الهجرة، أنَّ الأرض والوطن لا قيمة لهما إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهدَّدة بالخطر والزَّوال والاضمحلال، ولذا فرض الله سبحانه وتعالى على عباده أن يضحُّوا بكلِّ شيء إذا اقتضى الأمر ذلك، في سبيل العقيدة والإسلام.

وهجرة رسول اللهﷺ من مكَّة إلى المدينة، وإن كانت بحسب الظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له، ولكنَّها في واقع الأمر حفاظٌ عليه وضمانة له، فقد عاد بعد بضع سنوات من هجرته هذه، بفضل الدين الَّذي أقام صَرْحَه ودولته، الى وطنه الَّذي أُخِرْجَ منه، عزيز الجانب منيع القوة، دون أن يستطيع أحد من أولئك الَّذين تربَّصوا به ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا إليه بأي سوء[(١)].

ثانياً: صُور التَّفاني والتضحية الَّتي سطَّرها المهاجرون الأوائل: حيث نجدهم يتخلَّون عمَّا يملكون من متاع الدنيا كما حصل مع صُهيب، والبعض الآخر يترك ولده وزوجه ويخرج بنفسه مهاجراً إلى الله كما حصل مع أبي سلمة حينما خرجَ بزوجته وولده، وهذه القصص الرائعة ينبغي أن تكون المثال الَّذي يقتدي به كلُّ مسلم آمن بالله ورسوله.

ثالثاً: ومن أبرز المعجزات الخارقة في قصَّة هجرتهﷺ خروجه من بيته وقد أحاط به المشركون يتربَّصون به ليقتلوهُ، لقد كانت هذه المعجزة بمثابة

---

(١) البوطي، فقه السِّيرة النبويَّة: ٢٠٠ بتصرف واختصار.

الإعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم في كلِّ عصر ووقت، بأنَّ ما قد يلاقيه الرَّسولﷺ وصحبه من ألوان الاضطهاد والعذاب على أيديهم مدَّة من الزمن في سبيل دينه، لا يعني أنَّ الله قد تخلَّى عنهم وأنَّ النَّصر قد ابتعد عن متناولهم، فلا ينبغي للمشركين وسائر أعداء الدِّين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك، فإنَّ نصر الله قريب وإنَّ وسائل هذا النصر توشك أن تتحقَّق بين لحظة وأخرى(١).

رابعاً: وفي قصَّة هجرة الرَّسولﷺ تتجلَّى لنا حقيقة تَدخُّل العوامل الغيبيَّة في حياة العاملين والدَّاعين إلى الله، ففي الوقت الَّذي اتَّخذ النَّبيﷺ كل الاحتياطات اللاَّزمة لنجاح هجرته إلى المدينة إلاَّ أنَّنا لايمكن أن نغفل عن المعادلات الغيبيَّة الَّتي تدخَّلت في هذا الأمر، فلا يمكن أن نغفل قصَّة نسيج العنكبوت على باب الغار، ولا عشعشة الحمامتين على النسيج، ولا وضع البيض، ولا خروج النَّبيﷺ من دار مرصودة بالرِّجال من كلِّ جوانبها من أجل اغتياله، وهو يحمل بيده حفنة من تراب، يرميها في وجوههم وعلى رؤوسهم ويتلو آية من القرآن الكريم، فيحجب عن أنظارهم وهم في غاية الحرص على كبسه في الدَّار من أجل قتله(٢).

كما أنَّنا لا يمكن أن نغفل عن الجوانب الرَّوحيَّة والثِّقة المُطلقة بالله الَّتي اتِّصف بها الرَّسول الاكرمﷺ.

فكل هذه العوامل كمنظومة واحدة ساهمت في نجاح هجرته وخلاصهﷺمن مؤامرة قريش، وتحقُّق النَّصر الإلهي.

وهذه العوامل الغيبيَّة يمكن إضافتها إلى حياة العاملين والدَّاعين إلى الله، فمتى ما صدقوا بعملهم وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، تحقَّق النصرُ

---

(١) المرجع نفسه: ٣٠٠ بتصرف واختصار.

(٢) الصيمري، في ظلال السِّيرة المطهرة: ٢ / ١٠ بتصرف واختصار.

لهم، والضَّامن لهذا النَّصر هو الله سبحانه، وإنَّ الله لا يُخلِف وعده ولا يخذل عبده. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

خامساً: وفي مبيت عليٍّ عليه السَّلام في فراش النَّبيِّ ﷺ تتجلَّى لنا أروع ما عرفه تأريخ الفداء والتضحية، فالشجعان والأبطال يثبتون في المعارك في وجه أعدائهم ويدافعون بمالديهم من سلاح مع أنصارهم وأعوانهم، أمَّا أن يخرج الإنسان إلى الموت طائعاً مطمئنَّاً بدون سلاح، وينام على فراش تحفُّ به المخاطر والأهوال، أعزل من كلِّ شيء إلاَّ من إيمانهِ وثقتهِ بربِّه وحرصه على سلامة القائد، فهذا ما لم يحدث في تأريخ البطولات والتضحيات.

وتتجلَّى لنا أيضاً في هذه القصَّة أروع صور نكران الذَّات في سبيل الدين والعقيدة، فلمَّا أمره النَّبي ﷺ بالمبيت على فراشه، لم يتردَّد لحظة واحدة، ولم يُساوِم النَّبي ﷺ ولم يطلب بذلك وعوداً مُسبَقَة وإنَّما اجابه على الفور (أَوَ تَسْلَم يا رسول الله إن فديتك بنفسي؟) فقال له الرَّسول ﷺ: نعم بذلك وعدني ربِّي، فسجد عليٌّ لله شكراً، وتقدَّم إلى فراش النَّبيِّ ﷺ مطمئن النَّفس[٢].

سادساً: وفي قصَّة مبيت عليٍّ عليه السلام في فراش النَّبيِّ ﷺ ليلة هجرته، من الإشارات الواضحة إلى خلافتهِ للنَّبيِّ ﷺ، وهذا المعنى قد اعترف به من عُرف بميله عن عليٍّ ومحبِّيه فيقول في كتابه: «هذا الَّذي كان من عليٍّ في ليلة الهجرة، إذا نظر إليه في مجرى الأحداث الَّتي عرضت للامام عليٍّ في حياته بعد تلك اللَّيلة، فإنَّه يرفع لعيني النَّاظر أمارات واضحة وإشارات دالَّة على أنَّ هذا التدبير الَّذي كان في تلك اللَّيلة لم يكن أمراً عارضاً بالإضافة إلى عليٍّ، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقَّباتها، فلنا أن نسأل: أَكَان لإِ لباس الرَّسول ﷺ شخصيته

---

(١) الروم: ٤٧

(٢) سيرة المصطفى: ٢٥٠ بتصرف واختصار.

لعليٍّ تلك اللَّيلة ما يوحي بأنَّ هناكَ جامعة تجمع بين الرَّسول ﷺ وبين عليٍّ عليه السلام أكثر من جامعة القرابة القريبة الَّتي بينهما؟ وهل لنا أن نستشف من ذلك أنَّه إذا غاب شخص الرَّسول ﷺ كان عليٌّ عليه السلام هو الشخصية المهيَّأة لأن تخلف، وتمثِّل شخصه، وتقوم مقامه؟»

ثمّ يضيف: «حين نظرنا إلى عليٍّ عليه السلام وهو في بُرد الرَّسول ﷺ وفي مثوى منامه الَّذي اعتاد أن ينام فيه، قلنا: هذا خَلَفُ الرَّسول ﷺ والقائم مقامه.

وأحسب أنَّ أحداً قبلنا لم ينظر إلى هذا الحدث نظرتنا هذه إليه، ولم يقف عنده وقفتنا تلك حتَّى شيعة علي...»(١).

سابعاً: وفي بقاء عليٍّ عليه السَّلام في مكَّة بعد النَّبيِّ ﷺ لأداء الأمانات والودائع الَّتي كانت عند النَّبي ﷺ الى أصحابها، ما يدل على التناقض العجيب الَّذي كان المشركون واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه ﷺ ويرونه ساحراً أو مخادعاً أو مجنوناً، لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم الَّتي يخافون عليها إلاَّ عنده!

وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم لم يكن بسبب الشَّك لديهم في صدقه ﷺ، وإنَّما هو بسبب تكبُّرهم واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم من اتباعه(٢).

ثامناً: أمَّا ما حدث لسُراقة وفرسه وهو يلحق برسول الله ﷺ، وما حصل من أمور خارقة في ضيافة أمِّ معبد أثناء الطريق، فينبغي أن لايفوتنا أنَّها من المعاجز الخارقه لرسول الله ﷺ. اتَّفق أئمَّة الحديث والسِّيرة والأثر على صحَّتها ونقلها، وتُضاف إلى معجزاته الأُخرى الَّتي لا يمكن التَّشكيك فيها.

---

(١) الخطيب - عبدالكريم، علي بن ابي طالب: ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) البوطي، فقه السِّيرة النبويَّة: ٢٠٢ مرجع سابق.

تاسعاً: وعندما نتأمَّل في قصَّة أمِّ معبد مع رسول الله ﷺ نجد كرم الضيافة، والخُلُق الرَّفيع، وعُذوبة الكلام، الَّتي اتَّصفت بها هذه المرأة الجليلة، ثمَّ نجد الأوصاف العالية الَّتي وصفت بها النَّبي ﷺ لزوجها، وهي إن دلَّت على شيء فإنَّما تدلُّ على دقَّة بلاغتها وفصاحتها والأهم من ذلك كله تدلُّ على فطرتها السَّليمة الَّتي قادتها بعد ذلك إلى الالتحاق برسول الله ﷺ والهجرة إلى المدينة مع زوجها واعتناق الإسلام[١].

عاشراً: وتكشف لنا الصورة الَّتي استقبلت بها المدينة المنوَّرة رسول الله ﷺ عن مدى المحبَّة الشديدة الَّتي كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً، يدلُّنا كلُّ ذلك أنَّ محبَّة الرَّسول ﷺ ليست في مجرد الاتِّباع له، بل إنّ المحبَّة له هي أساس الاتِّباع وباعثه، فلولا المحبَّة العاطفيَّة في القلب لَمَا وُجِد وازع يحمل على الاتِّباع في العمل، ولذلك جعل رسول الله ﷺ مقياس الإيمان بالله امتلاء القلب بمحبَّته عليه الصلاة والسَّلام ولذا يقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالدِهِ والناس أجمعين»[٢].

حادي عشر: أمَّا الصورة الَّتي رأيناها في مقامه ﷺ عند أبي أيوب الأنصاري في منزله، فتكشف لنا مظهراً آخر عن محبَّة أصحاب رسول الله ﷺ له، وتكشف لنا عن حُسن الضِّيافة، وطيب المعشر، والإيثار.

كذلك عندما نتأمَّل في تبرُّك أبي أيوب وزوجه، بآثار أصابع رسول الله ﷺ في قصعة الطعام، حينما كان يردُّ عليهم فضل طعامه، نستفيد من ذلك أنَّ التبرُّك بآثار النَّبيِّ ﷺ أمر مشروع وقد أقرَّه النَّبي ﷺ ولم ينهَهُم عن ذلك.

---

(١) السهيلي، الروض الأُنف : ٢ / ٢٣٥ .

(٢) البوطي، فقه السيرة : ٢٠٥ .

وقد رُوي في كُتب الحديث صُوراً كثيرة أخرى من تبرُّك الصحابة بآثار النَّبيﷺ والتوسُّل بها للاستشفاء أو العناية والتوفيق وما شابه ذلك[١].

فلا يُعتنى بقول من يشكِّك في فائدة التبرُّك والتوسُّل بآثار النَّبيِّﷺ لأنَّها تخالف مذهبه، بعد ثبوتها ومشروعيتها وعمل المسلمين في كلِّ الأعصار والأمصار بها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين.

(١) المرجع نفسه: ٢٠٦ بتصرف وتلخيص وانظر: الأحمدي: التبرُّك.

الأسئلة:

١ - متى غادر النبيﷺ مكة ؟ ومتى وصل المدينة ؟ ومن كان دليله في سفره ؟

٢ - ما هي قصّة سراقة بن مالك مع النبيﷺ ؟ وما هي العبر المستفادة منها ؟

٣ - ما هي الدروس والعبر المستفادة من قصة ضيافة أُم معبد الخزاعية للنبيﷺ ومن معه ؟

٤ - بعد دخول النبيﷺ إلى المدينة توجّه إلى قبا فما هي أهم الأعمال التي قام بها النبيﷺ في قبا ؟

٥ - ما هي العبر المستفادة من بقاء الإمام علي عليه السلام في مكة لأداء الأمانات والودائع التي كانت عند رسول اللهﷺ للناس ؟

٦ - كيف استقبلت المدينة مقدم رسول اللهﷺ إليهم ؟ وما هي العبر المستفادة من ذلك ؟

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذه الرحلة الإِيمانية الممتعة التي قضيناها مع رسول الله ﷺ ونحن نتابع سيرته المباركة في مرحلتها المكِّية وما سبقها ورافقها من أحداث ووقائع، والتي انتهت بهجرته المباركة إلى يثرب، والتي تشرفت به وبالمسلمين المهاجرين اليها، وسميت به «المدينة» او مدينة الرسول ﷺ.

لابد لنا من التوقف عند بعض النتائج التي توصلنا اليها خلال بحثنا، مع الاشارة الى بعض الأمور الاساسية في دراسة السِّيرة النبوية، وما ينبغي ان يتصف به كتاب السِّيرة ودارسوها.

أولاً: تعتمد دراسة سيرة الرَّسول الأكرم ﷺ بالدرجة الأُولى على المصادر والمراجع الأولية والثانوية التي عنيت بتدوين سيرته ﷺ كمؤَلَف مستقل أو في سياق التاريخ العام، بالاضافة إلى كتب الحديث والروايات. إلاّ أن منهج هؤلاءِ الكتاب ومناحي البحث في الموضوع اختلفت من مؤرخ الى آخر، وتبعاً لذلك تفاوتت القيمة التاريخية والتوثيقية لهذه النصوص التاريخية.

ومن هنا على الباحث في السيرة أن يوازن بين هذه النصوص التاريخية وأن يستخدم الأدوات العلمية في تمحيصها وفرزها عن الأخبار والروايات الدخيلة والاسرائيليات التي فيها من الإساءَةِ الى شخصية النبي الاكرم ﷺ الشيء الكثير.

وبنفس الدرجة من الدقة والاحتياط ينبغي التعامل مع الدراسات والأبحاث والمؤلفات الحديثة التى تناولت سيرة الرسول ﷺ سواء التي كتبت من قبل الكتاب المسلمين أو من قبل غيرهم فضلاً عما كتبه بعض المستشرقين، ولاينبغي

لكاتب السيرة أن يسير حرفياً على نفس منهجية البحث التي اتبعها هؤلاءِ الكتاب كي لا يقع في نفس الأخطاء التي وقعوا فيها، كما لا ينبغي الركون إلى النتائج التي توصلوا إليها في أبحاثهم والأخذ بها كمسلمات قطعية.

ثانياً: رغم كثرة ما كُتِب عن سيرة النبيﷺ ورغم تشعب المعلومات المدونة في هذه الكتب، والتي تناولت أدق الجزئيات والأمور التي تتعلق بسيرته وخصوصياتها.

إلاّ أن الباحث في هذه الكتب والمؤلفات - وعلى كثرتها - يجد كمّاً هائلاً من الروايات والنصوص التاريخية والتي تنطوي على قيمة تاريخية مهمة، إلاّ أن ما يؤسف له هو إنعدام الجانب التحليلي في هذه النصوص، فأقصى ما يزودنا به كتّاب السِّيرة كابن هشام، وابن اسحاق، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم، هو الجانب السردي والروائي للاطلاع على الحدث وكيفية وقوعه، أما جانب العلل والأسباب الموضوعية لأحداث السيرة فهي مفقودة بالكامل في بعض هذه المؤلفات، وقد تجدها بندرة في بعضها الآخر مما لا تشكل الاجابة الوافية عن بعض أحداث السيرة وملابساتها.

وخلاصة الأمر: ان السيرة النبوية قد تناولها المؤرخون من الناحية التاريخية الإِخبارية، فدونوا نصوصها بدقة، ولكنها لم تدرس تحليلياً الدراسة الكافية.

ثالثاً: لا ينبغي أن تدرس أحداث السيرة النبوية كأحداث تاريخية انتهت بمرور الزمن عليها، وانما ينبغي أن تدرس كوقائع حياتية نتفاعل معها ونتأثر بها ونأخذ منها الدروس والعبر والعظات العظام.

كذلك لا ينبغي أن تدرس سيرة الرسولﷺ منفصلة عن شخصية الرسول الرسالية وبعيداً عن الوحي الالهي المنزل.

والذي أَوْقَع الكثير من كتاب السِّيرة المحدثين وبعض المستشرقين في

مشاكل منهجية كبيرة هو هذا المنهج والمنحى التجريدي في دراستهم للسيرة النبوية وشخصية النبيﷺ، أي تجريد الرَّسولﷺ من صفته الرسالية ودراسته كقائد سياسي أو عسكري، أو بطل من أبطال التاريخ أو عبقري من العباقرة!! و عندما يكون بهذه المثابة فإنه يمكن أن يخطأ أو يصيب في قراراته، ويمكن ان ينقاد للأهواء والشهوات، ويمكن أن يستخدم الوسائل غير النزيهة للوصول الى ما يبتغيه لأن الغاية تبرر الوسيلة في عالم السياسة الميكافيلية.

وبكلمة واحدة: لاينبغي لكاتب السيرة النبوية أن ينظر إلى النبيﷺ كنظرته إلى بقية الزعماء والأبطال والعباقرة، لأن هؤلاءِ إِن ظهرت براعة أحدهم في أي جانب من جوانب الحياة، فإِنه لا يخلو من الخلل في الجوانب الأُخرى منها، او لا يخلو من التناقض بين نظرياته وسلوكه.

أما صاحب السيرة النبوية محمدﷺ فهو الصورة الصادقة للتعاليم التي جاء بها في مظهرها العملي، وتتجلى في سيرته كل القيّم، وكل تعاليم هذا الدين، ولذلك كان ولازال وسيبقى النبي محمدﷺ هو النور والهداية والقدوة للبشرية.

رابعاً: مما لاشك فيه أن السيرة النبوية تحمل في طياتها الكثير من النواحي الحياتية والتي لها ارتباط عضوي ومباشر بحياتنا العملية من جميع جوانبها، ففي سيرتهﷺ الجانب السياسي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي والعسكري، وكل جانب من هذه الجوانب من السيرة تحتاج إلى بحوث ودراسات جادة وعلمية، ولهذا نجد بعض الكتاب قد تناول بعض هذه الجوانب في مؤلفاتهم فبرزت لدينا عناوين من السيرة من قبيل فقه السيرة، والتفسير السياسي للسيرة، والتفسير التربوي للسيرة، . . . وهي دراسات وبحوث تصب في صالح ابراز السيرة النبوية بشكل تخصصي ولا تخلو بعضها من الاصالة والعمق العلمي.

إلاّ أن ما توحي به بعض هذه الدراسات للقارئ البسيط والذي لم يطلع على تفاصيل السيرة النبوية وشموليتها هو هذا الجانب الذي تناولته الدراسة فقط،

فيفهم منها أن النبيﷺ سياسي كغيره من السياسيين، أو عسكري كغيره من قادة الجيوش والفتوحات، أو تربوي وأخلاقي كبقية التربويين، فيقارن بينهﷺ وبين غيره من الساسة والقادة وعلماء الأخلاق والتربية، فيقوده فكره وثقافته المحدوده إلى نتائج عكسية! فيرى مثلاً في بعض قادة الفتوح العسكرية الكبرى أفضلية على النبيﷺ كقائد عسكري، أو انهﷺ سياسي كغيره من السياسين. . فاذا عولجت هذه الاشكالية في هذه المؤلفات، فهي مؤلفات مفيدة ونافعة وتخصصية.

وأما التوصيات:

على ضوء المعطيات السابقة ينبغي الاشارة وباختصار إلى بعض التوصيات التي نرى ضرورة الاشارة إليها:

أولاً: ينبغي أن تخضع كتب السيرة النبوية القديمة إلى الضوابط العلمية في علمي الدراية والرجال، وأن تخضع للمناقشات الجادة سنداً ومتناً، وبنفس الدرجة من الدقة المتبعة في روايات الأحكام الشرعية، فتصنف روايات السِّيرة النبوية بحسب درجتها من القوة والضعف والوهن، وهذا ما يتطلب جهوداً كبيرة، ومؤسسات تخصصية لها امكانياتها وباحثوها.

كذلك ينبغي تقويم كتابات المستشرقين وبعض الكتاب المسلمين حول السيرة النبوية، لإِفراز الأبحاث والتحقيقات الجادة والمنصفة منها، ومناقشة نقاط الضعف والخلل في بعضها الآخر.

ثانياً: ينبغي التأكيد والتشجيع على الجانب التحليلي من السيرة النبوية، وإخضاع النص التاريخي للمنحى التحليلي من خلال دراسة معطيات النص وخلفياته وظروفه الموضوعية، والابتعاد عن الجانب السّردي الاخباري الذي لا يضيف فيها الكاتب شيئاً جديداً إلى ما كتبه علماء السيرة والتاريخ قديماً.

ثالثاً: كذلك ينبغي ربط وقائع السيرة النبوية بواقع حياتنا العملية المعاصرة،

وذلك من خلال التأكيد على الجوانب الأخلاقية والتربوية والاجتماعية من سيرتهﷺ. بالاضافة إلى التنظيمات الادارية والعسكرية، وأسس تشكيل الدولة الاسلامية في عهدها النبوي، بالاضافة إلى الجوانب التنظيمية والمنهجية التي استخدمها النبيﷺ في دعوته إلى الله سبحانه، وخاصة أُسلوب المرحلية الذي يعتبر من أجدى وأنفع الأَساليب الدعوتية في زمننا المعاصر.

رابعاً: على الرغم من أهمية دراسة واستيعاب وفهم السيرة النبوية، والتعرف على تفاصيلها وملابساتها لإرتباطها الوثيق بواقع حياتنا الإِيمانية والعقائدية والتشريعية والاخلاقية، إلاّ أنهابقيت مهملة كمادة دراسية في المحافل العلمية والمعاهد الدراسية، وخاصة في الحوزات العلمية، وإن أعطيت لها بعض المساحة من الدَّرس، فهي مساحة محدودة جداً ولا تتعدى كونها من الدروس الجانبية دون أن تكون من المتون الدراسية الأساسية التي يوليها طالب العلم أهمية كبرى كدروس الفقه والأَصول والفلسفة.

إلاّ أن الملاحظ في الآونة الأَخيرة وجود بعض الاهتمام بالسيرة النبوية في الأوساط الأكاديمية وبعض الحوزات العلمية والمدارس الدينية وخاصة في بعض حواضر العلم وجامعاتها الاسلامية. فهنالك بعض الفروع التخصصية لدراسة السيرة، بالاضافة إلى تأسيس بعض المؤسسات المعنية بهذا الأمر، واصدار بعض المجلات والدوريات المتخصصة بنشر أبحاث المحققين في هذا المجال، وهي خطوة ايجابية جيدة وإن لم تبلغ بعد حد الطموح المنشود.

نأمل أن تتوسع هذه المؤسسات العلمية كما وكيفاً لخدمة السيرة النبوية والاستفادة منها، وأن تعمم هذه التجربة لتشمل بقيّة الحوزات والمعاهد العلمية في العالم الاسلامي، لتعم الفائدة وتتبادل التجارب والخبرات. والله ولي التوفيق.

الفهرست

الدرس التاسع: البعثة النَّبويَّة المباركة «ق١»

بداية الوحي

(٢١٧-٢٤٦)

الدرس العاشر: البعثة النَّبويَّة المباركة

«شُبُهات المستشرقين حول الوحي»

(٢٤٩-٢٥٩)

الدرس الحادي عشر: البعثة النَّبويَّة المباركة «ق٣»
ردُّ شُبُهات المستشرقين حول الوحي
(٢٦١-٢٧٣)

الدرس الثاني عشر: الدَّعوة «ق١»
أوائل من دخل في الاسلام
(٢٧٥-٣٠٨)

الدرس الثالث عشر: الدَّعوة «ق٢»
الدَّعوة في المرحلة السِّريَّة
(٣٠٩-٣٣٤)

الدرس الرابع عشر: الدعوة «ق٣»
بدء الدعوة في المرحلة العَلَنيَّة
(٣٣٥-٣٥٢)

الدرس الخامس عشر: الدعوة
الدعوة في المرحلة العلنيَّة
(٣٥٣-٣٦٧)

الدرس السادس عشر: الدَّعوة «ق٥»
الدعوةُ والعَقَبات
(٣٦٩-٣٨٢)

الدرس السابع عشر: الدعوة «ق٤»
الدعوةُ والعَقَبات «الهجرة إلى الحبشة»
(٣٨٣-٤٠٧)

الدرس العشرون: الدعوة «ق٩»
الدعوة والقوى الثلاث (شبهات حول إيمان أبي طالب)
(٤٤٧-٤٦٧)

الدرس الحادي والعشرون: أحداث سبقت الهجرة «ق١»
الإسراء والمعراج
(٤٦٩-٤٨٦)

الدرس الثاني والعشرون: أحداث سبقت الهجرة «ق٢»
(عام الحزن والهجرة إلى الطَّائف)
(٤٨٧-٥٠٠)

الدرس السادس والعشرون: الهجرة «ق١»
هجرة المسلمين إلى المدينة
(٥٤٣-٥٦٦)

الدرس السابع والعشرون: الهجرة «ق٢»
«هجرة النَّبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة»
(٥٦٧-٥٩٢)